المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

محمود ممدانى

المسلم الصالح.. والمسلم الطالح

أمريكا وصناعة الحرب الباردة وجذور الإرهاب

ترجمة: فخرى لبيب

تقديم: حلمى شعراوى



1285



يُعد كتاب "المسلم الصالح والمسلم الطالح: أمريكا، والحرب الباردة، وجذور الإرهاب"، صرخة فى وجه الهيمنة الأمريكية وتصنيفها الدائم للشعوب وفق مصالح القوة الأمريكية الطاغية ونفوذها. ففى فترة الحرب الباردة استعملت الخطاب الأيديولوجى لينقسم الناس عندها إلى معسكر الشر، من نوعية الاتحاد السوفيتى والدول المتهمة باليسارية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، ومعسكر الموالين الذين عاونوها فى معاركها. وعندئذ يكون المسلمون الطيبون هم المعادون للشيوعية، والمحاربون معها فى أفغانستان. وفى فترة أخرى تالية تصطنع الخطاب الثقافى فى حربها العالمية ضد ما تسميه الإرهاب، تلصقه بأطياف من الإسلام والمسلمين، ليصير من معها من " المعتدلين" مسلمًا صالحًا، ومن يختلف معها مسلمًا طالحًا، وفى الحالتين تدير معاركها لصالحها فقط، بمعايير التصنيف هذه فى غياب المصالح الوطنية، وخاصة فى الشرق الأوسط.

ومحمود ممدانى (مؤلف هذا الكتاب) أستاذ بارز للعلوم السياسية الأفريقية، والعلاقات الدولية. هو من أصل هندى ومواطن أوغندى، ويقوم بالتدريس فى جامعة كولومبيا، إحدى أكبر الجامعات الأمريكية، وهو مؤلف أشهر الكتب الأفريقية المعروفة على الصعيد العالمى: "المواطن والرعية".

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

المسلم الصالح .. والمسلم الطالح

أمريكا وصناعة الحرب الباردة وجذور الإرهاب

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١٢٨٥
- المسلم الصالح .. والمسلم الطالح
أمريكا وصناعة الحرب الباردة وجذور الإرهاب
- محمود ممدانى
- فخرى لبيب
- حلمى شعراوى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

Good Muslim, Bad Muslim

America, the Cold War, and the Roots of Terror

by: Mahmood Mamdani

First Published in the United States in 2004 by Pantheon Books.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

المسلم الصالح .. والمسلم الطالح

أمريكا وصناعة الحرب الباردة وجذور الإرهاب

تـألـيف : محمود ممدانى

ترجمة : فخـــرى لبيـب

تقــديم : حلمى شعراوى



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ممداني ؛ محمود
أمريكا وصناعة الحرب الباردة والإرهاب:
المسلم الصالح .. والمسلم الطالح
تأليف : محمود ممداني ؛ ترجمة : فخرى لبيب ؛ تقديم : حلمى شعراوى
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٣٤٤ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
١ - الإرهاب
(أ) العنوان ٣٦٤,١٣١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٠٣٧٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 336 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقـــديـــم

عن محمود ممدانى

العنوان الرئيسى لكتاب "محمود ممدانى " الأخير هو :" المسلم الصالح .. والمسلم الطالح "..أما الفرعى فهو: "أمريكا وصناعة الحرب الباردة، وجذور الإرهاب". وقد يلخص ذلك عمليًا كل هدف الكتاب ومنهجه، بل يحدد رغبته فى توجيه المسئولية عن هذا التصنيف للمسلمين، إلى الإدارة الأمريكية، مباشرة سواء خلال معارك الحرب الباردة، أو إدارة الحرب ضد ما أسموه مؤخرًا بالإرهاب. واجتهادات " محمود ممدانى " الفكرية والسياسية، تؤهله تمامًا، منذ فترة طويلة لمعالجة مثل هذه القضية الحساسة بكفاءته نفسها فى معالجات سابقة للقهر الاستعمارى والطبقى والعرقى، فى عدد من الكتابات المعروفة.

عرفت "محمود ممدانى" منذ منتصف السبعينيات من القرن الماضى. كان شابًا، متمردًا طليقًا. فهو من مواليد ١٩٤٦ فى أحد أحياء بومباى، رحل به والده مباشرة إلى شرق أفريقيا فاستقر وسط جالية آسيوية كبيرة فى أوغندا، تعلم فيها "ممدانى"، ودرس فى جامعة " مكاريرى " بكمبالا كإحدى أشهر الجامعات الأفريقية حتى وقت قريب. وحين تقابلنا فى السبعينيات كان قد عاد من جامعة "كولومبيا" بنيويورك ليقوم بالتدريس فى جامعة " دار السلام " بتنزانيا. وكان لقاؤنا من خلال تأسيس " الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية "، مع نخبة متميزة من شباب العلوم الاجتماعية المتمردة بدورها فى هذه الجامعة، ضمت من الحرس القديم إلى جانب " ممدانى " أسماء ما زالت أعمالها مؤثرة فى مجال العلوم الاجتماعية والسياسية فى أنحاء القارة.

تمثل حياة " ممدانى " رحلة علمية حية بحق، لا أراه فيها قد لجأ للسكينة المعتادة فى مرحلة معينة من العمر كما عهدنا كثيرًا من المثقفين، ولعل ذلك لأنه اشتبك دائمًا بدور المثقف والعالم، الأمر الذى يدفع إلى حيوات متعددة الجوانب، خاصة وأنه القادم

من ثقافة تاريخية آسيوية إلى ثقافات أفريقية، كثيرًا ما أسماها هو " ثقافات تقليدية"، ومجادلاً أو متصارعًا مع ثقافة أوربية - أو قل أمريكية - حديثة. وسوف نراه هنا أيضًا قادمًا من "الاجتماعي " إلى "السياسي "، مجادلاً "الثقافي"، كما سنراه قادمًا من "الماركسية "...

إلى عوالم الحداثة الجديدة . وبالروح المتمردة نفسها بل المتحدية ... وهذا التحدي في حياة "ممداني" الفكرية هو الذي جعله في معارك دائمة، خلال محطات حياته العلمية المختلفة التي سنأتي إليها تباعًا وإن كان في عجالة.

ثمة مرحلة في حياة "ممداني" محورها وجوده في كمبالا ثم في دار السلام، وتقترن بها معارك التحليل الاجتماعي والتشكيلات الاجتماعية، أعقبتها تقريبًا مرحلة جنوب أفريقيا أو كيب تاون ومنطقة البحيرات، حيث التحليل السياسي للهيمنة العرقية الاقتصادية والاجتماعية، مع دور أكاديمي مشهود في جنوب القارة، لينتقل إلى وسطها مع قضايا القاتل والضحية. وهناك مرحلة أوسع أفقًا في التنظير لوضع "المواطن والرعية"، يتجاوز فيها الطبقي إلى السياسي أيضًا. ثم ينتقل "ممداني" إلى عوالم خارجية تطحن في جسد العوالم الجنوبية، كما يراها في العالم الإسلامي والعراق ودارفور، ومجادلاته ومقالاته في هذا الصدد متعددة ومتنوعة، وقد يجمع كتابنا هنا عن "المسلم الصالح والمسلم الطالح" العديد منها في الوقت نفسه.

خلال ذلك خاض "ممداني" أيضًا معارك، بالمعنى الحرفي؛ قائدًا لجانب من معركة الكفاح المسلح ضد "عيدي أمين"، زاحفًا وسط الأحراش من شمال تنزانيا إلى كمبالا في رحلة شبيهة بالرحلة "الماوية"، التي سبق أن حررت الصين نفسها ...

ومن هذه المعركة بقي في حضن السياسة حُكمًا ومعارضة لبعض الوقت إلى أن عاد لواقعه في بحر المعارف الإنسانية، بل ومعارك الانعتاق الإنساني في جنوب أفريقيا ووسطها، حتى امتد بالتحليل في كتابنا هذا إلى أطراف من الأرض (أرض القارات الثلاث، وحيث يعيش الآن في نيويورك!)، لا أعرف إن كانت جرته إليها ظروف العولمة أم عودة لنضاله الفكري في قلب الإمبريالية العالمية!

التأسيس الفكرى ...

بدأ "محمود ممدانى" حياته الثقافية - وواصلها لبعض الوقت - فى أجواء مجتمعات "متعددة الأجناس"، آسيوية أفريقية، أى متعددة الهويات، طامحة للتوحد على أى حال، خلافًا لما وصل إليه بعد ذلك فى تجربته بجنوب أفريقيا، أو بحثه فى منطقة الوسط (البحيرات). بدايته إذن فى كمبالا، (ومعه التراث العائلى الهندى كله) ثم فى دار السلام، مرتبطة بالفلسفة العامة لـ" جوليوس نيريرى " وحزب التانو المسيطر فى تنجانيقا (تنزانيا لاحقًا) وفق فلسفة المجتمع متعدد الأجناس ...

كان كل ذلك من عوامل تكوين هذا الشاب وبحوثه المتنوعة عن القبائل والطبقات، عن التقليدية والتحديث، عن علاقات الإنتاج، وعلاقات الثروة والسلطة، ... مشغولاً طول الوقت بعلاقات " السياسى " "الاجتماعى"، سواء وفق "ماركس" و" لينين" مباشرة، أو وفق "الماوية" وتطوراتها، وحتى اجتهاداته الخاصة كباحث أتيحت له فرصة الدراسة المبكرة فى الولايات المتحدة من "بتسبرج" (١٩٦٢) حتى حصوله من " هارفارد" على الدكتوراه عام ١٩٧٤؛ مع تخصص واضح فى الاجتماع السياسى والأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة، وهو يسجل فى أول مؤلفاته عن "السياسة والتشكيل الطبقى فى أوغندا" (١٩٧٦) اختلافه الفكرى مع إمبيريقية أستاذه "كارل دويتش" مع إعجابه العميق بليبرالية الرجل!

ومنذ البداية الشبابية أيضًا سجل العديد من الملاحظات على بعض ثوابت الفكر الماركسى اللينينى فى التحليل الاجتماعى الطبقى، وعلاقة "الاقتصادى" بـ"السياسى"، حتى انتقد "جوندار فرانك" نفسه عن حصر علاقة التخلف بقوى الإنتاج المادى وحده، حيث يراه ذا جذر فى إنتاج العلاقات والأفكار ...

لعل"محمود ممدانى" قد بلور تأسيسه النظرى اليسارى، وهو فى بلاد التطور الرأسمالى المتقدم، الذى استغل التشكيلات الاجتماعية "المتخلفة" واعتبر فلاسفته أن تخلفها طبيعيًا وفق فكر وظيفى سائد يبرر أساسًا الاستغلال، وعبر منهج وصفى جعل من عالم السياسة كالصحفى الذى لا يشغله التحليل كثيراً. من هنا اعتمد "ممدانى"

- وهو في رحاب "هارفارد"- التحليل الطبقي منهجًا أوليًا للتفكير وجمع المادة عن المجتمع الأوغندي، وتوجهات البرجوازية الصغيرة التي ورثت عملية الاستقلال، سواء بين تجارية أسيوية، أو بيروقراطية أفريقية ... ويكاد كتابه الأول عن أوغندا الصادر عام ١٩٧٦ أن يكون تعبيراً كاملاً عن هذه المرحلة، بل إن القضايا التي عالجها هذا الكتاب تعتبر معبراً فعلياً عن مجمل قضايا الحوار الفكري الدائر على مستوى القارة الأفريقية، بل الفكر الغربي تجاهها في هذه المرحلة من الستينيات وبداية السبعينيات. وقد لا تسمح المساحة هنا بتناول هذا العمل التأسيسي عند "ممداني" تفصيلاً، ولكن المرور على بعض قضاياه يكشف بعض ما نود الإشارة إليه.

كانت فترة الستينيات هي فترة الحديث عن دور الاستعمار والغرب في " تحديث" أفريقيا القبلية التقليدية، وكان واضحًا ارتباط هذا المنحى بخلق أسواق للرأسمالية، أو طبقة وسطى إدارية، تربط المجتمع الأفريقي الحديث أو "المستقل حديثًا " في الأطراف بالمركز الرأسمالي المستثمر ...إلخ . وشغلت القضية "ممداني" الشاب بالطبع، شغله اتهام المجتمع الأفريقي بالتخلف واللاعقلانية وافتقاده الدولة والتاريخ والصراع ... وأن ذلك في نظر التحديثيين، الوظيفيين، الإمبريقيين سبب التخلف نفسه، وفي تقدير "ممداني" كان ذلك نافياً للواقع الصراعي، الطبقي في المجتمع الذي تتصارع فيه مملكة الباغندة كدولة، بينما يدفع التفكير العنصري إلى تسمية هذا التكوين بالقبيلة وهو يسمى "النرويج" "شعبًا". ويدهش "ممداني" أيضًا، لمسميات علم السياسة البرجوازي عن وضع الفرد في المجتمع المتخلف بإرجاع تفوقه إلى وضعه الفردي كمخلص أو كاريزما فقط، بينما يرجع وضعه في المجتمع البرجوازي إلى "الظرف الاجتماعي"، كذلك الحال في إرجاع فقر المجتمع الأفريقي إلى "التخلف" و"الظرف الطبيعي"، بينما يتحقق التخلف في الواقع وفق ظرف تاريخي، بل هو منتج للمرحلة الاستعمارية تحديداً، حيث تُراكم المستعمرات ثروات للمركز، بينما تعيش تخلفها.

والطبقة لذلك - عند "ممداني" الشاب- ليست مجرد تشكيلة لتوزيع الدخل ولكنها نتاج علاقات توزيع السلطة أيضًا في المجتمع الأفريقي، ولذا فالتنظيم الطبقي تنظيم سياسي والوعي الطبقي وعي سياسي، وهذا الفهم عند "ممداني" هو الذي رد به مفهوم

القبلية الأفريقية إلى عملية استعمارية وليس تشكيلة أفريقية طبيعية، فكان أن رأينا دفع الاستعمار فى أوغندا للتنافس بين الباغندة وبنيورو "كقبائل" تتنافس على زراعة القطن لحاجة السوق الرأسمالى إليه، ثم نجد الإحساس الطبقى بين هذه التشكيلات يتعمق وإن سُمى قبلياً بفضل الكولاك فى المنطقتين لتعزيز مكانتهم الطبقية. وقد كان نقل العمالة للحضر أيضاً- بعد فرض ضريبة الرأس - ثم عودتها للزراعة عملية استعمارية أخرى لتخفيض الأجور وتكثيف التراكم، كما جرى دعم نظام الحكم غير المباشر لعزل القبائل عن بعضها ...إلخ فى الوقت الذى يؤدى تفريغ مناطق القبائل نسبياً إلى مساعدة التوسع فى عملية استيطان الأوربين والآسيويين، أو فى خلق طبقة المزارعين الكبار. وفى إطار هذه التحليلات الطبقية المباشرة تناول "ممدانى" وضع البرجوازية الصغيرة فى أوغندا معتبراً أنه تم استعمالها من قبل الإدارة الاستعمارية تارة، ومن قبل البرجوازيات التجارية (آسيوية أو أوربية) تارة أخرى، ليظل مجتمعها تابعاً لبرجوازية المتروبوليتان (حسب فانون كما يشير ممدانى وقتها) وليس من عناصر منافستها كما كان متوقعاً. ومن هذا المنطلق قدم "ممدانى" تفسيراً معمقاً لأزمة طرد "عيدى أمين" للآسيويين عام ١٩٧٢ مدفوعاً من قبل هذه البرجوازية الصغيرة الأوغندية نفسها ...

الانطلاق

كانت معارك التحليل الاجتماعى محتدمة فى المعسكر الجامعى بدار السلام، قبل صدور إعلان " أروشا " وبعده من قبل الرئيس "جوليوس نيريرى" (١٩٦٧/٦٦) بل كان الحديث عن "الاشتراكية الأفريقية " - مثل الاشتراكية العربية - فى أنحاء مختلفة من القارة ضمن استخدامات البرجوازية الصغيرة والبرجوازية البيروقراطية؛ لنفى حديث الصراع الطبقى، ولذلك عرف " كامبس دار السلام" أو بالأحرى "الفضاء الجامعى " لهذه الجامعة العتيدة بأنه الموقع الرئيسى لمناهضة أفكار "نيريرى". وكان بدوره متسامحاً مع هؤلاء الشباب باعتباره "المعلمو نيريرى". بل قابلاً لمواجهاتهم، محاوراً

إياهم، باعتبارهم "ماويين" أيضًا، وهو مغرم بنمط حياة الرئيس "ماو"، وإن لم يتبنَّ أفكاره بالطبع. فى هذا المعسكر المشاغب، عاش "ممدانى" فترة التأسيس للفروق بين الاشتراكية الأفريقية والماوية، وعلى أساس من ثوابت الماركسية اللينينية ... ولم يكن "ممدانى" وحده فى هذا التوجه، فمعسكر الجامعة يضم " ثلة" من الأساتذة الشبان "المشاغبين" مثله، من أنحاء القارة، رحل بعضهم ولا يزال بعضهم حيًا هنا وهناك، ومن هؤلاء أصدقاء نعتز بهم فى مصر أمثال: أرشى مافيجى (جنوب أفريقيا) و"شاموياريرا" (زيمبابوى) و "عيسى شيفجى" (تنزانيا) و "دان نابوديرى"(أوغندا) ، و"نولى"(نيجيريا) وغيرهم، وهم الذين التقوا "بسمير أمين" وهانسن وغيرهما. وقد أثرى هؤلاء جميعًا المكتبة الأفريقية ولا يزال بعضهم يثريها بالجدل والإبداع الذى يقدم "ممدانى" واحداً من أفضل نماذجه.

وقد تعددت اتجاهات الصراع على يد هذه الأطراف جميعًا فى ظل حكم الدولة الوطنية الحديثة التى كان يؤسسها حزب (التانو) بقيادة "نيريرى"، ونظريته عن "الجماعية الأفريقية " أو "الأوجاماعا" فى تنزانيا ومثلها كان فى زامبيا وغانا ...إلخ. بينما يضغط هؤلاء الشبان بفكر "الاشتراكية العلمية " وخاصة فى صيغته " الماوية " إلى حد كبير. ولذا كان موقف مفكر أفريقى أكبر سنًا مثل "على مزروعى" (كينيا) يبدو فى نظرهم محافظًا وليبراليًا لأبعد الحدود، رغم مشاركته إياهم رفض حكم "عيدى أمين" فى (أوغندا)، وكذا شمولية "نيريرى".

وقد أعقب نجاح " تنجانيقا " بقيادة "نيريرى" فى التخلص من " الحكم الإقطاعى" العربى فى زنجبار (١٩٦٤) فى ظهور "عبد الرحمن بابو" وجماعته بفكرهم الراديكالى أيضًا لإعطاء زخم أكبر لجماعة دار السلام الراديكالية، ودفع "نيريرى" وحزب التانو إلى إصدار"إعلان أروشا" (١٩٦٦) ليستوعب الاتجاهات التقدمية فى المنطقة ...

وليس صدفة أن تبلور حركات التحرير نظرياتها ومناهج كفاحها المسلح فى تلك الفترة نفسها فى مستعمرات المنطقة الجنوبية الأفريقية مثل حزب "المؤتمر الوطنى"(جنوب أفريقيا) و" الفريليمو" (موزمبيق)، و"ميالا" فى (أنجولا) و"سوابو" (ناميبيا) و" زانو" - "زابو" فى (روديسيا زيمبابوى). واتخذ هؤلاء مع الحركات المماثلة

فى بقية المستعمرات البرتغالية، دار السلام مركزًا فعليًا للتحرر الوطنى بفضل وجود لجنة تحرير المستعمرات التابعة لمنظمة الوحدة الأفريقية هناك.

ولم يكن تطور الكفاح المسلح وحده هو نتاج العمل الوطنى فى المنطقة، بل كان زخم التحليلات الطبقية من قبل كابرال ونيتو ودوسانتوس قد شمل معظم تيارات الفكر السياسى عند مجموعتنا هذه، وعبرت نشرة أصدروها باسم "ماجى ماجى"عن الصراع الطبقى فى تنزانيا (١٩٧٦)، وصدرت مبكرًا التحليلات عن البرجوازية البيروقراطية، وأوضح "والتر رودنى" أثر ذلك فى بنية الوعى الأفريقى وتابع " دان نابوديرى" جدله مع نظريات "سمير أمين" عن التبعية والمركز، والإمبريالية. وفى هذا الوسط جاءت كتابات "ممدانى" عن الصراع الطبقى فى أوغندا، كاشفة طبيعة نظام "عيدى أمين"، والتوجه الانقلابى لدى البرجوازية الصغيرة فى أوغندا، والتى مثلها "عيدى أمين" عقب " أوبوتى" كما مثلها فى انقلابه على " الآسيويين" أيضًا وطردهم من البلاد(١٩٧٢) . وبدا – لفترة- أن "السياسى" فى "ممدانى" – أو قل علم السياسة – بات أكثر إلحاحًا عليه من " الفكرى" أو " الاجتماعى السياسى" عندما أغرته وزملاؤه نظرية "الكفاح المسلح" الصينية – مع فروق التفاصيل – للزحف مع عناصر المعارضة الأوغندية من حدود تنزانيا إلى وديان كمبالا، ليقعوا بدورهم – إزاء سيطرة البرجوازية الصغيرة أيضًا على هذا التحرك (وفق نصوصه) فيما يشبه "الانقلابية" وليس "الزحف الثورى الكبير" كما تخيلوه. ودفع انتصار الزحف الأوغندى إلى كمبالا (١٩٧٩) أن يشارك "ممدانى" مع " نابوديرى" و"موسيفينى" وغيرهما من ثوار دار السلام فى حكومة الثورة، مما لا يشير إليه الكثيرون...

وقد أتيح لى معرفة "محمود ممدانى" طوال هذه الفترة من السبعينيات فى إطار تأسيس الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية (١٩٧٥/٧٤) لتظل علاقتى الوثيقة به حتى الآن. وكان من حظى ألا أقابله وزيرًا.. وإنما قابلته دائمًا معارضًا متمردًا، سواء فى السياسة عقب تخليه عن الوزارة ليقبع فى معسكر جامعة ماكاريرى أى مدينتها الجامعية الجميلة، أو فى رحلة تفكيره عن الصراعات الاجتماعية والسياسية فى جنوب أفريقيا ووسطها، وحتى الصراع مع مفاهيم القوة الأمريكية (العسكرية) فى فضاءات القارات الثلاث كما سنرى فى هذا الكتاب.

الاجتماع السياسى: وضع المواطن والرعية

عاد ممدانى من الولايات المتحدة الأمريكية أستاذًا للعلوم السياسية عام ١٩٧٤ وحاول أن يفيد جامعته العتيدة "ماكاريرى"؛ ولكن عيدى أمين قرر إبعاده مع معظم عناصر النخبة فى بلاده، فعاش كالمنفى أستاذًا فى دار السلام بقية السبعينيات حتى عاد مع الزحف على كمبالا والتخلص من عيدى أمين. وأظنه رضى عن دوره الفكرى فى كمبالا طوال عقد من الزمان تقريبًا؛ مؤسسًا لمركز الدراسات الأساسية بالجامعة والذى قام بدور معرفى بارز فى المجتمع الأوغندى. لكن الحق أن دور ممدانى المعرفى الأكثر إثارة وإنارة يبدو لى أنه كان بعد ذلك فى كيب تاون بجنوب أفريقيا؛ حيث كان وصوله هناك مع مطلع التسعينيات لكرسى الأستاذية فى الدراسات الأفريقية. وترجع أهمية وجود "ممدانى" هناك – فى هذا الوقت– إلى أنه من أوائل الوجوه العلمية "الأفريقية" التى وصلت مع "التحول الديمقراطى" أو قل تحرير جنوب أفريقيا من النظام العنصرى. وكنا لعقود قبل ذلك نتخذ القرارات فى المؤتمرات العلمية فى أنحاء القارة "بتحريم" التعاقد للعمل فى جامعات جنوب أفريقيا العنصرية. وكان الأساتذة البارزون من أبناء البلد أمثال: أرشى مافيجى وبرنارد بن ماجوبن هم الذين يخرجون إلى جامعات بتسوانا ودار السلام وغيرها، وهى مراكز التحرر الثقافى من نظام الأبارتهيد.

وقد اعتبر وجود "ممدانى" فى كيب تاون بين ١٩٩٣و١٩٩٩ كسبًا للحركة الثقافية والفكرية محليًا وقاريًا. ويكاد كتابه المعبر عمليًا ونظريًا عن تجربته فى هذه الفترة: "المواطن والرعية: أفريقيا المعاصرة وتراث الاستعمار" أن يمثل قفزة نوعية فى الدراسات الأفريقية، سواء بوضعه حالة جنوب أفريقيا فى الإطار التحليلى الأفريقى العام عن الاستعمار وما بعد الاستعمار، وهى التى كانت توصف دائمًا بحالة "الاستثناء الأفريقى"، أو بنقل عالم أفريقيا "الأخرى" إلى قلب البحث فى جنوب أفريقيا. وقد كان مجتمعها فى معظمه خاضعًا للإطار التحليلى العنصرى. لذلك وجد كتاب "المواطن والرعية" ترحيبًا هائلاً عند صدوره، فى جنوب أفريقيا وأنحاء القارة، بل على المستوى الدولى. ذلك أنه انتقل بالدراسات الأفريقية من علوم السياسة عن التحديث والوظيفية...إلخ، وحتى من الاقتصاد السياسى المعنى بأثر نمط الإنتاج وتوزيع الثروة

أو علاقة الاستغلال من بعض مفكريه إلى الاجتماع السياسى للصراع وتوزيع السلطة إلى جانب توزيع الموارد، ومن ثم كانت معالجته للطبقة الاجتماعية وسلطتها بعد الاستقلال، وكذا تشريح عملية المقاومة الاجتماعية لآليات الرأسمالية أعمق من مجرد تحليل لنمط مفروض من نموذجها الخارجي العالمي، ولكنها تتعلق أيضًا بنمط التعاملات المحلية مع هذه الموارد. وهذا ما أبقى مسافة فى تحليل ممدانى من نمط تحليل التبعية السائد.

وقد فرض نموذج جنوب أفريقيا نفسه على "ممدانى"، بل أشعر أنه انطلق منه لفهم الكثير عن المجتمع الأفريقى فى بلدان أخرى وليس العكس المتوقع. وقد جاءت المناظرات والعروض التى توفر لى بعضها عن الكتاب موحية بأثر ممدانى المنهجى والمعرفى على كثير من الباحثين فى الوقت نفسه. فقد وضع جنوب أفريقيا أولاً فى الإطار الاستعمارى، العام، بمعنى أن مجتمع المستوطنين قد توصل إلى "السيطرة" على هذه المساحة الواسعة من العالم فى جنوب أفريقيا وفق نمط للسيطرة خلقه الاستعمار أصلاً. بابتداع أيديولوجيا المجتمع المدنى التحديثى مقابل أيديولوجيا العرقية والقبلية، وتلك الصناعة هى التى فرضت نظام الحكم غير المباشر الاستعمارى فى أنحاء القارة ونظام الأبارتهيد أو الفصل العنصرى فى الجنوب، كما فرضت وضع نخبة المستوطنين ونخبة الاستقلال فى النظامين وهى النخبة التى استمرت بعد الاستعمار، وفى المدن، وفق معايير النظام العنصرى نفسها.. وفى جانب يصبح أهل مدن الأبارتهيد هم المواطنون Citizens وبقية الأفارقة الـ Natives أى الرعية Subjects. وفى جانب دول ما بعد الاستعمار أو الاستقلال تبقى المدينة و"مجتمعها المدنى" والديمقراطية الليبرالية "عملية" للمواطنين، ويبقى الريف جامعًا "الرعايا". وحيث لا تستطيع الجماهير المواجهة فى مدينة الأبارتهيد، فإنها تلجأ – بل تدرب على– العرقية والقبلية والعرف كنمط للعزل الاستيطانى وكنمط فى الحكم غير المباشر فى الوضع الاستعمارى، ونمط لإقصاء الريف والفلاحين فيما بعد الاستقلال. ومن ثم فالوضع فى باقى أفريقيا –عند ممدانى– بعد الاستقلال هو نسخة من أوضاع التفرقة العنصرية. وفى التطبيق حل تفوق حزب "إنكاثا" المحافظ على حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى فى

جنوب أفريقيا، باعتبار وضع الأفارقة - الزولو- فى ديربان أقرب إلى الريف، ولم يتقدم حزب المؤتمر هناك إلا بعد زحف المدنية الحديثة هناك.

وأظن من جانبى أن تقدم "زوما" وهو من الزولو على مبيكى مؤخراً، إنما كان استفادة من هذا التقدم فى ديربان، وإن كنت أرى أن حالة "زوما" ترد على ممدانى نفسه فى تجاهله لوضع الطبقة العاملة فى تحليله، وهل هى مجرد "عنصر مدينى" أم جزء من تحليلات الاقتصاد السياسى حول السلطة.

وقد امتد تحليل ممدانى ورغبته فى بيان إمكانيات الريف أو التقليدية والعرف على المقاومة عندما عاد لدراسة حالة أوغندا وزحفها بدوره - بقيادة موسيفينى- إلى العاصمة، كما استعمل المفهوم فى تحليل الوضع الطبقى فى تنزانيا.

وفى معظم الحالات يبدو ممدانى أكثر انحيازاً "للحالة الريفية"، أو الفلاحية مجازفًا بتجاهل حالتها التقليدية أو العرقية التى يتمسك الكثيرون بها باسم المقاومة للحداثة وليس مقاومة القهر الطبقى.

لا أريد هنا أن أدخل فى تفاصيل تناول كتب أخرى لمحمود ممدانى، ولكنى دائمًا بصدد عرض مساهمته التقدمية فى الفكر الأفريقى بين علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع، بل ملامح تطوره وقدرته الاستيعابية لمدارس الماركسية والتبعية والحداثة فيما ينعكس فى إنتاجه المتنوع دون رغبة من جانبى فى متابعته تطوريًا، وإنما فى جهده المعرفى. وقد قفز محمود ممدانى بأساسه المعرفى السابق وخاصة فى "المواطن والرعية" إلى التعامل مع تجربة أخرى له فى وسط أفريقيا أو قل منطقة البحيرات الكبرى، ومشكلات الصدام السياسى والقبلى فى هذه المنطقة، التى يعرفها جيداً مثل: أوغندا ورواندا والكونغو. وانتهى الصراع فى بعض أنحاء هذه المنطقة إلى مذابح رواندا التى قام بها الهوتو (الأغلبية التقليدية) ضد التوتسى فى تطور غريب عام ١٩٩٤، وهنا أعد ممدانى كتابه: "عندما يصبح الضحايا قتلة" **When Victims become Killers 2002** ليفسر لنا كيف تصبح فئة أو طبقة وحدها فى وضع المواطنين والآخرين (الأغلبية) فى وضع الرعايا. وكان البلجيك لفترة قبل الحرب الثانية ميزوا "التوتسى"

كجنس حامى إقليمى متفوق وليسو مجرد إثنية محلية من البانتو (الهوتو)، ومن ثم أصبح التوتسى كالمستوطنين (البيض) فى المنطقة، عازلين للرعايا من الهوتو. وقد نمّى ذلك إحساسًا - قبليًا- بالمقاومة عند الهوتو كرعايا، تفجر عندما انسحب البلجيك تاركين التوتسى بتميزهم العرقى المحلى، كمواطنين، ومن هنا اشتد شعور المقاومة ضدهم، عند الهوتو (الرعايا) حتى خارج إطار رواندا؛ لذا امتد الصراع إلى شرق الكونغو، بل فى أنحاء منطقة البحيرات.

مواجهة الإرهاب الإعلامى فى دارفور

هنا نقلة جديدة إلى محاورة الثقافى وجدل الحداثة والتقليد بطريقة أخرى. ويثرى "محمود ممدانى" تراثه الفكرى بعدد من العناوين فى أوائل الألفية الثالثة بعد متابعته الدقيقة للأحداث والتطورات منذ كان فى جنوب أفريقيا (١٩٩٣/١٩٩٧) إلى رحلته للولايات المتحدة، وفى نيويورك خاصة. ومع ذلك فقد قام ببعثة مهمة باسم المجلس الأفريقى لتنمية البحوث الاجتماعية (كوديسريا) إلى الكونغو (١٩٩٧)؛ لمتابعة الصراع الدامى فى شرقيها وقدم على أثرها تقريراً مهمًا قدم بدوره إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما زار فى مرحلة لاحقة منطقة دارفور وكتب عنها كثيرًا (٢٠٠٦/٢٠٠٧) بما سنتحدث عنه هنا، بالإضافة إلى اختيار لجنة جائزة نوبل للسلام له فى احتفائها بمطلع القرن الواحد والعشرين ليقدم ورقة عن: "صراعات القرن العشرين والحلول المقدمة للقرن الواحد والعشرين".

ولأن حديثه عن الثقافة وعلاقة الإسلام السياسى بالإرهاب هو آخر فقرات هذه القراءة لأنها موضوع هذا الكتاب رغم صدوره منذ عام ٢٠٠٤، فسوف نسارع أولاً بعرض موقفه المثير للكثيرين فى الغرب عن أحداث دارفور، وهو الذى خبرها مباشرة من على أرض الواقع فى أوج الحملات عنها وحولها. وقد كان عنوان كتابته عنها مثيراً منذ البداية، ضمتها دراسته فى مجلة "مراجعات الكتب" Books Review فى لندن تحت عنوان "السياسات وراء تسمية الإبادة الجماعية" Genocide "الحرب الأهلية

والانتفاضة". فيما بدا "تحليلاً مختلفًا" لمسميات حرب الإبادة؛ متى تظهر ومتى تختفى حول دارفور، ورواندا والعراق؟ والدراسة جديرة بالقراءة تفصيلاً، بل تقرأ تعليقاته الخاصة فى مقابلاته. وفى المؤتمرات التى حضرتها معه فى إطار المجلس الأفريقى للبحوث الاجتماعية (كوديسريا) كان يهتم بعنوان ذى أهمية: "الحاجة إلى معرفة أفريقية جديدة" بهدف تجاوز المعرفة المهيمنة؛ ذلك أنه بدأ يكشف دلالة الاهتمام الزائد فى الدوائر الأمريكية، إعلامية وجامعية بموضوع دارفور، دون اهتمام مماثل بما يجرى فى العراق، أو ما جرى فى الكونغو ورواندا. وهو يهاجم مباشرة قاعدة الحملة فيما سمى "بتحالف إنقاذ دارفو" SDC وعلاقتها بشركات السلاح والهيمنة الإعلامية القادرة على الكشف والتغطية فى كثير من الوقائع. وهو أيضًا يتعرض لسوسيولوجية تسمية الأشياء فى هذه الأجواء ضمن كشفه للفارق بين التعامل مع مذابح رواندا والكونغو، وعدم تسميتها بالقدر نفسه بحملة إبادة جماعية، رغم وصول عدد الضحايا إلى أكثر من أربعة ملايين فى المنطقة وشمول الضحايا أيضًا بعمليات التجويع والتهجير... إلخ كما لا يجرى تسمية ما يجرى فى العراق بالإبادة الجماعية رغم تعدى الضحايا للملايين. ويرجع ممدانى ذلك إلى الهيمنة الثقافية فى نظام القيم من ناحية، وإلى طبيعة المعرفة بالواقع من ناحية أخرى، وأثر السيطرة على الإعلام بالطبع، وهذا ما يدعوه إلى الحديث عن الحاجة لمعرفة أفريقية جديدة.

ويطبق ممدانى ذلك على حالة دارفور وتسمية الإبادة الجماعية بشكل مفصل، وكيف يمكن أن تكون تحت مسمى الحرب الأهلية أو الانتفاض أو حتى التمرد دون أن تكون إبادة جماعية. ثم يعالج ممدانى فى تفاصيل دراسته تسمية العروبة والأفريقانية لأهل دارفور وأن العروبة مسمى ثقافى يرتبط بتكوين النخبة التجارية والإسلامية، ولذا يطلق "الأفارقة" فى دارفور على أنفسهم صفة العروبة كسبًا للمكانة الاجتماعية لا أكثر؛ حيث لم تتم هجرة عربية بهذا الحجم، بينما نسبتها الأكبر من غرب أفريقيا. ويمضى ممدانى فى التحليل فيتابع تقارير الأمم المتحدة عن ازدياد الحرارة بأكبر نسبة عالمية فى هذه المنطقة مما يجعل الجفاف سببًا فى هجرة الرعاة إلى جنوب دارفور وإثارة القتال، لكن الإعلام الأمريكى المرتبط بالحملة المخططة حول الإبادة الجماعية

وجد من هذه الهجرة الداخلية، وحتى التصارع بسببها مبرراً لتسميه ذلك بالإرهاب العربى ممثلاً فى الجنجاويد ليبرر "التدخل" وهو السياسة الأصلية، وجذر التحرك فى المنطقة. ويثبت ممدانى كيف يتم تعويق دور الاتحاد الأفريقى ليبقى الحال على ما هو عليه لتبرير التدخل أيضًا... هكذا يقدم ممدانى حالة دارفور للرد على كثير من إشكاليات الثقافة والاجتماع السائدة غالبًا بين الأفارقة والأوربيين!

حديث الثقافة: المسلم الصالح والمسلم الطالح

يدهش محمود ممدانى فى كتابه هنا بعنوان: "المسلم الصالح والمسلم الطالح" من اتجاه الهيمنة الأمريكية المعاصرة بعد الحرب الباردة وبعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ خاصة إلى تقسيم العالم إلى عالمين على أساس الثقافة الدينية، وكانوا يقسمونها قبل ذلك على أساس من الحرب الباردة فى مواجهة الشيوعية... إلخ. أصبح العالم بعد ١١ سبتمبر إما منتجًا للثقافة الأصلية الحديثة والخلاقة أو الثقافة الجامدة، المتخفية التى تؤدى إلى ممارسة الإرهاب. ظهر هذا الزعم أولاً فى صيغة صدام الثقافات أو الحضارات وكان يقصد بها الثقافات الكبرى ثم صارت صراعًا داخل الثقافات نفسها بين المعتدلة القابلة للتحديث وبين الثقافة الجامدة، الأولى تخلق المسلم الطيب المعتدل المتعاون مع الثقافة الحديثة والأخرى تنتج الإرهابى. لذلك يفرد ممدانى جزءًا كبيرًا من هذا الكتاب "لحديث الثقافة" الذى برز بعد أحداث ١١ سبتمبر بتقسيم الثقافات وتصنيف الإسلام والمسلمين خاصة.. وابتدعوا فى ذلك ربط الإرهاب بنمط معين من الإسلام السياسى وليس بغيره.

لن ألخص هنا الكتاب، حيث أترك الاستنتاج منه إلى فطنة القارئ، لكنى أشير إلى بعض النقاط المهمة التى قد تجذب نظر قارئ الكتاب أو تثير الجدل وتضع قراءة ممدانى ورؤيته موضع المراجعة أحيانًا.

فهو يرى الإسلام السياسى خلقًا جديداً، مرة مرتبطًا بنهاية الحرب الباردة، ومرة نتاج سياسة ما بعد الحرب العالمية الثانية عند خلق باكستان على نمط الدولة الدينية لإسرائيل، وهو فى هذا التفسير يشير إلى كيفية استعمال الدين، وهو الإسلام هنا،

لتبرير جانب من الحرب الباردة أحيانًا مثل استعمال إدارة "ريجان" له "كأداة" لحرب الشيوعية والاتحاد السوفيتي في أفغانستان، ثم الانقلاب عليه في مواجهة إيران.. وهو يستعمله إلى جانب الحكومات الإسلامية الصديقة والمعتدلة - في نظره- كالسعودية ضد "القاعدة" وبن لادن الذين هم وهابيون أي سعوديون أيضًا!

ومع ذلك لا تذكر الدوائر الأمركية أنها خلقت الجماعات الإرهابية المنظمة بنفسها وهي تعمل مع "المجاهدين" أنفسهم في أفغانستان وأنها قبل ذلك نظمت في السبعينيات مجموعات "رينامو" في موزمبيق، وتنظيم "يونيتا" في أنجولا منطلقين من جنوب أفريقيا، كما نظمت الكونترا ضد نيكاراجوا مدعومة من السعودية؛ وكل ذلك والإرهاب والإرهابيون خارج الولايات المتحدة، وضمن سياسات "الارتباط البناء" للتدخل في جنوبي أفريقيا، أو سياسة الحرب بالوكالة وبالهيروين في أمريكا اللاتينية.. لكن وقد أصبح "الإرهاب إسلاميًا" في قلب الولايات المتحدة، فقد بات العداء ضروريًا لكل الحالة الإسلامية، ولابد من تفسيرات مثقفة "وعلمية" - ولو وهمية- للإسلام، فنشأ تصنيف الثقافة الإسلامية كثقافة بذاتها وتعبيرها في الإسلام السياسي، حاملة الإرهاب عبر أفكار الجهاد واللاعقلانية. أي أننا عدنا للتفسير بالحداثة والتقليدية مرة أخرى.

وبذلك يتم تبرير الهجوم الشامل على ثقافة معينة دون مساءلة المسئول عن دفع الحركة وتأسيسها حديثًا. ويشير ممداني هنا إلى أن دراسته أكدت له أن الإسلام السياسي أو الإرهاب ليس مجذرًا في ثقافة جامدة تدعى الثقافة الإسلامية ولكن الثقافات تتطور وتتشكل وفق عملية تاريخية يجب أخذها في الاعتبار، ومن هنا كانت حداثة الإسلام السياسي وتنوع تفاعلاته في إطار تطور الحرب الباردة في المناطق المختلفة، وأخطرها ما تم في علاقة الإدارة الأمريكية به في العالم الإسلامي.

وفي فصول الكتاب المختلفة يهتم ممداني بتاريخ البنية التحتية للإرهاب بالتعاون مع المخابرات الأمريكية نفسها التي توثقت علاقتها من قبل بقيادة ما يسمى الآن بالقاعدة، مثل تكرار المحاولة من قبل الإسرائيليين مع بدايات الحركة الإسلامية في فلسطين. وخلال استعراضه لقضايا العنف المتبادل عبر مؤسسة الإرهاب يلقي ممداني

بالمسئولية على الإدارة الأمريكية وتطور نزعتها العسكرية والإمبريالية، ويهتم بتحليل سياستها فى مناطق مختلفة من العالم، من الهند الصينية والعراق وحتى قضية فلسطين، وهو لا يرى حلاً للأخيرة إلا بإقامة دولة واحدة لكل من يقيم على أرضها، ولكن هذا الحل الديمقراطى الشامل وليس الإسلامى لا تساعد عليه حالة التآكل المتنامى للديمقراطية فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها بسبب لعبة حرب الإرهاب.... بعد الحرب الباردة.

حلمى شعراوى

كشاف الاختصارات الواردة فى الكتاب

وكالة المخابرات الأمريكية	سى آى إيه	CIA
جماعة علماء الإسلام	چيه يو آى	JUI
المخابرات السوفيتية	كى چى بى	KGB
جبهة الإنقاذ الإسلامية	الفيس	FIS
منظمة الوحدة الأفريقية	أو إيه يو	OAU
اتحاد الحريات المدنية الأمريكية	إيه سى إل يو	ACLU
قوة صينية معادية للشيوعية	كى إم تى	KMT
المعونة الأمريكية	يو إس إيه أى دى	USAID
الحركة الشعبية لتحرير أنجولا	إمبالا	MPALA
مهبط طيران قصير	إل أى إم إيه	LIMA
حكومة الكونجو	چى أو سى	GOC
جبهة أنجولا للتحرير الوطنى	إف إن إل إيه	FNLA
قوى العمليات الخاصة	إس أو إف	SOF
نزاع ضئيل الحدة	إل آى سى	LIC
مشروع نزاع ضئيل الحدة	چيه إل آى سى	JLIC
القوى النيكاراجوات الديمقراطية	إف دى إن	FDN

قوى مدربة تدريبًا خاصًا من أمريكا اللاتينية	يو سى إل إيه	UCLA
أرشيف الأمن القومى	إن إس إيه	NSA
منظمة التحرير الفلسطينية	بى إل أو	PLO
الوحدة الوطنية للإعاشة بالجيش الباكستانى	إن إل إس	NLS
المخابرات الباكستانية	أى إس أى	ISI
البنك الدولى للاعتماد والتجارة	بى سى سى أى	BCCI
برنامج الأمم المتحدة للتحكم فى المخدرات	يو إت أى دى سى بى	UNIDCP
جبهة التحرير الوطنى	إف إل إن	FLN
المجموعة الإسلامية المسلحة	چى أى إيه	GIA
أسلحة الدمار الشامل - أسلحة كيميائية	دبليو إم بى	WMP
برنامج الأمم المتحدة للتنمية	يو إن دى بى	UNDP
اليورانيوم المستنفذ	دى واى	DY
مكتب للتأثير الاستراتيجى	أو إس أى	OSI
مكتب الخطط الخاصة	أو إس بى	OSP
المنظمة المعنية بحظر الأسلحة الكيميائية	أو بى سى دبليو	OPCW
المحكمة الجنائية الدولية	أى سى سى	ICC
المؤتمر الوطنى الأفريقى	إن إن سى	ANC
لجنة الشئن العامة الأمريكية الإسرائيلية	إيه إل بى إيه سى	ALPAC
التحالف من أجل الهموم الإسرائيلة	إيه إم سى إتش إيه	AMCHA
جيش الرب للمقاومة	إل أر إيه	LRA

إهداء المؤلف

إلى

محبوبتنا

آمي

(١٩٢٧ - ٢٠٠٣)

التي علمتنا أن نحب ونناصر ما هو حق

وإلى

زهران

وأقرانه

نيشانت، ساهيرا ، إيشان ، ساهيل ، شايونى ، دليا ، وسيم ، منير ، إيقان أر ، إيقان إس ، أدريان ، جوستينى ، جن ، ميك إزرا ، تيموثى ، تيفيرو ، كنيث ، كارل ، صنديب ، مونجيزى ، كاران ، ليام ، نصيبف ، عبدول ، نناندهى ، نيليتى

وكل الأطفال فى كل مكان

هؤلاء الذين سيرثون العالم الذى نصنعه

الإنسان نعم ... نعم للحياة . نعم للحب . نعم للسخاء ،
لكن الإنسان لا أيضًا . لا لازدراء الإنسان . لا للحط
من قَدْر الإنسان . لا لاستغلال الإنسان . لا لنحر
ما هو أكثر إنسانية في الإنسان

فرانز فانون ، جلد أسود ، أقنعة بيضاء

مقدمة المؤلف للترجمة العربية

لقد كتبت هذا الكتاب، فى الفترة ما بين يونيو ٢٠٠٢ وديسمبر ٢٠٠٣ ، وكان الكتاب رد فعل للأحداث التى نعرفها الآن بأحداث الحادى عشر من سبتمبر، أكثر منه ثمرة أساسية لأجندة بحثية . لقد تابعت فى الأسابيع والشهور التى تلت الحادى عشر من سبتمبر صحافة الولايات المتحدة، وخاصة النيويورك تايمز، عن كثب وبعناية، وقد صدمنى ما قرأته فى التايمز أن المزيد والمزيد من الأمريكيين كانوا يذهبون إلى المكتبات لشراء نسخ من القرآن؛ لينفذوا ببصيرتهم فى تفكير قراصنة الحادى عشر من سبتمبر، وفكرت فى الأشهر التى تلت قصف الولايات المتحدة لأفغانستان ثم العراق، فى والدىّ و أقاربى وأصدقائى فى كمبالا وتساءلت فى عجب، إن كان أى منهم قد اندفع ليقرأ نسخة من الإنجيل؛ ليحصل على دليل عن دافع هؤلاء الذين يقومون بعملية القصف. وتساءلت فى عجب إن كان مواطنو الفالوجة قد اتجهوا إلى الإنجيل ليفهموا دافع رئيس الولايات المتحدة، وقد شككت فى ذلك لماذا الفرق ؟ إن الإجابة تكمن فى الكيفية التى وضع المثقفون العموميون، بمعنى ما فى الولايات المتحدة، الإطار الذى دار فيه الحوار العام حول الحادى عشر من سبتمبر، و كلما أمعنت المزيد من التفكير فى هذه المسألة، أدركت بصورة أكبر، أن هذا الموضوع كان فى القلب من بحثى الخاص منذ ١٩٨٩ . كانت نظرة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر عميقة الجذور فى الافتراضات التى دفعت بالمشروع الكولونيالى الأوروبى الحديث . إننى أدعوه " حديث الثقافة "، و يتلخص نقدى لحديث الثقافة فى إدعاءات ثلاثة مرتبطة .

لقد قَسمت ثقافة العالم إلى قسمين، الحداثة وما قبل الحداثة وادعيت أن العالم الحديث فقط هو القادر على التقدم عبر زخم داخلى . وعلى عكس ذلك ، فإن شعوب ما قبل الحداثة يجب معاملتها طبقًا لاستراتيجية مزدوجة من الحجر الصحى ومحبة

الخير للبشر، الحجر الصحى لطرد الشرير خارجها، ومحبة الخير للبشر لتقديمها إلى منافع الحداثة . والافتراض هو أن سياسات بعض الشعوب يمكن شرحها على أساس ثقافتها ؛ لأن ثقافتها ليست تاريخية أو تقدمية ؛حيث إن ادعائى الأول هو أن كل الثقافات ، بما فيها الدين، فى حاجة إلى فهمها باعتبارها تاريخية.

إن نسخة أخرى أكثر تهذيباً من " حديث الثقافة "، كما جاءت عن برنارد لويس، هى أكثر رغبة فى القبول بأن كل ثقافة هى تاريخية متناقضة داخليًا، مما يقود إلى تعايش المكونات" الصالحة " و" الطالحة " فى كل ثقافة . غير أنها تصر على أن الثقافة تجىء فى حزمات منفصلة، والتى يمكننا تصنيفها باعتبارها " إسلامية " أو "هندوسية " أو " بوذية " أو " مسيحية " أو " يهودية " أو "مسيحية يهودية " فيما بعد الهولوكست . وقد أدركت، عندما درست تاريخ الإسلام السياسى، وخاصة تلك الاتجاهات التى احتضنت العنف باعتباره أساسيًا بالنسبة للعمل السياسى، أن هذا التطور لا يمكن فهمه فهمًا كليًا عبر تاريخ جرى احتواؤه للإسلام السياسى، حيث إن العنف كان أساسيًا لدى أفكار عامة للحداثة السياسية والتقدم السياسى منذ الثورة الفرنسية، تراث شكل كلاً من الماركسية السياسية (تحدث ماركس عن الثورات باعتبارها مُوَلِّدَة التاريخ) وحركات التحرير الوطنى فى القرن العشرين، بطرائق أساسية . إن النتيجة التى أصل إليها هى أنه يجب فهم أنصار الإسلام السياسى مثل المودودى، وسيد قطب، باعتبارهما متأثرين بمقولتين مختلفتين، وإن كانتا مترابطتين، إحداهما من أسلافهما الإسلاميين، و الأخرى من معاصريهم، سواء كانوا إسلاميين أم لا. ومن ثم، فإننى ادعيت بعداً " عالميًا " لكل الفكر السياسى. كان هذا هو ادعائى الثانى.

وفى كلمات أخرى فإن احتضان كل من العنف السياسى والإرهاب لا يمكن فهمه باعتباره مسألة إسلامية بسيطة . يجب أيضًا فهمه باعتباره علامة على الأزمة، وأخيرًا، فإننى اعتقدت أن " حديث الثقافة " يخدم ذاته بشفافية. فإن أنت صفعتنى، وقررت أنا أن أفسر سلوكك كنتيجة مباشرة لثقافتك، فإن ذلك يسمح لى بأن أنأى بنفسى عن التفسير . كم هو مريح أن تفسر حادثة بينك وبينى دون الإشارة إلى العلاقة فيما بيننا !

إن ادعائى الثالث هو، إذا كان لابد من إلقاء الضوء على التطورات السياسية الفعلية، فإن تحليل الحادى عشر من سبتمبر والإرهاب السياسى، يجب أن يتحول تركيزه من الثقافى إلى السياسات. إننى أقدم للقارئ تحليلاً سياسيًا للعلاقة بين القوة الأمريكية والإسلام السياسى فى حقبة الحروب بالوكالة، التى ميزت الحرب الباردة الأخيرة، أكثر من الرضا بتاريخ جرى احتواؤه للإسلام السياسى .

لقد نشر الكتاب حال غزو الولايات المتحدة للعراق ؛ حيث ذهبت الولايات المتحدة إلى العراق بسذاجة كبرى، وافترض الرسميون الأمريكيون أنه يمكن تغيير العالم بالطريقة التوراتية التى تقول إن الإله خلق العالم فى ستة أيام ونام فى اليوم السابع . عندما انهارت الدولة البعثية مثل منزل من أوراق اللعب، بدا ذلك تأكيداً للتوقعات الرسمية فى واشنطن. لكن ما إن سقط صدام حتى بدأ العراقيون يطالبون بإنهاء احتلال الولايات المتحدة. إن المقاومة التى انتشرت كالفطر كانت مسلحة أو غير مسلحة. لقد جاءت المقاومة المسلحة من هؤلاء الذين كانوا على قرب كافٍ من الدولة البعثية، ليكون لديهم سبيلاً إلى الأسلحة. وجاءت المقاومة غير المسلحة من ضحايا هذه الدولة.

وكلما نمت القوة بدأت حدود سلطة الولايات المتحدة فى الظهور على السطح. وحتى يرسخ الاستقرار للاحتلال، سعت الولايات المتحدة للوصول إلى التكيف مع القسم غير المسلح من المقاومة. غير أنه كان على سلطات الاحتلال، حتى تفعل ذلك، أن تخضع لمطالبهم الأساسية. دعونا نتذكر أن بريمر. وصل إلى توقع أن يكون هو مكارثر عصرى، وأنه سوف يملى الدستور العراقى، ويسير البلد مباشرة لخمس سنوات على الأقل، حتى وإن كان قد وعد بعد ذلك بما لا يزيد عن انتخابات غير مباشرة يمكن أن تجرى فى سلسلة مؤتمرات حزبية صغيرة، حيث يمكن إدارة الناتج بسهولة من أعلى، وقدمت المقاومة، غير المسلحة، طلبين، الأول كان انتخابات فورية، والثانى كان انتخابات مباشرة. لقد تناقضوا مباشرة مع أجندة إدارة بريمر المقررة فى بغداد، وعندما تمزقت أجندته، انتهت سيطرته، وغادر العراق.

إن واحدًا من أكثر التطورات أهمية، بعد حرب العراق، هو الاتجاه السياسى غير المسلح المرتبط بالسيستانى . إنه يدعى، رغم أنه لم يعلن ذلك قط، إن فكرة آية الله الخومينى عن الحكم الكهنوتى، كما فى ولاية الفقيه، هى انحراف فى تاريخ الإسلام الشيعى. إن البديل الذى يقدمه هو ذلك الخاص بالعلماء كقوة أخلاقية خارج الدولة أكثر من أن يكونوا قوة سياسية داخل الدولة .

ونحن من ثم، أمام وسيلتين مختلفتين للتفكير فى العلاقة بين الدين والثقافة، وكلاهما داخل الشيعة، ولفهم الفرق بينهما، فإنه من المفيد مقابلة الوضع السياسى للسكان الشيعة فى إيران، حيث يكون هذا الوضع، من الناحية العملية، مرادفًا للأمة بذلك الذى فى العراق، حيث يعانى الشيعة من الحالة النفسية السياسية للأقلية، رغم أنهم أغلبية عددية . إن العرب الشيعة، على غير مثال نظيرهم الإيرانى، مضطرون إلى التفكير فى كيفية التعايش مع مجموعات أخرى فى مجتمع متعدد.

إنى أود أن أنهى هذه المقدمة للترجمة العربية بملاحظات أربع :

أولاً :- من الخطأ تعريف الإسلام السياسى أو المسيحية السياسية بالإرهاب. إننا، أكثر من أى وقت مضى، فى حاجة لأن نعترف أن تضمين الدين فى السياسة ليس بالضرورة رجعيًا، وليس بالضرورة أيضًا تقدميًا. خذ مثلاً واحدًا من التاريخ الأمريكى المعاصر. فكر فى الجنوب الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية. وهو مكان ليس للناس السود فيه حق فى المشاركة أو التنظيم فى المجال العام . هل يمكن لأى امرئ أن يتصور فيه حركة الحقوق المدنية، فى تلك الظروف، دون مشاركة الكنيسة السوداء ؟ دعونا بدلاً من توجيه اللوم للكنيسة أو الجامع أو الضريح أو مزار القرية لاشتراكهم فى الأعمال السياسية، أن ننظر فى الأسباب. لماذا ضمرت مؤسساتنا السياسية؟ دعونا نتساءل ما الذى يجعل شعبنا يتحول إلى القادة فى المؤسسات الدينية من أجل الإصلاح ؟

ثانيًا :- ليس هنالك من ينكر القوة الأمريكية، التى لا نظير لها فى العالم المعاصر، والحاجة الطاغية لكبحها ومحاسبتها. إن الحالة بعد الحرب الباردة مماثلة

للعالم بعد اتفاقية فرساى ، ويعد النظام العالمى اليوم ظالمًا بصورة واضحة للغاية، حتى إن أية محاولة لترسيخه باسم القانون والنظام سوف تقدم فقط حدثًا استثنائيًا لكل مضلل طموح.

إن أمريكا فى حاجة إلى سيطرة ثقافية وسياسية مقابل الثمن الذى دفعته لكسب الحرب الباردة. إننى فى حاجة فقط لذكر عرضين اثنين كى تضعهما فى الحسبان؛ رئاسة إمبراطورية مسئولة اسميًا فقط أمام الهيئة التشريعية، ودولة عالية العسكرية حيث تصاغ السياسة الخارجية بواسطة وزارة الدفاع أكثر من وزارة الخارجية . إن كلاً من هذين الأمرين يشكل بعدًا للأمن القومى للدولة. والذى استقر خلال الحرب الباردة . إن هذا الأمن القومى للدولة يسعى لتحويل الحرب ضد الإرهاب إلى تبرير لتوالدها المتواصل والمتسع الامتداد.

إن الانطلاق عبر الازدهار الذى صاحب الحرب ضد الإرهاب، يقتضى تذكر دروس الحرب الباردة ، إذ مثلما ادعت الولايات المتحدة، خلال الحرب الباردة، أن كل مجموعة محلية ذات توجه ماركسى كانت وكيلاً محليًا سوفيتيًا ، فإنها تدعى وتقدم كل مجموعة محلية ذات توجة إسلامى كدليل على الوجود السياسى والتنظيمى للقاعدة فى كل الكون. إن المرء فى حاجة، دون الادعاءات المضادة عن الطبيعة الكونية لقوة المكرمين والاحتفالات بالنصر فى الحرب الباردة، أن يتذكر أن الاتحاد السوفيتى لم يصبه الدمار من الخارج لكنه تفجر من الداخل .

ثالثًا :- إن النضال من أجل حقوق الإنسان، فيما بعد حقبة الحرب الباردة، يمثل تحديًا لبعض الافتراضات التى بنيت عليها الحركة العالمية لحقوق الإنسان. إن الافتراض الأساسى كان يتمثل فى أن انتهاك الحقوق سوف يجىء من البلدان حديثة الاستقلال، بلدان العالم الثالث. وأن فرض الحقوق سوف يكون مسئولية القوة الكبرى . إن هذا الافتراض قد جرى دعمه بواسطة الاعتمادات المالية التى خصصتها القوة الكبرى ، وقد قلبت حرب العراق تلك الافتراضات رأسًا على عقب. ماذا علينا أن نفعل عندما تصبح القوة العظمى الوحيدة هى المصدر الأساسى لانتهاك حقوق الإنسان؟

إن صمت مؤسسات حقوق الإنسان الأساسية الكونية فى وجه هذه الحقيقة يشهد على شللها السياسى والفكرى .

إن المرء يحتاج، أكثر من أى وقت مضى، أن يكون يقظًا للسياسات المتغيرة لحركة حقوق الإنسان ، وهنا أيضًا، درس له دلالته يجب تعلمه من الحقبة السوفيتية. إن لغة السلطة السوفيتية كانت لغة ثورة تخفى تحولاً مهمًا فى الكيفية التى تنتشر بها هذه اللغة . كان هذا التحول هو تحول من صناعة الثورة إلى حق تصديرها. إن تصدير الثورة أكثر- من صنعها- غدا لغة الإمبراطورية السوفيتية. منذ ذلك اليوم حدث تحول آخر فى لغة حقوق الإنسان تاريخيًا، حيث كانت حقوق الإنسان تدور حول جعل قوة هؤلاء الذين أخطئ فى حقهم وهؤلاء الذين حرموا من حقوقهم قوة شرعية، واليوم تستخدم لغة حقوق الإنسان بصورة متزايدة لتحويل هؤلاء الضحايا أنفسهم إلى وكلاء. فالتدخلات باسم حقوق الإنسان تتم باسمهم .

غير أن هذا أيضًا مشروع ذو أصل كولونيالى قديم، و المرء لا يحتاج فقط إلا إلى استعادة الجدال حول" الساتى(*) " و " الأرامل الأطفال "و " وأد الإناث " و" زواج الأطفال "، خلال الفترة الكولونيالية و " التشويه التناسلى للأنثى " الأكثر حداثة، حتى يستعيد تذكر كيفية تحويل ضحايا أمثال تلك الممارسات إلى العديد من الوكلاء للسيطرة الإمبريالية .

وأخيراً، علينا أن نكون يقظين للمحاولة الأمريكية لجذب حكوماتنا ونخبنا السياسية إلى نسخة أخرى من الحرب الباردة . دعونا لا ننسى أنه بالنسبة لأفريقيا، مثلما للشرق الأوسط وآسيا وأمريكا اللاتينية، كانت الحرب الباردة، حربًا ساخنة . لقد دفعنا ثمنًا غاليًا من أجلها : عسكرة حياة الدولة، عدم المسئولية فى السياسة، وضرب الموارد الاقتصادية ، وقد دفع المسلمون العاديون، أيضًا، ثمنًا غاليًا للتحالف بين الإسلام الرسمى وأمريكا الإمبراطورية خلال المرحلة السابقة من الحرب الباردة.

(*) عادة للأرملة الهندوسية فى أن تُحرق مع زوجها تعبيرًا عن إخلاصها له.

إن ذلك الثمن كما أوضحت فى الكتاب، يكمن فى عسكرة الإسلام وتشكيله كأيديولوجية كلية. غالبًا ما يقال إن الإسلام ليس مجرد دين، بل إنه سبيل للحياة. إن المرء لتصيبه الدهشة إن كان فى الإمكان دومًا وجود دين جدير بالاعتبار إن لم يكن سبيلاً للحياة . وفى هذه الحالة، ماذا هى إذن نقطة الادعاء؟ النقطة إذن هى تقديم الإسلام كبديل لأيديولوجية الدولة: الشيوعية السوفيتية، والنقطة هنا لا تزال فى تقديمه كأيديولوجية قوة.

وقد نشأت هذه "الأيديولوجية"، أى الإسلام "الجهادى"، داخل مواقع ساخنة من نمط المدارس المعسكرة، والتى كانت هى نفسها مشروعًا مشتركًا لوكالات مخابرات الولايات المتحدة و باكستان والسعودية العربية. إن هذه الصورة من الإسلام تسعى كى تحل فكرة الإسلام الذى يرتكز على عمود واحد، هو الجهاد، محل الفكرة التقليدية لإسلام ذى أعمدة أربعة، وهى حينئذ تعمل على تغيير فكرة الجهاد من النضال الشامل : الاجتماعى، الشخصى، الروحى، العسكرى، إلى نضال عسكرى وحيد البعد . إن التغيير الأخير الذى يكمن فى فكرة النضال العسكرى، يتحول من موقف دفاع للمجتمع إلى أن يصير احتضانًا فرديًا للعنف، ليحدد ولادته من جديد. ومن ثم، فإن الجهاد الإسلامى يقتضى أن يُرى كإسلام وُلد، مرة ثانية، متفردًا، حديثًا، وعسكريًا إلى درجة قصوى، إزاء نظراء له داخل أيديولوجيات، ولدت بدورها من جديد داخل المسيحية واليهودية . إنه يميل إلى أن يكون تحولاً مهمًا تاريخيًا، أكثر من أن يكون تطورًا عضويًا ضمن اتجاهات داخل الإسلام التاريخى.

إن تحالف الحرب الباردة بين الإسلام السياسى وأمريكا الرسمية يحتوى أيضًا على درس للشعوب فى كل مكان، وقبل أن يأخذ قادتنا بعين الاعتبار دعوة أمريكية مجددة للالتحاق بطبعة جديدة من الحرب الباردة، تدعى " الحرب ضد الإرهاب " دعونا نطرح الدعوة ونصوصها وشروطها على حوار واسع :حوار وطنى، وقارى، وكونى.

شكر واعتراف بالفضل

نشأت فكرة هذا الكتاب، عن حديث دار فى كنيسة ريفرسايد، التى تقع فى الجانب الشمالى الغربى لمدينة نيويورك، فى الأسابيع التى تلت الحادى عشر من سبتمبر . كان عليك إن حملت حينذاك اسمًا يدل على هُوية إسلامية، أن تكون منتبهًا إلى أن الإسلام قد غدا هُوية سياسية، فى أمريكا ما بعد الحادى عشر من سبتمبر. وشرعت أحاول فهم الاتجاه الحديث لتسييس الثقافة، فيما ثار من أحاديث امتدت من نيويورك وشيكاغو فى الولايات المتحدة، إلى كمبالا وديربان فى أفريقيا، وجرى فى هذا السياق تناول الإسلام السياسى والإرهاب السياسى خلال الحرب الباردة.

وقد «حصلت»، خلال تلك الرحلة، على عون لا يقدر بثمن من ثلاثة أصدقاء، هم: طلال أسد من جامعة سيتى بنيويورك، وتيم ميتشيل من جامعة نيويورك، وبوب ميستر من جامعة كاليفورنيا بسانتاكروز . وإن كنت قد ارتكبت أخطاء، رغم توجيههم الدقيق لى، فإن الخطأ، يقينًا، هو خطأى وحدى، ولا يمكن قول الأمر نفسه عن طلابى الخريجين الذين قطعوا الرحلة معى، وقدموا، فى بعض الأحيان، اكتشافًا ما، والذين شاركونى، فى الغالب، فى صناعة واحد منها. وقد قدم سورين بيلاى، وبريندا كوفلين، ويوجش شاندرانى عونًا بحثيًا يتجاوز نداء الواجب، بل حتى الصداقة، وأخيرًا شكرًا جزيلاً لمحررى شيلى وانجر من بانثيون، لإصراره على أن أترك جانبًا كل أشكال الدوران حول المعنى، وأن أواجه القارئ مباشرة.

إن الكتابة، دون أحباب، هى يقينًا ممارسة موحشة للغاية، يصعب تحملها طويلاً . إن ميرا، كالعهد بها، تواصل مدنا بالحب، وتُلهم القدوة، تُعَلِم كيف تُصنع الأشياء، مهما كانت الاحتمالات، لقد منحت أمى، وأبى، وأنيس، وزهران المأوى المريح فى كمبالا، وجعلونى قادرًا على الكتابة لآماد ممتدة .

كانت والدتى، أمى، مصدر إلهام لا ينضب لهذا الكتاب . إنها امرأة راسخة المعتقد الدينى؛ كانت تذهب، وهى طفلة، إلى مدرسة كاثوليكية للراهبات صباحًا، ومدرسة إسلامية بعد الظهر، وظلت حريصة على معرفة العالم دون انقطاع، رغم حقيقة أنها لم تَحظَ بغير أربع سنوات من التعليم الرسمى، وربما أيضًا بسبب ذلك . لقد دمجت فضيلتين كبيرتين معًا، النضال من أجل العدالة بغض النظر عن الاحتمالات وأن تظل ذات عقلية منصفة، وتكون ممتلئة تعاطفًا مع الآخرين وهى تفعل ذلك . إننى أتمنى أن يعاون هذا الكتاب فى الاحتفاء بحياة أمى، وتكون بعض دروسه متاحة من بين أشياء أخرى، لابننا زهران وأقرانه فى كمبالا، وكيب تاون، ونيويورك، ونيودلهى ودار السلام، وأختتم بالفكرة التى تريح الخاطر. إنهم معًا سوف يعيدون، دون شك، صياغة العالم الذى يرثونه عنا .

نيويورك

ديسمبر ٢٠٠٣

المدخل

الحداثة والعنف

لقد أنهينا للتو قرنًا من العنف، واحدًا يمكن أن يكون الأكثر عنفًا من أى قرن آخر فى التاريخ المسجل: الحروب العالمية والغزوات الكولونيالية والحروب الأهلية والثورات والأخرى المضادة ، ورغم أن حجم هذا العنف غير متماثل فإن ذلك لا يثير دهشتنا .

إن الحساسية السياسية الحديثة ترى فى غالبية العنف السياسى ضرورة للتقدم التاريخى، ولقد أصبح يُنظر إلى العنف، منذ الثورة الفرنسية، باعتباره قابلة(*) التاريخ: لقد أعطت الثورة الفرنسية لنا الإرهاب، كما أعطت لنا جيش المواطنين، إن السر الحقيقى الذى يكمن وراء النجاحات الرائعة لنابليون فى ميدان القتال، هو أن جيشه لم يكن مكونًا من الجنود المأجورين، ولكن من الوطنيين الذين يقْتُلون من أجل قضية عامة – تلهمهم عاطفة وطنية – تلك التى اعترفنا بها باعتبارها الدين المدنى للوطنية . وقد كتب هيجل، متأملاً الثورة الفرنسية، «إن الإنسان كان يرغب الموت فى سبيل قضية عامة لها عنده قيمة أكثر من حياته ذاتها»، ربما كان على هيجل أن يضيف: أن الإنسان كان يرغب أيضًا فى أن يَقْتُل فى سبيل مثل تلك القضية العامة ؛ لأن هذا ، كما أعتقد، أكثر صدقًا فى أيامنا من تلك التى كانت فى الماضى .

إن الحساسية الحديثة لا يصيبها الرعب من العنف المتفشى والحروب العالمية تشكل دليلاً كافيًا على ذلك . إنما يثير رعب حساسيتنا الحديثة العنف الذى يبدو أخرقًا بلا معنى والذى لا يمكن تبريره بزعم التقدم .

(*) مولدة. (المترجم)

إن مثل ذلك العنف يناقش بطريقتين أساسيتين : بتعبيرات ثقافية عند مناقشة مجتمع ما قبل المجتمع الحديث، وبتعبيرات لاهوتية عند مناقشة مجتمع حديث . إن التفسير الثقافى ينسب العنف السياسى دومًا إلى غياب الحداثة، وقد سُمى ذلك، على نطاق عالمى، بصدام الحضارات، ومحليًا- أى عندما لا يعبر الحدود بين "الغرب" وباقى العالم - يسمى "بنزاع العامة" كما فى جنوب آسيا أو "النزاع الإثنى"[1] كما فى أفريقيا .

إن العنف السياسى فى المجتمع الحديث، والذى لا يناسب حكاية التقدم، يتجه إلى أن تجرى مناقشته بتعبيرات لاهوتية. فمثلاً عنف الهولوكست[2] يفسر ببساطة باعتباره نتاجًا للشر ويُفهم الشر أيضًا، مثله فى ذلك مثل ثقافة ما قبل الزمن الحديث، خارج الزمن التاريخى، وهنالك مقاومة كبيرة، أخلاقية وسياسية، للتعرف على الأسباب الحقيقية للتدمير النازى المنظم والعمدى لمجموعة ما عرقية أو سياسية . إننا عندما ننظر إلى مرتكبى جريمة العنف باعتبارهم مرتدين ثقافيًا أو فاسدين أخلاقيًا، نصبح عاجزين عن التفكير فى الصلة بين الحداثة والعنف السياسى .

الدولة الحديثة والعنف السياسى

كان عام ١٤٩٢ بداية النهضة الأوروبية ومولد الحداثة السياسية، وكان أيضًا عام إبحار كريستوفر كولومبس إلى العالم الجديد، والعالم الذى هزمت فيه جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابيلا دولة - مدينة جرانادا، والتى كان ينظر إليها حينذاك باعتبارها آخر معقل إسلامى فى العالم المسيحى الغربى . ومن ثم، يقف عام ١٤٩٢ باعتباره بوابة لمحاولتين مترابطتين: إحداهما توحيد الأمة، والأخرى قهر العالم .

ولقد قاد توحيد الأمة إلى مولد الدولة - الأمة. واليوم، تتساوى الحداثة السياسية وبداية الديمقراطية . غير أن منظرى القرن التاسع عشر السياسيين - وأبرزهم ماكس ڤبر - أقروا بأن الحداثة السياسية تعتمد على الدولة المركزية المحتكرة للعنف . إن دولة الأمة مركزت وسائل العنف السابقة المتناثرة فى قبضة واحدة، قادرة على

توصيل ضربة كبرى لكل أعداء الأمة، فى الداخل والخارج وكانت أيضًا الشرط الأساسى السياسى للمجتمع المدنى .

وقد فكرت أوروبا، وهى على عتبة الحداثة السياسية، فى الأمة، فى حدود الثقافة والعصر . كانت الأمة فى إسبانيا فرديناند وإيزابيلا، فى البداية وفى المقام الأول، مسيحية . وبدأ توحيد إسبانيا بعملية تطهير إثنى تمَّ عام ١٤٩٢ أيضًا؛ عام توقيع فرديناند وإيزابيلا مرسوم الطرد، وقد صمما لتخليص إسبانيا من اليهود، لقد منحت الدولة الإسبانية الموحدة ليهودها اختيارًا صارمًا: المعمودية(*) أو الترحيل. وقد قدر أن حوالى ٧٠ ألف إسبانى يهودى تحولوا إلى المسيحية، وظلوا فى إسبانيا، فقط لتحل بهم كارثة محاكم التفتيش التى اتهمتهم بالرياء والنفاق. وقد فرَّ ٥٠ ألفًا من ١٣٠ ألفًا الباقين إلى أقاليم الإمبراطورية العثمانية فى شمال أفريقيا والبلقان – حيث لاقوا ترحيبًا حارًا بهم – وعبر حوالى ٨٠ ألفًا الحدود إلى البرتغال. لقد جاء الطرد من إسبانيا عند نهاية القرن الذى شهد طرد اليهود من أوروبا جزءًا بعد جزء . وقد أعطت الدولة الإسبانية، عام ١٤٩٩، أى بعد سبع سنوات[٣] من "مرسوم الطرد"، الاختيار نفسه للمسلمين: التحول أو المغادرة .

يمكن، هكذا، قراءة تاريخ الدولة الحديثة باعتباره تاريخ العصر، عندما نضع معًا نوعىّ ضحايا الحداثة السياسية الأوروبية : ضحايا بناء الدولة فى الداخل، وضحايا الخارج بسبب التوسع الإمبراطورى . لقد لاحظت "حنة أريندت" هذا فى دراستها الضخمة عن الهولوكست وهى دراسة تقف منفردة لسبب واحد – وقبل أن تتحدث عن تفرد الهولوكست، وضعته فى السياق الإمبراطورى للإبادة الجماعية – إن التاريخ، كما خططته، كان تاريخ المستوطنين الأوروبيين وهم يبيدون السكان الأصليين؛ ولقد تعرفت أريندت على تاريخ الإمبريالية، من خلال الأعمال

(*) التنصير عند المسيحيين. (المترجم)

العنصرية، والبيروقراطية، والمؤسسات التى أقيمت خلال التوسع الأوروبى، فى العالم غير الأوروبى : "من خلال التدبيرين(٤) السياسيين الأساسيين للحكم الإمبريالى، أمكن اكتشاف العنصرية فى جنوب أفريقيا، والبيروقراطية فى الجزائر ومصر والهند . " كانت المنطقة الصماء(*) عند حنة أريندت هى " العالم الجديد" . لقد مورست كل من العنصرية والإبادة الجماعية فى المستعمرات الأمريكية، قبل جنوب أفريقيا . إن أقرب إبادة لأكبر عدد من السكان الأصليين الأمريكيين، عن طريق مزيج من المجازر، والأمراض، وانتزاع الناس من مواطنهم، كانت، على أى حال، أول إبادة جماعية مسجلة فى التاريخ الحديث .

إن الفكرة القائلة بأن "الإمبريالية قد خدمت الحضارة بتصفيتها الأجناس الدنيا، من فوق الأرض، قد وجدت تعبيراً واسع الانتشار فى الفكر الأوروبى، فى القرن التاسع عشر، فى العلوم الطبيعية والفلسفة والأنثربولوجيا(**) والسياسة . وقد ادعى لورد ساليسبورى، رئيس الوزراء البريطانى، فى ألبرت هول، فى حديثه الشهير فى ٤ مايو ١٨٩٨ أن "فى وسع المرء تقسيم أمم العالم، تقريبًا، إلى أمم تحيا وأمم تموت" . وكان عمر هتلر حينذاك حوالى تسع سنوات والحال الأوروبى " كان مشبعًا بالإيمان الراسخ، بأن الإمبريالية عملية ضرورية بيولوجياً، وأنها تقود، طبقًا لقوانين الطبيعة، إلى التدمير المحتم للأجناس الدنيا: وكان نموذجها الأمثل هو تسمانيا، وهى جزيرة فى حجم أيرلندا، وصل الكولونياليون الأوروبيون إليها عام ١٨٠٣ ووقعت المذبحة الأولى للسكان الأصليين عام ١٨٠٤ . ومات آخر مواطن أصلى عام ١٨٦٩ . وكانت مصائر مماثلة(٦)، من بين أشياء أخرى، فى انتظار الماديين(***) فى نيوزيلندا، والهيريرويين(****) فى جنوب غرب أفريقيا، الألمانية .

(*) منطقة يفشل الإنسان فيها فى ممارسة العدالة أو التمييز . (المترجم)

(**) علم الأجناس البشرية . (المترجم)

(***) فصيل من الشعب البولينزى الأصلى فى نيوزلندا. (المترجم)

(****) فصيل من شعب البانتو الذى يقطن وسط جنوب غرب أفريقيا. (المترجم) .

كانت العادة الأوروبية، فى بداية القرن العشرين، تميز بين الحروب المتحضرة، والحروب الكولونيالية. وكانت قوانين الحرب تطبق على الحروب بين دول الأمم المتحضرة، ولكن، كما كان يقال، تطبق قوانين الطبيعة على الحروب الكولونيالية، وكان ينظر إلى إفناء الأجناس الدنيا باعتباره ضرورة بيولوجية . ويكتب سفينى ليندكفيست فى " تاريخ القصف بالقنابل "، أن هذا القصف قد نشأ، كطريقة للحرب مناسبة للاستخدام فقط، ضد الخصوم غير المتحضرين، وكانت أول قنبلة، على الإطلاق، قنبلة أُسقطت من طائرة هى قنبلة إيطالية انفجرت فى ١ نوفمبر ١٩١١ فى واحة خارج طرابلس فى شمال أفريقيا، ونفذت أول عملية قصف جوى منظم[٧] قامت بها القوة الجوية الملكية البريطانية ضد الصوماليين عام ١٩٢٠ . وقد اتبعت ألمانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية قوانين الحرب ضد القوى الغربية، لكنها لم تتبعها ضد روسيا، فقد قابل وفاة ٣,٥٪ من السجناء الإنجليز والأمريكيين الذين ماتوا فى الأسر الألمانى ٥٧٪ من السجناء الروس، و٣,٣ مليون فقدوا حياتهم . إن قتل الألمان للروس[٨] تسميمًا بالغاز سبق وحدث فى أوشفيتز، وكان أول قتل كبير تسميمًا بالغاز لسجناء الحرب الروس فى جنوب أوكرانيا، وكان المثقفون والشيوعيون الروس هم أول من قتل بالغاز فى أوشفيتز، ويكتب سفينى ليندكفيست أن خطة النازية قامت على التخلص من حوالى عشرة ملايين روسى مع إبقاء من يظل حيًا كقوة عمل عبودية فى ظل الاحتلال الألمانى، وعندما بدأ القتل الكبير لليهود الأوروبيين فإن العدد الأكبر من السكان اليهود لم يكن من ألمانيا، ولكن من بولندا وروسيا، حيث كانوا يشكلون ١٠٪ من إجمالى السكان، وحوالى ٤٠٪ من سكان الحضر، " وكان هتلر يسعى تحديدًا وراء تلك المناطق . لقد ولد الهولوكست عند نقطة التقاء تقليدين حددا الحضارة الغربية الحديثة : " تقليد العداء للسامية، وتقليد الإبادة الجماعية للشعوب المستعمرة " . إن الفرق فيما يتعلق بقدر الشعب اليهودى هو أنه كان يجب إبادة اليهود جميعًا، وكانوا فى ذلك متفردين، غير أن ذلك كان فى أوروبا فقط .

إن الحقيقة التاريخية لم تكن غائبة عن مثقفى المستعمرات . وقد كتب إيميه سيزار فى بحث مستفيض[9] حول الكولونيالية (١٩٥١) أن تهديمات هتلر كانت فى إطار المتميزين للغاية، الإنسانيين للغاية، بورجوازيى القرن العشرين المسيحيين للغاية"، غير أن البرجوازية الأوروبية ما كانت تستطيع أن تغفر لهتلر " حقيقة أنه طبق الممارسات الكولونيالية، التى طبقت فقط فيما سبق على عرب الجزائر، وعمالى الهند، وزنوج أفريقيا" . ويستعيد[10] فرانز فانون فى **معذبو الأرض** (١٩٦١) " لقد حولت النازية، منذ زمن ليس ببعيد، كل أوروبا إلى مستعمرة حقيقية" .

إن أول إبادة جماعية[11] فى القرن العشرين، كانت المحو الألمانى لشعب الهيريرو فى جنوب غرب أفريقيا عام ١٩٠٤ . لقد تركزت التجارب الطبية الأولى لإيوجين فيشر المتخصص الألمانى فى الوراثة على " علم مزج الأجناس فى معسكر اعتقال الهيريرو» . وكانت مواد بحثه تتشكل من كل من الهيريرو وذرية نساء الهيريرو والرجال الألمان . وقال فيشر «إن المولدين من الهيريرو الألمان، ذوى النسل المختلط، كانوا بدنيًا وعقليًا أدنى من آبائهم الألمان"، وقد قرأ هتلر كتاب فيشر "**مبدأ الوراثة البشرية و الأحوال والعادات الصحية للعنصر** (١٩٢١) بينما كان فى السجن وجعله فيما بعد القائد الموجب لجامعة برلين، حيث كان فيشر يدرس الطب، وكان جوزيف ميخيلى واحدًا من أبرز تلاميذ فيشر، الذين أدخلوا التجارب رديئة السمعة إلى معتقل أوشفيتز .

عنف السكان الأصليين:

إن الخيط الذى يربط الإبادة الجماعية للهيريرو والهولو كست كان وصمة عار العنصرية، التى لم تستخدم فقط لوضع مجموعة ما على حدة باعتبارها عدوًا، لكنها استخدمت أيضًا لمحوها بضمير مستريح . إن مؤرخى الإبادة الجماعية قد وصفوا إجمالاً نصف التاريخ فقط : محو المستوطن للساكن الأصلى . وقد كتب المنظر الثورى[12] فرانتز فانون كيف أن تلك المحاولات كان يمكن أن تستثير حينذاك الساكن

الأصلى ليمحو المستوطن . وغدا يُنظر إلى فانون[١٣] باعتباره نبى العنف، وذلك تبعًا لزعم حنة أريندت، بأن نفوذه كان مسئولاً، فى الأساس، عن تزايد العنف فى أفنية المدارس الأمريكية فى الستينيات، ومع ذلك فإن هؤلاء الذين جاءوا لتكريمه ساعة دفنه حيوه باعتباره رجلاً إنسانيًا . إن مدن فانون تعرفه من جملة له فى كتابه **معذبو الأرض** : " الإنسان الذى أُخضع للكولونيالية يحرر نفسه بالعنف ومن خلاله " . كان ذلك وصفًا لعنف النظام الكولونيالى، ولحقيقة أن العنف كان أساسيًا لإنتاج العلاقة بين المستوطن والساكن الأصلى وتواصل هذه العلاقة . كان هنالك ادعاء أن العنف المضاد للكولونيالية ليس إعلانًا أو مظهرًا غير عقلانى، لكنه ينتمى إلى متن الحداثة والتقدم، إنه فى الحقيقة قابلة التاريخ ومولدته . وأخيرًا، والأكثر أهمية، إن ذلك كان تحذيرًا، بأننا نحتاج إلى أكثر من الاحتفال بقلب المناضد هذا، نحتاج إلى التفكير فى كل ملابسات الضحايا الذين يتحولون إلى قتلة .

إننا نجد فى فانون هاجس الساكن الأصلى الذى تحول إلى مقترف للجرم، الساكن الأصلى الذى يقتل ليس لمجرد محو إنسانية الآخر، ولكن للدفاع عن إنسانيته هو أو إنسانيتها هى، والتأرجح بين الشىء ونقيضه، والذى لابد أن يستنفر بشرًا آخرين مثلنا . إن أحدًا لم يفهم دافع الإبادة الجماعية أفضل من عالم النفس المارتينيكى المولد هذا، والمقاتل الجزائرى من أجل الحرية. ويصر فانون على أن عنف الساكن الأصلى، هو عنف هؤلاء الذين طرحوا جانبًا زمن أن كانوا ضحايا، ليصبحوا سادة حياتهم هم، وقد كتب :

« إنه[١٤] كان ضمن من لم يكفوا قط عن القول بأن اللغة الوحيدة التى يفهمها هى لغة القوة، ويقرر أن تكون القوة أداته للتعبير. إن الحجة التى يختارها الساكن الأصلى قد أسسها المستوطن وأصبح الساكن الأصلى الآن، وقد قلبت المناضد بطريقة تثير السخرية، هو الذى يؤكد أن الكولونيالى لا يفهم شيئًا غير القوة".

إن دليل إنسانية الساكن الأصلى، عند فانون، لا يكمن فقط فى الرغبة لقتل المستوطنين، ولكن فى الرغبة للمخاطرة بحياته هو أو حياتها هى .

إن قراءة فانون تقتضي فهم، ليس فقط الضرر الذي يشعل الساكن الأصلي، ولكن أيضًا الخوف الذي يشعل عنف المستوطن، إن أي مُطلع[١٥] على تاريخ الأبارتهيد في جنوب أفريقيا سوف يعرف يقينًا أن الأمر لم يكن ببساطة هو الجشع - الرغبة في الاستحواذ على ثمار القهر - لكنه كان الخوف أيضًا، شبح الإبادة الجماعية، الذي صلّب قرار بيض جنوب أفريقيا ضد رياح التغيير التي كانت تهب عبر القارة الأفريقية، إن الشبح نفسه كان يطارد، على ما يبدو، من بقوا أحياء في الهولوكست في إسرائيل، ضحايا الأمس وقد تحولوا إلى جناة اليوم.

لقد اعتقدت قبل الحادي عشر من سبتمبر أن المأساة تتضمن احتمال ربطنا بالإنسانية بوسائل لا يحققها الازدهار، كما اعتقدت أن الرخاء يميل إلى العزلة والمأساة الذي لابد أن تقود إلى الوصل والربط، غير أنني أعرف الآن أن هذه ليست هي الحالة دومًا. إن أحد ردود الفعل التعسة للمأساة هو الشعور الذاتي بالصلاح والاستقامة، فيما يتعلق بحالة المرء الخاصة، البحث عن دليل يحدد موضع المرء الخاص في العالم، حتى في إطار أن يكون ضحية. لقد شاركت زميلاً جديداً هذه الأفكار وكان نائبًا إسرائيليًا لرئيس جامعة أوروبا الوسطى في بودابست، عندما أخبرني أنه كان ممن ظلوا أحياء من أوشفيتز، سألته: ما الدرس الذي خرجت به من هذه الجريمة ؟ فشرح أنه مثله مثل كل ضحايا أوشفيتز إذ قال: " أبداً مرة أخرى ". ورغم ذلك فقد أقر، بعد مدة، أن تلك العبارة تطرح نفسها وفق استنتاجين مختلفين بصورة واضحة : أحدهما، هو يجب ألا يحدث هذا مرة أخرى لشعبي، والآخر، هو أنه يجب ألا يحدث هذا مرة أخرى لأي شعب، وأنا لا أقترح أي شيء بين هذين التأويلين، أي شيء أقل من أن بقاءنا المشترك أحياء هو الآن على المحك.

الحادي عشر من سبتمبر

يظل درس أوشفيتز في مركز مناقشات ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، في المجتمع الأمريكي، يصدم المراقب من الخارج، كيف أن قدرًا كبيرًا من النقاش

الأمريكي حول الإرهاب ينثال عبر ذكرى الهولوكست، أكثر منه عبر أى حدث آخر . وبدت أمريكا، ما بعد الحادى عشر من سبتمبر، مصممة على: " ألا يحدث ذلك مرة أخرى" ورغم الفروق المهمة بين الإبادة الجماعية والإرهاب، فإنهما يتقاسمان سمة بارزة هى أن كليهما يستهدف السكان المدنيين . إلى أى مدى يكشف الجناة عن الاتجاه الفعلى لهم من خلال الصورة التى يضعون فيها ضحاياهم ثقافيًا ؟ ليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن النقاش حول هذه القضية يلتف حول العلاقة بين الهُوية الثقافية والسياسية، ويلتف فى حالة الحادى عشر من سبتمبر، حول العلاقة بين الأصولية الدينية والإرهاب السياسى، ولقد كتبت هذا الكتاب ليكون مساهمة متواضعة فى هذا النقاش . إن هذه المحاولة التأويلية تسعى، قبل تقديمها لنتائج البحث الأصلية، إلى شرح الأحداث السياسية، لا سيما أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فى ضوء صدامات سياسية اتخذت شكلاً تاريخيًا أكثر من تناولها باعتبارها ناتج مواريث ثقافية عنيدة .

إن الكتاب مقسم حقًا إلى قسمين، يتكون الجزء الأول من فصل واحد وهو يقدم نقدًا للتأويلات الثقافية للسياسة، والذى أسميه " حديث الثقافة" وهو يطرح سبيلاً آخر للتفكير حول الإسلام السياسى، حيث إنه يقتفى أثر تطورات النزعات والميول المختلفة، بما فى ذلك الصعود الحديث للحركة الإرهابية. وتشرح الفصول اللاحقة كيف أن الإرهاب الإسلامى، وهو حتى الآن ظاهرة هامشية، غدا يحتل موقعًا أساسيًا فى سياسة الإسلاميين، وهو يوفر، فى ضوء ذلك، تأويلاً بديلاً للحادى عشر من سبتمبر. إننى أقول إنه قبلما يجرى تصوير صراع عميق للحضارات، فإن الحادى عشر من سبتمبر قد نتج من التاريخ الحديث، تاريخ "الحرب الباردة" الأخيرة، إننى أحدد وأعرف " الحرب الباردة " الأخيرة. باعتبارها استمرارًا لنهاية الحرب الأمريكية فى فيتنام حتى سقوط الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠، مع حقبة الحرب بالوكالة، امتدادًا للحرب الحديثة فى العراق؛ إذ لو كانت الحرب فى فيتنام هى آخر ارتباطات " الحرب الباردة " التى شاركت فيها القوات البرية الأمريكية مباشرة بأعداد كبيرة، فإن الحرب فى العراق تحدد الارتباط الأمريكى الأول، فيما بعد " الحرب الباردة " والذى رُفع فيه ذلك الخطر كليًا، وتجيء حقبة الحروب بالوكالة فيما بين هذين الارتباطين .

إن " الحرب الباردة " الأخيرة كانت حربًا بالوكالة، يميزها تطوران، وكان كل من هذين التطورين مبادرة متميزة للسياسة الخارجية لإدارة ريجان، كما أنهما يؤكدان أيضًا تشابهات مهمة بين إدارة ريجان، وإدارة بوش الحالية، حيث يصوران الاتجاه العقلى " للحرب على الإرهاب " بعد الحادى عشر من سبتمبر .

لقد كانت التغيرات فى السياسة الخارجية، خلال حقبة ريجان، ردود فعل للإحاطة الثورية بالديكتاتوريات المناصرة لأمريكيا، وقد نظرت إدارة ريجان إلى تلك الثورات، وخاصة ثورة الساندينستا عام ١٩٧٩ فى نيكاراجوا والثورة الإسلامية فى إيران، باعتبارها تطرح توجهًا، بعد فيتنام، لمن يقفون فى الاتجاه المضاد أو النقيض . ووصلت إدارة ريجان، فى مواجهة تلك الخلفية، إلى أن أمريكا كانت تعد لخوض الحرب الخطأ، الحرب ضد حشد القوات السوفيتية فى سهول أوروبا، تلك الحرب التى كانت من المحتمل ألا تحدث أبدًا، ودعا ريجان أمريكا إلى شن الحرب التى كانت جارية بالفعل: الحرب ضد رجال العصابات المقاتلين، الذين وصلوا إلى السلطة باعتبارهم وطنيى اليوم، من جنوب أفريقيا حتى أمريكا الوسطى . وصورت إدارة ريجان الوطنيين المحاربين باعتبارهم وكلاء السوفيت، وأدى التحول فى النظرة إلى تحويل فى الاستراتيجية وإلى اسم جديد : " نزاع ضئيل الحدة "، وكانت هذه المبادرة هى الصفة الأولى المتميزة التى حددت السياسة الخارجية لإدارة ريجان .

وكانت المبادرة الثانية هى التحول من " الاحتواء " إلى التراجع والانسحاب " التى دعت إلى إخضاع كل الوسائل لنهاية واحدة: الحرب الكلية ضد " إمبراطورية الشر" وقد بدأت هذه المخاطر، رغم تغليفها بلغة مفرطة أخلاقيًا، بـ " ارتباط بناء "، يفتقد الحساسية الأخلاقية مع نظام الأبارتهيد فى جنوب أفريقيا . ولما كانت أمريكا الرسمية قد اتفقت مع بريتوريا، فإن الأخيرة اتجهت إلى التسلح بالإرهاب السياسى، باعتباره أكثر تأثيرًا لتقويض الحكومات الوطنية المقاتلة فى المستعمرات البرتغالية التى تحررت حديثًا، حكومتى موزمبيق وأنجولا . وكما تحولت أرض معركة " الحرب الباردة " من جنوب أفريقيا إلى أمريكا الوسطى وآسيا الوسطى، فى أواخر السبعينيات، وحل الموقف الأمريكى الرقيق نحو الإرهاب السياسى إلى عناق بلا حياء .

فقد كانت كل من الكونترا فى نيكاراجوا، والقاعدة فيما بعد (والطالبان) فى أفغانستان حلفاء أمريكا فى أثناء " الحرب الباردة ". إن ما قُدم لهما من دعم قد كشف عن تصميم لكسب " الحرب الباردة بكل الوسائل الضرورية، وتلك عبارة يمكن أن تشير فقط إلى أساليب ظالمة، وكانت نتائج هذا التحالف مُرة المذاق واحتاجت أحداث الحادى عشر من سبتمبر إلى فهمها، أولاً وقبل كل شيء، باعتبارها العمل الذى لم ينته لـ " الحرب الباردة " .

إن وجهة نظرى يشكلها المكان، إلى حد ما، وذلك المكان هو أفريقيا . لقد كنت محاضرًا شابًا فى جامعة دار السلام من عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٧٩، وكما تطابقت هزيمة الولايات المتحدة فى فيتنام عام ١٩٧٥ مع انهيار الإمبراطورية البرتغالية، آخر القوى الكولونيالية الأوروبية فى أفريقيا، تحول مركز ثقل " الحرب الباردة "، من جنوب شرق آسيا إلى أفريقيا الجنوبية . وقد شاركت منذ عام ١٩٨٠، عندما عدت إلى جامعة ماكيريرى فى مسقط رأسى فى كمبالا الأوغندية، وحتى نهاية السنوات الثلاث التى ظللت خلالها فى جامعة كيب تاون فى جنوب أفريقيا فى أواخر التسعينيات، شاركت فى النقاشات الجارية حول العنف السياسى المحتدم فى أفريقيا المستقلة: ماذا كان علينا أن نفعل مع حركات مثل "رينامو" فى موزمبيق، وبصورة متزايدة، مع "حزب أنكاثا للحرية" فى جنوب أفريقيا(*)؟ والذين استهدفوا السكان المدنيين أكثر مما استهدفوا تمركزات الحشود العسكرية، وغدت تلك أول تجربة لجيلى عن الإرهاب السياسى، وبحثنا، ونحن نحذر من الصحافة والسياسيين الذين توظفهم المؤسسة والذين وصفوا هذا الشكل منْ العنف وحللوه باعتباره مظهرًا ثقافيًا منكودًا عنف "قَبلَى"، عنف "الأسود ضد الأسود "، بحثنا نحن عن تفسيرات لذلك فى الساحة السياسية سريعة التغير . كنت فى الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك، حيث غادرت كيب تاون عام ١٩٩٩ وشاركت أكثر فى اللقاءات الليلية الطويلة، والمناقشات حول الحادى عشر من سبتمبر ، وعارضت هؤلاء الذين اعتقدوا أنها تشير إلى الهجمة العنيفة الضارية " للإرهاب الإسلامى "، على المناطق الأمريكية المركزية

(*) حركات انشقاقية ضد الحركات الوطنية الأصلية (المترجم).

والحيوية، كنت كلما شاركت أكثر فى تلك المناقشات، تذكرت أكثر تلك التفسيرات الثقافية التى سمعتها منذ عقد مضى فى أفريقيا الجنوبية .

ليس لدى نية للإقلال من دلالة الإثنية السياسية أو الإسلام السياسى، باعتباره نتاجًا لمؤامرة أمريكية فى " الحرب الباردة " . إن الإسلام السياسى، مثله مثل التفكير الذى ينتصر " للقبلية" ناتج محلى، أكثر منه مستورد أجنبى غير أن أيًا منهما لم يولد معزولاً، لقد أنتج كلاهما فى تضاد مع القوى الغربية. وولد الإسلام السياسى فى المرحلة الكولونيالية، غير أنه لم ينشئ حركة إرهابية حتى " الحرب الباردة " . ما الظروف الخاصة التى جعلت تحول الإرهاب من اتجاه أيديولوجى إلى قوة سياسية مسألة ممكنة؟ لقد كانت هنالك أرضية مشتركة غذت كلاً من عنف " الأسود – ضد الأسود "، فى أفريقيا منذ أواسط السبعينيات، و " الإرهاب الإسلامى " فى العالم منذ أوائل الثمانينيات . إن تلك الأرضية المشتركة كانت هى " الحرب الباردة " الأخيرة بعد فيتنام، وكل من الاتجاهين السياسيين قد تبلور كاستراتيجية لكسب " الحرب الباردة " حتى وإن كان قد صنع من مواد خام محلية .

وأقول لهؤلاء الذين انتابهم القلق لأننى أرى الحادى عشر من سبتمبر عبر عدسات صُنعت فى حقبة مبكرة – حقبة " الحرب الباردة " الأخيرة فى أفريقيا – أقول لهم إننى آمل فقط أن تجيء هذه الرؤية بإضاءة جديدة لموضوع يثير قلقًا عامًا، دون إخفاء الإبهام والغموض على السبل التى شكل بها الحادى عشر من سبتمبر ، بحق، نقطة فاصلة بالنسبة لأمريكا والعالم .

مسلم صالح ومسلم طالح

لقد انتابنى انطباع وأنا أستمع إلى المناقشة العامة فى أمريكا، بعد الحادى عشر من سبتمبر ، بأن قوة عظمى قد أصابها النسيان وفقدان الذاكرة، حيث إن الإقرار بدلالة الحقبة التى وقع فيها الحدث يجب ألا يعنى بالضرورة انتزاعه من سياقه التاريخى والسياسى. لقد شجعت أمريكا الرسمية، لسوء الحظ، هذا تحديداً؛ فبعد

إشارة قيلت دون انتباه سعيًا وراء " حرب صليبية "، أخذ الرئيس بوش يفرق بين " مسلمين صالحين " و"مسلمين طالحين " وكان" المسلمون الطالحون "، من وجهة النظر هذه، هم المسئولون بوضوح عن الإرهاب، وقد بدا، فى الوقت نفسه، أن الرئيس يؤكد للأمريكيين أن "المسلمين الصالحين " يشتاقون إلى تبرئة أسمائهم من هذه الجريمة الرهيبة، وأنهم سوف يدعموننا، دون شك، فى الحرب ضد " هم "، وكان هذا عجزًا عن إخفاء الرسالة الأساسية لهذا الخطاب :" المفترض أن كل مسلم " طالح "، ما لم يثبت أنه "صالح ". إن كل المسلمين قد أصبحوا الآن ملزمين بأن يثبتوا أوراق اعتمادهم بالالتحاق بالحرب ضد " المسلمين الطالحين " .

إن الأحكام بـ " الصالح " و " الطالح " تشير إلى الهُوية السياسية للمسلم، لا إلى هُويته الثقافية أو الدينية، وكان الأمر بالنسبة لهؤلاء الذين فكروا بمشقة فى الهوية الثقافية (والآن الهُوية الدينية) باعتبارها متميزة عن الهُوية السياسية، لا ينسون المأزق الذى واجهه المجندون إجباريًا للقوة الغربية . ألم يكن اليهودى العلمانى فى أوروبا وأمريكا، أولاً، ثم فى ألمانيا النازية، مجبرًا على الإقرار والاعتراف بأن الحداثة الغربية قد حولت " اليهودى " من مجرد هُوية ثقافية ودينية إلى هوية سياسية ؟ وألم تكن الصهيونية التاريخية هى رد اليهود العلمانيين الذين أقنعوا أن اختياراتهم السياسية مقصورة على هذه الهُوية السياسة التى فرضت عليهم؟ ليس هنالك مسلمون "صالحون"، متاحون فى الحال، وقد انشقوا عن المسلمين " الطالحين "، الأمر الذى يسمح بعناق الأولين، ونبذ الآخرين، تمامًا، كما أنه ليس هنالك مسيحيون أو يهود " صالحون " انشقوا عن " الطالحين " منهم .

إن افتراض وجود مثل تلك الأنساق يخفى رفض مخاطبة فشلنا الخاص فى تقديم تحليل سياسى لأزماتنا. إننى آمل أن يسهم هذا الكتاب فى مثل ذلك التحليل كمقدمة لوضع إطار لاختيارات حقيقية .

الـهـوامـش

(١) العبارة خاصة ببرنارد لويس، غير أنها عمِّت عندما استعملها صمويل هنتنجتون.

Samuel Huntington, "The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order" (New York: Simon and Schuster, 1996).

(٢) عنف الهولوكوست لمناقشة مجموعة عنف كَشْرْ، انظر:

Ervin Staub, "The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence" (Cambridge: Cambridge University Press, 1989). On the relationship between evil and historical time, see Paul Ricoeur, "The Symbolism of Evil" (Boston: Beacon Press, 1969); Alain Badiou, "Ethics: An Essay on the Understanding of Evil "(London: Verso, 2001); Georges Bataille, "Literature and Evil, tr." by Alastair Hamilton (London & New York: Boyars, 1997); Malcolm Bull, ed., "Apocalypse Theory and the Ends of the World" (Oxford: Blackwell, 1995); and Alenka Zupancic, "Ethic of the Real: Kant, Lacan" (London: Verso. 2000). I am thankful to Robert Meister of the University of California, Santa Cruz, for suggesting this latter set of readings.

(3) Karen Armstrong, "The Battle for God: A History of Fundamentalism" (New York: Alfred A. Knopf, 2000), pp. 3-8.

(4) Hannah Arentdt, "The Origins of Totalitarianism New York: Harcourt Brace, 1975), p. 207.

(٥) كتب هربرت سبنسر في السوشيال ستاتيكس (١٨٥٠): "أن القوى التي تعد خطة كبرى للسعادة الغامرة، دون أن تضع في حسبانها المعاناة الطارئة، تُفنى تلك الأقسام من البشر التي تقف في طريقها". هذا هو مجرى التفكير الذي اتبعه شاريس ليل منذ عشرين عاما في "مبادئ الجيولوجيا"، إذ لو "كانت الأنواع الأكثر أهمية وضالة، قد قامت بذبح الآلاف منها، فلماذا لا يجب علينا، نحن سادة الإبداع، أن نفعل المثل؟". وقد أكد تلميذه شايس داروين في "أصل الإنسان" (١٨٧١) أنه "في مرحلة ما مستقبلية، ليست بعيدة للغاية، باعتبار حسابها بالقرون، فإن السلالات المتحضرة من الناس، سوف تقوم يقينًا، في الغالب، بإبادة السلالات المتوحشة واستبدالها على امتداد العالم ويعلق سفن ليندكوفست وهو يقوم بعملية مسح للفكر الأوروبي حول الإبادة العرقية بقوله: "لقد غدا مقبولا بعد داروين أن تهز كتفيك للإبادة العرقية. وإن أحسست بالاضطراب، فإنك تبدي مجرد افتقارك للتعليم" انظر:=

Sven Lindqvist, "Exterminate All the Brutes": One Man's Odyssey into the Heart of Darkness = and the Origins of European Genocide (New York: New Press, 1996), pp. 117, 107, 130.

(٦) إن الاقتباسات كلها، باستثناء ما هو مشار إليه، مأخوذة من:

Lindqvist, "Exterminate All the Brutes," pp. 141, 119, 149-51, 158,160.

(7) Sven Lindqvist, "A History of Bombing" (New York: New Press, 2001), pp. 1-2.

(8) Arno J. Mayer, "Why Did the Heavens Not Darken?. The Final Solution in History" (New York: Pantheon, 1988).

(9) Aime Cesaire, "Discours sur le colonialisme" (Paris: Presence Africaine, 1995), p. 12.

(10) Frantz Fanon, "The Wretched of the Earth" (London: Penguin, 1967), p. 75; for a discussion, see David Macey, "Frantz Fanon, A Biography" (New York: Picador, 2000), pp. 471, 111.

(11) Mahmood Mamdani, "When Victims Become Killers: Colonialism, Nativism, and Genocide in Rwanda" (Princeton: Princeton University Press, 2001), pp.10-13.

(12) Fanon, "Wretched of the Earth"; also see Macey, "Frantz Fanon," p. 22.

(13) Hannah Arendt, "On Violence" (New York: Harcourt Brace, 1970).

(14) Fanon, "Wretched of the Earth," pp. 33,66,68,73.

(١٥) من أجل تقدير صحفي، خوفًا من إبادة عرقية، قد تقع في مخيلة أبيض من جنوب أفريقيا انظر:

Rian Malan, "My Traitor's Heart: A South African Exile Returns to Face His Country, His Tribe, and His Conscience" (New York: Atlantic Monthly Press, 1990).

الفصل الأول

خطاب الثقافة

أو

كيف لا نتحدث عن الإسلام والسياسة ؟

يشار إلى هذه اللحظة من التاريخ بعد الحرب الباردة باعتبارها حقبة العولمة، وهى حقبة تتميز بسطوة وسرعة تسيس تعبير واحد: الثقافة . لقد ناقشنا فى أثناء الحرب الباردة[1] التطورات الاقتصادية - الاجتماعية أو السياسية، مثل الفقر والثروة، الديمقراطية والدكتاتورية، باعتبارها أحداثًا محلية فى الأساس. إن هذا الفهم الجديد للثقافة أقل اجتماعيًا عنه سياسيًا، وهو أقل ارتباطًا بوقائع بلدان بذاتها، وأكثر ارتباطًا بالأحداث السياسية الكونية مثل تحطيم " سور برلين " أو الحادى عشر من سبتمبر . إن خطاب الثقافة، على غير مثال الثقافة التى درسها علماء الإنسان - وجهًا لوجه، بحميمية محلية، ومعاشة - خطاب الثقافة هذا مسيس بصورة عالية ويجىء جغرافيًا فى حزم كبرى .

إن خطاب الثقافة يفترض أن لكل ثقافة جوهرًا محسوسًا يحددها، ومن ثم فإنها تفسر السياسة باعتبارها نتاج هذا الجوهر، وعلى سبيل المثال فإن خطاب السياسة بعد الحادى عشر من سبتمبر، مثلاً حدد عملية ممارسة " الإرهاب " ووصفها وفسرها باعتبارها عملية " إسلامية " . ومن ثم، قُدم الإرهاب الإسلامى باعتباره وصفًا وتفسيرًا لأحداث الحادى عشر من سبتمبر . لم تعد القضية هى السوق (النظام الرأسمالى)، ولا الدولة (مشكلة الديمقراطية) لكنها الثقافة (الحداثة) التى قيل إنها الحد الفاصل بين هؤلاء الذين هم فى جانب الوجود السلمى المدنى، وهؤلاء الذين يميلون نحو الرعب، ويُقال إن عالمنا مقسم بين هؤلاء الذين يأخذون بالحداثة وهؤلاء الذين يأخذون بما قبل الحداثة . إن من يأخذون بالحداثة يصنعون الثقافة وهم سادتها، ويُقال إن الذين يأخذون بما قبل الحداثة ليسوا غير قنوات، ولكن إن كانت ثقافة ما قبل الحداثة لم تعد حقًا غير اختلاجة عضو ضامر، فإن من يأخذون بثقافة ما قبل الحداثة يمكن أن

يعتبروا غير مسئولين عن أفعالهم، ووجهة النظر هذه تقتضى بأن يقمعوا جماعياً - إن لم يكن فردياً ويحتجزوا أسرى، حتى دون شروط - لصالح الحضارة .

إن " خطاب الثقافة " فى أمريكا ما بعد الحادى عشر من سبتمبر ، قد ركز على الإسلام والمسلمين الذين افترض أنهم صنعوا حضارة، فى بداية الخلق فقط، باعتبارها فعلاً نبوياً غير عادى، على نحو ما . ويبدو أن المسلمين قد سايروا الثقافة فقط، بعد ذلك .

وطبقًا لما يراه البعض فإن ثقافتنا تبدو بلا تاريخ، بلا سياسة، بلا حوار، حتى أنه يبدو بوضوح أن كل المسلمين، مجرد أناس طالحين، وطبقًا لما يراه آخرون هنالك تاريخ وسياسة، بل حتى حوارات، وهنالك مسلمون صالحون ومسلمون طالحون، ويبدو أن التاريخ، فى كل من الرؤيتين، قد تحجر، فى تقاليد لا حياة فيها، لأناس أثريين، يقطنون أراضى أثرية . أو يمكن أن تقف الثقافة هنا، وكأنها نوع ما من العادة، من النشاط الغريزى، الذى تحكمه قواعد مدونة فى نصوص تأسيسية مبكرة، عادة ما تكون دينية، وجرى تحنيطها فى منتجات حضارية مبكرة.

إننا فى حاجة للتمييز بين روايتين متضادتين عن الثقافة، إحداهما تفكر فى أناس ما قبل الحداثة باعتبارهم لم يأخذوا بالحداثة بعد، فهم إما يبقون متخلفين، أن يضعوا أقدامهم على درب الحداثة . ويصور الخطاب الآخر من يأخذون بما قبل الحداثة باعتبارهم أيضًا معادين للحداثة، وبينما يشجع التصور الأول العلاقات القائمة على حب الخير، فإن المفهوم الآخر ينتج الخوف والشرطة الإجهاضية أو الفعل العسكرى .

إن الفرق واضح، لو وضعنا الصور المبكرة للأفارقة فى مواجهة الخطاب المعاصر عن المسلمين، وقد وُصم الأفارقة خلال الحرب الباردة بأنهم المثال الأساسى للشعوب التى لا قدرة لها على الحداثة، وحل، فى نهاية الحرب الباردة، الإسلام والشرق الأوسط محل أفريقيا باعتبارهما النواة الصلبة لما قبل الحداثة، فى عالم سريع العولمة . إن الفرق بين الفهم المعاصر لأفريقيا والشرق الأوسط الإسلامى فى هذا

الصدد هو : أنه بينما ينظر إلى أفريقيا باعتبارها " عاجزة" عن الحداثة، فإنه ينظر إلى الإسلام المتصلب، ليس فقط باعتباره عاجزًا لكنه أيضًا مقاوم للحداثة. وبينما يقال إن الأفارقة يقدمون أنفسهم ضحايا، فإنه يقال عن النواة الصلبة الإسلامية إنها تميل إلى أخذ الآخرين معها إلى عالم الغيب. هنالك تماثل مثير للاهتمام بين حوار ما قبل الحادى عشر من سبتمبر ، حول الإرهاب فى أفريقيا، وحوار ما بعد الحادى عشر من سبتمبر حول الإرهاب الكونى . وقد انصب نقاش أفريقيا، فى البداية أيضًا، كما انصب النقاش الكونى الجارى أساسًا، أو كلية، على التفسيرات الداخلية لانتشار الإرهاب . وهنالك مثال نادر، وإن كانت له دلالته(٢)، جُمع " القبليون" الأفريقيون و"الأصوليون " الإسلاميون معًا باعتبارهم العدو . وقد جادل أرييه نيير، الرئيس السابق لـ " هيومان رايتس واتش " الذى أصبح الآن رئيس " معهد المجتمع المفتوح – تمويل جورج سوروس "، فى الصفحة التى تواجه الصفحة الافتتاحية فى الواشنطن بوست فقال إن هذه القضية أكبر من الإسلام، إنها تضم القبليين والأصوليين والأقسام المقابلة للنازيين المعاصرين، والذين عرَّفوا الحداثة باعتبارها عدوًا لهم .

يقال عن شعوب ما قبل الحداثة إنها لا تمتلك قدرة إبداعية، وعن الأصوليين المعادين للحداثة بأن لديهم قدرة عميقة ليكونوا مدمرين، ويعتبر التدمير دليلاً على أنه لا يوجد عند هؤلاء أى تقدير لحياة الإنسان، بما فى ذلك حياتهم هم. إن هذا يقينًا هو سبب أن " خطاب الثقافة " قد أصبح مادة حكايات الصفحة الأولى من الأخبار يقال الآن إن الثقافة مسألة حياة أو موت، وهذا النوع من التفكير يبعث بعمق على تذكر نبذات من التاريخ الكولونيالى الحديث؛ حيث إن هذا التاريخ يصم هؤلاء الذين أوصد فى وجههم باب الحداثة باعتبارهم أعداء الحداثة، لأنهم يقاومون إغلاق الباب فى وجههم، وذلك يفترض أن السلوك العام للناس، وخاصة سلوكهم السياسى، يمكن قراءته من عاداتهم وأعرافهم الدينية أو التقليدية، ولكن هل يمكن أن يكون الإنسان، ذكرًا أم أنثى، الإنسان الذى يتمسك حرفيًا بدينه، إرهابيًا محتملاً ؟ وإن فكر شخص ما فى النص الدينى باعتباره نصًا استعاريًا أو مجازيًا، فإن ذلك يجعله فى

وضع أكثر مناسبة للحياة المدنية والتسامح الذى يدعو إليه؟ وفى وسع المرء أن يسأل:
كيف يمكن أن تترجم القراءة الحرفية للنصوص الدينية إلى قرصنة وقتل وإرهاب ؟

روايتان لخطاب الثقافة

يرجع تاريخ خطاب الثقافة المعاصر إلى نهاية الحرب الباردة وقد ظهر فى تأويلين حيث إنه تاريخ يدعى تأويلاً يميز السياسة عن الثقافة، حاليًا وعبر التاريخ، غير أن أيًا من التأويلين لخطاب الثقافة هو، فى الجوهر، عمل المؤرخين، وإن كان هنالك أب مؤسس لخطاب الثقافة المعاصر، فهو برنارد لويس، المستشرق المعروف جيداً من برينسيتون، والذى كان مستشاراً للمؤسسة السياسية للولايات المتحدة، إن العبارة الشهيرة لخطاب الثقافة المعاصرة - " صدام الحضارات " - قد أُخذ من عنوان الجزء الختامى من مقالة **جذور غضب المسلمين** ١٩٩٠، ولقد وفر النص الصادر عن لويس إلهامًا لتأويل ثان أشد فجاجة، كتبه صامويل هنتنجتون، وهو عالم سياسى فى هارفارد، ويرجع تاريخ انخراطه فى المؤسسة السياسية للولايات المتحدة منذ حقبة حرب فيتنام. وبينما حصر لويس أطروحته فى العلاقات التاريخية بين حضارتين أسماهما " الحضارة الإسلامية " و " الحضارة ذات الجذور اليهودية - المسيحية "، فإن هنتنجتون كان أبعد طموحًا إذ وسع من أطروحة لويس ليغطى العالم أجمع.

وزعم هنتنجتون، فى مقال له، بعنوان **صراع الحضارات** (١٩٩٣)، نُشر فى الفورين أفيرز " أن فرضيته[٣] تقوم على أن المصدر الرئيسى للنزاع، فى العالم الجديد، لن يكون أيديولوجيًا أو اقتصاديًا فى الأساس، وأن الانقسامات العظمى فى صفوف الجنس البشرى والمصدر المهيمن للنزاع سوف يكون ثقافيًا، وسوف تظل دول - الأمم هى الفاعل الأكثر قوة فى شئون العالم، غير أن النزاعات الرئيسية للسياسة الكونية سوف تقع بين أمم ومجموعات من حضارات مختلفة، وخطوط الصراع بين الحضارات سوف تكون هى خطوط معارك المستقبل " .

لقد قامت حجة هنتنجتون[٤] على فكرتين منذ نهاية الحرب الباردة ثم استبدال الستار الحديدى للأيدلولوچيا بستار الثقافة الرقيق والذى تم نسجه عبر " حدود الإسلام الدموية ". إن هنتنجتونَ يقولب الإسلام فى دور عدو للحضارة وبذا يمكن أن يكون المسلمون، طبقًا لوجهة النظر هذه، طالحين فقط .

ولم يقف هنتنجتون وحيدًا فى ذلك فقد لحق به كثيرون فى ترجمة وجهة نظره إلى رؤية تلقى مشاركة واسعة فى دوائر صقور السياسة ومؤسسة المفكرين، وتجسدت الدفعة الشديدة للرؤية الجديدة فى أن الحرب الأيديولوجية، التى عرفناها بالحرب الباردة، لم تكن غير رافع - ستارة، ضيق الأفق، من أجل نزاع كونى سوف يحتاج فيه " الغرب " إلى تنسيق المدى الكلى لموارده الثقافية وضبطه . لقد كانت الحرب الباردة، بالنسبة لويليام ليند[٥]، هى الحرب الأخيرة فى سلسلة " الحروب الأهلية الغربية "، التى بدأت فى القرن السابع عشر بأوروبا، والتى يقول فيها، إنه بنهاية الحرب الباردة تقولبت خطوط النزاع الكونى فى عبارات ثقافية، ورأى ريجيس ديبراى نفسه[٦]، وهو مشارك نشط فى النضالات الأيديولوجية للحرب الباردة، الحقبة الجديدة مُحددة ومُعرفة بحدة بـ " الخطر الأخضر " - ويعبر اللون الأخضر، على الأرجح، عن الإسلام - الذى هو أشد خطرًا من رعب السنوات الماضية الأحمر؛ لأنه يفتقد الكبح الذاتى العقلانى: "إننا عندما نتكلم بصورة أوسع، فإن الأخضر قد حل محل الأحمر كقوة صاعدة ... إن الشمال النووى والعقلانى يصد الشمال النووى العقلانى، وليس الجنوب التقليدى الصوفى" .

إن فكرة صدام الحضارات مع حضارات تسير عبر التاريخ مثل كتائب مسلحة دون حوارات داخلية له أو تبادل ذى دلالة فقدت مصداقيتها، بصورة واسعة. إن المرحوم إدوارد سعيد[٧]، الباحث الفلسطينى المختص بالعلوم والآداب، الذى كان أستاذًا فى جامعة كولومبيا، قد جادل بحجج قوية، من أجل قراءة تاريخية أكثر وقراءة ضيقة الأفق أقل للثقافة، حيث إنه يدرك أن الصدام داخل الحضارات أكثر من الصدام فيما بينها : " بالنسبة لهنتنجتون، فإن ما يسميه "بالهوية الحضارية، إنما هو أمر جامد لا يقلقه شيء مثل حجرة مليئة بالأثاث فى خلفية مسكنك ".

وكـان لويس برنارد هو الذى قـدم المزيد من التـأويل، الأكـثـر دوامًـا، لخطاب الثقافة، إنه يشير إلى التاريخ ويقر بالصدام " داخل " الحضارات ويفكر فى التاريخ باعتباره حركة كتل ثقافية كبيرة تسمى الحضارات أكثر مما يفكر فيه باعتباره رؤية كونية غير مرتبطة بالتاريخ، رؤية عن أرمـاجيدون(*) قـادمة . غير أنـه يكتب عن الحضارة الإسلامية وكأنها كانت مظهرًا كاذبًا لجوهر مكون من عقيدة ثابتة على حالها، عقيدة يقال إن المسلمين يجدون فيها ملاذهم فى أوقات الأزمات " هنالك شىء ما[٨] فى الثقافة الدينية للإسلام "، يكتب لويس فى " جذور غضب المسلمين "، شيئًا ألهم أكثر الفلاحين أو الباعة الجائلين الأدنى وضعًا الشعور بالوقار والدماثة نحو الآخرين، الأمر الذى لم تتجاوزه الحضارات الأخرى، ونادرًا ما ضاهته . ومع ذلك، ففى لحظات الاضطراب والتمزق، عندما تستثار العواطف الأكثر عمقًا، فإن هذا الوقار والدماثة نحو الآخرين يمكن أن يفسح الطريق لمزيج متفجر من الغضب والكراهية، التى تدفع، حتى حكومات بلد تليد ومتحضر- بل حتى المتحدث باسم عقيدة دينية كبرى وأخلاقية - إلى اعتناق السطو والاغتيال والسعى للحصول على قدوة حقيقية لمثل تلك الأفعال فى حياة نبيهم .

لقد طـور لويس تفاصيل فكرته عن الجوهر العقائدى للإسلام فى كتاب كانت صفحاته بروفات عند وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر، غير أنه نشر فيما بعد ذلك بقليل بعنوان مثير هو **ما الذى اختل** ؟ لقد صاغ لويس الزعم الهيجلى القديم القائل بأن الحرية هى الصفة التى تميز الحضارة الغربية، صاغه فى كلمات أخرى، وكتب أنه " بالنسبة للمراقب الغربى الذى رُوض على نظرية " الحرية الغربية " وممارستها، فإن افتقاد الحرية تحديدًا هو الذى يؤكد المتاعب العديدة للغاية لعالم المسلمين "، وقد أضاف إلى هذا[٩] غياب العلمانية، كالتفسير الثانى للفجوة العميقة بين الإسلام

(*) معركة نهائية وحاسمة بين الخير والشر. (المترجم)

المعاصر والحداثة : حتى بدأ نفوذ أفكار الثورة الفرنسية فى التغلغل فى الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر، ويجادل لويس: "إن المجتمع غير الدينى، باعتباره أمراً مرغوبًا أو حتى مصرحًا به، كان غريبًا كلية على الإسلام" .

لقد كان برنارد لويس، وليس صمويل هنتنجتون، هو الذى قدم الدعم الفكرى للرأى القائل بأن هنالك " صالحين "، معارضين للمسلمين " الطالحين "، وهو الرأى الذى غدا القوة الدافعة للسياسة الخارجية الأمريكية. ويبدأ لويس، وهو حريص على تحقيق نتيجة لا لبس فيها للمؤسسة السياسية، بالإقرار بأن " الأصولية ليست هى التقليد الإسلامى الوحيد" و" هنالك تقاليد أخرى " . وأنه " قبل أن يُقرر هذا الموضوع، سوف يكون هناك صراع شاق" . ويحذر المؤسسة السياسية[١٠] من " أننا نحن الغربيين سوف يكون فى وسعنا فعل القليل أو فعل لا شيء " فى هذا الصراع . "... لأن تلك موضوعات يجب أن يقررها المسلمون فيما بينهم " . وهو ينصح بأن الغرب يحتاج "فى تلك الأثناء" – أى بينما يسوى المسلمون حساباتهم – إلى تجنب خطر حقبة أخرى من الحروب الدينية . وبينما أطلق هنتنجتون نفيرًا يدعو به الغرب إلى الاستعداد لصدام الحضارات، كان للويس وجهة نظر أخرى : يجب على الغرب أن يظل متفرجًا بينما يقاتل المسلمون فى حربهم الداخلية، ونحن نغرى الصالحين من المسلمين بالطالحين منهم . وعلى الرغم من هذا الفرق بين الموقفين فإنه ليس فى وسع المرء غير ملاحظة أن كليهما يقف كممثل " للغرب " الرسمى .

إن كان برنارد لويس يقدم دعمًا فكريًا لسياسة إدارة بوش فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر، هو العودة إلى انتعال نعل خشن وقاية من الزلق، فإن نمط الحرب الباردة يركز على دوران " التاريخ" إلى الوراء ، مما يتفق من الناحية السياسية أكثر مع هنتنجتون . إن إدارة بوش مصممة على تعجيل مثل تلك الحرب الأهلية، بدلاً من انتظار انتصار المسلمين " الصالحين " على المسلمين " الطالحين " كما ينصحها لويس. وهى مُعدة، فى حالة الضرورة كما فى العراق، للغزو والسعى إلى تغيير فى النظام، يقصد به تحرير المسلمين " الصالحين " من السيطرة السياسية للطالحين منهم .

إن خطاب الثقافة قد حول الدين أيضًا إلى نسق سياسى، وتنتهى دراسة يقوم بها " فريدوم هاوس " للأنظمة السياسية فى العالم غير الغربى إلى أن الديمقراطية تتلكأ[١١] فى عالم " المسلمين ". ويزعم ستيفن سكوارتز مدير " مشروع الإسلام والديمقراطية " من أجل " مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات "، وكأنه قد تلقى إشارة تنبيهية[١٢] من برنارد لويس، أن جذور الإرهاب تكمن حقًا فى فرع متعصب من فروع الإسلام هو الوهابية، وتشتمل صفحات النيويورك تايمز[١٣] الآن، على صفحات منتظمة من التقارير والتقديرات التى تميز المسلمين الصالحين من الطالحين: المسلمون الصالحون هم العصريون العلمانيون، الذين يتبنون التقاليد والأساليب الغربية، غير أن المسلمين الطالحين هم العقائديون المعادون للحداثة، الذين يسببون الأذى . إن " قائدى الغرب "، اللذين " عينا نفسيهما "، جورج دبليو بوش، والبريطانى تونى بلير رئيس الوزراء، قد تراجعا بطريقة واضحة عن احتضان نمط هنتنجتون للحرب بين الحضارات، إلى نمط لويس الحذر من الوقوف ضد الالتزام بحضارة بكاملها فبعد اللسعة العامة المبكرة لبوش بفكرة الصليبى المعادى للمسلم، جنح هو وبلير للأخذ بتحذير جمهور المستمعين فيما يتعلق بالحاجة إلى تمييز المسلمين " الصالحين " عن المسلمين " الطالحين "، والمفهوم الضمنى واضح، سافر، لا لبس فيه، سواء فى أفغانستان أو فلسطين أو باكستان، يجب احتجاز الإسلام فى حجر صحى، وطرد الشيطان منه بحرب أهلية بين المسلمين .

إن لويس يفتتح[١٤] كتاب **ما الذى اختل ؟** بمناقشة تختزل الألف وثلاثمائة عام، منذ ولد الإسلام فى القرن السابع : لقد جاء بعد " الألف عام الأولى، أو ما يقرب من ذلك، بعد ظهور الإسلام، نضال طويل من أجل إعادة القهر، والذى فتح الطريق أمام الغزو المسيحى لأفريقيا وآسيا " . لقد كان هنالك فى البداية " قهر " ثم تبعه "إعادة القهر"، وقد كان القهر إسلاميًا وإعادة القهر مسيحيًا، ولا تتناسب أية فترة فى التاريخ مع هذا النموذج، نموذج مواجهة المسيحيين " للمسلمين "، أفضل من زمن الحروب الصليبية .

إن واحـدة من أفـضـل الدراسـات[١٥] عن الصـليـبـيـين هـى دراسـة بقلـم المؤرخ السلوفـينى تومـاز مـاسـتناك الـذى أشـار إلى أنه فى تلك اللحظة من التـاريخ غـدا المسلمون هـم العدو، وعندمـا " غدا المجتمع المسيحى واعيًا بذاته عبر الحشد للحرب المقدسة ... كانت اللحظة الأساسية فى الإفصاح عن وعى الكومنولث المسيحى بذاته، هى لحظة إقـامـة العدو المسلم"، إنه حريص على إظهار أن هذا لـم يكن صـحيـحًـا فى القرون الأولى: " عندما وصل المسلمون إلى شبه الجزيرة الأوروبية، مع التوسع العربى فى القرنين السابع والثامن، أصبحـوا فى عيون المسيحيين اللاتينيين، واحدًا من بين هؤلاء الوثنيين أو الكفرة المتوحشين. إنهم لم يختصـوا وسط جمـهور أعداء المسيحيين بمكانة متميزة " .

إن بعض المسيحيين المقاتلين استهدفوا، فى الأساس، كل غير المسيحيين وركزوا، فـيمـا بعد فقط، على المسلمين : " لقد كفت فلسطين عن أن تكون أرض الميـعاد التى جاءت فى العهد القديم، وغدت الأرض المقدسة، وحدد العالم المسيحى، مع الصليبيين فقط، عدوًا عـالميًا وأعلن حـالة الحرب الدائمة ضد الجاهلية " . لم يعـد العـدو مجرد عـدو دنيوى آخـر، وحـول الصليبيون المسلمين إلى شيطان باعتباره الشـر مجـسـدًا، " تشخيص ذات ديانة العداء للمسيح "، وهذا هو السبب فى أن وجهة نظر الصليبيين لم تكن تحـويل المسلمين ولكن استئصـالهم " . إن المسلمين الكافرين ليس لـهم حرية الاختيـار؛ لأنهم لا يستطيعون الاختيـار ما بين التحـول والموت، فقد كان يُنظر إليهم باعتبـار أنهم لا يتغيرون "، وكان " البابوات يبشرون " باستئصـالهم، وكذلك أيضـًا القديس برنارد الذى " أعلن أن قتل الكافر ليس " قتل شخص لآخر، لكنه قتـل يقصد به الإيـذاء، إنه محو للشر، حيث إن موت الوثنى مجد للمسيحى لأن فيه تمجيد المسيح " .

إن برنـارد لويس يعـالج بـالفـعل سلسلة من الصـراعـات التـاريخـيـة - الحـروب الصليـبـيـة ١٤٩٢، الكولونيـاليـة الأوروبيـة - وكـأنهـا سمـات مميـزة لصـدام واحـد للحـضارات عبر ألف وأربعمائة عـام، وبدلاً من الاعتراف بـأن كل صدام كان يشـعله

مشروع سياسى معين " صناعة كيان سياسى يدعى العالم المسيحى "، وهذه رغبة الملكية الكاستيلية(*) فى بناء دولة تدعى إسبانيا، بعد قهرها للأراضى المجاورة، والتوسع الإمبراطورى الأوروبى الحديث، وهكذا، بدلاً من هذا الاعتراف، يزعم لويس أن تلك الصدامات " قد دفعت بها حضارات متنافرة، وهو يفترض أن تلك الصدامات قد وقعت بين وحدات إقليمية ثانية، تمثل حضارات قائمة بذاتها عبر الألف والأربعمائة عام من التاريخ، ويجب لفهم الأجندة السياسية التى تدفع بمثل تلك التواريخ الحضارية مساءلة هذا التوحد المفترض بين التاريخ الثقافى والسياسى .

إن المرء فى حاجة إلى تفاصيل أكثر، عند نقاط التحول التاريخية الأساسية، حتى يتجنب ما يقدمه لويس من تشويهات . هل يمكن للمرء، مثلاً، أن يتحدث عن حضارة ذات جذور يهودية - مسيحية، عبر ألفى عام كما يفعل برنارد لويس؟ إن المؤرخ الثقافى الإسرائيلى(١٦) يذكرنا بأن هنالك تفضيلاً للتفكير فى الثقافة اليهودية فى إسبانيا، باعتبارها " عربية - يهودية" أكثر من أن يفكر فيها باعتبارها يهودية - مسيحية، وفصل " اليهود عن العرب " لم يحدث حتى عام ١٤٩٢ . وقد كتب موسى ميمونيدس (١١٣٥ - ١٢٠٤) **دليل الحيارى** وهو أكثر الأعمال التى كتبت أهمية، فى أى وقت، عن الفلسفة اليهودية " وهو متن " تحتمل كتابته بالعبرية، لكنه يتحدث إلينا بالعربية / أو اليهودية - العربية فى الأندلس "، وقد كان فقدان الأندلس عام ١٤٩٢ هو الذى أنتج المتن الكبير للصوفية اليهودية "الزهار " وحدد البداية الثانية للشتات اليهودى .

ليس هنالك من معنى للتفكير فى الثقافة بتعبيرات سياسية ومن ثم ذات علاقة بالأرض: الدول لها علاقة بالأرض لكن ليس للثقافة تلك العلاقة. هل هنالك معنى لكتابة التواريخ السياسية للإسلام، التى تتناول تواريخ الأماكن، مثل الشرق الأوسط ؟ أو أن تكتب التواريخ السياسية لدول الشرق الأوسط، وكأن تلك لم تكن أكثر من تواريخ

(*) كاستيل، منطقة فى إسبانيا. (المترجم)

سياسية للإسلام هناك ؟ إننا فى حاجة للتفكير فى الثقافة بعبارات تاريخية لا علاقة لها بالأرض . وإلا استخدم المرء الوسائل الثقافية للتعبير عن مشاريع سياسية وطنية وإمبراطورية نوعية للغاية .

الحداثة وتسييس الثقافة :

إن خطاب الثقافة لم يصدر عن التقليد الخاص بكتابة التاريخ لكنه صدر، فى الأغلب، عن علوم السياسة التى خدمت بانتظام المؤسسات السياسية : إن برنارد لويس مستشرق، وصمويل هنتنجتون عالم سياسى، وتواريخ المستشرقين عن الإسلام(١٧) والشرق الأوسط كانت تواجه بالتحدى بصورة مضطردة منذ الستينيات من مجموعة مفكرين مخالفة لهم مثل: مارشال هود جسون، وإدوارد سعيد، والشيخ أنتاديوب، ومارتين برنال، وسمير أمين، وعبد الله العروى، ولقد خرج هؤلاء من صفوف حركات الستينيات المعادية للحرب والمعادية للإمبريالية، وتبعهم جيل كامل من المؤرخين، وحتى إن وُجهت بالارتياب فى صحتها، من جيلين من البحوث العلمية، بحجة أن بها أخطاء فكرية فى تسلسل تواريخ الحوادث، غير أن تواريخ المستشرقين اتجهت إلى الارتداد .

إن السبب الأساسى يكمن فى العلاقة بين كتابة التاريخ وأشكال السلطة، وهنالك شكلان عامان من كتابة التاريخ: الوطنى وما بعد الوطنى، وتدور كتابة التاريخ الوطنى فى الأساس حول منح الأمة - وذلك موضوع حديث للغاية ومعاصر سياسيًا - ماضٍ يمكن التحقق من هويته، وهو فى الغالب ماضٍ مجيد، وأعطتنا الكتابات عن ما بعد الوطنى تواريخ حضارة مجيدة بالقدر نفسه، واضعة الأمة فى سياق كونى .

قدم المبشر الإيطالى ماتيوريس فى القرن السادس عشر للصينيين خريطة أوروبية للعالم تبين الاكتشافات الجديدة فى أمريكا، وقد دهش حيث وجد أن

الصينيين قد أصيبوا بالضيق بسببها، وكانت الخريطة قد وضعت أوروبا فى مركز العالم وشقت الباسيفيكى، مما يعنى أن الصين قد ظهرت على الطرف الأيمن للخريطة، والصينيون يفكرون فى الصين دومًا باعتبارهـا حرفيًا " المملكة الوسطى "، التى يجب أن تكون بوضوح فى مركز الخريطة، وقد أعد "ريس" خريطة أخرى شق فيها الأطلنطى، جاعلاً الصين تبدو أكثر مركزية، وذلك حتى يسعد مضيفيه، ومازالت الخرائط ترسم فى الصين على هذا النحو، غير أن أوروبا تشبثت بالنوع الأول من الخرائط . إن الخريطة الأكثر استخدامًا، بشكل عام، فى أمريكا الشمالية تبين الولايات المتحدة فى مركز العالم، بل تشق حتى، فى بعض الأحيان، القارة الآسيوية إلى قسمين، والخريطة العالمية الأكثر استخدامًا الآن، تحتل أوروبا الغربية مركزها، وهى، بناء على تصميم مركاتور[١٨](*)، تشوه بطريقة منظمة صورتنا عن العالم . ورغم أن أوروبا تحتل، تقريبًا، المساحة نفسها التى تحتلها شبه الجزيرتين الأخريين - الهند قبل التقسيم وجنوب شرق آسيا، فإن أوروبا تسمى قارة، بينما الهند ليست غير شبه قارة، بل جنوب شرق آسيا - لم يحظ بمثل هذه المكانة، وكانت المنطقة التى اختزلت، فى الوقت نفسه، أشد الاختزال بطريقة بالغة الأثر فى تصميم مركاتور هى أفريقيا .

إن التاريخ الحضارى " للغرب " قد بلغ ذروة انتصاره فى القرن التاسع عشر مع الإمبريالية الأوروبية، وقد كُتب من منطلق امتياز القوة الحديثة التى تفجرت فى هيمنة كونية فى القرون التى شملت النهضة، أعطى هذا " الغرب" هوية سارت عبر الزمن سالمة لم يلحقها الضرر، واحتل " الغرب " بناء على وجهة النظر هذه مركز المسرح الكونى، وكان الشرق هو أطرافه . وليس هنالك ما يثير الدهشة فى مجىء نقد التاريخ الأوروبى المركزى من باحثين، كان تركيزهما الأساسى على من "ليسوا غربًا" .

(*) تصميم خريطة رُسمت فيها خطوط الزوال الشمسى موازية لبعضها بعضًا، وخطوط العرض مستقيمة، حيث تزداد المسافات فيما بينها مع بعدها عن خط الاستواء. (المترجم)

تقول القصة التقليدية، كما يرويها مارشال هودجسون مؤرخ جامعة شيكاغو، إن " التاريخ بدأ فى الشرق " ثم انتقلت الشعلة، بالتوالى، إلى اليونانيين الرومان وأخيراً إلى مسيحيى شمال غرب أوروبا، حيث تطورت حياة القرون الوسطى والحديثة .

وكان على هودجسون إضافة[١٩] أن تقسيم العالم إلى " الغرب " و " الشرق "، إلى " أوروبا وآسيا " قد أغفل جزءًا ثالثًا – هو فى كلمات كريستوفر ميللر مؤرخ "اليال "، " ظلام مطلق " – جزءاً يقال عنه إنه يفتقد التاريخ أو الحضارة؛ لأنه يفتقد المتون العظمى أو الآثار العظمى، وهذا الظلام المطلق يشتمل على أفريقيا والأمريكتين السابقتين على كولومبس وأراضى الباسيفكى، باستثناء مصر وأثيوبيا بالطبع – واللتين حُذف انتماؤهما، لهذا السبب، إلى آسيا – ومفهوم " الغرب " فى كلمات أخرى قد سار جنبًا إلى جنب مع طرفين: إذ بينما كان " الشرق " مرئيًا كانت أفريقيا وأماكن أخرى مطموسة، فى بساطة، فى ظلام تاريخى.

لقد جعل مارشال هودجسون هذا مشروع حياته كلها، ليقف ضد الدراسات الغربية – الأساسية حول الإسلام، وبدأ مجلدات بحثه الكلاسيكية الثلاثة، **مغامرة الإسلام**، بتوضيح كيف أن مفهوم " الغرب " قد تغير عبر التاريخ، مرات ثلاثًا على الأقل . لقد أشار " الغرب "[٢٠] فى الأصل، وعلى الوجه الصحيح، إلى النصف الغربى، أو الذى يستخدم اللاتينية، من الإمبراطورية الرومانية، باعتباره " الأراضى الواقعة غربى المتوسط ". وبعد التغيير الأول أصبح التعبير يشير إلى " الأراضى الأوروبية الغربية عموماً " . غير أن هذا لم يكن توسعاً بسيطاً؛ حيث استبعد " أراضى المتوسط الغربية " تلك التى تحولت إلى الإسلام. إن التحول الثانى كان من أراضى أوروبا الغربية إلى الشعوب، ومن ثم دمج مستوطناتها فيما وراء البحار وتوحيدها، ثم كان التحول الثالث، عندما امتد تحديد " الغرب " وتعريفه أكثر ليشمل كل العالم المسيحى الأوروبى "؛ إذ بينما أشار التحول الثانى إلى أوروبا غربية كونية، أشار التحول الثالث إلى أوروبا كونية غربية وشرقية، وبذا تطور مفهوم الغرب من موقع جغرافى إلى مفهوم يقوم على العنصرية مشيراً إلى كل الشعوب ذات الأصل الأوروبى، بغض النظر عن المكان الذى عاشوا فيه والمدة التى عاشوها .

هل يمكن أن يكون هنالك تاريخ للحضارة الغربية احتوى ذاته وضبطها ؟ لقد كان المؤرخون يتناولون هذا الزعم فى عدد من المجالات تمتد من تطور العلم حتى تطور المجتمع، وقد لاحظ هودجسون أن المعادلة التى تجمع " الغرب " بـ " العلم " قد أدت إلى الغموض والإبهام، بناء على افتراض أن العلماء الذين كتبوا العربية فى زمن الإسلام الكلاسيكى كانوا، ببساطة، يحركون أقدامهم دون أن يسيروا . كان يفترض فيهم، ببساطة، أن يحملوا الشعلة لقرون حتى يمكن تسليمها " للغرب "، بدلاً من قيامهم بأية مساهمة أصلية فى العلم. كان مفهوم أن الدور الأساسى للعلماء الذين يكتبون العربية هو الحفاظ على العلم اليونانى الكلاسيكى وتسليمه لأوروبا النهضة، وقد ثبته وقواه زعم توماس كوهن أن علم النهضة يمثل فجوة نموذجية مع علم العصور الوسطى وإعادة ارتباط بعلم الآثار القديم، وبينما ربط كوهن الفجوة النموذجية بعمل كوبرنيكوس، فإن الأعمال الحديثة فى تاريخ العلم تتحرى هذا الافتراض . ومع ميزة الاكتشافات المتراكمة[٢١] استكشف أوتو نيجيباور ونويل سويرداو، وهما مؤرخان بارزان للعلوم، تأثير " علماء الفلك الذين ارتبطوا بمرصد مراغا، فى شمال غرب إيران "، والذين كتبت أعمالهم بالعربية، و وصلت أوروبا، وإيطاليا بصورة خاصة، فى القرن الخامس عشر، عبر وسطاء يونانيين بيزنطيين " . وقد انتهوا فى عملهم القائم على كلاسيكية الحاضر ١٩٨٤، حول الفلك الرياضى لكوبرنيكوس إلى أنه، "يمكن النظر إلى كوبرنيكوس، بفهم واقعى للغاية على أساس أنه، إن لم يكن الأخير، فإنه يقينًا أكثر أتباع مدرسة المراغا، شهرة" حيث إن تاريخ العلم المعاصر يكشف[٢٢] عادة عن تفكير مماثل فى مجالات أخرى، مثل علم التشريح (الدورة الدموية الرئوية)، والرياضيات (الكسور العشرية)، والثغرة فى تاريخ العلم تشير إلى فجوة تاريخية أكبر إلى الأندلس – إسبانيا التى تكتب العربية فى الدراسة التاريخية للنهضة .

لقد رأينا أن التاريخ الأوروبى المتمركز على الذات قد أقام طرفين محيطين: واحد مرئى والآخر غير مرئى، وكان جزء من الطرف المحيط غير المرئى هو أفريقيا. إن المشروع السياسى نفسه الذى أنتج تاريخ مكانة – ذاتية للغرب، قد أنتج أيضًا تاريخ مكانة –

ذاتية لأفريقيا، وقد تحول مفهوم أفريقيا أيضًا مثله مثل مفهوم " الغرب"، إلى موضوع يقوم على العنصرية . الفرق هو أن أفريقيا تم الحط من قدرها أكثر مما رفع من قدرها، وجرى تحديدها وتعريفها باعتبارها الأرض جنوب الصحراء، والتى تتطابق حدودها مع ذلك الجزء من القارة الذى أفسد وضرب فى أثناء تجارة العبيد . إن الباحثين الذين نظروا فى تدنى أفريقيا، القائم على العنصرية، عملوا، فى الوقت نفسه، على تحقيق المزيد من تآكل إنتاج التاريخ الأوروبى المركزى .

لقد بدأت مراجعة التاريخ الأفريقى(٢٣) مع العالم السنغالى، الشيخ أنتا ديوب، الذى كتب عمله الكبير، **الأصل الأفريقى للحضارة** فى الستينيات، وقد شكك ديوب(٢٤) فى الاتجاه العنصرى لعزل تاريخ مصر الفرعونية، الذى كان يشتمل تقريبًا على ربع السكان الأفريقيين فى ذلك الوقت - عزل هذا التاريخ عما يحيط به خاصة النوبة إلى الجنوب، وبذلك أنكروا الهوية التاريخية الأفريقية لمصر القديمة . لقد استهدف ديوب القلب المدلل لتراث المركزية الأوروبية الذى يعد من الكلاسيكيات التى لم تطرح اليونانيين والرومان فقط باعتبارهما مكونين خالدين " للغرب "، لكنها جردت مصر أيضًا من هويتها التاريخية، وقد تعرضت مصر، فى دراسة الكلاسيكيات(٢٥)، لخسارة مزدوجة. أُختزل ارتباطها باليونانيين فى الأزمنة القديمة، ليكون خارجيًا وعارضًا، وأُنكرت الدلالة التاريخية لموقعها فى أفريقيا .

وقد قدم عمل ديوب(٢٦) الأساس الذى أقام عليه الباحث البريطانى مارتين برنال عمله الأساسى فى مجلدين بعنوان، **أثينا السوداء : الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية** . وبيّن برنال السبل التى تمت بها صياغة التقليد الأساسى لعلم المصريات بواسطة أسلوب التفكير الغربى ما بعد الوطنى، أسلوب تجذر فى الخيال الإمبراطورى للقرن التاسع عشر، وخاصة الألمانى منه، ويناقض برنال هذا الخيال الإمبراطورى بما كان على اليونانيين أن يقولوه عن أنفسهم، وخاصة ما عليهم من دين كبير تاريخى وحضارى لمصر الفرعونية، وقد بيّن بشكل خاص، كيف أن صورة اليونانيين عن أنفسهم باعتبارهم ناتج غزو من مصر، التى هى فى الجنوب، قد تمكنت فى الخيال

الإمبراطورى الأوروبى، لتصور اليونان الكلاسيكية، باعتبارها ناتج غزو آرى من الشمال، وقد أوضح برنال أن اليونان كانت فى الأصل مستعمرة مصرية، هى مزيج لتأثيرات متباينة، أساسًا أفريقية وفينيقية ويهودية، وفيما بعد أوروبية شمالية . فإن كان التفكير قد جرى فى مصر الكلاسيكية المبكرة باعتبارها حضارة أفريقية، فإن من الأفضل أن يجرى التفكير فى اليونان الكلاسيكية باعتبارها حضارة بحر متوسط أكثر منها حضارة أوروبية .

وقد أجمل إدوارد سعيد " الأفكار الجامدة (الدوجما) الأساسية للاستشراق، فى دراسته الرائعة بالاسم نفسه؛ تقول الفكرة الأولى(٢٧) إن تواريخ المستشرقين نفسها التى تصور " الغرب " باعتباره " عقلانيًا متطورًا إنسانيًا [و] متفوقًا، تقدم صورة هزلية " للشرق " باعتباره " ضالاً، شاردًا. متخلفًا [و] أحط مستوى. والفكرة الثانية هى أن " الشرق " يعيش طبقًا لقواعد قارة، مكتوبة، فى متون مقدسة، وليست استجابة لمطالب الحياة المتغيرة . وتصف الفكرة الثالثة " الشرق " بأنه " سرمدى، على نسق واحد، وغير قادر على تعريف نفسه، ومن ثم، يفترض أن مفردات معممة، ومنتظمة للغاية، لوصف الشرق، من وجهة نظر غربية. لا مفر منها، و " موضوعية " من الناحية العلمية ". والفكرة الأخيرة، هى أن الشرق، فى واقع الأمر، هو شىء يثير الخوف (الخطر الأصفر، القبائل المغولية، السلاطين السمر) أو شىء يجب التحكم فيه (بواسطة التطويع، البحث والتنمية، الاحتلال الكلى متى كان ذلك ممكنًا).

هنالك سبب يجعل المرء متشككًا بصورة ضخمة فى المزاعم التى تصف الحضارة بطريقة منفصلة، قائمة بذاتها، وتُعرف وتُحدد التواريخ الحضارية بجغرافيات ومجتمعات معينة، ويجب على المرء أن يميز بين الحضارة والقوة، فالمفهوم المحدد لـ "حضارة غربية " متواصلة، عبر زمن طولى، إنما هى فكرة لا تصدر إلا عن نقطة امتياز للقوة التى نعرفها باعتبارها " الغرب " . إن لهذه القوة جغرافيًا وتاريخيًا: تاريخ يمتد من ١٤٩٢ عبر قرون تجارة العبيد والكولونيالية إلى الحرب الباردة وما بعدها .

إن تاريخ العرب، مثله مثل تاريخ الحضارة الغربية، مرتبط بأجندات سياسية معينة، ومثل هذا التاريخ يجرى تناوله أحيانًا باعتباره تاريخ " الإسلام " تمامًا كما يجرى تناول تاريخ الغرب، فى الغالب، باعتباره تاريخ " المسيحية " . هنا، أيضًا يتجه الميل[٢٨] إلى تسييس الهويات الثقافية والأخذ بهويات يحددها القانون .

وقد وضعت فرنسا، فى مستعمرات شمال أفريقيا تمييزًا قانونيًا بين " البربر " والعرب "، وذلك بأن يُحكم " البربر " بواسطة " القانون العرفى "الظهير "، ويُحكم " العرب " بقانون دينى، مما حوّل " البربر " و " العرب " إلى هويتين متضادتين بطريقة قانونية فى البداية، ثم سياسية فيما بعد . وكان رد الفعل الوطنى[٢٩]، فى الحقيقة، مضادًا بصورة قوية ناظرًا، على نحو كبير للغاية، إلى الهوية " العربية " باعتبارها مسألة واقعية، حتى إن " الاعتراف بالتمييز بين العرب والبربر، سوف يكون مخاطرة تربط المرء بالمحاولة الكولونيالية الفرنسية لتقسيم الأمة إلى مقاطعات إثنية مسدودة المسالك " ، ولقد قلب رد الفعل هذا عالم ثقافة المستشرقين المثقل بالسياسة رأسًا على عقب، لكنه فشل فى تغييره .

ليس هنالك مايثير الدهشة فى السؤال السياسى العميق المثار الآن بعمق، من هم "البربر" ومن هم من غير البربر؟ وما نسبة البربر بين سكان المغرب اليوم؟ كيف لنا أن نفهم[٣٠] التقديرات المتباينة لعدد البربر من سكان المغرب، والتى تتراوح بين أكثر من ٦٠٪، كما تدعى الـ بى بى سى، إلى تقديرات أقل من ٤٥٪، طبقًا للباحثة البربرية فاتيما صديقى، و " حوالى ٤٠٪ للباحث النشط سالم شاكر؟ هنالك مشكلة تثور مع تساوى الهويات السياسية وتلك الثقافية، هى أن كل شىء يصبح، بصورة كبيرة للغاية، ذا بعد واحد، والتطورات الثقافية التى تقود إلى الاندماج تعطى هوية واحدة عربية، وكأنها خرجت من منبع أصلى واحد، وهكذا يصبح بربر الشمال الذين يتحدثون العربية[٣١] " عربًا "، ويصبح غزو إسبانيا أساسًا على يد سلالات حاكمة بربرية من سينيجامبيا غزوًا "عربيًا " .

كان التاريخ الحضارى العربى المتعارف عليه محل تساؤل من الأفارقة أنفسهم، بصورة هى الأكثر تأثيرًا؛ ففى عام ١٩٧٢، كانت الحرب السودانية – وهى أطول

حرب أهلية بالفعل فى تاريخ ما بعد الكولونيالية - موضوع تسوية تفاوضية فى أديس أبابا، وقد وافق كل هؤلاء الذين شاركوا فى الحرب الأهلية - السلطة فى الشمال، والمتمردون فى الجنوب، ومجموعة الدول الأجنبية والمصالح التى اصطفت وراء كل جانب - على أن الحرب الأهلية قد أغرت العرب فى الشمال، بالأفارقة فى الجنوب . إن افتراض تمثيل الأعداء السياسيين لهويتين ثقافيتين متميزتين، واحدة "عربية " وأخرى " أفريقية " قد تحدته مجموعة من المثقفين السودانيين والجنوبيين، مجموعة تحكمت فى وزارة الخارجية عندما جاءت حكومة تحالف إلى السلطة . وقد طرحوا فى كتاب أعد عام ١٩٧٣، وقدم إلى منظمة الوحدة الأفريقية، بمناسبة ذكراها العاشرة، منظوراً مختلفًا بصورة جذرية حول تاريخ السودان، منظوراً ميز تاريخها الثقافى عن تاريخها السياسى . إن حقيقة تعريف السلطة التى جاءت لتحكم السودان، بعد القرن الخامس عشر، تعريفها لنفسها باعتبارها " عربية "، لم يكن حجة لتعريف ثقافة تلك الفترة باعتبارها " عربية "، وهؤلاء الذين قالوا بذلك افترضوا أن الثقافة السودانية كانت ناتج استيعاب طرف واحد، واستئصال السودانيين الأصليين لحساب العرب الأجانب، ويقول المؤلفون، بدلاً من ذلك، إن تعقد هذه الثقافة يمكن فهمه، على نحو أفضل، باعتباره نتاجًا لتكامل أطراف كثيرة لعناصرها المتعددة والمختلفة:

> **إن التكامل الأفريقى - العربى[٣٢]، فى الشمال، اتجه لأن يشار إليه باعتباره تعريبًا، وإلى حد أن الرموز العربية لهذا التعريف وخاصة لغتهم ودينهم قد فاقت بدرجة كبيرة نظائرها الأفريقية ، غير أن العملية اشتملت على نهج الأخذ و العطاء، أكثر مما اشتملت على ما يعكسه مصطلح " التعريب " بصورة كافية، وقد حدثت أيضًا درجة مهمة من أفرقة العنصر العربى .**

إن المسألة هى أنه حتى إن كانت الهويات السياسية واحدة، فالهويات الثقافية تتجه إلى أن تكون تراكمية ، حيث إن الهويات تتحول والتواريخ تُعاد كتابتها نتيجة تغير الأحداث السياسية، وغالبًا ما تقدم إلينا تواريخ متنازعة، فيما بعد نزعات أهلية، يمثل كل من هذه التواريخ وجهة نظر سلطة متنازعة فى سياق سياسى مضطرب . وحيثما يقرر الأعداء العيش معًا، فى مجتمع سياسى واحد - كما فعل العرب والأفارقة عام ١٩٧٢ فى السودان، الهوتو والتوتسى فى رواندا فيما بعد الإبادة العرقية، أو السود والبيض فيما بعد أبارتهيد جنوب أفريقيا - تظهر الحاجة إلى تاريخ جديد؛ ولذا ليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن تلك الأماكن ليس لديها ذلك التاريخ المتاح فى الحال .

وقد عانى تاريخ " العرب " أيضًا من مواجهة أساسية، فيما بعد الهولوكست؛ فقد أعيدت صياغة اليهودية والشعب اليهودى، فيما بعد الهولوكست، من كونهم آخر لا يذكر، يعيش فى أوروبا، إلى جزء متمم لأوروبا . تمت صياغة مفهوم ما بعد الهولوكست الخاص بالحضارة " اليهودية - المسيحية " فى تناقض مع مفاهيم ما قبل الهولوكست، والتى كانت راسخة أيضًا، والخاصة بحضارة مسيحية استبعدت اليهود الأوروبيين، وهذا، مثلاً، يبين كيف ميز عالم اللغة الفرنسى إرنست رينان فى القرن التاسع عشر الساميين عن القوقاز :

> **إن المرء يرى، فى كل الأشياء[٣٣]، أن العنصر السامى يبدو لنا عنصراً غير مكتمل، بفضل بساطته، وهذا العنصر - إن تجاسرت على استخدام التشبيه - هو بالنسبة للعائلة الهندو - أوروبية، مثلما يكون قلم الرسم التخطيطى بالنسبة للصورة الزيتية، إنه يفتقد تلك التنويعة، ذلك المدى، وتلك الوفرة من الحياة التى هى شرط الكمال . إن الأمم السامية مثل الأفراد الذين يمتلكون خصوبة محدودة للغاية، حتى إنهم يبلغون، بعد طفولة هنيئة، فقط أقصى فحولة عادية، ويمارسون أقصى**

درجات ازدهارهم، فى عمرهم الأول، ولم يكونوا ألبتة قادرين على تحقيق نضج حقيقى .

إن تحول المنظور فيما بعد الحرب العالمية الثانية، والذى أعاد وضع اليهودية واليهود فى قلب التاريخ الغربى والحضارة الغربية، له دلالته التى لا تقل عن تحول فى الوعى .

إن مفهوم الحضارة اليهودية - المسيحية تبلور باعتباره العلاج الشافى للعداء للسامية فيما بعد الهولوكست، كما أننى أقترح، على النهج نفسه، التمييز بين الأصولية كهوية دينية، والهويات السياسية التى تستخدم لهجة دينية، مثل المسيحية السياسية، والإسلام السياسى، والتى هى هوية سياسية تشكلت عبر التحام مباشر مع أشكال حديثة من السلطة .

الحداثة والأصولية والإسلام السياسى:

الأصولية، فى الحقيقة، تعبير أُبتدع فى عشرينيات الدوائر البروتستانتية، فى الولايات المتحدة، وإنها، مثلها مثل مذهب المحافظة، قد ظهرت فى المشهد، فى فترة متأخرة، وكما كانت المحافظة مجرد رد فعل سياسى للثورة الفرنسية، وليست ردة إلى أزمان ما قبل الحداثة، كذلك كانت الأصولية أيضًا، رد فعل فى إطار الدين للأوضاع السياسية المتغيرة، وهنالك فرق بين الأصولية المسيحية التى ظهرت فى العشرينيات فى أمريكا، والمسيحية السياسية التى هى ظاهرة نشأت فى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية .

وعندما نتحدث عن الأصولية الإسلامية فالأمر يكون مضللاً على الأقل فيما يتعلق بالاتجاه السائد للإسلام السنى، حيث إنه لم يضع ترتيبًا هرميًا دينيًا موازيًا للترتيب الهرمى للدولة العلمانية، كما فعلت المسيحية التاريخية؛ لذا افتقد هذا

الاتجاه مشكلة العلمانية، ويمكن تطبيق الأصولية على أنماط الإسلام الشيعى، التى طورت بالفعل تراتبًا هرميًا إسلاميًا . إن هذا الكتاب عندما يركز على الحركات السياسية التى تتحدث بلغة الدين، فإنه سيشير إليها باعتبارها إسلامًا سياسيًا وليست أصولية إسلامية .

وسيثير هذا الكتاب الشك أيضًا، فيما كتبه هؤلاء الكتّاب الذين يتحدثون عن "الأصولية الدينية" كنسق سياسى، ويربطها بـ "الإرهاب السياسى"، حيث إنه يجب تمييز الأصولية كظاهرة دينية عن تلك التطورات السياسية التى وصفت وصفًا جيدًا، كالمسيحية السياسية والإسلام السياسى، والأصولية الدينية تشبه حركة مضادة للثقافة، وليست حركة سياسية، ومشكلة استخدام تعبير "الأصولية"، لمثل تلك الحركات، هى أنها تميل إلى مساواة الحركات التى تشكلت فى سياقات تاريخية وسياسية مختلفة جذريًا، وطمس فروقها العقائدية، بما فى ذلك موقع العنف فى عقيدتها الدينية . هنا يكمن السبب فى أننى لن أستخدم تعبير "الأصولية" لوصف الحركات المضادة للثقافة داخل الإسلام أو داخل أية ديانات أخرى، بعد شرح السياق التاريخى الذى ظهرت فيه "الأصولية" المسيحية، وتمييزها عن المسيحية السياسية، كما أننى أسائل الافتراض الواسع الانتشار فى أن كل حركة سياسية تتحدث لغة الدين، فهى حركة إرهابية محتملة .

إن الدليل إلى طبيعة الحركة السياسية لا يكمن فى لغتها، لكنه يكمن فى أجندتها وكما أنتجت بداية المسيحية السياسية، بعد الحرب العالمية الثانية فى أمريكا حركات متنوعة، مثل الحقوق - المدنية وحركات الحق المسيحى، كذلك فعلت بداية الإسلام السياسى، فى أثناء الحرب الباردة، إذ أدت إلى نشوء حركات ذات أجندات سياسية متباينة، بل حتى متناقضة . إن الحركات المعتدلة تنظم وتثير مستهدفة الإصلاح الاجتماعى فى إطار السياق السياسى القائم، وأما الحركات الراديكالية فتستهدف كسب سلطة الدولة ، إذ إنها قد وصلت إلى نتيجة مؤداها أن الوضع السياسى القائم هو العقبة الرئيسية أمام الإصلاح الاجتماعى، وهنالك نوعان من الحركات

الراديكالية، واحدة تركز على المجتمع، والأخرى تركز على الدولة : الراديكاليون الذين يركزون على المجتمع يربطون مشكلة الديمقراطية فى المجتمع بالدولة، ويضع الراديكاليون الذين يركزون على الدول، مشكلة الدولة على حساب الديمقراطية فى المجتمع، إنه الإسلام الذى يركز على الدولة، والذى كان بشيراً بالإرهاب السياسى الإسلامى .

الأصولية المسيحية والمسيحية السياسية:

ابتدع المبجل كورتيس لى لوس اصطلاح " الأصولية " عام ١٩٢٠، وللحال أمسك به زملاؤه من طائفة المعمودية والتابعين للكنيسة المشيخية باعتباره مدعاة للشرف والكرامة، وأقسموا أن يخوضوا " معركة عظمى سامية من أجل أصول الإيمان " . وقد وضعت كارين أرمسترونج[٢٤] هذه الظاهرة فى إطار المناظرات الأمريكية حول مصداقية حرفية الكتاب المقدس التى تصاعد التمسك بها ودعمها من قبل الجمهوريين المحافظين ذوى النفوذ المتزايد ، وفى عام ١٩١٠ جدد "مبشرو الكنيسة فى برينسيتون" مجموعة من خمس أفكار أساسية، تمثل عصمة الكتاب المقدس من الخطأ : (١) تنزه الكتاب المقدس عن الخطأ . (٢) ولادة العذراء للمسيح . (٣) فداء المسيح لنا عن أخطائنا فوق الصليب (٤) بعثه الجسدى (٥) الحقيقة الموضوعية لمعجزاته. وطبعوا فيما بين عامى ١٩١٠ و١٩١٥ سلسلة من اثنتى عشرة كراسة مغلفة بالورق تدعى **الأصول** ، وأرسلوا حوالى ثلاثة ملايين نسخة إلى كل راعى كنيسة وكل بروفيسور ولكل دارس للاهوت فى أمريكا . وكانت خطوتهم التالية هى محاولة طرد الليبراليين، وتم خوض أشد المعارك المؤسسية ضراوة حيثما كان الأصوليون بين الطائفة المعمودية والتابعين للكنيسة المشيخية .

وتنهى كارين أرمسترونج مناقشتها التاريخية عن الأصولية بملاحظة تقول، إن الأصولية ليست ارتداداً إلى الأصل، إلى ثقافة ما قبل الحداثة، لكنها جاءت رداً على حداثة علمانية " مفروضة" . وفى كلمات أخرى، ترى أنه ما كان يمكن أن توجد أصولية دون حداثة، ويضاف إلى ذلك أن الأصولية ظهرت كنضال داخل الدين، وليست نضالاً بين

الأديان، كنقد للأشكال الليبرالية للدين، والتى رأى فيها المحافظون المتدينون عملية تكيف لسلطة علمانية عدوانية .

وسرعان ما تحولت هذه النقاشات، التى بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر، إلى منازعات من أجل السلطة والنفوذ عبر أمريكا المؤسسة، فى الجامعات والمدارس العامة، والمدارس العليا والمدارس الدينية والمحاكم والمشرعين، وكانت المحصلة مختلطة وغير مستقرة: وقد كسب الأصوليون انتصارات تشريعية جريئة فى عدة ولايات، ثم كسبوا نصرًا كليًا عام ١٩٢٥، عندما أقرت الجمعية التشريعية فى يتينس قانونًا جرَّم تعليم " التطور " فى المدارس التى تمولها الدولة . وواجه القانون التحدى فى المحكمة بعد شهور قليلة من صدوره، بعد أن قرر مدرس شاب لعلم الأحياء، هو جون ت . سكوبس، توجيه ضربة ضد التقليد الدينى من أجل حرية الكلام واعترافه أنه ضد القانون عندما حل محل مدير مدرسته فى فصل لعلم الأحياء .

وعندما قُدم سكوبس للمحاكمة فى يوليو ١٩٢٥ دافع عنه المحامى العقلانى الكبير كلارنس دارو، الذى أوفده اتحاد الحريات المدنية الأمريكية (إيه سى إل يو) . كما وقف إلى جانب القانون السياسى الديمقراطى المشهور وقائد الكنيسة المشيخية وليام جيننجز بريان، والذى شن حملة صليبية ضد تدريس " التطور " فى المدارس. إن محاكمة سكوبس لم تثر فقط مبادئ مهمة للديمقراطية الليبرالية الخاصة بالواحد ضد الآخر، لكنها أدت أيضًا إلى نقاش عام حول الانقسام العام إلى مجموعات مشتركة أو متناقضة بصورة خالصة فى الفكر الغربى الحديث، وإن كان دارون قد قال إنه وقف إلى جانب الخطاب الحر، فإن بريان قد انتصر " للإحساس العام "، كما يفهمه الناس العاديون، وإن كان دارون قد وقف إلى جانب التقدم، فإن بريان قد أكد وجود رباط بين النظريات الداروينية عن التقدم والعسكرية الألمانية التى طفت إلى السطح فى مذبحة الحرب العالمية الأولى . لقد قال بريان، الذى كان معروفًا بمحاضرته التى طاف بها الولايات المتحدة، "تهديد الداروينية "، قال إن المفهوم القائل بأن الأقوى يمكن أو يجب أن يبقى، قد " وضع الأساس للحرب الأشد دموية

فى التاريخ " . وحذر من أن " العلم نفسه الذى صنع الغازات السامة كى يخنق الجنود، قد بشر بأن للإنسان أسلافًا وحشيين "، وهو " يجتث المعجزات والخوارق الطبيعية من الإنجيل " . ومع ذلك، فإن المحاكمة قد قدمت فى التحليل النهائى مشهداً رائعًا عامًا " لنزاع تاريخى بين الرب والعلم" .

وقد أجبر بريان، بعد أن وضعه دارون فى موقف دقيق أن يسلم بأن الترجمة الحرفية للإنجيل – والتى تقول، مثلاً، إن عمر الأرض ستة آلاف عام، أو أنها خلقت فى ستة أيام – كانت مستحيلة . لقد سُخر علنًا من بريان، ومات بعد المحاكمة بأيام قليلة وظهر دارون باعتباره " بطل الفكر العقلانى الخالص " ، ورغم أن الأصوليين كسبوا المعركة القانونية فإنهم خسروا المعركة الثقافية . وتكتب سوزان هاروينج، عن كتاب جيرى فالويل : **اللغة الأصولية والسياسة** تعليقات عن كيف أن النصر الذى حققته الحداثة اشتمل، فى الوقت نفسه، على رسم هزلى " للأصولية " :

> **إن وجهة النظر الحديثة(٣٥) فى أمريكا، ظهرت جزئيًا فى الصورة الهزلية للبروتستانت المحافظين، باعتبارهم أصوليين . كانوا " هم " الذين مكنوننا " نحن " الحداثيين . أنت لا تستطيع أن تجادلهم . إنهم يؤمنون بالفعل أن الإنجيل صحيح حرفيًا . إنهم يتشبثون بالتقاليد، ويقاومون التغيير الاجتماعى السريع، ولا يستطيعون البقاء فى عالم حديث . لم يكن واضحًا قبل محاكمة سكوبس مَن مِن المصطلحين المتضادين، الأصولى أو الحديث، سوف يكون المنتصر، ومن سوف يكون المنهزم . من منهما كان الأرفع منزلة ومن الذى كان الأدنى منزلة، أى مصطلح يمثل العالم والمستقبل، وأيهما هو المتخلف الراكد الذى كان يموت .**

لقد أدى ناتج محاكمة سكوبس إلى إهانة البروتستانت المحافظين، وسُخر منهم كأصوليين، وحددت المحاكمة بداية نفيهم من الحياة العامة الأمريكية، وتركوا طوائفهم الدينية وأسسوا منظمات جديدة، ولقد تبرأوا من الإصلاح الاجتماعى،

مثلما فعلوا مع الأشكال الحديثة للعلاقات الاجتماعية . لقد مثلت جامعة بوب جونس، التى تأسست عام ١٩٢٧، رمزًا للأصولى المضاد للثقافة . لم يكن مؤسسها[٣٦] مثقفًا، لكنه كان إنجيليًا يريد مدرسة " آمنة" تعلم الفنون الليبرالية جنبًا إلى جنب مع " مسيحية الحس العام " ؛ مقرر دراسى من الإنجيل كل نصف عام على الأقل، حضور إجبارى إلى الكنيسة، قواعد اجتماعية صارمة تُحرم المواعيد بين أعضاء من سلالات مختلفة فى الساحات المدرسية، ودليل للسلوك يحدد ويعرف العصيان وعدم الولاء باعتبارهما " خطيئتين لا تغتفران " . وقد قررت جامعة بوب جونس ألا تسعى إلى اعتماد أكاديمى، وبذا احتفظت بسيطرة على السماح بدخولها أو منعه، وكذا السيطرة على المواد الدراسية ومصادر المكتبة، ولقد بدوا بأعمالهم، لا بما يقرون، أنهم يقبلون بالصورة الهزلية العلمانية. التى وضعت للمحافظين المتدينين باعتبارهم أصوليين، التصقوا بالزمن، كأناس سابقين على الحداثة، غير مناسبين للحياة الثقافية والسياسية الحديثة فى أمريكا العلمانية. لقد اقتضى الأمر عقوداً ثلاثة، ليعيدوا المحافظين المتدينين للحياة العامة، وقد حدثت هذه العودة على موجتين منفصلتين ولكن متصلتان . تبعت الموجة الأولى[٣٧] الحرب العالمية الثانية، وكان على رأسها "الإنجيليون " الذين أقلعوا عن الانفصالية التى دافع عنها الأصوليون، قائلين: " إن واجب إنقاذ الأرواح من هذه الحضارة العفنة، قد اقتضى درجة ما من التنسيق مع مسيحيين آخرين، مهما كانت معتقداتهم "، وكان العمل التأسيسى للحركة الإنجيلية هو تشكيل " الاتحاد الوطنى للإنجيليين " (إن إيه إى) عام ١٩٤٢، وهو لوبى عام يتوازن مع " المجلس الوطنى للكنائس " والذى كان ينتسب إلى " المجلس العالمى الليبرالى للكنائس "، ومع ظهور التلفاز فى الخمسينيات، حل الإنجيليون، الشباب العاملون فى التلفاز مثل: بيلى جراهام وركس هومبارد وأورال روبرتس، محل المبشرين الرُحل القدامى، وشكلوا إمبراطوريتهم الإذاعية ودور نشرهم . وبدأ الإنجيليون المرتبطون بالتلفاز " الحركة الوطنية بصلاة الإفطار[٣٨] "، والتى "سرعان ما جمعت أعضاء من الكونجرس ومبشرين، وغدا الإنجيلى بيلى جراهام المستشار الروحى لنخبة جيل رؤساء الولايات المتحدة لما بعد الحرب " .

وجاءت الموجة الثانية فى أعقاب " روف . واد"، قرار المحكمة العليا عام ١٩٧٣، والذى أكد على أن الإجهاض من حق المرأة، والذى رأى فيه المحافظون المتدينون هزيمة تاريخية، وقرر الأصوليون، بعد أن أخذوا من كنائس السود الجنوبية، التى كانت قد دخلت الحياة العامة بطريقة ناجحة ودرامية، على رأس حركة حقوق الإنسان؛ الإشارة الدالة ليزيحوا الاتجاه العام المعتدل للإنجيليين، حتى تكون لهم قيادة جسورة بالمثل . وتحدى جيرى فالويل، وهو يتحدث عن " مأساة نبراسكا[٣٩]"، فى مؤتمر ١٩٨٢، تحدى **الحق المسيحى الجديد** فى كسر الخط الفاصل بين الدين والسياسة، وجمع " هذا النوع فى السلسلة الفقرية للدفاع عن حريتهم التى نالها أناس الحقوق المدنية " .

لقد دام عزلهم قرابة نصف قرن وكانت عودة الأصولية إلى الحياة العامة الأمريكية عودة سياسية، دون خجل، وارتبطت فى البداية بحشد جماهيرى للمسيحيين البروتستانت البيض، وكان أكثر قادة الحركة ظهورًا هم الإنجيليون المرتبطون بالتليفاز - جيرى فالويل، جيم وتامى فاى باكر - الذين كانوا أساسيين أيضًا فى تشكيل منظمات ذات أجندات سياسية واضحة وصريحة : الأغلبية الأخلاقية، المائدة المستديرة الدينية والصوت المسيحى، عندما أسس فالويل[٤٠] " الأغلبية الأخلاقية عام ١٩٧٩: " امتطى الهواء مذيعًا على شبكات الكنائس المعمودية الأصولية "، داعيًا المسيحيين إلى أن يغيروا التاريخ . وقال " إن فكرة عدم اختلاط الدين والسياسة فكرة اخترعها الشيطان ليبقى المسيحيون بعيدين عن إدارة بلدهم " .. وعندما اندفع البروتستانت المحافظون إلى " الأغلبية الأخلاقية " فإنهم " مزقوا عقدًا ضمنيًا مع أمريكا المعاصرة " ألا يخلط البروتستانتى المؤمن بالإنجيل لغته بالسياسة اليومية . وقد عرفت عظات فالويل فى " الأغلبية الأخلاقية " بالمرثيات . وهو اسم أُخذ عن أرميا[*] النبى فى العهد القديم . والموعظة المرثية هى التى تنوح على الحالة

(*) أحد أنبياء العبرانيين. (المترجم)

الأخـلاقيــة للنـاس، وتتنبأ بنتائج سوف تجتاح كالطوفان، وتدعو إلى إصـلاح وإحياء " أخلاقى درامــى" . وقد حدد جيرى فالويل الإجهاض وعرفه فى مـرثياته، باعتــباره "هولوكست بيـولوجى "، والإيدز باعتـبـاره " حكم الرب ضـد أمريكا لتأييدها الفـجور والخلاعة "، والمعارضة المطلقة للرب للإجهاض والشذوذ الجنسى " باعتبارهما جزءًا من " اختبارات أوراق الليتموس(*) لصدق الإنجيل وصوابه " .

حقق الأصـوليون البروتسـتـانت عدة انتـصـارات فى العقـود الأخـيرة من القرن العشـرين وأصبـحـوا قـــادرين عـلـى تأكيـد أن أركنسـاس ولويزيانا قـد أقرتا لوائح لضـمـان إعطاء وقت مـتسـاوٍ، فـى المنـاهـج الدراسـية، فى المدارس، للتـعليم الحـر فى "سفر التكوين "(**)، جنـبًـا إلى جنـب مع التطـور الـداروني . وكـان إنجازهـم الأكثر بروزًا، رغم ذلك، هـــو حـصـار " تعديل الحقوق المتسـاوية" . وهاجمت فيليس سكلافلى، وهى قائدة " كاثوليكية رومانية " مبدأ مسـاواة المرأة بالرجل، باعتباره " داء" وسـبب مرض العالم، وكان " منتدى النسر " الخاص بها، غالبًا ما يعقـد فعاليات مشـتركة مع " الأغلبية الأخلاقية " وقد قالت، إنه منذ عصت حواء الرب وسعت إلى تحررها، فإن مبدأ مـسـاواة المرأة بالرجل فى الحقوق قد عاد بالخطيئة إلى العـالم ومـعه "الخـوف والمرض والألم والغضب والكراهية والخطر والعنف وكل أنوا ع القبـح" ورغم أن ثلاثين ولاية من الولايات الاثنتين والثــلاثين(٤١) المطلوبة قد صـوتت " لتعديل الحقوق المتسـاوية " عـام ١٩٧٣، غـيـر أن نشطاء اليـمـين المسـيـحى كـانوا قـادرين علـى إيقـاف قـوته وزخـمـه : نبراسـكا وتنيسى وكنتــوكى وأنـــديانا وجـنـوب داكـوتا تحـفـظت كلها على أصـواتـها السابقة التى كانت مع التعديل .

وكـان چـورچ جـالوب الصـغـير قد أجرى استـفـتـاء للأمريكيين مبـكرًا فـى منتـصـف السـبعينيـات حول وجهات نظرهـم الدينية، ووجد أن أكثر من ثلثهم – أى حوالى ٥٠ مليونًا

(*) مادة صباغ أزرق يصبح أحمر عندما يتفاعل مع الحامض من زهور عباد الشمس . (المترجم)

(**) سفر فى العهد القديم. (المترجم)

من الأمريكيين البالغين – قد وصفوا أنفسهم باعتبارهم " ولدوا من جديد "، معرفين أنفسهم بأنهم قد حققوا تحولاً فى حياتهم عندما ألزموا أنفسهم بيسوع المسيح "، وكان جيمى كارتر هو أول رئيس " ولد من جديد "، ورونالد ريجان هو الثانى، وچورچ دبليو بوش هو الثالث . وقد احتضن المرشح الرئاسى ريجان " اليمين المسيحى" علنًا، عندما تحدث فى مؤتمر المذيعين المتدينين الوطنيين عام ١٩٨٠، والذى استضافته فى ذلك العام، كنيسة توماس رود المعمودية التابعة لجيرى فالويل. وقد نظم اليمين المسيحى فيما بعد، فى ذلك العام، مسيرة لعدة مئات الآلاف من المسحيين الذين " ولدوا من جديد " على ممر واشنطن، من أجل حشد جماهيرى من أجل أن تكون " واشنطن للمسيح " وقد أدخل بجرأة، بعد ذلك بثلاث سنوات لغة الفضيلة الذاتية الخاصة " بالطيب والشرير " إلى السياسة الأمريكية، فيما بعد الحرب، عندما أخبر الـ " إن إيه إى " أن الاتحاد السوفيتى هو " إمبراطورية الشر " . وفى عام ١٩٩٢، أظهر اليمين الدينى، فى المؤتمر الجمهورى الوطنى فى هيوستون، دليلاً قويًا على أنه قد وطد قواه الانتخابية . وقد اشتملت خطة الحزب السياسية، على مبدأين جديدين، عارض واحد منهما، بطريقة لا لبس فيها الإجهاض تحت أى ظرف من الظروف . وندد الآخر " بدعم " الديمقراطيين " لتشريع حقوق الشواذ " . وقد حذر باتريك بوكانان، فى حديثه بمناسبة ليلة افتتاح المؤتمر[٤٢]، من " حرب دينية " قادمة، حرب سوف تصيب الولايات المتحدة بالبلاء من داخلها: " إنها حرب ثقافية، وهى حاسمة بالنسبة لنوع الحكومة التى سوف نكون عليها، مثلها مثل الحرب الباردة نفسها، إنها حرب من أجل روح أمريكا " .

لقد كان جيرى فالويل محقًا فيما يتعلق بحركة الحقوق المدنية : لقد مثلت بالفعل عودة الدين إلى الدخول بطريقة درامية، وبنجاح فى السياسة . إن الحقوق المدنية وحركات اليمين – المسيحى قد صورت شكلين مختلفين من المسيحية السياسية فى العالم الحديث، كما يوضح التناقض بينهما، أيضًا، أن انخراط الحركات الدينية فى السياسة ليس رجعيًا بالضرورة .

الإصلاحية الإسلامية والإسلام السياسى:

أحس الإصلاحيون الإسلاميون، قبل ظهور الإسلام السياسى فى القرن العشرين، بفتره طويلة، أن الكولونيالية هى التحدى الرئيسى الذى يواجه المسلمين المعاصرين، ولقد طرح جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) الذى اشتهر بمواجهاته مع إرنست رينان فى منتصف القرن التاسع عشر بباريس، عندما نشر رينان مقاله حول **الإسلام والعلم** فى جورنال دى ديبات (٢٩ مارس ١٨٨٣)، رد عليه الأفغانى فى الجريدة نفسها (١٨ مايو ١٨٨٣). ونشر رينان ردًا، فى اليوم التالى مباشرة، بعد رد الأفغانى، مقرًا بالتأثير الكبير الذى تركه الأفغانى عليه، وحياه باعتباره زميلاً عقلانيًا وغير مؤمن، وقد ادعى رينان فى محاضرته، " أن الإسلام الأول والعرب الذين اعترفوا به علانية كانوا معادين للروح العلمية والفلسفية، والعلم والفلسفة قد دخلا العالم الإسلامى، فقط عبر مصادر غير عربية " وكان رد الأفغانى تحديًا لافتراضات رينان العنصرية عن أن العرب و / أو الإسلام كانا معادين للعلوم عن وناقش بدلاً من ذلك قضية حديثة مثيرة للدهشة، وهى أن العلم مثله مثل الفلسفة يتطور فى كل مكان طوال الزمن .

لقد ارتحل الأفغانى طويلاً خارج وطنه الأصلى إيران، من الهند شرقًا حتى فرنسا غربًا، قبل أن يجىء إلى مصر . وقد اشتملت مدرسته التقليدية على الفقه جنبًا إلى جنب مع الفلسفة والعرفان (التصوف)، وقد أقنعته تجربته الهندية بالأهمية المستقبلية للعلم الحديث والرياضيات، وعرضته لوحشية القهر البريطانى بسبب انتفاضة ١٨٥٧-١٨٥٨ المعادية للكولونيالية فى الهند . وبينما اتجه المفكرون الإسلاميون، فى أوائل القرن التاسع عشر، إلى الافتتان بالحداثة الغربية ورأوا فى بريطانيا وفرنسا حاملين طيبين للتقدم ، سلط الأفغانى الأضواء على الأثر المتناقض للحداثة . لقد جاء التعريف برؤيته الدينية عبر مأزق عصرى للغاية، ولقد احتاج المسلمون، من ناحية، إلى العلم الحديث، والذى عليهم أن يتعلموه من أوروبا، وكانت هذه الضرورة تحديدًا[٤٤]، من ناحية أخرى، دليلاً على " دونيتنا وتدهورنا "لأننا نمدين أنفسنا بتقليد الأوروبيين". وحدد الأفغانى موقع مركز هذا المأزق التاريخى، فى المجتمع الذى كان قد تعرض

الكولوينالية: حتى تكون معاصراً، فإن ذلك يعنى، قبل كل شىء، إرادة حرة للإبداع والأصالة البشرية، فكيف يمكن لمجتمع كولونيالى أن يتمدين بالمحاكاة ؟

لقد كان هذا أيضًا حديثًا عن الكولونيالية والاستقلال . ليس هنالك ما يثير الدهشة فى أن المفكرين المسلمين الذين يتطلعون إلى الأمام، قد نظروا فى إطار التقليد الإسلامى بحثًا عن مصادر للاستحداث والتجديد والتغيير، وحتى إن تحدث كل من الإصلاحيين والراديكاليين لغة الإسلام، فإنهما لم ينظرا للعقيدة والتاريخ، من أجل التواصل أو للاستمرار فقط ولكن من أجل التجديد أيضًا، ولذا قدموا إجابات مختلفة للسؤال الخاص بكيفية مواجهة الحداثة الغربية والهيمنة الكونية. إن الخطوط الرئيسية للفصل والتمييز، فى القرن العشرين، قد نتجت عبر حوارات فى بلدان ثلاثة مختلفة، هى الهند ومصر وإيران .

إن هذه العملية مختلفة كلية عن تطور الأصولية المسيحية والمسيحية السياسية السابقة، والمجرى الرئيسى للإسلام لم يكن له، على غير مثال المسيحية، ترتيب هرمى دينى موضوعى فى صورة مؤسسية، كان له رجال دين، لكنهم غير منظمين فى موازاة الترتيب الهرمى للدولة . هنالك جدل كبير[٤٥] حول دلالة هذا الفرق التاريخى ، فقد قال ريتشارد سكولز إن غياب نزاع بين التراتبيات العلمانية والدينية هو السبب فى عدم ظهور مشكلة العلمانية فى الإسلام، وفى ألا تكون الحركات الدينية الإسلامية معادية، بالضرورة، للعلمانية . ويدعى برنارد لويس، فى تناقض مع ذلك، أن غياب خط فاصل واضح بين الدينى والعلمانى يشير إلى غياب التفكير العلمانى فى الإسلام . ويقول سكولز[٤٦] إن الخطاب الإسلامى الحديث هو، على أى حال، علمانى إلى حد كبير، مهتم بصورة أكثر بالموضوعات السياسية والاجتماعية المعاصرة، أكثر من اهتمامه بالهم الروحى للخلاص، أو ما بعد ذلك، وتحديداً لأن المجتمعات الإسلامية كانت قادرة على أن تكون علمانية فى إطار الإسلام أكثر من أن تكون فى تضاد معها .

وبينما كان تطور المسيحية السياسية، بصورة أساسية، فى الولايات المتحدة هو عمل رجال دين " أصوليين " مثل: جيرى فالويل وبات روبرتسون وآخرين، فإن تطور

الإسلام السياسى من عمل مثقفين سياسيين، من غير رجال الدين بصورة أكثر، مثل محمد إقبال ومحمد على جناح فى الهند الكولونيالية، وأبو العلا المودودى وسيد قطب وعلى شريعتى من باكستان ومصر وإيران - ما بعد الكولونيالية، على التوالى . وكان الاستثناء الساطع هو آية الله الخومينى . لقد اتجه الخطاب العلمانى فى إيران ليماثل ذلك الذى فى المسيحية الغربية، وذلك بسبب أن سلطة رجال الدين، فى إيران وحدها، تلقت مصادقة دستورية . وبينما كان رجال الدين المسيحيين الأصوليين هم طلائع المسيحية السياسية، فإن طلائع الإسلام السياسى لم يكونوا من العلماء الدينيين، لكنهم كانوا مثقفين سياسيين لهم همهم الدنيوى المطلق، وهذا سبب آخر[٤٧] يجعل الحديث عن الإسلام السياسى - التسمية المفضلة فى العالم العربى لهذه الحركة، وهو أكثر حصانة من الأصولية الإسلامية، وهو المصطلح الذى استخدم، غالبًا، فيما بعد، فى أمريكا الحادى عشر من سبتمبر .

إن الانقسام[٤٨] بين "العلماء" المتدينين والمثقفين السياسيين كان واضحًا منذ فترة مبكرة، مثله مثل الحركة المعادية للكولونيالية فى الهند فى النصف الأول من القرن العشرين، ومن ثم فإن الاتجاهين المحافظين دينيًا وسياسيًا لم يسيرا، بالضرورة، يدًا فى يد ؛ فالمثقفون، وليس العلماء، كانوا طلائع تطور حركات الإسلام السياسى، ورفعوا، فى النهاية، نداء من أجل وطن منفصل للمسلمين الهنود، باكستان . وظل العلماء المحافظون، على عكس ما يمكننا[٤٩] توقعه، داخل المؤتمر الوطنى الهندى العلمانى، بينما نادى المثقفون العلمانيون الحداثيون بدولة إسلامية ذات حكم ذاتى فى البداية ثم مستقلة، بينما وضع العلماء فروقًا واضحة بين الإسلام كهوية ثقافية ودينية والهويات السياسية المختلفة التى يمكن للمسلمين أن يعتنقوها، فقد أصر المثقفون العلمانيون على أن الإسلام ليس مجرد هوية دينية أو ثقافية، فقد غدا هوية سياسية .

وتكشف التجربة الهندية عن أن هؤلاء الذين دعوا إلى سياسة وطنية لم يكونوا دومًا تقدميين، وهؤلاء الذين ناضلوا من أجل وطنية سياسية دينية لم يكونوا جميعًا

رجعيين. إن العسكرين لم يقسمهما الخط الواقع بين الديمقراطية والخضوع التام للدولة، والشاعر محمد إقبال والسياسى محمد على جناح، وكلاهما لسان حال الحقوق السياسية للمسلمين، كان لهما توجّه علمانى عن عزم وتصميم . لقد كان إقبال، والذى يعتبر المؤسس الروحى لباكستان، من بين المثقفين المسلمين القلائل الذين فرحوا عام ١٩٢٢، عندما ألغت تركيا الخلافة العثمانية، وكان ذلك، فى الواقع فصماً لأية علاقة بين الدولة والدين، ونادى[٥٠] بتحديث ومقرطة مؤسسة الاجتهاد: وقال إنه يجب تأويل القانون بواسطة هيئة منتخبة من مجتمع المسلمين، الأمة، وليس العلماء ، وكان جناح الذى يعتبر المؤسس السياسى لباكستان، مصمماً بالمثل على ضرورة، أن يكون لباكستان دستور علمانى يضمن الفصل بين الدولة والدين، والحماية الواجبة لحقوق الأقليات .

إن التحول من أجندة إصلاحية إلى أجندة راديكالية فى الإسلام السياسى، يمكن فهمه، بالصورة الفضلى فى سياق التحول من الكولونيالية، إلى ما بعد الكولونيالية، يمكن إلقاء الضوء عليه بواسطة تاريخ إحدى المنظمات الجماهيرية، "جمعية الإخوان المسلمين" فى مصر، ولقد تأسست الجمعية فى مارس ١٩٢٨، عندما سمع حسن البنا، وهو مدرس شاب ألهمته آراء الأفغانى، من بين آخرين، عندما سمع نداء للعمل من عمال فى مدينة الإسماعيلية . وقال، ترديداً للأفغانى، إنه يجب على المسلمين أن يستخرجوا مصادرهم التاريخية والثقافية، الخاصة بهم، بدلاً من محاكاة الآخرين، وكأنهم كانوا " مولدين ثقافيين " وقد ركزت النقاط[٥١] الست التى استنبطها البنا كبرنامج عمل على خلق منظمة خيرية بعيدة المدى، منكراً العنف.

لقد كانت هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٤٨، وما تلاها من إقامة دولة إسرائيل، هى التى أقنعت الجمعية ببذل طاقاتها فيما يتجاوز العمل الخيرى إلى السياسة المسلحة: ودعا حسن البنا إلى تشكيل كتيبة للقتال فى فلسطين، وقال بتكوين دولة داخل الدولة لها جندها ومستشفياتها ومدارسها ومصانعها ومشروعاتها. وحُظرت الجمعية فى ٦ ديسمبر ١٩٤٨ – وعندما جاء ضباط الجيش الشبان بقيادة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٢ منحتهم الجمعية دعماً كاملاً، غير أن الجمعية سرعان

ما انشقت[٥٢] عن ناصر، وانحازت إلى هؤلاء الذين طالبوا العسكريين بالاعتراف بحرية تشكيل الأحزاب السياسية، وتسليم السلطة إلى حكومة مدنية وتحرك ناصر لإلقاء القبض على هؤلاء الذين دعوا إلى نظام مدني، وهجر بعضهم، فى سجون عبد الناصر، رؤيتهم الإصلاحية وشكلوا صورة جديدة من الإسلام السياسى يكمن فيها العنف، وإن رُبطت الرؤية الإصلاحية بتفكير حسن البنا، فى المرحلة التكوينية للجمعية، فإن التحول إلى التطرف كان من وحى كتابة قلم سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦) فى السجن. إن تجربة مثل هذا القهر الوحشى، فى ظل حكومة علمانية، كان أحد المؤثرات التى لعبت دورها فى صياغة ميلاد توجه راديكالى فى الفكر الإسلامى المصرى، وجاء المؤثر الثانى، وهو مؤثر نظرى، بصورة أكبر، من الماركسية - اللينينية، وهى البديل الأكثر أهمية بالفعل للإسلام السياسى فى النقاشات الثقافية، عن أفضل مواجهة لدولة قاهرة علمانية سدت كل الإمكانيات أمام التغيير الديمقراطى .

إن سيد قطب هو الأكثر شهرة بين طلائع مثقفى الإسلام السياسى الراديكالى، وهى حركة تناصر الآن إعادة صياغة مفهوم راديكالى " للجهاد "، وهى عقيدة يتشارك فيها كل المسلمين وهى تلقى الآن المعارضة الساخنة، ومن ثم، فإن النقاش حول الإسلام السياسى الراديكالى، هو نقاش متزايد حول معنى "الجهاد". إن ما تكترث له الأمة، المجتمع الإسلامى، هو أن الجهاد جزء من أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة على كل مسلم . إن القرآن يصر على أن الواجب الأول للمسلم هو خلق مجتمع العدل والمساواة، ويعامل فيه الفقراء باحترام، وهذا يقتضى جهادًا[٥٣] (حرفيًا جهد أو نضال) على كل الجبهات: الروحية والاجتماعية، الشخصية والسياسية . ويميز الدارسون للإسلام بين تقليدين عريضين للجهاد: الجهاد الأكبر، والجهاد الأصغر، ويقال، إن الجهاد الأكبر هو النضال ضد ضعف النفس . إنه عن كيفية الحياة، وبلوغ التقوى والصلاح، فى عالم نجس ملوث. إنه داخلى، من ناحية النفس أو الضمير، حول جهد كل مسلم ليصبح إنسانًا أفضل، وعلى عكس ذلك، فإن الجهاد الأصغر[٥٤] هو الحفاظ على النفس والدفاع عنها، إنه موجه إلى الخارج وهو مصدر المفاهيم الإسلامية عما يسميه المسيحيون بـ " الحرب العادلة " أكثر مما يسمونها بـ " الحرب المقدسة " . إن الفكر الغربى الحديث متأثرًا بقوة

بـآراء حقبـة الحـرب الصليبيـة عن " الحرب المقدسـة " قد اتجه إلى تصـوير الجهاد باعتباره حربًا إسـلامية ضد غير المؤمنين، بدأ بقهر إسبانيا فى القرن الثامن . وقد أصـر تومـاز مـاسـتناك(٥٥) على أنه " لا يمكن تعريف الجـهـاد على الوجـه الصـحـيح باعتباره حربًا مقدسة " : " إن الجـهـاد عقيدة خاصة بجـهاد روحى، يكون الفصل العسكرى فيه هو إعلان واحد محتمل فقط، إن الحرب الصليبية والجهاد، إن تحدثنا بدقة، لا يقارنان "، والفعل السياسى لا يتناقض، فى الوقت نفسه، مع الجهاد، والإسلام يجيز التمرد ضد الحاكم الظالم، سواء كان مسلمًا أو غير ذلك ويمكن الجهاد الأصغر أن يتضمن حشداً من أجل ذلك النضال الاجتماعى والسياسى .

إن ممارسة الجهاد الأصغر، تاريخيًا، باعتباره أساسيًا لـ " النضال العادل " كان يحدث من حين لآخر وهو معزول، محدداً نقاط أزمة فى التاريخ الإسلامى، لقد كان هنالك استخدامات واسعة للجهاد كشعار حاشد فقط، مع القرون الأولى من إقامة الدولة الإسلامية، حتى الجهاد الأفغانى فى الثمانينيات من القرن العشرين، وقد قام بالاستخدام الأول المحارب الكردى صلاح الدين رداً على قهر الحرب الصليبية الأولى ومذبحتها فى القرن الحادى عشر .

وكان الاسـتخـدام الثانى، واسع الانتشـار، فى منطقة سينيجـامبيا، فى غرب أفريقيا فى أواخر القرن السابع عشر، لقد كانت سينيجامبيا، فى النصـف الثـانى من القرن السابع عشر، أول منطقة أفريقية على اتصال بالنظام التجارى الأطلنطى . لقد غدت تجارة العبيـد، فى النصف الثاني من القرن السـابع عشـر، الشـاغل التجـارى الأسـاسى للقوى الأوروبية على الشاطئ الأفريقى، وكانت واحدة من آثارهـا الرئيسية هى الانتشـار الواسـع للعنف فى الحياة اليومية، وكان من بين هؤلاء الذين باعوا العبيد حكام مسلمون فى المنطقة، وكان الإحساس بالأزمة أكثر عمقًا فى مجتمع البربر الذى أمسكت به حركة كماشة، ما بين جيوش عربيـة تحيط من الشمـال والحدود الممتدة لتجارة العبيد الأوروبية فى الجنوب .

بدأ الإسـلام المناضل كحركة يقودها صوفيون "المارابو" بنية توحيد المنطقة ضد الآثار السلبية لتجارة العبيد، لقد بدأت الحرب الأولى "للمارابو" عام ١٦٧٧ فى المنطقة

نفسها التى أدت إلى ظهور حركة "المرابطين" فى القرن الحادى عشر، وكان الفرق هو أنه بينما اتجه المرابطون إلى الشمال ليهزموا إسبانيا، فى النهاية تحرك "المارابو" جنوبيًا، وقد بلغت الحرب الثانية ذروتها مع الثورة الإسلامية فى هضبة "فوتاجالون" عام ١٦٩٠ . وقد لاقى الإسلام المناضل من بربر(٥٦) الشمال وشعوب الجنوب، دعمًا شعبيًا للجهاد ضد الأرستقراطيات الإسلامية التى كانت تبيع رعاياها إلى تجار العبيد الأوروبيين، وقد أقام قادة الثورة فى فوتاجالون اتحادًا مقسمًا إلى تسعة أقاليم وعُين جنرال من الجهاد على كل قسم منها، وعندما مات آخر القادة الثوريين عام ١٧٥١، انتقلت السلطة من المارابو المتدينين إلى القادة من الجيش . وبدأ القادة العسكريون الجدد سياسة عدوانية تستهدف الجيران وتشن الغارات من أجل العبيد. كل ذلك تحت شعار الجهاد . إن الثورات الإسلامية التى بدأت بحرب المارابو الأولى قد أتمت دائرة كاملة خلال ثمانين عامًا : لقد وصلوا من قيادة احتجاج شعبى ضد العنف المعمم لتجارة العبيد، إلى تأسيس دولة جديدة لحق قادتها، حينذاك، بالجولة الثانية من تجارة العبيد .

وكانت المرة الثالثة التى مورس فيها الجهاد(٥٧) باعتباره " حربًا عادلة " فى منتصف القرن الثامن عشر فى شبه الجزيرة العربية، والتى نادى بها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢) الذى أعطى اسمه لعقيدة معاصرة، تم تحديدها وتعريفها مع آل سعود، بالوهابية، لقد أعلن جهاد عبد الوهاب فى ظروف كولونيالية، فى شبه الجزيرة العربية التى كانت تحت الحكم العثمانى منذ القرن السادس عشر . لم يكن ذلك جهادًا ضد الكفار كان أعداؤه يشتملون على مستعمرين عثمانيين سُنة، "وهراطقة" شيعيين، بينما كان المنتفعون هم تحالف حديث الالتحام بين آل سعود الطامحين والقوة الإمبراطورية الجديدة فى الأفق بريطانيا العظمى .

وكانت الممارسة الرابعة واسعة الانتشار للجهاد، كنضال مسلح فى السودان، عندما أعلن القائد المعادى للكولونيالية محمد أحمد (١٨٤٤ - ١٨٨٥) نفسه باعتباره المهدى (المخلص) عام ١٨٨١، وبدأ فى حشد الدعم ضد الإدارة

التركية - المصرية التى كانت تستوعب سريعًا فى الإمبراطورية البريطانية الممتدة . لقد كانت معــركة الجـهاد، فى هذا السياق، معركة ضد ما هو احتلال كولونيـالى مسلم (تركى - مصرى) وغير مسلم (بريطانى) وكان المهدى ناجحًا بصورة رائعة كمنظم للثورة . وقد كسب المهديون معركة بعد أخرى رغم أنهم لم يكونوا مسلحين بأكثر من الرماح والسيوف، ووصلوا عام ١٨٨٥ إلى العاصمة، الخرطوم، حيث قتلوا شارلى جوردون، الجنرال البريطانى، وبطل حرب الأفيون الثانية مع الصين (١٨٥٦ - ١٨٦٠) ؛ الذى كان حينذاك حاكمًا فى الإدارة التركية - المصرية . وقد اكتسب المهديون دعم كل المناطق، حيث كانوا يحاربون جيشًا خارجيًا مكروهًا . غير أنه ما إن تحرك المهديون المنتصرون لتوحيد مناطق مختلفة، وإقامة سودان موحد تحت حكم واحد حتى تفتت التحالف المعادى للكولونيالية إلى فرق متحاربة فى الشمال - حيث حاربت التأويلات المهدوية للإسلام، حتى النهاية ضد الصوفية - وجيش من قُطاع الطرق وتجار الرقيق فى الجنوب، وحيث انحطت حرب التحرير إلى غارات عبودية سادت الفوضى والمجاعة والمرض . وهنالك تقدير[٥٨] أن سكان السودان قد هبطوا من سبعة ملايين، قبل الثورة المهدية، إلى ما يتراوح ما بين اثنين وثلاثة ملايين بعد سقوط الدولة المهدية عام ١٨٩٨ . إن تجربة السودان، مثلها مثل المملكة العربية السعودية، وغرب أفريقيا فى القرون السابقة، قد بينت أيضًا أن الجهاد نفسه الذى بدأ كصرخة حاشدة للحركة الشعبية يمكن أن يحولها هؤلاء الذين فى السلطة لتكون على حساب داعميها .

وبينما لم يكن الجهاد المسلح معروفًا فى العقود التسعة السابقة على الجهاد الأفغانى فى الثمانينيات، فإنه يمكن متابعة الدعوة إلى الجهاد فى التفكير الإسلامى الراديكالى، لنصل إلى مفكرين اثنين أساسيين فى بداية الحرب الباردة: الصحفى والسياسى الباكستانى أبو الأعلى المودودى (١٩٠٣ - ١٩٧٩) الذى بدأ نشر كتبه فى مصر عام ١٩٥١، وسيد قطب. وقد ظهر المودودى عندما كان العلماء المنظمون فى جمعية علماء الهند يدعمون، فى لحظة ما، الهند متعددة الأديان اللامركزية، وهى موحدة، ضد المطلب الذى رفعه المثقفون السياسيون من أجل إقامة باكستان . وكما رأينا، فإن محمد إقبال قد تخيل الهوية السياسية الإسلامية ليس فى إطار دولة - الأمة، ولكن باعتبارها مجتمعًا ثقافيًا بلا حدود.

إن ما يثير السخرية أنه رغم أن تكوين باكستان قد أعطى السكان المسلمين تقرير المصير، فإن هذا كان باعتبارهم سكان أرض مشتركة، وليسوا كأمة، وبدلاً من أن يكون ذلك هو النقد العميق للوطنية - الإقليمية، ولدولة الأمة كما قصدها محمد إقبال كانت باكستان أمة تقوم على الأرض مستغرقة، شأنها شأن أية أمة أخرى مشغولة ببناء دولتها الخاصة واهتم المودودى اهتمامًا كبيرًا بهذا التناقض فى ندائه إلى المثقفين الإسلاميين، فيما بعد الكولونيالية، وادعى أن باكستان " أرض الأطهار" كانت لا تزال نا - باكتسان (أما أنها " ليست بعد أرض الأطهار أو أنها " أرض الأبخاس ")، لم تكن الدولة الإسلامية، بالنسبة للمودودى فقط دولة إقليمية للمسلمين، يجب أن تكون دولة أيديولوجية؛ دولة " إسلامية " . وللوصول إلى تلك النتيجة(٥٩) أسس " الجماعة الإسلامية " فى كراتشى عام ١٩٤١ وثبت نفسه أميرًا لها .

كان الأساس فى تفكير المودودى هو السلطة المتمركزة، والجهاد باعتباره النضال النهائى للإمساك بسلطة الدولة. وحدد أن الهدف النهائى(٦٠) للإسلام هو محو سيادة الإنسان على الإنسان، وجعله تحت حكم الإله الواحد، مع الجهاد باعتباره مسعاه الذى يصر عليه : " أن تخاطروا بكل ما لديكم - بما فى ذلك أرواحكم - من أجل إنجاز هذا الغرض، فإن ذلك يدعى جهادًا .... لذا فإننى أقول لكم، إن أردتم حقًا اجتناب الفساد المنتشر الآن انتشارًا واسعًا فى أراضى الله، انهضوا وحاربوا ضد الحكم الفاسد، خذوا السلطة واستخدموها باسم الإله . **لا جدوى من التفكير بأنه فى وسعك تغيير الأمور بالوعظ فقط**(*) . وأعاد المودودى، مركزًا عينيه(٦١) على الصراع من أجل السلطة تعريف معنى الدين، بطريقة علمانية خالصة : " إن إقرارك بأن شخصًا ما هو حاكمك الذى يجب عليك أن تخضع له يعنى أنك قد قبلت دينه .... ومن ثم، فإن الدين يعنى بالفعل الشيء نفسه مثل الدولة والحكومة" . كما أنه يجعل الإسلام علمانيًا(٦٢) مساويًا له، ليس مع الديانات الأخرى، ولكن مع

(*) الخط تحت السطر من عند المؤلف. (المترجم)

الأيديولوجيات السياسية التى تسعى إلى قهر الدولة، مثل السيادة الشعبية أو الملكية أو، قبل أى شىء، الشيوعية : إن الدين الكلى، مهما كانت طبيعته، يحتاج السلطة لذاتها، وفكرة مشاركة السلطة لا تخطر على البال، وسواء كانت السيادة الشعبية أو الملكية أو الشيوعية أو الإسلام أو أى دين آخر، فإنه يجب أن يحكم ليؤسس ذاته . إن دينًا بلا سلطة حاكمة إنما هو أشبه ببناء موجود فى العقل فقط، لقد كان المودودى هو أول من أكد حتمية الجهاد للمسلمين المعاصرين، وكان أول[٦٣] من ادعى بأن النضال المسلح أساسى للجهاد، وكان خلافًا لأى مفكر إسلامى كبير سبقه، أول من دعا إلى جهاد عالمى .

إن تأثير المودودى على سيد قطب، فيما يتعلق بضرورة الجهاد، كنضال مسلح، مسألة معروفة بصورة واسعة . ورغم ذلك، فإن الأمر المعروف بصورة أقل، هو الفرق بين الاثنين، وحتى إن ادعى قطب[٦٤] السيادة المطلقة للإله، فإنه يفعل ذلك بإحساس مختلف تمام الاختلاف عن المودودى : " المسلم لا يؤمن بأن آخر إلى جوار الإله يمكن أن يكون قدسيًا، وهو لا يؤمن، أن مخلوقًا آخر، غير ذاته، لائق لأن تجرى عبادته، وهو لا يؤمن أن سيادته يمكن أن تسرى على أى من خدمه " . حقًا، إن تفكير قطب غير تفكير المودودى المشغول بالدولة كالأداة الحقيقية للتغير فى التاريخ . إن تفكير قطب يركز، إلى حد بعيد، على المجتمع وقد لاحظ رينهارد سكولز أن " نائب السيادة الإلهية " عند قطب هو " الإنسان كفرد " و " ليس الدولة كما رأى المودودى " .

لقد بدأ سيد قطب سيرته العامة فى خدمة وزارة التعليم فى مصر بعد تخرجه من كلية تدريب المعلمين الشهيرة عام ١٩٣٣، وكان كتابه الأول **مهمة الشاعر فى الحياة** ينبئ بمستقبل أدبى[٦٥]. وأرسلت الوزارة قطب عام ١٩٤٨ فى بعثة إلى الولايات المتحدة ورغم أن المخطوطة : لم تكن قد انتهت قبل مغادرته، فإن أول كتاب مهم لقطب **العدل الاجتماعى فى الإسلام** نشر فى أثناء وجوده فى أمريكا، وقد شرح سيد قطب هدفه[٦٦] فى الفصل الافتتاحى للكتاب :

"ما علينا غير أن ننظر لنرى أن حالنا الاجتماعى سيئ قدر ما يمكن أن يكون السوء، من الواضح أن أحوالنا الاجتماعية ليس لها علاقة ممكنة مع العدالة، ومن هنا نستدير بأعيننا إلى أوروبا وأمريكا وروسيا، ونتوقع أن نستورد من هنالك حلولاً لمشاكلنا ... إننا نلقى جانبًا بصورة متواصلة تراثنا الروحى وكل موهبتنا الثقافية، وكل الحلول التى يمكن أن تنكشف بنظرة إلى تلك الأشياء، إننا نلقى جانباً مبادئنا وعقائدنا الأساسية، ونجيء بتلك التى للديمقراطية أو الاشتراكية أو الشيوعية". إن البحث عن طريق إسلامى إلى الحداثة وضع قطب جنبًا إلى جنب مع الأفغانى والبنا كأسلاف له .

عاد قطب من أمريكا عام ١٩٥١، العام الذى أخذت جمعية الإخوان المسلمين شرعتيها، وبدأ قطب، الذى كان عضواً نشطًا بين المعادين لسلطان حزب الوفد عندما غادر إلى أمريكا، وعاد ليبدأ فى الحال التعاون مع الجمعية . وعُين سيد قطب، بعد ثورة ١٩٥٢، مستشاراً ثقافيًا لمجلس قيادة الثورة، وكان المدنى الوحيد المسموح له بحضور اجتماعاته، وكانت خطاباته، بعد أن سجنه عبد الناصر عام ١٩٥٤، تُهرب إلى الخارج بواسطة إخوانه، وتوزع على نطاق واسع . إن هذه المجموعة من الخطابات نشرت تحت اسم **معالم على الطريق** ، وتُرجمت أيضًا تحت عنوان **المعالم** ، وقد شكلت بيانًا للإسلام السياسى الراديكالى المعاصر، وخرج من السجن عام ١٩٦٤، ثم أُعيد القبض عليه، وأُعدم عام ١٩٦٦ بناء على إصرار عبد الناصر، كما قيل .

لقد طور قطب فكر المودودى وسار به إلى نتيجة أكثر راديكالية، لقد وضع تمييزاً بين الحداثة والاتجاه نحو الغرب، منادياً باحتضان الحداثة رافضًا التغريب، كما وضع قطب أيضًا تمييزاً حاداً بين العلم والأيديولوجية، قائلاً إن الحداثة تتشكل من نوعين من العلوم؛ العلوم الطبيعية والعلوم الفلسفية . إن السعى للتقدم المادى والتمكن من الأمور العملية، إنما هو أمر قدسى و " فريضة جماعية " على المسلمين . إن الحداثة عبر العلوم الطبيعية[٦٧] أمر جميل، ولكن ليس عبر العلوم الفلسفية المتجهة نحو الغرب .

كانت إعادة صياغة قطب للجهاد متجاوبة مع الماركسية - اللينينية المعاصرة، مع كل من الماويين واللينينيين، وقد قال قطب، محاكيًا المادية فى تمييزها بين سبل معالجة التناقضات فى صفوف الشعب ومع العدو، بأن الجهاد يتضمن كلا من الترغيب والإلزام، الأول مناسب بين الأصدقاء والآخر يناسب الأعداء . وفى التحليل النهائى فإن القوة المادية وحدها، هى التى سوف تزيح العقبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أمام تأسيس المجتمع الإسلامى، واستخدام القوة لتحقيق الحرية ليس أمرًا متناقضًا بالنسبة لقطب، كما أنها ليست، حقًا كذلك، بالنسبة لأمريكا - وليس للإسلام الحق فقط لممارسة القوة لإنهاء العبودية وتحقيق حرية البشر، ولكن عليه الالتزام أيضًا لفعل ذلك .

> **إن الإسلام إعلان[٦٨] لتحرير كل رجل أو امرأة من العبودية لآخرين من البشر، حيث إنه يسعى لإزالة كل تلك الأنظمة والحكومات التى تقوم على حكم بعض الرجال لغيرهم، أو عبودية البعض للآخرين، عندما يحرر الإسلام الناس من تلك الضغوط الخارجية، أو يدعوهم إلى رسالته الروحية، فإنه يلجأ إلى عقلهم، ويعطيهم الحرية كاملة لقبولها أو رفضها .**

حقًا، " إن الإسلام لا يجبر الناس على قبول معتقده، لكنه يرغب فى تقديم بيئة حرة يكون لهم فيها الخيار للإيمان " .

هنا، يوجد أكثر من مجرد تماثل عابر مع جدل الماركسية - اللينينية، فقد قال قطب إن الجهاد عملية تبدأ بتنظيم طليعة، يليها انسحاب يمكن أن يجعل فى الإمكان القيام بالدراسة والتنظيم، ثم عودة إلى النضال . هنا يحاكى[٦٩] قطب قولاً أساسيًا مأثورًا فى اللينينية : كيف يبدأ إحياء الإسلام ؟ يجب أن تبدأ طليعة بهذا التصميم، ثم تظل تمضى، تسير عبر محيط الجاهلية الواسع، والذى يشتمل على العالم كله ... لقد كتبت "المعالم" لهذه الطليعة التى اعتبرها حقيقة منتظرة على وشك التحقق .

إن المثقفين الإسلاميين لم يكسبوا دومًا فى النضال ضد العلماء، ولقد كسب العلمــاء فى إيران نصرًا دراماتيكيًا، حيث إن المبادرة الفكرية فى إيران تقترن بعمل "على شريعتى"، الـذى سـعى إلى بنـاء الهوية الشعبيـة الثورية والحفاظ عليـها باعتبارها هوية المقهورين ومشروعًا لمجتمع إسلامى إنسانى عادل. إن النضال فى إيران الثورية لم يضع فقط رجال الدين ضد المثقفين غير المسلمين، لكنه وضع أيضًا الإسلاميين الذين كانوا علمانيين ضد الذين لم يكونوا كذلك . لقد حول رجال الدين غير العلمانيين المذهب الشيعى، عندما أحسوا بتهديد سلطة العلماء، بسبب تأويل ثقافى جديد للإسلام، له استقلاله الذاتى. لقد أنشأ آية الله الخومينى، فى محاولة لإعادة تنظيم العلماء، كتنظيم حرفى مؤسسى، أنشأ أول مؤسسة جديدة تمامًا " ولاية الفقيه "، كان على هذه المؤسسة، وهى تتصرف باعتبارها الأمينة(٧٠) على سيادة الإله، أن تعمل فى موازاة للحكومة المدنية، وهى مسئولة فقط أمام العلماء، والذين كان يوجد منهم مائة ألف فى إيران فى ذلك الوقت .

إن سيد قطب يُعرف، فى تاريخ جمعية الإخوان المسلمين فى مصر، باعتباره ممثل سطوة الإسلام السياسى، فى تناقض مع اعتدال حسن البنا، والفرق بين الإسلام السياسى المعتدل والراديكالى يكمن فى التالى، ناضل المعتدلون من أجل إصلاحات اجتماعية فى إطار النظام، بينما كان الراديكاليون مقتنعين بأن أى إصلاح اجتماعى له مغزاه، لن يكون ممكنًا دون الاستيلاء على الدولة . هل أقنعت خمسة عشر عامًا، من الأشغال الشاقة، فى معتقلات عبد الناصر، قطب أن المثقفين المتدينين والعلمانيين، لم يكن فى وسعهم الحياة فى سلام، فى المجتمع نفسه ؟ ولأى مدى كان نبذه للإصلاح عبر التعايش – والاقتناع بالحاجة إلى طليعة تشن حربًا حتى النهاية – صدى لمدارس أخرى معاصرة للفكر السياسى، مثل الماركسية اللينينية ؟ لقد كان المثقفون الإسلاميون فى أثناء انشغالهم بالهوية السياسية والسلطة السياسية، مثل المثقفين الآخرين سواء كانوا متدينين أم لا . لقد قدم المثقفون الإسلاميون أيديولوجياتهم عبر مواجهات، ليس فقط مع العلماء، ولكن أيضًا مع هؤلاء المثقفين العلمانيين الذين تجاهلوا التقليد الإسلامى واتجهوا إلى موارد ثقافية أخرى مثل

الماركسية أو الليبرالية الغربية . لقد طوروا الإسلام السياسى، عبر هذه المواجهة المزدوجة، فى اتجاهات عدة، تحررية وسلطوية . وكما أنه ليس من الدقة تاريخيًا مساواة الإسلام السياسى بالأصولية الدينية، فإنه ليس من الصواب مساواة كل ظل من ظلال الإسلام السياسى بالإرهاب السياسى . إن من بين المثقفين الإسلاميين الأربعة الذين كتبت عنهم هنا – محمد إقبال، ومحمد على جناح، وأبو الأعلى المودودى وسيد قطب – فإن المودودى كان مدافعًا لا يتردد فى إقامة دولة إسلامية أيديولوجيًا، باعتبارها الموضوع الحقيقى للتاريخ . وكان تفكير قطب، على عكس ذلك، أكثر تركيزًا على المجتمع، وسعى إقبال إلى تشكيل أمة إسلامية تتجاوز دولة الأمة باعتبارها مجتمعًا واسعًا بلا حدود . وختامًا، كان "جناح" مسلمًا علمانيًا، غدا الإسلام بالنسبة إليه هوية سياسية فى الهند الكولونيالية، ولقد ناضل من أجل دولة علمانية مثالية، وليس من أجل دولة إسلامية . دولة يمكن أن تصون الحقوق الديمقراطية لكل من الأغلبية المسلمة والأقليات غير المسلمة .

إن الاقتناع الوحيد الذى يربط المثقفين الإسلاميين الراديكاليين هو الانشغال بالاستيلاء على السلطة، وهم مقتنعون بأن اللحظة التاريخية التى حددها انهيار الشيوعية، هى اللحظة التى يجب أن يمسك بها المسلمون ليقدموا الإسلام أيديولوجية عالمية للتحرر . هذه هى الكيفية التى افتتح بها سيد قطب بيانه الخاص بالإسلام السياسى الراديكالى " معالم "، عام ١٩٦٢:

> **إن الجنس البشرى اليوم(٧١) على شفا كارثة، ليس بسبب خطر الإبادة الكاملة الذى يعلق فوق رأسه – وهذا مجرد عَرَض وليس المرض الحقيقى– ولكن بسبب أن الإنسانية خالية من تلك القيم الحيوية لتطورها الصحى وتقدمها الحقيقى ... إن الديمقراطية فى الغرب قد غدت عقيمة للغاية إلى حد أن مثقفيها يقترضون من أنظمة الكتلة الشرقية و خاصة فى المجال الاقتصادى، تحت اسم الاشتراكية .. إن الماركسية تقف اليوم مهزومة ثقافيًا، وليست مبالغة فى القول إنه لا توجد، فى الواقع،**

دولة واحدة فى العالم، ماركسية بحق ... كما أن الحقبة التى هيمنت فيها الثورة العلمية قد انتهت .. إن كل الأيديولوجيات القومية والشوفينية التى ظهرت فى الأزمنة الحديثة، وكل الحركات والنظريات التى استخلصت منها، قد فقدت حيويتها أيضًا، وفى إيجاز، فإن كل النظريات التى من صنع الإنسان، فردية أو جماعية، قد أثبتت فشلها. إن دورة الإسلام والمجتمع المسلم قد جاءت، فى هذه الآونة الحاسمة والمحيرة؛ لأنها تملك القيم المطلوبة .

إن الانقسام الأساسى بين المثقفين الإسلاميين الراديكاليين يتعلق بوضع الشريعة، ومن ثم بالديمقراطية فى الدولة، والاجتهاد يشير إلى الممارسة المؤسسية لتأويل "الشريعة "، مع وضع الأحوال التاريخية المتغيرة فى الحسبان، ومن ثم، وجهات النظر المختلفة، حيث إنه يسعى إلى هيئة قانونية مستقلة قائمة بذاتها تتغير باستمرار، استجابة للظروف المتغيرة . إن الموقف من الاجتهاد هو الموضوع الوحيد الأكثر أهمية الذى يفرق بين من يركزون على المجتمع، عن هؤلاء الذين يركزون على الدولة – والمتقدمين عن الرجعيين -- من الإسلاميين . إذ بينما يعد الإسلاميون الذين يركزون على المجتمع على أن تركز ممارسة الاجتهاد على المجتمع الإسلامى الحديث، يصمم إسلاميو التركيز على الدولة على أن تظل " بدايات الاجتهاد" مغلقة إلى الأبد . لقد دعا إقبال إلى تحديث الاجتهاد ومقرطته، حتى يمكن تأويل القانون بواسطة هيئة ينتخبها مجتمع المسلمين، الأمة، وليس العلماء فقط، والتأكيد على الاجتهاد هو مفتاح أيضًا إلى تفكير سيد قطب وتمييز ميراثه الثقافى عن فكر المودودى الذى يركز على الدولة .. إننى أرى أن الجذور النظرية للإرهاب الإسلامى السياسى تكمن فى الحركة التى تركز على الدولة، وليس فى تلك التى تركز على المجتمع .

إن السؤال الذى نواجهه اليوم، ليس مجرد لماذا ظهر فكر التركيز على الدولة فى الإسلام السياسى؟ ولكن كيف استطاع هذا الفكر أن يقفز من القول إلى الفعل ومن ثم تحرك من الحاشية الثقافية إلى المجرى العام للسياسة فى أجزاء كثيرة من

العالم الإسلامى؟ إن " خطاب الثـقـافة " لا يستطيع الإجـابة عـن هــذا السـؤال، ولا يستطيع ذلك أيضًا، أفضل نقاد الثقافيين، مثل كارين أرمسترونج . إن " خطاب الثقافة " يرى أن صراع الحضارات هو القوة الدافعة الكامنة وراء النزاعات الكونية، ويشير النقاد إلى أن الصراع الثقافى داخل الحضارات هو الأكثر أهمية من الصراع بينها . إن " خطاب الثقافة " يرى الأصولية باعتبارها مقاومة للحداثة ويشير النقاد إلى أن الأصولية حديثة مثل الحداثة، إنها بالفعل رد فعل للحداثة . إن كلاً من الطرفين يسعى كى يفسر الإرهاب " السياسى " فى الثقافة سواء كان حديثًا أو سابقًا على الحداثة، وكلاهما يصور جانبين مختلفين للجدل الثقافى نفسه مما ينفى المواجهة "السياسية "، والتى أعتقد أنها أساسية لفهم الإرهاب السياسى .

وللتمييز بين الإسلام الثقافى والسياسى فإننى أضع الإسلام السياسى فى سياق الحرب الباردة، وهدفى من ذلك هو أن أطرحه للتساؤل، الافتراض واسع الانتشار حتى بين نقاد " خطاب الثـقـافـة " بأن اتجاهات المتطرفين الدينيين يمكن أن تتسـاوى والإرهاب السياسى. إن الإرهاب ليس بالضرورة بتأثير الاتجاهات الدينية سواء كانت أصولية أو علمانية، والأحرى، أن يولد الإرهاب من المواجهة السياسية . إن الإرهاب عندما يستخدم واحداً، أو آخر، من أوجه المأثور أو الثقافة، فإنه يجب أن يُفهم على أنه حركة سياسية حديثة فى خدمة سلطة حديثة، وبهذا، فإن منشأ شكل الإرهاب السياسى المسئول عن مأساة الحادى عشر من سبتمبر، يمكن اقتفاء أثره إلى الحرب الباردة الأخيرة .

الهوامش

(1) Reinhard Schulze, "A Modern History of the Islamic World" (New York: New Yourk University Press, 2002), p. xiii.

(2) Aryeh Neier, "Warring Against Modernity", The Washingon Post, October 9, 2001.

(3) Samuel Huntington, "The Clash of Civilizations?" Foreign Affairs 72, no. 3, summer 1993, p.22.

(٤) "إن الستارة المخملية للثقافة قد استبدلت بالستارة الحديدية للأيديولوجيا باعتبارها الخط الأكثر أهمية للتقسم فى أوروبا"، انظر:

Samuel Huntington, "The Clash of Civilizations?" p.31.

(5) William Lind, "Defending Western Culture," Foreign Ploicy 84, fall 1991, pp. 43 - 44.

(6) Regis Debray, "Tous azimuts" (Paris: Odile Jacob, Foundations pour les etudes de defense nationale, 1990), pp. 44-45, cited in Roxanne L. Euben, "Enemy in the Mirror: Islamic Fundamentalism and the Limits of Western Rationalism, a Work of Comparative Political Theory" (Princeton, Princeton University Press, 1999), p. 6.

(7) Edward Said, "The Clash of Definitions," in Reflections on Exile and Other Essays (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2000). P.581.

(8) Bernard Lewis, "The Roots of Muslim Rage," The Atlantic, Septemper 1990. Available at www.theatlantic.com/issues/90Sep/rage.htm.

(٩) إن معادلة علاقة العلمانية بالحداثة الغربية، ومن ثم الافتراض المحبب للغاية لبرنارد لويس، بأنه لا يمكن وجود علمانية دون توجه نحو الغرب. قد انتقدها أمارتيا سين حديثًا. انظر:

Amartya Sen, "Exclusion and Inclusion," Mainstream (New Delhi), November 28 2001; also see Amartya Sen, "A World Not Neatly Divided", New Yourk Times, November 23, 2001. Also see Bernard Lewis, "What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response" (New Yourk: Oxford University Press, 2002), pp. 103, 159.

(10) Lewis, "Roots of Muslim Rage," available at www.theatlantic.com/issues.90sep/rage.htm.

(١١) إن أكثر من ثلاثة أرباع بلدان العالم الـ ١٤٥ غير الإسلامية، هى فى الآن ذاته أنظمة ديمقراطية، بينما كثرة البلدان ذات الغالبية الإسلامية تواصل تحدى هذا الاتجاه. وذلك طبقًا لمسح قام به بريدوم هاوس وهو مرصد سياسى مستقل للحقوق السياسية والحريات المدنية، ومقره نيويورك. انظر:

Barbara Crossette, "As Democracy Spreads Islamic World Hesitates," International Heraled Tribune, December 23, 2001.

(12) Stephen Schwartz, "Ground Zero and the Saudi Connection," The Spectator (London), September 22, 2001.

(١٢) لتقدير وضع المسلمين الطالحين، انظر:

Blaine Harden, "Saudis Seek to Add U.S. Muslims to Their Sect," New York Times, October 20, 2001; Susan Sachs, "Anti-Semitism Is Deepening Among Muslims," New York Times, April 27, 2002. For a portrayal of good Muslims, see Laurie Goodstein, "Stereotyping Rankles Silent, Secular Majority of American Muslims," New York Times, December 23, 2001, p. A 20.

(14) Lewis, "What Went Wrong?" P.4.

(15) Tomaz Mastnak, "Crusading Peace: Christendom, the Muslim World, and Western Political Order" (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2002), pp. 95-125.

(16) Gil Anidjar, "Our Place in al-Andalus": Kabbalah, Philosophy, Literature in Arab Jewish Letters (Stanford: Stanford University Press, 2002). Pp. 1,6,15,22,172.

(17) I am thankful to Tim Mitchell for gently persuading me to explore the debate around Orientalism.

(18) Marshall G.S. Hodgson, "In the Center of the Map," in Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History (edited with an introduction and conclusion by Edmund Burk 111), (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), pp. 29-34; Edmund Burke 111, "Introduction" in ibid., p. xvii.

(19) Christopher Miller, Blank Darkness: "Africanist Discourse in French" (Chicago: University of Chicago Press, 1985).

(20) Marshall G.S. Hodgson, "The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization, vol. 1:" The Classical Age of Islam (Chicago: University of Chicago Press, 1974), p. 53.

(21) Noel Swerdlow and Otto Neugebauer, "Mathematical Astronomy in Copernicus's De Revolutionibus" (New York: Springer-Verlag, 1984), pp. 42-43, 295. For an elaborated discussion, see George Saliba, "Rethinking the Roots of Modern Science: Arabic Manuscripts in Euro-

pean Libraries," occasional papers. Center for Contemporary Arab Studies (Edmund A. Walsh School of Foreign Service, Georgetown University, 1999), pp. 6-7.

(٢٢) من المعروف جيدًا أن النهضة الأوروبية ازدهرت من مصادر متباينة، يونانية وصينية وهندية وعربية وأفريقية. إن القائمة الطويلة من الاكتشافات التى نشأت فى أماكن أخرى، ثم نُشرت فى أوروبا، واشتملت على البارود، والأسلحة النارية والبوصلة والدفة الموجودة على قائم فى مؤخر السفينة والكسر العشرى والجامعة، من بين أشياء أخرى كثيرة، ويذكر فرنسيس روبينسون، أن ستين مؤلفًا يونانيًا، على الأقل، فى مجالات الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعة والفلك والجغرافيا والعلوم البيئية قد ترجمت إلى العربية خلال الخلافة العباسية فقط. إن الأمر ليس مجرد ممر، صب عبره ميراث أدبى كونى ليمنح النماء لحداثة أوروبا ما بعد النهضة. هل يمكن أن تكون إسبانيا الأندلسية والإسلام الكلاسيكى هما البوتقتان اللتان انصهرت فيهما تلك الحداثة المبكرة، انظر:

Burke, "Introduction." In Hodgson, "Rethinking World History," p. xix; Francis Robinson, "Modern Islam and the Green Menace," The Times Literary Supplement, January 21, 1994, quoted in Euben, "Enemy in the Mirror," pp. 12, 173.

(23) Cheikh Anta Diop, "The African Roots of Civilization" (Chicago: Lawrence Hill Books, 1974).

(٢٤) لقد حُوِل ديوب، فى أيامنا تلك، إلى رمز للعمل البحثى فى أمريكا الشمالية؛ قاعدة المركز حول الذات الأفريقية ، مع طرح فكرة الهوية الأفريقية باعتبارها "هوية لون" ودمج مصر القديمة فى مفهوم له تواصله التاريخى عن "الحضارة السوداء" التى هى ليست موازية فقط "للحضارة الغربية"، لكنها أيضًا أطول منها. إن نقد ديوب الطليعى، من وجهة نظرى، للمدرسة البحثية الوطنية السائدة عند "الغرب"، نقد له دلالة مهمة كبرى.

(٢٥) إن خطأ مهمًا وقع فى الجهود البحثية الوطنية الأفريقية يتمثل فى الاهتمام بكتابة تاريخ التقسيم بين شمال أفريقيا، وأفريقيا جنوب الصحراء، ومن ثم تحديد النسبية - لقد بين سمير أمين أنها جسر حاجز، سابق على قيام تجارة الرقيق الأطلنطية. ولقد أوضح عبد الله العروى المشكلة بعزل تاريخ أفريقيا عن تاريخ البحر المتوسط. ولقد كتب بارى بوباكار تاريخ سينيجامبيا وهى منطقة تقع على جانبى التقسيم الجغرافى، انظر:

Samir Amin, "Unequal Development: An Essay on Social Formations of Peripheral Capitalism" (New York: Monthly Review Press, 1976); Abdalla Laroui, "The History of the Maghreb: An Interpretive Essay" (Princeton: Princeton University Press, 1977); Barry Boubacar, "Senegambia and the Atlantic Slave Trade" (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

(26) Martin Bernal, "Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilizations" (New Brunswick, N.j.: Rutgers University Press, 1987).

(27) Edward Said, "Orientalism" (London: Penguin, 1985), pp. 300-301.

(٢٨) إن التسييس الوطنى للبويات المثقفة كان، فى الغالب، رد فعل للكتابات الاستشراقية. إن هذه هى البصيرة التاريخية البسيطة الغائبة من تحذير عما بعد الحادى عشر من سبتمبر الموجود داخل عمل عن "الاستغراب". "غير أن هنالك شيئًا واضحًا فى هذه الحرب الدائمة، هو أنه يجب علينا أن نواجه "الاستغراب" بصورة مثيرة تجاه الاستشراق. إننا ما أن يشدنا هذا الإغراء حتى يكون الفيروس قد أصابنا نحن أيضًا. إن المشكلة بالطبع هى أن تاريخ المرض يوضح أن مجراه كان عكس ذلك، الاستشراق " إلى "الاستغراب" ، انظر:

Ian Buruma and Avishai Margalit, "Occidentalism," The New York Review of Book, January 17, 2002, p.7.

(29) David Crawford, "Morocco's Invisible Imazighen", The Journal of North African Studies 7, no. 1, spring 2002, pp.59, 66.

(30) Crawford, "Morocco's Invisible Imazighen," p. 61.

(31) For a historical account, see Boubacar, "Senegambia and the Atlantic Slave Trade," pp. 10, 15, 53.

(٣٢) كان المقصود من الكتاب أن يقوم بدور المنار، مقدمًا منظرًا غضًا وشافيًا للنزاعات المدنية، ثم ينتشر عبر القارة الأفريقية، انظر وزارة خارجية السودان.

"Peace and Unity in the Sudan: An African Achievement" (Khartoum: Khartoum University Press, 1973), pp. 58-59.

(33) Ernest Renan, cited in Said, "Orientalism," p. 149.

(34) Armstrong, "Battle for God," pp. 175-77.

(35) Susan Friend Harding, "The Book of Jerry Falwell: Fundamentalist Language and Politics" (Princeton: Princeton University Press, 2000), pp. 62-63.

(36) Armstrong, "Battle for God," pp. 215,268.

(37) Ibid., pp. 268-75.

(38) Hardubg, "Book of Jerry Falwell," p. 77.

(39) Ibid., p. 23.

(40) Ibid., pp. 17,22,79, 157, 161, 162, 190.

(41) Phyllis Schlafly, "The Power of the Christian Women" (Cincinnati: Standard, 1981), p. 177, cited in Armstrong, "Battle for God," p. 311.

(42) Sara Diamond, "Roads to Dominion: Right-Wings Movements and Political Power in the United States" (New York: Guilford Press, 1995), pp. 1, 237; Harding, "Book of Jerry Falwell," pp. 19-20.

(43) Nikki Keddie, "An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamal al-Din 'al-Afghani" (Berkeley: University of California Press, 1983), pp. 87-97.

(44) Bassam Tibi, "The Crisis of Modern Islam: A Preindustrial Culture in the Scientific-Technological Age" (Salt Lake City: University of Utah, 1988), p. 70; cited in Armstrong Battle for God, pp. 156-58.

(٤٥) أشار شولز إلى أنه، "ليس هنالك في الإسلام سلطة دينية يمكن فصلها عن السلطة الدنيوية، حيث لا يوجد في الإسلام إكليروس أو كهنوت، لذا يكون تحميل الإسلام بمشكلة تخص المعتقدات الجامدة المسيحية مسألة لا معنى لها".

Schulze, "Modern History of the Islamic World," p.3.

وبينما تنير بصيرة شولز المجرى الأساسي للإسلام، فإنني سوف أوضح فيما بعد أنها في حاجة لتحويرها في ضوء إسلام الشيعة المعاصرة.

(٤٦) ويشير شولز أنني أتقدم إلى تيم ميتشيل بالشكر لدفعه لهذا الموضوع إلى الوطن مرة بعد أخرى.

(٤٧) لقد طرح سمير أمين الموضوع في إيجاز، "إن هذه الحركات قد سُميت عادة باسم "الأصولية الإسلامية" في الغرب، غير أنني أفضل العبارة المستخدمة في العالم العربي: الإسلام السياسي. ليس لدينا حركات دينية مثل تلك. هنا - المجموعات المختلفة كلها قريبة للغاية، الواحدة من الأخرى - شيء ما أكثر عادية بكثير: إن المنظمة السياسية تستهدف قهر الدولة ، لا شيء أكثر، لا شيء أقل.

(٤٨) من أجل تحليل سياسي للإسلام الهندي، انظر:

Ayesha Jalal, "Self and Sovereignty, Individual and Community in South Asian Islam Since 1850" (New York: Routledge, 2001).

(٤٩) تلاحظ عائشة جلال، وهي تكتب عن سيد أحمد خان أن: حركة "أليجارة" التي تبناها، كان يُنظر إليها كمتعهد يورد التفكير الحديث والعقلاني إلى النخبة المسلمة، وأيضًا، ويا للسخرية كان كبشير لليوم - الآخر بـ "الانفصالية" و"الجماعية" السياسية الإسلامية. وكان خصومه المسلمون الأكثر ثقافة يضمرون، على نقيض ذلك، مشاعر وأحاسيس عن عالمية إسلامية معادية للكولونيالية، وانغمسوا في كيانات دينية، في المدارس والمكتبات فقط، لينتهوا بحق إلى الجانب الاحتوائي "العلماني" للوطنية الهندية. انظر:

Jalal, "Self and Sovereignty," pp. 77-78.

(٥٠) لم يفكر كثيرًا في الخلافة التركية، وفكر أقل في عدم - التعاون الغاندي. كان من رأيه أنه "لا يمكن لمسلم مخلص أن يلحق بـ (حركة الخلافة) لدقيقة واحدة. وكان إقبال، في نوفمبر عام ١٩٢٢، من بين القليلين الذين هللوا لقرار "الجمعية الوطنية التركية الكبرى" إلغاء السلطنة، وتعيين خليفة جديد مجرد من أية سلطات دنيوية. كان يرى صحة ممارسة الجماعية، معارضًا الاجتهاد الفردي، وأعلن إقبال، فيما بعد،

أن "تركيا وحدها"، من بين البلدان الإسلامية فى العالم، "قد نفضت خمودها العقائدى، ونالت وعيها الذاتى" من خلال ممارسة "حقها فى حريتها الثقافية". كان المسلمون، فى باقى أنحاء العالم، بما فى ذلك الهند "يكررون بطريقة آلية قيمًا قديمة، بينما (كان) الأتراك على طريقهم لابتداع قيم جديدة، انظر:

Jalal, "Self and Sovereignty," pp. 244-45.

(٥١) اشتمل البرنامج على: ١- تأويل القرآن فى روح العصر. ٢- وحدة الأمم الإسلامية. ٣- رفع مستوى المعيشة وتحقيق العدالة الاجتماعية والنظام. ٤- النضال ضد الأمية والفقر. ٥- تحرير أراضى المسلمين من الهيمنة الأجنبية. ٦- تقرير الإسلام والأخوة الإسلامية عبر العالم. انظر:

Armstrong, "Battle for God," pp. 218-26. On disavowing violence, see Richard Mitchell, "The Society of the Muslim Brothers" (Oxford: Oxford University Press, 1969); cited in Talal Asad, "Comments (Yet Again) on Political Islam in the Middle East" (Graduate Center, City University of New York. October 11, 2002, mimeographed).

(52) Schulze, "Modern' History of the Islamic World," pp. 134-35.

(٥٣) إن المسلم يسعى إلى الوحدة بين الشخصى والسياسى. إن أية محاولة لفصل أية منطقة من هذا الجهد الدينى الكلى، سوف تكون انتهاكًا لمبدأ إسلامى أساسى ومهم، هو التوحيد. إنه مبدأ التوحيد، الذى يذكره برنارد لويس باعتباره أساس الادعاء، بأنه ليس هنالك مكان عقائدى لملاءمة علمانية. إنه بفعله ذلك، لم يدر ظهره للإسلام التاريخى فقط، لكنه، أيضًا، يُعرف الإسلام عقائديًا بتأويل واحد خاص.

(٥٤) فاريش أ. نور، "تطور الجهاد فى الخطاب السياسى الإسلامى: كيف يمكن لفكرة مرنة أن تصبح أكثر صلابة". مجلس بحوث العلم الاجتماعى:

لقد كتب آية الله الخومينى مقالاً بعنوان، الجهاد الأكبر عام ١٩٧٢ . والعنوان يشير إلى واحد من أحاديثه حيث يقول الرسول بعد عودته، من معركة، "إننا نعود من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر". إن المسألة من وجهة نظره أن السياسة هى الجهاد الأصغر، وأن تحول الذات الروحى والمجتمع هما الجهاد الأكبر.

(55) Mastnak, "Crusading Peace," pp. 64-65.

(٥٦) من أجل بيان تاريخى، انظر:

Boubacar, "Senegambi and the Atlantic Slave Trade," pp. 25, 46, 51-52, 58, 81, 94-95.

(57) Tariq Ali, "The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads, and Modernity" (London: Verso, 2002), pp. 41-42, 73-74.

(58) Francis M. Deng. "War of Visions: Conflict of Identities in the Sudan" (Washington, D.C.: The Brookings Institution, 1995), pp. 49-52.

(59) Schulze, "Modern History of the Islamic World," pp. 116-117.

(60) Sayyid Abul A'al Mawdudi, "Let Us Be Muslims, ed. Khurram Murad" (London: Islamic Foundation, 1985), pp. 285, 288.

(61) Ibid., p. 295.

(62) Ibid., p. 297.

(63) Euben, "Enemy in the Mirror," P. 74; Armstrong, "Battle for God," pp. 236-38.

(64) Schulze, "Modern History of the Islamic World," p. 176.

(٦٥) من أجل وصف إجمالي للسيرة الذاتية، انظر:

Hamid Algar, "Introduction", to Sayyid Qutb, "Social Justice in Islalam," trans. John B. Hardie, rev. with an introduction by Hamid Algar (Oneonta, N.Y.: Islamic Publications, 2000), pp. 1-17.

(66) Qutb, "Social Justice in Islam," p.19.

(67) Sayyid Qutb, "Milestones," rev. trans with a foreword by Ahmed Zaki Hammad (Indianapolis: American Trust, 1990), pp. 91-94.

(68) Ibid., pp. 49-50, 46.

(69) Ibid., p. 9.

(70) Schulze, "Modern History of the Islamic World." On Ali Shariati, see p. 178; on Ayatolah Khomeini, see p. 223.

(71) Qutb, "Milestones," pp. 5-6.

الفصل الثانى

الحرب الباردة بعد الهند الصينية

كنت محاضراً شاباً فى جامعة دار السلام بتنزانيا عام ١٩٧٥، وكان هذا العام عامًا مهمًا فى تخلص العالم من الكولونيالية كما نعرف؛ حيث إنه عام الهزيمة الأمريكية فى الهند الصينية وانهيار الحكم البرتغالى فى مستعمرات موزمبيق، وأنجولا وغينيا البرتغالية، آخر إمبراطورية أوروبية فى أفريقيا، وبالنظر إلى الماضى، كان ذلك العام هو العام الذى انتقلت النقطة البؤرية للحرب الباردة من جنوب شرق آسيا إلى أفريقيا الجنوبية . وكان السؤال الاستراتيجى هو: من الذى سيلتقط أجزاء الإمبراطورية البرتغالية فى أفريقيا، الولايات المتحدة أم الاتحاد السوفيتى ؟ وقد جرى مع تحول النقطة البؤرية للحرب الباردة تحول مماثل فى استراتيجية الولايات المتحدة، وقد كشف مؤثران كبيران، كان كل منهما درسًا من حرب الهند الصينية، عن هذا التحول . وقد تناول رئيس الولايات المتحدة أحد هذين المؤثرين، وتناول الكونجرس المؤثر الثانى . وتم تلخيص الدرس التنفيذى فى "عقيدة نيكسون"، وأُقر الدرس التشريعى فى "تعديل كلارك" .

مثالان متعارضان – لاوس وڤيتنام :

قالت عقيدة نيكسون بأنه " يجب على "الأولاد" الآسيويين أن يتحملوا قتال الحروب الآسيوية "، ولقد أجملت هذه العقيدة درس أكثر من عقد من تورط الولايات المتحدة فى الهند الصينية، وتأملت، بصورة أكثر تحديداً، الكارثة الڤيتنامية فى مقابل السلوك الناجح نسبيًا للحروب بالوكالة فى لاوس . ما كان يمكن للتناقض أن يكون أكثر حدة من ذلك، حيث قررت الولايات المتحدة، وهى مطلقة اليد فى ڤيتنام، أن تشن الحرب بطريقة

أكثر تقليدية، مدخلة مئات الآلاف من القوات لتقاتل حرباً أرضية، ضد حرب العصابات الشيوعية المحلية . غير أن الولايات المتحدة وجدت، عندما جاءت إلى لاوس، أن يديها مقيدتان باتفاقية ١٩٦٢ مع موسكو، وهى اتفاقية منعت إدخال قوات أرضية إلى ذلك البلد وأصبحت مجبرة على الاستعداد بصورة سريعة .

لقد بدأت الحرب الڤيتنامية عام ١٩٦٤، عندما زعمت إدارة جونسون أن مدمرتين للولايات المتحدة قد هوجمتا بطوربيدات ڤيتنامية شمالية فى خليج تونكين، ورسمت وسائل الإعلام صورة للمهانة الوطنية وطالبت بالرد على ذلك، فشرع جونسون فى القذف النارى بالقنابل ضد ڤيتنام الشمالية، وطالب الكونجرس بإصدار قرار يسمح له بإرسال قوات أرضية إلى ڤيتنام . وقد قال طاقما المدمرتين، فيما بعد، إن حكايات الهجوم تلك كانت حكايات مختلقة، ووافق كل من مجلسى الكونجرس على قرار مشترك[١] بعد قليل من حادثة خليج تونكين عام ١٩٦٤، وهو قرار يعطى الرئيس التفويض المطلوب فى ڤيتنام. لجأ الرئيس جونسون ومستشاروه، مسلحين بسلطات الحرب التى تصل إلى حد شيك على بياض، إلى "الأمركة" السريعة للحرب، وارتفع عدد "المستشارين العسكريين" للولايات المتحدة، خلال عام ١٩٦٤، من ستة عشر ألفًا إلى ثلاثة وعشرين ألفًا وأمرت الولايات المتحدة، دون تحقيق تقدم يمكن إدراكه، بقذف ڤيتنام الشمالية بالقنابل - عملية الرعد الهادر - متوقعة أن يؤدى ذلك إلى تدمير قوى الطاقة والمرافق الصناعية إلى إجبار الشمال على التسليم . وقرر جونسون، عندما فشلت تلك الأعمال فى تحقيق النتائج المتوقعة، أن يعهد إلى قوات مقاتلة كافية بالاضطلاع بتسيير الحرب المضادة للثورة فى جنوب ڤيتنام . وقد قاد كل فشل إلى مبادرة أكثر تطاولاً، قادت بدورها إلى فشل أكبر، وكانت أولى تلك المبادرات برنامج القرية الصغيرة الاستراتيجي، والذى استهدف جمع سكان القرى فى مناطق تجرى السيطرة عليها، ثم يتبع ذلك القيام بعمليات " ابحث ودمر " وكل منها ينتهى بإعلام عام عن العدد المريع لجثث الڤيتناميين الشيوعيين الذين تم قتلهم . ثم جاء برنامج التهدئة والذى صمم ليتجاوز استهداف قرية واحدة، فى المرة الواحدة، إلى التحكم فى السكان

المدنيين ككل، وعندما وُجد أن برنامج التهدئة مقصوراً أيضًا، استكمل بعملية العنقاء(*)، " استلهمتها المخابرات الأمريكية من حملة جنوب ڤيتنام مستهدفة تحديد الجهاز السياسى للفيت كونج، فى القرى، وتصفيته " . وقاد كل فشل إلى جهد أكثر طموحًا، وجاءت، فى النهاية، " التيت"(**) الهجومية عام ١٩٦٨ . وحاولت الولايات المتحدة بعد "التيت"[٢] أن تطبق درس لاوس فى ڤيتنام، وأفسحت " الأمركة " الطريق أمام "الڤتمنة" منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٥ .

لقد نشبت الحرب فى لاوس نتيجة للحرب الممتدة فى ڤيتنام؛ إذ عندما ازدادت الحرب الفيتنامية كثافة شقت القوات والامدادات طريقها من الشمال إلى ميادين القتال فى الجنوب، عبر أدغال جنوب لاوس، فى غالب الأحوال . وكان الهدف الاستراتيجى الأمريكى هو غلق هذا الطريق - ومحاكمة هوشى منه بواسطة القوات العسكرية للولايات المتحدة، ولتحقيق تلك النهاية قامت الولايات المتحدة بزرع مرتزقة محليين وكلاء عنها، ودعمتهم بقوة جوية كثيفة، وقادت المخابرات الأميريكية، لأكثر من عقد، جيشًا سريًا من ثلاثين ألف مرتزق من "الهمونج" Hmong ضد العصابات الشيوعية فى جبال شمال لاوس، وعندما تصاعدت المعارضة ضد الحرب الفيتنامية، مرة أخرى، فى الولايات المتحدة وضحت ميزات الحرب بالوكالة، أنها تشن سراً وهى قد أُزيحت، فى الوقت نفسه، بعيداً عن إشراف الكونجرس والفحص والتدقيق العام، والدبلوماسية التقليدية . وقد عرف عدد قليل من الأمريكيين، حتى بعد نهاية[٣] الحرب، أن القوة الجوية للولايات المتحدة، قد حاربت " أكبر قوة جوية فى التاريخ العسكرى فوق لاوس، حيث أسقطت ٢,١ مليون طن من القنابل فوق هذه الأمة الصغيرة الفقيرة - وهو عدد الأطفال نفسه الذى أسقطته قوى الحلفاء على ألمانيا واليابان خلال الحرب

(*) طائر خرافى يحرق نفسه ثم يبعث من الرماد من جديد. (المترجم)

(**) السنة الجديدة الفيتنامية، وتستمر ثلاثة أيام، تبدأ بأول قمر جديد بعد ٢٠ يناير. (المترجم)

العالمية الثانية ". لقد وحد نموذج لاوس بين الحرب بالوكالة على الأرض، مع حرب جوية أمريكية عنيفة وقاسية . وبينما أصبحت الحرب بالوكالة هى النظام اليومى عبر الحرب الباردة الأخيرة، قامت الحرب الجوية بدورها على مسئوليتها فقط بعد نهاية تلك الحرب .

تمويل الحرب بالوكالة :

إذا كانت إحدى ميزات الحرب بالوكالة هى إمكان إخفاء إدارتها عن الفحص العام، فإن الضرر كان صعوبة تمويلها من الأموال العامة، وهذا يفسر لماذا اتجهت الحروب السرية، فى غالب الأحوال، إلى أن تسير جنبًا إلى جنب مع التجارة المحرمة وهى عادة تجارة المخدرات . لقد كان هنالك رباط تأسس منذ زمن طويل بين تجارة المخدرات - سواء كان مسموحًا بها أو محرمة - وتمويل الحرب الكولونيالية . لقد أقامت الإمبراطورية البريطانية، فى أوائل القرن التاسع عشر احتكارًا رسميًا لزراعة بذور الأفيون فى مستعمراتها الهندية وصدرت المحصول إلى الصين، وعندما اعترض إمبراطور الصين، ادعى البريطانيون أنه ينتهك حرية التجارة، وأرسلت الإمبراطورية، دفاعًا عن حرية[٤] تجارة الأفيون، سفنًا مزودة بالمدافع إلى نهر اليانجتسى، وخاضت حرب الأفيون الوضيعة . واستخدمت فرنسا بالمثل، فى الهند الصينية المجاورة، إيرادات الأفيون المعتمدة رسميًا لدفع تكلفة احتلالها الكولونيالى .

لقد تابع الباحث ألفريد مكوى، من جامعة ويسكونسين، فى دراسة تاريخية مهمة[٥]، الرباط بين تجارة المخدرات، والأعمال المضادة للثورات، " سياسة الهيروين، التوسع الكونى لمراكز إنتاج المخدرات - فى بورما (ميانمار)، ولاوس، وكولومبيا، وأفغانستان - إلى الغطاء السياسى الذى تقدمه كفالة المخابرات الأمريكية للحروب الخفية . لقد كان الأفيون فى القلب من تجارة المخدرات بعد الحرب العالمية الثانية، وهو المادة الخام الأساسية لصناعة الهيروين عالى الجودة، وعندما بدأت المخابرات

الأمريكية تحالفها مع لوردات المخدرات، " كانت التجارة الكونية للأفيون " فى أدنى جَزْر لها فيما يقرب من قرنين . كانت الحرب قد قطعت النقل الدولى بالسفن، والأمن المشدد قد سد الطريق على تهريب الهيروين إلى الولايات المتحدة . ودخلت المخابرات الأمريكية فى مجموعتين من التحالفات، اعتبرتهما أساسيين لشن الحرب الباردة . وقد دفعت كل منهما بتجارة المخدرات لمستويات تجاوزت ما كانت عليه الأحوال فيما قبل الحرب، وقد كانت الأولى منها مع المافيا فى إيطاليا وفرنسا، وكانت الثانية مع القوى الصينية المعادية للشيوعية على امتداد حدود بورما – الصين. وقد تحالفت المخابرات الأمريكية منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٠ مع " العالم السفلى الكورسيكى، فى نضاله ضد الحزب الشيوعى الفرنسى للتحكم فى ميناء مرسيليا المتوسطى الاستراتيجى " . وانتصر الكورسيكيون " واستخدموا تحكمهم فى هذا القسم من مرسيليا الذى يواجه البحر للهيمنة على تصدير الهيروين إلى سوق الولايات المتحدة "، حتى الربع التالى من القرن. و" أجرت المخابرات الأمريكية » فى الوقت نفسه، " سلسلة من العمليات السرية على امتداد الحدود الصينية، كانت لها أثرها فى نشأة تجمع هيروين المثلث الذهبى " . إن هذه العمليات التى بدأت عام ١٩٥٠ كانت تستهدف إيجاد قوى صينية معادية للشيوعية، يمكنها غزو الأراضى الرئيسية للصين . إن الغزو لم يحدث قط، غير أن الصينيين المعادين للشيوعية إ أم تى " نجحوا فى احتكار تجارة أفيون ولايات " شان " وتوسيعها. واحتفظت المخابرات الأمريكية بتلك القوى على امتداد حدود بورما – الصين ، آملة أن يلعبوا دور جهاز إنذار متقدم ضد غزو صينى متوقع لجنوب شرق آسيا. ولكن، بدلاً من ذلك، حول هذا الجيش المعادى للشيوعية، " ولايات شان البورمية إلى أكبر منتج عالمى للأفيون " خلال العقد التالى .

وقد طبقت "المخابرات الأمريكية" التكتيكات نفسها فى لاوس من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٧٥، عندما شكلت جيشاً سرياً من ثلاثين ألفاً من فلاحى " الهمونج "؛ ليحاربوا الشيوعيين اللاوسيين(*) قرب الحدود مع شمال فيتنام . كان الأفيون هو المحصول النقدى

(*) شعب بوذى يقيم فى لاوس والأجزاء المتاخمة لشمال شرقى تايلاند، وهم فرع مهم من سلالة التاى. (المترجم)

الأساسى " للهمونج" . وتغاضت المخابرات الأمريكية عندما استخدم قائد الهمونج، الجنرال فانج باو شارتر كورسيكية ليصدر محصوله إلى أسواق بعيدة . وفى عام ١٩٦٥، عندما، أجبرت " الحرب الجوية المتصاعدة، والصراع السياسى المر داخل النخبة اللاوسية، " الخطوط الجوية للشارتر الكورسيكى، بالقوة، على الخروج من أعمال الأفيون " . كان الجنرال باو قادرًا على " استخدام الخطوط الجوية للمخابرات الأمريكية، لجمع الأفيون من قراه الجبلية المتناثرة "؛ لتسليمها إلى لونج تينج وفينتيان . إن عمليات الطيران الأمريكى لعبت دورًا أساسيًا فى توسيع سوق الأفيون : " لقد استخدمت أموال المخابرات الأمريكية والمعونة الأمريكية فى إنشاء أكثر من ١٥٠ مهبطًا قصيرًا، أطلق عليها اسم إل آى، إم إيه (ليما) فى الجبال قرب حقول الأفيون، وبالتالى أقامت " تلك النقاط النائية لتجارة التصدير . وقد اشترت المخابرات الأمريكية(٦) والمعونة الأمريكية عام ١٩٦٧ طائرتين سى - ٤٧ للجنرال باو؛ فأنشأ حينئذ شركة نقل جوى خاصة به، أطلق عليها خط طيران زينج خوانج، وأطلق عليها كل الآخرين، خط الأفيون الجوى. ومن المثير للاهتمام أنه عندما قرر الجنرال باو عام ١٩٦٩ أن يجىء بكبير الكيميائيين الصينيين من هونج كونج، ويقيم مصنعًا هائلاً للهيروين رقم ٤، الناعم، عالى الجودة، والذى تصل نقاوتة إلى ٨٠-٩٩٪ بدلاً من رقم ٣ غير النقى والذى كان يستهلك محليًا وإقليميًا، منذ مدة طويلة. وبدأ فى ترويج التركيزات المتزايدة لقوات الولايات المتحدة فى ڤيتنام، ظلت المخابرات الأمريكية تغض النظر، وغدا واضحًا فى ٢٥ أبريل ١٩٧١، أن باو أصبح لاعبًا، على مستوى عالمى، فى سوق الهيروين، عندما فتح موظفو الجمارك الفرنسية حقيبة سفير وصل حديثًا إلى باريس، هو الأمير سوبسايسانا، ووجدوا أنها تحتوى على ستين كيلو جرامًا من الهيروين اللاوسى عالى الجودة، والتى يقدر ثمنها، عند البيع، بـ ١٣,٥ مليون دولار . وكانت تلك العملية " واحدة من أكبر عمليات ضبط الهيروين فى التاريخ الفرنسى " .

وقد أوضحت التقارير التى تسلمها مكتب المخدرات فى الولايات المتحدة، " أن جنرال الهمونج فان باو هو الذى مول" مغامرة السفير اللاوى " وأن الهيروين نفسه قد جرى تكريره فى معمل فى لونج تينج، مركز قيادة المخابرات الأمريكية للعمليات السرية فى شمال لاوس" .

كان معمل " لونج تينج " يتمتع بسمعة أكبر مصنع عالمى لمعالجة الهيروين، وعندما خفض القذف الأمريكى المكثف وبرنامج إعادة توطين اللاجئين الذى أعقب ذلك، خفض كمية أفيون همونج : الذى كان متاحًا للعمل، استدار ضباط باو إلى شمال شرق لاوس بهدف الحصول على إمدادات من أفيون بورما . ونما المثلث الذهبى ليصبح عام ١٩٧١، " حوالى ٧٠٪ من الإمداد الدولى المحرم من الأفيون "، بعد السيطرة على سوق قوات الولايات المتحدة فى فيتنام، عالى الدخل، وظهور لاوس باعتباره " أكثر مراكز معالجة الأفيون الخام أهمية " هناك . ونافست معاملها تلك التى فى مرسيليا وهونج كونج فى كمية إنتاجها ونوعه .

وقد قام ألفريد مكوى بدراسة تقارير استخبارات الولايات المتحدة لتحديد ملكية المرافق الأساسية لمعالجة الهيروين فى " المثلث الذهبى "، وقد جاء فى تقرير مبوّب، تم تسريبه إلى النيويورك تايمز . حددت المخابرات الأمريكية واحدًا وعشرين معملاً لتكرير الأفيون فى المنطقة، منها سبعة معامل قادرة على إنتاج هيروين رقم ٤ الذى تصل درجة نقاوته إلى ٩٠-٩٩٪ . وقد لاحظ مكوى أن غالبية تلك المعامل تدار تحت حماية مصادر أساسية للمخابرات الأمريكية: " وقد كشفت تقارير المخابرات تلك عن نمط واضح : أن مصادر الفعل السرية للمخابرات الأمريكية قد غذت تجار الهيروين الرئيسيين فى لاوس" .

الحروب بالوكالة وتعديل كلارك :

نتج عن التناقض بين لاوس كنموذج يحتذى، وفيتنام كخطر يلزم تجنبه أن حولت عقيدة نيكسون درسًا واحدًا من فيتنام - هو الحرب بالوكالة - إلى نموذج

للاستراتيجية العسكرية فى مسارح "العالم الثالث" . وعندما طبقت على أفريقيا، فيما بعد حرب ڤيتنام، جرى تنميطها أيضًا طبقًا لتجربة أمريكية سابقة على القارة الأفريقية، فى الكونغو عشية الاستقلال الأفريقى فى أوائل الستينيات . ولم تتردد واشنطن، منعًا لصعود الوطنية المناضلة، فى هذا البلد الأفريقى الثرى بموارده والجدير بالنضال من أجله، فى أن تضع معًا قوات مرتزقة أساسًا، من بيض جنوب أفريقيا وروديسيا. كانت الوطنية المناضلة، من وجهة النظر الأمريكية، لا شيء غير حرب بالوكالة عن التوسع السوفيتى فى أفريقيا، الذى كان نتيجة سريعة للتخلص من الكولونيالية . ولقد فعل الحل القائم على المرتزقة فعله، غير أنه ترك ميراثًا مريرًا فى أفريقيا المستقلة – وعندما التفتت الولايات المتحدة لأفريقيا، فيما بعد، بعد عقد من الزمان، فإنها أصرت فى تلك المرة على سد الطريق أمام صعود حركة وطنية مناضلة أخرى، هى الحركة الشعبية لتحرير أنجولا (إم بى إل إيه)، فإن المحاولة المتجددة لاستخدام المرتزقة لم تفلح . وشجع وزير الخارجية، هنرى كيسنجر – متحدثًا باسم الولايات المتحدة – أبرتهايد جنوب أفريقيا على التدخل، وذلك فى إطار تحالف تشكل بصعوبة، فى منطقة تتوق بشدة للتخلص من الكولونيالية . وكانت النتيجة الانهيار الأنجولى وحدث ذلك فى أعقاب هزيمة ڤيتنام، مما أدى إلى رد فعل عنيف مضاد للحرب، فى الهيئة التشريعية الأمريكية وقد تبلور رد الفعل هذا فى " تعديل كلارك " .

احتضان المرتزقة فى الكونجو :

استقلت الكونجو فى ٣٠ يونيو ١٩٦٠ وانفصل إقليم كاتنجا، أغنى أقاليمها، فى ١١ يوليو، أى فى أقل من أسبوعين بعد هذا الاستقلال . وكانت فرقة الانفصاليين المسلحة بقيادة مويس تشومبى، الذى نصب رئيس فرقة يشرف عليها، ويدربها ضباط من بلجيكا، السلطة الكولونيالية السابقة هنالك، تدير مناجم كاتنجا شركة بلجيكية هى شركة يونيون مينيير دى هوت – كاتنجا، والتى اكتسب آل روكفلر فيها مصالح كبرى .

ووصلت إدارة أيزنهاور فى أواخر صيف ١٩٦٠ إلى نتيجة مفادها أن باتريس لومومبا، رئيس الوزراء الكونجولى الوطنى المناضل، كان " كاسترو أفريقى "، يجب التخلص منه . وكانت جريمة لومومبا أنه طلب بعض المساعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتى وتسلمها فى أغسطس ١٩٦٠، فى مواجهة دعم غربى كبير لانفصال كاتنجا، ومعارضة الأمم المتحدة لاستخدام القوة لإنهائه، وفى ١٨ أغسطس، بعد عرض موجز لمجلس الأمن القومى، سأل إيزنهاور معاونيه، " إذا ما كنا غير قادرين على التخلص من هذا الشخص. حقًا، لقد تحرت لجنة مجلس الشيوخ، ١٩٧٥ - ١٩٧٦، برئاسة فرانك تشيرش، عن دور المخابرات الأمريكية فى اغتيال لومومبا، وأعفت الوكالة، فيما بعد من متابعة أى دور مباشر فيها . غير أن تحريات تالية، قامت بها لجنة برلمانية بلجيكية عام ١٩٩٩، ارتبطت ببحث فى أرشيفات الأمم المتحدة، قام به مثقف كونجولى، جورج نزونجولا - نتالاجا، كشف عن حقائق جديدة . وقد بدأت المخابرات الأمريكية، بعد تصريح أيزنهاور فى ١٨ أغسطس، استراتيجية ذات مسارين، بعد أن تلقى سيدنى جوتليب، رئيس الكيميائيين، أمرًا مباشرًا من رئيس المخابرات الأمريكية ألين دولز، وكان يهتم بالفعل بدراسة وسيلة يسمم بها سيجار كاسترو، هبط فى ليوبولد قبل (كينشاسا) . " مزودًا بمادة قاتلة، من سم الكوبرا، لتوضع فى طعام لومومبا أو معجون أسنانه " . كانت المشكلة هى كيفية توصيل السم إلى الهدف . وفى ضوء العقبات التى واجهتها عملية أشبه بعمليات جيمس بوند، اقترح رئيس قاعدة المخابرات الأمريكية فى كينشاسا خطة عمل ثانية : للقضاء على لومومبا " سياسيًا، وربما ماديًا فيما بعد " وكانت تلك هى الخطة[٧] التى اتبعتها الولايات المتحدة فى تعاون مع بلچيكا. وفى ١ ديسمبر قبض على لومومبا، جنود يدينون بالولاء لرئيس أركان الحرب الكونجولى جوزيف موبوتو (وهو أيضًا من المخابرات الأمريكية)، لينقل بالطائرة إلى كاتنجا الانفصالية ويقتل، بينما كان الضباط البلجيكيون واقفين يتفرجون . وفى ديسمبر ١٩٦٢، وافق الرئيس كينيدى، وقد أزيح لومومبا من الطريق، على استخدام قوات الأمم المتحدة لإخماد التمرد الكاتانجى . وفى مايو ١٩٦٣، رحب كينيدى، بموبوتو فى البيت الأبيض اعترافًا بجميله :" إن لم تكن أنت .. لاستولى الشيوعيون على البلاد" .

وانفجر تمرد ضد موبوتو فى نهاية ١٩٦٣ " فى كويلو "، بقيادة بيير موليلى، وهو من أنصار لومومبا البارزين . كان تسليح المتمردين فقيراً، ولم يكن هنالك أى دليل على تدخل خارجى (سوفيتى مثلاً) غير أن المخابرات الأمريكية تدخلت بالفعل، إلى جانب الحكومة، واستأجرت العديد من الطيارين الكوبيين المنفيين، مع أمريكيين فى حملة البطاقة الخضراء، مع إمدادهم بعدد قليل من الطائرات الإيطالية، من أجل مهام قذف قنابل من الجو . وتم تدمير تمرد كويلو، ثم انفجر تمرد آخر فى إقليم كيفو الشرقى. ومرة أخرى كان المتمردون مسلحين تسلحًا فقيراً، ولم يكن لديهم طبقًا "للموند" الفرنسية اليومية أكثر من " الأقواس والسهام وسلاسل الدراجات "، يقودها أتباع لومومبا، وكانوا يعرفون باسم " السيمبا" (الأسود) . وأكد سفير الولايات المتحدة أن أيديولوجيتهم المشوشة تعكس تمرداً محلياً خالصاً . وأنه " رغم الشعارات الثورية التى يتشدق بها قادتهم .. فإنه ليس لدى المتمردين، طبقًا لنواياهم وأغراضهم، برنامج سياسى. إنها يقينًا حركة أفريقية وكونجولية، غير أن الجميع مرتبكون " . ومع ذلك، انتشرت الثورة سريعًا، وانهار الجيش الكونجولى عندما استولى السيمبا على ستانلى فيل (كيسانجانى)، وهى ثالث أكبر مدن الكونغو فى ٥ أغسطس ١٩٦٤ . وكان الكونجرس قد أصدر، قبل يومين فقط من ذلك، قرار خليج تونكين : وبدت الهيستيريا المضادة للشيوعية وقد أمسكت بواشنطن . كان بييرو جليجيسيس[٨]، أستاذ السياسة الخارجية الأمريكية بجامعة جونس هوبكينس، هو الباحث الأول الذى قرأ أرشيفات الولايات المتحدة حول أزمة الكونجو، وأشار إلى أنه بعد الاطلاع على مناقشات مجلس الأمن القومى حول الكونجو، " أن أحداً لم يتحد الفرضية الأساسية "، التى تقول بأنه " يجب هزيمة المتمردين " .

طرح السفير الأمريكى فى الكونجو، فى ٥ أغسطس، وهو اليوم نفسه الذى استولى فيه السيمبا(*) على كيسانجانى، أمام حكومة الكونجو (جى أو سى) ثلاثة اختيارات :

(*) مقاتلون محليون كميلشيا للقوى الوطنية. (المترجم)

(أ) فى وسع حكومة الكونجو أن تطلب تدخلاً عسكريًا بلجيكيًا مباشرًا.

(ب) فى وسعها محاولة تجنيد فرقة من المرتزقة البيض.

(جـ) فى وسعها أن تطلب قوات من الولايات المتحدة ... وإذا رفضت حكومة بلجيكا قبول مخاطر التدخل .... فإن فرقة المرتزقة هى أفضل بديل ثان ... كان استخدام المرتزقة من وجهة نظر الولايات المتحدة هذه يحمل ميزة إنجاز العملية على مسئولية حكومة الكونجو . وسوف يقلل ذلك من التورط الغربى الصريح (بلجيكا مثلاً، أو الولايات المتحدة)، ويضع عبء المسئولية على عاتق حكومة الكونجو، وليس علينا أو على البلجيكيين " .

وكانت واشنطن قد حاولت بالفعل إقناع البلجيكيين بالتدخل، غير أن السفير البريطانى إدوارد روز، أفاد من كينشاسا أن البلجيكيين كانوا يتندرون على الأمريكيين، الذين يرون الشبح الشيوعى فى كل مكان . وفى بروكسل أخبر بول هنرى سباك وزير خارجية بلجيكا، سفير الولايات المتحدة، أن البلجيكيين، الذين لديهم أكبر الاستثمارات فى الكونجو، يحسون أنهم يستطيعون ممارسة أعمالهم مع قادة المتمردين، حيث يدرك هؤلاء القادة أن الاستثمار البلجيكى والمعرفة الفنية البلچيكية، حاسمان لاقتصاد الكونجو .

وقد وافق الفرنسيون على أنه ليس هنالك ما يدعو إلى القلق، مادامت الثورة لم تحركها قوى خارجية . وفى ٧ أغسطس، بعد أن أخبر سباك واشنطن بصراحة أنه " لا بلچيكا، ولا أى بلد أوروبى آخر، سوف يرسل قوات "، قام وزير الخارجية دين راسك بالموافقة على اقتراح بتجنيد قوة من المرتزقة "، وضغط على بلجيكا لتشارك فى هذا الجهد . هذه هى الكيفية التى أوجز فيها جليجيسيس برقية راسك للسفير الجوال أفيريل هاريمان فى بروكسل: " إن واشنطن وبروكسل سوف يقدمان النقود التى تدفع للمرتزقة والأسلحة لتسليحهم "، ولكن واشنطن " وحدها هى التى تقدم الطائرات لحملهم جوًا " . ومن ثم، ينهى جليجيسيس[٩] قراءته للأرشيفات : " يعد احتضان البلچيكيين لاختيار المرتزقة، انحناء لضغط الولايات المتحدة " .

وقد قدرت المخابرات الأمريكية عدد المرتزقة فى الكونجو، فى أكتوبر ١٩٦٤، بأكثر من ألف شخص . كان هنالك مئتان من البلچيكيين، وستة وأربعون من الإسبان، وعدد ضئيل من مواقع أوروبية أخرى، وأن أكثر من نصفهم كانوا بيضًا من جنوب أفريقيا وروديسيا. وقد لاحظت المخابرات الأمريكية أن العديد منهم " من جنود جنوب أفريقيا بالفعل، وهم فى وضع الحاصلين على إجازة مدتها ستة شهور" .

وكانت واشنطن واضحة، منذ البداية، أنه لن يكون هنالك مواطنون من الولايات المتحدة من بين المرتزقة، والمرتزقة سيصبحون فى حالة كساح، دون دعم الولايات المتحدة . إن أربع طائرات إس ١٣٠ تابعة للولايات المتحدة بأطقمها الأمريكية، نقلت المرتزقة ومعداتهم عبر الكونجو من الغرب إلى الشرق، وهى مسافة تكاد تكون مساوية للمسافة من باريس إلى موسكو، وعندما واجه المرتزقة المقاومة استعانوا بالقوة الجوية الكونجولية، والتى لم تكن تشتمل على طائرة كونجولية واحدة، ولكن على العديد من طائرات تى - إس ٢٨، وبى -إس ٢٦، مقدمة من الولايات المتحدة، ويطير بها طيارون من الكوبيين المنفيين، وكذلك سرب من سبع طائرات تى - إس ٦ من إيطاليا، يقودها مرتزقة من جنوب أفريقيا وأوروبيون .

وكتبت النيويورك تايمز، عام ١٩٦٦، بعد فترة طويلة من انتهاء العملية كلها: " كان يقودهم فى العمل " ديبلوماسيون " أمريكيون، ورسميون آخرون فى مواقع مدنية، من الناحية الظاهرية ولم يكن لدى المتمردين طائرات أو مدفعية مضادة للطائرات . وكانت الطائرات " تعمل فوق أرض متمردة تتمتع بالحصانة " كما لاحظت المخابرات الأمريكية . وقد رد السيمبا(١٠) على ذلك بأخذ رهائن أمريكية وبلچيكية، وقد اتخذت الأغلبية فى ستانلى فيل - والتى هى الآن عاصمة التمرد، ومعهم المرتزقة والمدافعون عنهم بالتالى - من ذلك مبررًا لتدخلهم، لقد تعاقد المرتزقة جريًا وراء النقود، وللدفاع أيضًا عن تميز البيض فى أفريقيا التى كانت تتخلص سريعًا من الكولونيالية، ولقد تصرف الكثيرون منهم كأنهم فى رحلة صيد يرسلون بصور بطولاتهم إلى بلدانهم . وقد نشرت الأوبزيرفر البريطانية الأسبوعية صورتين من هذه الصور : أظهرت الأولى اثنين من الرجال السود يكادان أن يكونا عاريين، وأيديهما مقيدة خلف

ظهريهما، وحبال حول عنقيهما، يقودهما مرتزق أبيض ليشنقهما. وأظهرت الثانية مرتزقة يبتسمون، لقد حاربوا ليحصلوا على ميزة فعل الشنق " . وقد لاحظت الأوبزيرفر أن : " الصور تبين كيف أن المرتزقة لا يطلقون النار فقط على أسراهم أو يشنقونهم بعد تعذيبهم، لكنهم يستخدمونهم أيضًا كأهداف للتدريب، ويراهنون على عدد الطلقات اللازمة لقتلهم " . وقد وصف صحفى إيطالى دخولهم إلى مدينة بوندى فى أواخر أكتوبر ١٩٦٤ قائلاً: "إن احتلال المدينة كان يعنى نسف الأبواب بطلقات من نيران البازوكا، ودخول المتاجر وأخذ أى شىء يرون أنه يمكن نقله .. وجاء القتل بعد النهب والسلب، واستمر إطلاق النار ثلاثة أيام؛ ثلاثة أيام من الإعدام والقتل دون محاكمة أو قانون مع التعذيب والصرخات والفزع " .

وكانت الصحافة الأمريكية تنفرد، على أى حال، بالكتابة عن أى من هذه الأمور . وقد أعطى بيرو جليجيسيس[١١] العديد من الأمثلة عن " الصحافة الوطنية "، وقد قالت الواشنطن بوست، " إن المرتزقة تحت قيادة الكولونيل مايك هوار، الذكى قارئ الشعر، كانوا يقومون بخدمة أساسية إنقاذًا للكونجو . وكرست النيويورك تايمز، التى قدمت تغطية هى الأكثر كثافة لأزمة الكونجو عن أية جريدة أخرى، سلسلة من جزأين لواحد من مرتزقة جنوب أفريقيا الذى أفضى بأنه قد تطوع " لأنه آمن بأن رئيس الوزراء مويس تشومبى كان يحاول بإخلاص أن يجعل مجتمعه فى الكونجو مجتمعًا متعدد الأعراق وأعتقد أننى إذا استطعت المساعدة فى إقامة ذلك المجتمع، فإن الكونجو قد يقدم بعض الأمل، يقدم رمزًا ما يتناقض والفصل العنصرى فى بلاده " . إن نسخة النيويورك تايمز، الخاصة بالمرتزق الحساس، كانت تتناقض بصورة صريحة مع مقالة من جزأين، نشرت فى الكاب تايمز الجنوب أفريقية، والتى كتب فيها عائد من المرتزقة من جنوب أفريقيا، عن " عمليات القتل عديمة الإحساس، بدم بارد " . وكتب عن عدم أخذ أسير " باستثناء الأخذ بهدف الغرض الغريب، غرض الاستجواب، والذى كانوا يعدمون بعده " . وكتب عن لصوصيتهم، ثم توسل إلى حكومته " ألا تسمح " بتحويل " شباب جنوب أفريقيا الجديرين بالاحترام إلى قتلة بلا إحساس " .

كانت أزمة الكونجو هى أول تجربة أمريكية فى أفريقيا المستقلة . وكانت أيضًا، إذا تأملنا الأحوال الماضية، الاحتضان الأمريكى التجريبى للإرهاب لأسباب مرتبطة بالسلطة، وبدت الحكومة، وخاصة المخابرات الأمريكية، مدركة لهذا . وقد وصف سفير الولايات المتحدة المرتزقة أنهم " مجموعة من الأجلاف الذين يتعذر التحكم فيهم .. والذين يعتبرون السلب والنهب وتحطيم الخزائن ضمن ما لهم من امتيازات" . وقد أعدت المخابرات الأمريكية " السرقة، والاغتصاب، والقتل، وأعمال الضرب " من بين " أعمال الشطط الخطيرة التى يرتكبونها " . وانتهى تمرد السيمبا عندما حط مرتزقة الولايات المتحدة – بلجيكا على كينشاسا فى ٢٤ نوفمبر ١٩٦٥ .

وفى اليوم نفسه أمسك جوزيف موبوتو بالسلطة فى كينشاسا، ولم تعد هناك حاجة لاستخدام المرتزقة فجرى التخلص منهم تدريجيًا، وهبط عددهم من ألف إلى ٢٣٠ مرتزقًا، تمردوا فى ٥ يوليو ١٩٦٧، وأخذوا معهم حوالى ألف واحد من القوات الكونجولية . واستغاث موبوتو بواشنطن . وقال السكرتير الثانى لوزارة الخارجية نيكولاس كاتزنباك فى ١٢ يوليو أمام مجلس الأمن القومى، " يجب أن نبقى على موبوتو فى السلطة، حيث لا يوجد بديل مقبول عنه " . ولم يعارض أحد، فأعادت واشنطن منفيين كوبيين إلى الكونجو، كى يقصفوا المرتزقة، هذه المرة، بالقنابل، فانسحبوا إلى رواندا . وقد أراد موبوتو إعادتهم إلى الكونجو لمحاكمتهم . وقالت النيويورك تايمز، " لقد حارب المرتزقة ضد السيمبا من أجل الغرب، وقد أنقذت العملية أرواحًا بريئة هى أرواح بيضاء فى أغلبيتها" . وكانت " اللوند" أكثر أمانة، " يجب على المرء أن يقر أن الرأى العام الغربى أكثر حساسية لموت أوروبى واحد عن موت أكثر من عشرين أسود " . وقد لاحظ بييرو جليجسيس أن محاكمتهم سوف تهين أكثر من مجرد الأحاسيس الغربية، " كان يمكن أن تقود إلى إفشاءات محرجة عن علاقتهم بالمخابرات الأمريكية " . ومن هنا ثبتت واشنطن حلاً مزدوجًا . أعادت من عاون المرتزقة من الكونجوليين[١٢] إلى موبوتو حليف واشنطن المتفهم – والذى ذبحهم رغم وعده بالعفو العام عنهم – وحُمل المرتزقة جواً إلى أوروبا فى طائرتين استأجرهما الصليب الأحمر الدولى .

الكارثة الأنجولية:

استدارت الحكومة الأمريكية إلى أفريقيا بعد عقد من الزمن، وكانت معارضة الحرب في ڤيتنام قد غيرت جو الولايات المتحدة وحل الخزى بالرئيس نيكسون في أغسطس ١٩٧٤، وأعيد انتخاب كونجرس ديمقراطي بعد ثلاثة شهور من ذلك . وكان العديد من رجال الكونجرس ونسائه يشكون بعمق من ميراث الحرب الباردة، ميراث السياسة الخارجية القائم على العباءة والخنجر، والتي يجرى تسييرها سرًا بواسطة الفرع التنفيذي، كانوا يتشوقون إلى تأسيس حكم تشريعي على السياسة الخارجية . وأقر الكونجرس، في ديسمبر ١٩٧٤، تعديل هيوجس - ريان، مطالبين المخابرات الأمريكية، بأن تقدم تقريراً " يصف " العمليات السرية، " ومداها بالطريقة المناسبة، إلى ثماني لجان تابعة للكونجرس .

وشكلت تلك التطورات الأوضاع التي شرعت إدارة ما بعد نيكسون، بقيادة جيرالد فورد، والذى لم ينتخب ألبتة من قبل لأى منصب عام كبير، في تحديد اختياراتها الأفريقية، إزاء تصدع سريع للإمبراطورية البرتغالية. كانت واشنطن مصرة على سد أية إمكانية لمجيء الـ "إم بى إل إيه" إلى السلطة، وقد عرفتها باعتبارها وكيلاً سوفيتيًا. وقد استكشفت، سعيًا وراء هذا الهدف[١٣]، اختيارات مختلفة سجلها بييرو جليجيسيس بطريقة شاملة .

كان اختيار واشنطن المفضل هو تقديم الدعم السرى للحركتين اللتين تعارضان الـ إم بى إل إيه " جبهة أنجولا للتحرير الوطني "(إف إن إل إيه) والتي كانت تعمل بصورة أو أخرى باعتبارها وكيلاً لموبوتو جنرال الكونجو، " الاتحاد من أجل التحرير الكلى لأنجولا (يونيتا)، والتي كان لها اتصالات خارجية قليلة إلى جانب علاقات حديثة مع أبرتهايد جنوب أفريقيا. غير أنه كان لابد من المزيد من الأموال التي يوافق عليها الكونجرس، حيث إن المعونة سرعان ما استنفدت صندوق احتياطي طوارئ المخابرات الأمريكية لعام ١٩٧٥ . وعندما طلب فورد ٢٨ مليون دولار للدعم السرى للـ " إف إن إل إيه " و" اليونيتا" رفض مجلس الشيوخ بصورة قطعية بتصويت ٥٤ إلى ٢٢،

ومجلس النواب بتصويت ٣٢٣ إلى ٩٩ . كانت الـ " إم بى إل إيه " تتلقى بالفعل، فى ذلك الوقت، مساعدات عسكرية مادية وتدريبًا ومستشارين من كوبا، رغم عدم تدخل قوات كوبية، فى ذلك الوقت، فى أنجولا . ودبر كيسنجر اختيارًا ثانيًا، فى هذا الوضع، سريع التغير " كرد على وصول الكوبيين، حاولت الإدارة تشكيل جيش من المرتزقة، تمامًا مثلما فعل جونسون فى زائير [الكونجو] عام ١٩٦٤ " . غير أن المرتزقة كانوا قليلين، أقل من ٢٥٠، وأساسًا من البريطانيين، وسرعان ما اكتأب العديد ممن تمرسوا لعقد سابق . وكانت النتيجة كارثة . كانوا أدنى شأنًا، بعضهم "استدرج حرفيًا من حانات لندن فى مقابل نقود سهلة وحياة رغدة " . وقد عجزوا عن إيقاف الكوبيين، وتبع ذلك اتهامات متبادلة : " إعدام ١٤ من المرتزقة "، بينما عاد خمسة وأربعون " يعرجون إلى بلدهم [لندن] على عكاكيز أو كراسى مقعدين " .

وعندما رأى موبوتو النتيجة واضحة، أبعد اثنين وعشرين كانوا قد وصلوا لتوهم من لندن، وأخذت الـ " إف إن إل إيه " واليونيتا تحاربان، فى تلك الأثناء، بعضهما بعضًا بدلاً من محاربة الـ " إم بى إل إيه " . وآثر كيسنجر، وهو يواجه نهاية مخزية، أن يدعم غزوًا بالوكالة تقوم به قوات نظامية جنوب أفريقية وقد لخص جليجيسيوس المناقشات الداخلية، بين الصقور والحمائم، فى كل من بريتوريا وواشنطن والاتصالات بين العاصمتين . وقد حرض النقاش، المكتب الخارجى فى بريتوريا ضد صقور مؤسسة الدفاع، كما حرض النقاش فى واشنطن مدير المخابرات الأمريكية، ويليام كولبى، ضد كيسنجر .

وقد سُجل واحد من أكثر الخلافات حدة[١٤] فى محضر اجتماع مجلس الأمن القوميب بتاريخ ٩ أبريل ١٩٧٥، وقد حذر كولبى، قبل ثلاثة أسابيع من سقوط سايجون، من أخطار رد الفعل المغالى فيه :

> **السيد الرئيس، هنالك قضية الكيفية التى يمكن أن تؤثر بها تلك الأصوات القبيحة (فى ڤيتنام) فى مواقف الأمم الأخرى نحونا . إن الكارثة الجارية عمومًا، ينظر إليها، لا باعتبارها نقطة تحول، ولكن**

باعتبارها الخطوة الأخيرة على طريق بعينه، الخطوة التى رأتها غالبية الحكومات وهى قادمة ... إن تسويات معينة قد تحققت بالفعل .. السوفيت، والصينيون، وقادة شيوعيون آخرون، لن يصلوا أوتوماتيكيًا إلى نتيجة مفادها أن التزامات الولايات المتحدة الأخرى محل شك، لم يشر رد فعل الولايات المتحدة العلنى إلى التبرؤ من الانخراط فى أعمال أجنبية أخرى، أو أن الاتهامات المضادة داخل الولايات المتحدة انقسامية إلى حد يثير الشكوك فى قدرة الولايات المتحدة على تحقيق أى إجماع حول السياسة الخارجية فى المستقبل القريب .

واختلف كيسنجر معه، بحدة، وفى الحال :

إننى أختلف مع تقدير مدير الاستخبارات المركزية، فيما يتعلق بالأثر على وضعنا الدولى على اتساعه، والخاص بالانهيار فى ڤيتنام . لقد كان حكمه أن رد الفعل العالمى سوف يكون ردًا لا يأبه به أحد، وذلك بناء على حقيقة أن كل امرئ سوف يكون متوقعًا لما سوف يحدث، دعونى أقول إنه ... لم يكن هنالك بلد واحد يتوقع مثل هذا الانهيار السريع ... إن هذا الانهيار السريع ورد فعلنا العاجز، لن يمر دون أن يكون ملحوظًا وخاصة فى آسيا . إننى أؤمن أننا سوف نرى النتائج رغم أنها قد لا تجىء سريعًا، وقد لا تجىء فى أية صورة متوقعة ... إننى أؤمن أن هذا سوف يجرى حتى فى أوروبا الغربية .

كان كيسنجر مصراً الآن على رسم الخطة فى أنجولا، بعد أن فشل فى الدفاع عن الخطة فى ڤيتنام، ودخلت قوات جنوب أفريقيا، أنجولا، فى منتصف أكتوبر ١٩٧٥، وجاءت بعدها القوات الكوبية فى أوائل نوفمبر .

إن المثير للسخرية هو أن الغزو الجنوب أفريقى، ما إن غدا معروفًا على النطاق العام، حتى تحول إلى مسئولية جسيمة بسبب من ترعاهم الولايات المتحدة وتتكفل بهم . ويؤمن غالبية المراقبين أن تعويضًا قد تم الإنفاق عليه فى اجتماع كيسنجر مع الزعيم

السوفيتى ليونيد برجنيف، من ٢١ إلى ٢٤ يناير فى موسكو، بانسحاب قوات جنوب أفريقيا، فى مقابل ضمان المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة فى أنجولا، وبدأت شركة " جلف أويل كابندا " عملياتها فى ٢١ فبراير، وواصلت سى إف بى احتكارها لاستخراج الماس دون تهديد بالتأميم . ويذكّر أندور يونج سفير الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة مستمعيه، فى السنوات التى تلت[١٥]، أن موسكو ربما تكون قد أغارت على جهاز الدولة الأنجولى، غير أن الاقتصاد الأنجولى ظل، إلى حد بعيد للغاية، داخل الفلك الغربى .

أقر كونجرس الولايات المتحدة، فى ١٠ فبراير ١٩٧٦، " تعديل كلارك "، الذى حظر تقديم أية معونة سرية لأى طرف فى الحرب الأهلية الأنجولية . وفى ٣١ مارس من الشهر التالى، دفع مجلس أمن الأمم المتحدة جنوب أفريقيا المعتدية، وطالبها بأن تعوض أنجولا عن خسائر الحرب . وكان التصويت ٩ إلى صفر . وامتنعت كل من الولايات المتحدة، وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان عن التصويت ومضى الأمر . هرس الكوبيون جنوب أفريقيا فى القتال، وعاملها الغرب ببرود دون تعاطف، تحديداً فى ساعة حاجتها . ورثا جنرال معتزل من جنوب أفريقيا يوم انسحاب قوات جنوب أفريقيا من أنجولا بقوله، " يمكن النظر إلى أنجولا، باعتبارها خليج خنازير جنوب أفريقيا" . وقال كيسنجر لفورد، " لقد كانوا، من بعدنا، الأكثر انحطاطًا فى أنجولا " كانت لأحداث أنجولا أثر بعيد المدى على جانبى الأطلنطى . لقد حملت الأمل لأطفال شوارع سويتو، الأمل الذى تفجر على المشهد السياسى، مع هبة سياسية، بعد أشهر قليلة فقط من إصابة قوات جنوب أفريقيا فى أنجولا بالمهانة، كما أنها أمدت أيضًا، هؤلاء الذين كانوا فى كونجرس الولايات المتحدة المصرين على كبح تجاوزات الحرب الباردة، بالشجاعة والصواب .

تعديل كلارك:

عززت الخيبة الأنجولية دروس ڤيتنام، غير أن تلك الدروس أثارت تأويلات متناقضة صدرت عن الفرع التنفيذى والكونجرس، كل منهما يؤكد تأثيراً مختلفًا على

السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعد فيتنام . لقد أدت التجربة الفيتنامية إلى التصميم على البحث عن وكلاء إقليميين، خاصة فى أجزاء من العالم، تعتبر أجزاء استراتيجية لإدارة الحرب الباردة . كما عززت التجربة أيضًا الارتياب الشعبى فى إطلاق يد الفرع التنفيذى فى الشئون الخارجية . كان هنالك صدى، داخل الكونجرس، للمقاومة الشعبية، للتورط عبر البحار، كما جرى فى النموذج الفيتنامى حدث ذلك مع انتخاب كثرة من المشرعين المعادين للحرب، مما قاد إلى عدد من التغيرات: إلغاء المسودة، خفض ميزانية البنتاجون للعمليات الخاصة، خفض قدرات المخابرات الأمريكية التى تتشكل على الخط العسكرى، وغدت نشاطاتها عرضة لإشراف الكونجرس، كما أصبح مطلوبًا من الرئيس، طبقًا لقانون " سلطات الحرب "، أن يسعى لموافقة الكونجرس قبل أى التزام بتحديد وجود قوات الولايات المتحدة فيما وراء البحار. وقد قال السيناتور إدوارد كينيدى، ملخصًا المزاج المعادى للحرب فى الكونجرس: " إن درس فيتنام[١٦] هو ضرورة أن نخلع العباءة الثقيلة للشرطى العالمى ". وكان أوضح تعبير لهذا البيشان فى المشاعر المعادية للحرب هو تعديل " قانون حرية المعلومات"، وإقرار " تعديل كلارك ".

إن السنتين وثلاثة شهور، ما بين إقرار " قانون سلطات الحرب " عام ١٩٧٣، و" تعديل كلارك " عام ١٩٧٦ (وتعديل تونى الذى سبقه) تحدد ذروة الحركة المعادية للحرب، والتى اكتسحت الولايات المتحدة . كان " قانون سلطات الحرب " هو أول مرحلة معنية بالسلطة التنفيذية المتنامية، كان ميراثًا دستوريًا للحرب الباردة، قوى الدور الدستورى للكونجرس حول موضوعات مرتبطة بشن الحرب، ووضع المعاهدات . كان تعديل تونى مرتبطًا بلائحة ملاءمات " إدارة الدفاع" التى أقرها مجلس شيوخ الولايات المتحدة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٧٥، والتى أنهت المعونة السرية للقوى المعادية للشيوعية فى أنجولا، ولكن فقط فى تلك السنة المالية . وقبل انتهاء السنة المالية[١٧]، كان الكونجرس قد أقر، على أى حال، "تعديل كلارك "، الذى مدد الحظر وجعله دائمًا وقطعيًا.

> **رغمًا عن أى نص قانونى آخر، فإنه لا تقدم أية معونة أمن لعمليات عسكرية أو ذات نمط عسكرى، أو تقديم تدريب للشرطة، أو معونة، أو مشورة، ذات علاقة بمثل تلك العمليات، فى أنجولا أو باسمها، أو لأى فرد، أو مجموعة، أو منظمة، أو أية حركة فيها، ما لم تكن تلك المعونة مرخصًا بها بصورة خاصة، طبقًا " لقانون المعونة الخارجية " ١٩٦١ .**

ولم يكن الكونجرس، منذ بداية[١٨] الحرب الباردة، قد أكد تحكمه فى مجتمع الاستخبارات بمثل تلك النصوص القوية.

إن هوة جيلية تفصل مهندسى " تعديل تونى وكلارك " عن من وضع إطار " قانون سلطات الحرب " . كان هدف القانون، بالنسبة السيناتور جاكوب جافيس، أحد الراعيين الأساسيين لـ" قانون سلطات الحرب " هو، إعادة " الشراكة " بين الفرع التنفيذى للحكومة والكونجرس، إلى ما كانت عليه . غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لجون تونى وديك كلارك، اللذين انتخبا باعتبارهما سيناتورين صغيرين عام ١٩٧٠ و١٩٧٢ على التوالى، ممتطين قمة الموجة المعادية للحرب على امتداد الأمة كلها . كان تونى فى مجلس النواب، و" قد صوت بانتظام لضبط السلطة التنفيذية، ولدعم سياسة خارجية ذات عقلية أكثر إصلاحية " . وكرر، وهو يثير الشك فى الافتراضيات الكامنة وراء الإجماع حول الحرب الباردة، التحذيرات المبكرة للسيناتور السابق روبرت تافت ضد إعطاء " المغامرين العسكريين ما يريدون "؛ لأن هذه السياسة " قد قدمت لنا ديكتاتوريات الأجنحة اليمينية القمعية كحلفاء على نطاق العالم كله " . إن ديك كلارك، أستاذ العلوم السياسية السابق، وعضو الكونجرس، والذى حقق انتصارًا قلب الأوضاع رأسًا على عقب من فوق منصة معادية للحرب، ليكسب مقعدًا فى " إيوا" عام ١٩٧٢، كان معروفًا عنه أنه يثير الشك، منذ دخل مجلس الشيوخ، فى " الطريقة التى تعالج بها الأمور دومًا . كان كلارك مقتنعًا[١٩] بأنه يجب على الكونجرس أن يذهب إلى ما وراء إقرار " قانون سلطات الحرب "، ويعيد بصورة كلية تقييم السياسة الخارجية، " ليعيد تأكيد نفسه باعتباره فرعًا مساويًا للحكومة " . وكان هناك آخرون،

ديمقراطيون جدد، يشاطرونه مشاعره، مثل هارولد هيوجس، وتونى توماس إيجليتون وجيمس أبو رزق . وسرعان ما أصبح كلارك، فيما بعد، رئيس اللجنة الفرعية للشئون الأفريقية، التابعة " للجنة العلاقات الخارجية " القوية بمجلس الشيوخ عام ١٩٧٤، ونظم لقاءات استماع عامة حول الخيبة الأنجولية المختمرة، والتى تبعتها جولة أنجولية . وأعلن كلارك، فى أثناء عودته أن على الولايات المتحدة أن تكفر عن عدم دعمها لنضال الشعب الأنجولى ضد الكولونيالية، وأن أفضل طريقة لفعل ذلك كانت احترام حق أنجولا فى تقرير مصيرها، وهو فعل يمكن أن يحمل فضيلة إنهاء سنوات من إهمال إشراف الكونجرس على المخابرات الأمريكية. وحدد كلارك، متبعًا طريق التعديل الذى حمله اسمه، " حدد أجندة أفريقية طموحة لعام ١٩٧٦، مطالبًا بإعانة النضالات التحررية، فى أماكن أخرى، فى أفريقيا الكولونيالية، ومعارضة احتلال جنوب أفريقيا المتواصل لناميبيا، والنظر فى فرض عقوبات اقتصادية على نظام جنوب أفريقيا " . وتوقع أن تنهى تلك المبادرات " التدخل السياسى والعسكرى، الأمريكى، " فى الشئون الداخلية للبلدان الأخرى " . إن الولايات المتحدة إذا ما نوت احتلال مستوى أخلاقى أعلى من خصومها، فإنه يجب عليها تأكيد أن السياسة الخارجية لبلد ديمقراطى هى " ضرورة أن تكون العلانية هى القاعدة، والسرية هى الاستثناء – وليس العكس" .

لقد سُن تعديل كلارك عام ١٩٧٦ وأُبطل عام ١٩٨٥، والمسألة لم تكن مجرد أكثر من عودة إلى العمل كالمعتاد، إنما كانت دلالتها المتدنية تعكس تطورًا أكبر فى صناعة السياسة الخارجية الأمريكية : كلما غدا كسب المزيد من الحرب الباردة عملاً أساسيًا فى صناعة السياسة الخارجية، زاد ذلك من تحطيم الآمال فى إصلاح السياسة الخارجية للولايات المتحدة، فى موازاة مع التضامن ضد الكولونيالية، الذى دفع بحركة العداء للحرب .

الحروب بالوكالة ونادى السافارى:

استخلص الفرع التنفيذى فى واشنطن، أيضًا، درسًا من الكارثة الأنجولية : لقد تأكد أن أبارتهيد جنوب أفريقيا كان مسئولية سياسية مهما كانت قوته العسكرية

أو أهميته الجيوبوليتيكية، حيث إن هذا الإقرار قد فاق فقط مسألة البحث عن الوكلاء وكان النجاح الأول هو إقامة تحالف دُعى بـ :" نادى السافارى " تم جمعه فى ظل مباركة هنرى كيسينجر .

لقد ظهر النادى إلى الوجود بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، عندما منحت حكومة الخومينى الجديدة، محمد هيكل، وهو صحفى مصرى محترم للغاية، وكان مستشارًا للرئيس عبد الناصر فى وقت ما، منحته إذنًا بالاضطلاع على أرشيفات الشاه المخلوع . وقد عثر[٢٠] هيكل على اتفاقية أسست اتحادًا رسميًا بتاريخ ١ سبتمبر ١٩٧٦، ويحمل توقيع العديد من رؤساء وكالات الاستخبارات، التى هى كلها حليفة استراتيجية للولايات المتحدة فى الحرب الباردة .. كان الخيال المبدع " لكوميت كلاود ألكسندر دى مارنشيس "، رئيس الاستخبارات الفرنسية، هو أن أفريقيا هى التى تؤكد نادى السفارى، الذى كان أعضاؤه هم: فرنسا ومصر وإيران والمغرب و المملكة العربية السعودية، والذين كانوا سيخسرون الكثير بعد أن تحركت بؤرة الحرب الباردة إلى أفريقيا . كانت البؤرة الأفريقية واضحة منذ أول جملة فى الاتفاقية " إن الأحداث القريبة فى أنجولا وأجزاء أخرى من أفريقيا، قد أوضحت دور القارة كمسرح لحروب ثورية، يحضرها ويديرها الاتحاد السوفيتى، الذى يستخدم أفرادًا أو منظمات تتعاطف مع، أو تتحكم فيها، الإيديولوجية الماركسية " . وقد وافق أعضاء النادى، حتى يواجهوا خطرًا سوفيتيًا على أفريقيا، على إقامة مركزهم الأساسى فى القاهرة، مع تشكيل سكرتارية، وقسم للتخطيط، وفرع للعمليات واتفق على أن تكون الرئاسة بالتناوب غير أنه كان على فرنسا أن تكون مسئولة عن الأمن والاتصال .

كان نادى السفارى مسئولاً عن تطورات ثلاثة بارزة فى أفريقيا: فى الكونجو ومصر والصومال، وكانوا يفهمون معًا كل إمكانيات وحدود ناد شكله حلفاء أمريكا الأساسيين فى الحرب الباردة، مع وجود مصالح لهم فى أفريقيا . وكان النجاح الأول للنادى فى الكونجو . إذًا عندما ثار تمرد فى إقليم كاتنجا (الآن شابا) الغنى بالمعادن فى أبريل ١٩٧٧، والتماس بالعون من أصحاب المصالح التعدينية

الفرنسيين والبلجيكيين، التماس جاء عبر موبوتو حليفهم الأساسي، قام النادي بعملية دمج نقل جوى فرنسي مع دعم لوجيستي من مصادر متنوعة، من أجل حمل قوات مغربية " ومصرية لتقاتل التمرد . وقد حققت العملية نجاحًا لا حد له. وقد سجل النادى نجاحًا أكبر عندما ساعد فى مسعى تحقيق الوفاق التاريخى بين الحليفتين الاستراتيجيتين لأمريكا، مصر وإسرائيل، مما مهد السبيل لأنور السادات حتى يشق طريقه لزيارة القدس من نوفمبر ١٩٧٧ . كان إسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل هو أول من قدم الاقتراح فى خطاب للرئيس السادات، حمله إليه ممثل المغرب فى النادى . وتلى ذلك اجتماع بين الجنرال موشى ديان، من إسرائيل، ونائب رئيس وزراء مصر، حسن التهامى، تحت رعاية الملك الحسن الثانى، ملك المغرب . وقد انتهى هيكل بعد دراسته لأوراق النادى إلى أنه " عندما زعم إسحق رابين[٢١] أن التقدم مع مصر، كان قد بدأ قبل وصول السيد بيجين إلى السلطة، لم يكن يقول أكثر من الحقيقة .

وكانت أقل مبادرات النادى نجاحًا هى عملية الصومال، التى ألقت الضوء على الحدود، التى يجب أن يراعيها اتحاد الوكلاء الإقليميين، عندما لا تصبح مصالحه متداخلة تماما مع مصالح القوى العظمى الحامية، لقد جاءت عملية الصومال، فى أعقاب الثورة الإثيوبية عام ١٩٧٤ . إن أزمة الملكية والثورة التى جاءت تالية أبرزت إمكانيات تاريخية لقيادتى كل من الصومال والاتحاد السوفيتى، حتى وإن تعارضت فيما بعد لطموحات الوحدة مع تلك التى للآخر .

كانت الأوضاع بالنسبة لزياد برى الصومالى، فرصة ليس هنالك أفضل منها، فرصة الثورة الإثيوبية لتحقيق حلم خلق دولة عموم الصومال بالشروع فى حرب لدمج " الأوجادين " التى يقطنها صوماليون، بينما تدعى إثيوبيا ملكيتها .

كان الصومال، فى حينه، حليفًا للسوفيت ضد الملكية الإثيوبية، ومثلت الثورة نفسها فرصة للسوفيت لاستمالة بلد استراتيجى فى المنطقة كحليف كبير . وكان للمبادرة السوفيتية نتائج فاجعة لطموحات الصومال: إذ عندما غزت الصومال

أوجادين عام ١٩٧٧، وتقدمت قواتها خلال الشهور القليلة التالية، بدل الاتحاد السوفيتي مواقعه . وعندما تدفق ثماني عشرة ألفًا من القوات الكوبية(٢٢)، في أوجادين كانت نتيجة العملية " المنسقة بصرامة مع الاتحاد السوفيتي والمدعومة به "، تراجع القوات الصومالية مضطربة .

وترك التحول زياد برى واقفًا فى وضع العاجز فى ساحة المعركة، فتقدم نادى السافارى " وأخبر أعضاؤه زياد برى، أنهم سوف يمدونه بالأسلحة التى يحتاجها إن هو تخلص من الروس" . وعندما اتبع برى نموذج السادات وطرد السوفيت، ضغط شاه إيران على الولايات المتحدة لتقدم للصومال الدعم الذى وعدت به مصر " غير أن الولايات المتحدة لم تكن على استعداد لفعل ذلك، لسبب بسيط : كانت مصر حليفًا استراتيجيًا، ولم تكن الصومال كذلك، هكذا قيل للشاه . ويكتب الشاه : إن لدى ثلاث رسائل من الرئيس كارتر :" ويستدعى بدوره سفير الصومال ثلاث مرات خلال شهر واحد . " إنكم أيها الصوماليون تهددون بقلب توازن القوى الدولية " . لم يكن لدى برى غير فرصة ضئيلة للاختيار، ووصل إلى نتيجة مفادها أنه كان ضحية ساذجة لصفقة للقوى العظمى، صفقة وافق بها الروس على الابتعاد عن روديسيا وهى تتحول من الحكم الأبيض، فى مقابل بقاء الأمريكيين بعيدين عن الأوجادين.

ويذكر هيكل(٢٣) "، أن كيسنجر كان أكثر من سعيد وهو يرى الوكلاء وهم يحققون أهدافه فى أفريقيا " : ماذا يمكن أن يكون أفضل " من اتحاد لا يتحكم الكونجرس فيه، وهو، بالإضافة إلى ذلك، معد ليمول نفسه بنفسه؟".

أفريقيا الجنوبية :

حقق نادى السافارى جوهر رؤية كيسنجر : إن قيود الديمقراطية فى الوطن تقتضى أن تعمل الولايات المتحدة عبر الوكلاء فى الخلية العالمية، وواصلت جنوب أفريقيا العمل ليكون لها مكانها الخاص، وكان درس أنجولا عام ١٩٧٥ أن المكان كان

مقصوراً على العمليات السرية، وحيث إن عملاء الولايات المتحدة السريين كانوا يعملون من حول " تعديل كلارك "، فإنهم واصلوا " ارتباطًا بناءً " مع جنوب أفريقيا. لقد أبطل " تعديل كلارك " رسميًا فى بداية الفترة الثانية لريجان عام ١٩٨٥، غير أن وقته الذى دام عقداً من الزمان، فشل فى قطع الطريق على جنود الحرب الباردة، ذلك لأنهم كانوا قادرين على إعادة توجيه الانتباه العام، من حقيقة كونية واحدة، هى حركة القضاء على الكولونيالية، إلى أخرى، هى الحرب الباردة . وكما بحثوا عن سبل للالتفات حول القيود التشريعية، على حرية العمل التنفيذى، فإن هؤلاء المدافعين عن أيديولوجية بذاتها، احتضنوا، بحماس، الحروب الباردة وكذا الإرهاب بالتدريج . وقاد رئيس المخابرات الأمريكية ويليام ج . كيسى فى النهاية الدعم[٢٤] المنظم للإرهابيين والحركات الموالية للإرهابيين فى أنحاء العالم - من رينامو فى موزمبيق إلى يونيتا فى أنجولا، ومن الكونتر فى نيكاراجوا إلى المجاهدين فى أفغانستان - عبر أطراف ثالثة ورابعة. وفى إيجاز فإنه بعد الهزيمة فى ڤيتنام وفضيحة ووترجيت فى الوطن، قررت حكومة الولايات المتحدة أن تعد، بل تربى الإرهابيين فى النضال ضد حروب العصابات التى جاءت إلى السلطة والأنظمة التى تعتبرها موالية للسوڤيت .

كانت أفريقيا الجنوبية هى المكان الذى قدمت فيه الولايات المتحدة مظلة حماية لجنوب أفريقيا لتمارس فن الحرب بالوكالة، وجاءت أمريكا الوسطى لتكون المكان الذى تصدت فيه لقيادة تطبيق الدروس التى تعلمتها من حروبها الخاصة بالوكالة . وجاء التأثير النظرى الأكبر، من متخصصين فى الثورات المضادة، بما فيهم الجنرال ماجنوس مالان، رئيس قوات دفاع جنوب أفريقيا، ووزير الدفاع منذ عام ١٩٨٠ .

إن الأمر المثير للاهتمام، كما أقرته لجنة " الحقيقة والمصالحة " لما بعد الأبارتهيد، فى تقريرها، هو أن مالان قد تم تعريفه بفن الثورة المضادة فى الولايات المتحدة، عندما ذهب إلى هنالك لتلقى حلقة تدريب للضباط فى عام ١٩٦٢-١٩٦٣ وتولى مالان كما لوحظ، رئاسة الجيش[٢٥] (١٩٧٣-١٩٧٦) لتطبيق حرب الثورة المضادة فى جنوب غرب أفريقيا، وكان مشهوراً بإصراره على أن يدرس المتخصصون، فى الثورة المضادة، نصوصاً مشهورة عن حرب العصابات، وخاصة تلك التى لماوتسى

تونج . وقد أنتج مزيج الممارسة والنظرية، عقيدة أساسية لـ " النزاع ضئيل الحدة " : إذا تضمنت حرب العصابات تركيزًا على " أهداف سهلة " مثل ممثلين سياسيين لحكومات غير شعبية، فإنه على الثورة المضادة أيضًا، استهداف داعمين سياسيين فى حكومات الأجنحة اليسارية . إن التحول من استهداف القوات المسلحة للحكومة إلى ممثليها السياسيين، ثم مدنييها، قد جعل التمييز بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية أمرًا غير واضح – وقد قاد عدم الوضوح هذا إلى إرهاب سياسى؛ أى استهداف المدنيين لأغراض سياسية – كاستراتيجية تلقى التأييد فى صراع زمن السلم . إن الإرهاب بتجربته الواسعة المتماسكة يميز بين الأهداف والضحايا . قد يكون الضحايا مجهولى الأسماء حقًا، وكانت القرعة قد حددت قدرهم، فقد كان الأمر فى بساطة هو إدماء الهدف بكل السبل المتاحة، من أجل إضعافها، ودفعها إلى موقف حاسم. إن الضحايا، فى لغة النزاع ضئيل الحدة كما هو واضح من الأهداف، كانت تعرف بأنها " أضرار جانبية " .

رينامو: الحركة الإرهابية الحقيقة الأولى فى أفريقيا

دعمت الشراكة بين الولايات[٢٦] المتحدة وأبرتهايد جنوب أفريقيا، حركتين أساسيتين مارستا مزيجًا متنوعًا من الإرهاب والسياسة، فى نقاط مختلفة من تاريخهما: "رينامو"(*) فى موزمبيق، "ويونيتا"(**) فى أنجولا . إن هذا التماثل يجب ألا يطمس، بأى حال من الأحوال الفروق المهمة بين رينامو ويونيتا: فبينما لم تبدأ رينامو، بأكثر من عملية مضادة للثورة حيث إنها حركة أُجبرت على تعلم فن التنظيم السياسى باعتباره استراتيجية للبقاء على قيد الحياة، بدأت ويونيتا كحركة سياسية تعلمت ممارسة الثورة المضادة عبر الطريق .

(*) هى حركة معارضة لجبهة التحرر الوطنى الحقيقية فى موزمبيق (فريليمو)، ورينامو Renamo : اختصار المقاومة الوطنية فى موزمبيق. (المترجم)

(**) يونيتا UNITA : اتحاد الاستقلال الكامل لأنجولا.. حركة معادية للحركة الشعبية لتحرير أنجولا(مبالا) MPLA

لقد أنشئت الرينامو، من قبل الجيش الروديسى فى بداية السبعينيات، كجهاز إرهابى، وقامت قوات دفاع جنوب أفريقيا برعايتها بعد سقوط روديسيا عام ١٩٨٠، عندما فرت قطاعات كاملة من العسكريين والأمن الروديسى الأبيض إلى جنوب أفريقيا وأدمجوا فى أجهزتها العسكرية والاستخباراتية . إن الرينامو، حتى إن تعلمت، عبر الزمن، تحويل أخطاء جبهة تحرير موزمبيق (فريليمو) الحاكمة، إلى فرص لحشد الدعم السياسى، فإنها لم تكف قط عن استخدام الإرهاب مع أى استسلام أو تنازل . وبدأت اليونيتا، على نقيض ذلك، كحركة ذات قاعدة سياسية محلية، رغم أنها كانت حركة غير قوية، بما يكفى للبقاء مع بداية الحرب الأهلية ١٩٧٥، دون مساعدة خارجية قوية. إن تحالفها مع أبرتهايد جنوب أفريقيا، قد فتح الباب أمامها لتتعلم تكتيكات الإرهاب اقتداء بها. كانت اليونيتا تنازع سعياً وراء السلطة فى أنجولا، حتى وإن كانت خصماً ضعيفاً، بينما لم تكن الرينامو حركة حقيقية فى موزمبيق . إن حكومة الولايات المتحدة لم تدعم ألبتة الرينامو جهراً أو علناً، وكان ذلك يتناقض بصورة حادة مع دعمها لليونيتا، دون خجل . غير أن هذا لم يحكم[٢٧] التعاون بين اليمين السياسى فى الولايات المتحدة وممثلى الرينامو، " لقد كان مكتب الرينامو فى واشنطن شريكاً لمؤسسة الهيريتاج فى عنوان واحد" .

وفى عام ١٩٨٧، دفع " ضغط الجناح اليمينى، روبرت دول، زعيم الأقلية بمجلس الشيوخ إلى المعسكر المتعاطف مع الرينامو "، وقد بينت كارثة أنجولا عام ١٩٧٥ أنه لم يكن فى الإمكان استخدام جنوب أفريقيا كحلقة وصل مباشرة لمساعدة الولايات المتحدة، كما أن " تعديل كلارك" منع المساعدة السرية للولايات المتحدة فى أنجولا مما أدى إلى مبادرة المخابرات الأمريكية للبحث عن أطراف رابعة يمكن أن تمول اليونيتا وتدربها وتدعمها من خلالها . وقد وثقت شهادة صادرة عن الكونجرس مثالاً واحداً، على الأقل، لدفع ١٥ مليون دولاراً لليونيتا عبر المغرب عام ١٩٨٣ .كان تفويض المساءلة الديمقراطية أكثر تكلفة محلية، بسبب دعم الإرهاب فيما وراء البحار . وقد أقر جوناس سافيمبى، رئيس اليونيتا، فى ملاحظة صادقة للصحفيين[٢٨]، عدم جدوى " تعديل كلارك "، فى مواجهة سلطة تنفيذية غير متعاونة : "إن لبلد كبير، مثل الولايات المتحدة، قنوات أخرى .. إن تعديل كلارك لا يعنى شيئاً " .

وقد أدركت الولايات المتحدة، بالفعل، حتى قبل إبطال تعديل كلارك، فداحة التكلفة السياسية لدعم الإرهاب علنًا، لذا واصلت دعمها السرى جنبًا إلى جنب مع العلنى للإرهابيين والحركات المتعاطفة معهم . وكانت مثال ذلك، مخصصات " معونة إنسانية " قدرها ١٢ مليون دولار ليونيتا، خلال فترة ريجان الثانية، تلتها ١٥ مليون دولار أخرى مساعدة عسكرية .

وقد جفت مساعدة جنوب أفريقيا ليونيتا، بعد نهاية الأبارتهيد والتسوية الأنجولية الداخلية فى مايو عام ١٩٩١ - مما حدا بالولايات المتحدة إلى زيادة مساعدتها ليونيتا، رغم أن الحرب الباردة كانت قد انتهت حقًا . كان الأمل أن يحقق دمج الإرهاب والتنظيم السياسى نصرًا سياسيًا فى أنجولا، كما فعل فى نيكاراجوا، حيث انتصر التحالف المضاد للثورة عن طريق الأصوات الانتخابية، كان المنطق بسيطًا، إن الشعب سوف يصوت يقينًا لصالح الإرهابيين ليصلوا إلى السلطة، إذا حدث وكان مستوى الضرر الجانبى عاليًا بصورة غير مقبولة باعتبار أن ذلك هو ثمن السلام .

كان ثمن الإرهاب فى جنوب أفريقيا باهظًا، بأى حساب كان. لقد انتهى مستشار الوزارة الخارجية، كان يجرى مقابلات مع اللاجئين والمرحلين، إلى أن رينامو مسئولة عن ٩٥٪ فى حالات الإساءة إلى المدنيين فى الحرب فى موزمبيق، بما فى ذلك مقتل ما يقدر بعشرة آلاف مدنى، وقد قررت دراسة للأمم المتحدة عام ١٩٨٩، أن موزمبيق قد عانت خسارة اقتصادية تصل إلى حوالى ١٥ بليون دولار بين عامى ١٩٨٠ و١٩٨٨، وهو رقم يبلغ خمسة أضعاف ونصف الناتج المحلى الإجمالى لعام ١٩٨٨ . وعندما يجىء الأمر إلى أنجولا فقد أثبت باحثو " أفريكا واتش " بالوثائق أن استراتيجيات اليونيتا كانت تستهدف تجويع المدنيين فى المناطق الخاضعة لإدارة الحكومة، عبر مزيج من هجمات مباشرة، وعمليات اختطاف، وزرع ألغام أرضية فى الممرات التى يستخدمها الفلاحون، وقد وضع الاستخدام الكثيف للألغام الأرضية فى أنجولا - جنبًا إلى جنب مع أفغانستان وكمبوديا - فى مصاف الدول الأكثر تلغيمًا فى العالمْ، مع

عدد ممن بُترت أعضاؤهم، يقدر بتحفظ ، بأكثر من خمسة عشر ألف شخص . وقد أحصت اليونيسف وفاة ٣٣١٠٠٠ مدنى نتيجة أسباب مباشرة، أو غير مباشرة مرتبطة بالحرب . وقد قدرت الأمم المتحدة(٢٩) الخسارة الإجمالية التى أصابت الاقتصاد الأنجولى من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ بمبلغ يصل إلى ثلاثين مليون دولار، وهى تساوى ستة أضعاف الناتج المحلى الإجمالى لعام ١٩٨٨ .

وقد جاء الإرهاب السياسى بنوع من الحرب لم يُر ألبتة فى أفريقيا من قبل . وقد استهدف الإرهاب الحياة المدنية : تفجير البيئة التحتية، مثل الكبارى ومحطات الطاقة، تدمير مراكز الصحة والتعليم، تلغيم الممرات والحقول واختطاف المدنيين - وخاصة الأطفال - لتجنيدهم جبراً . وقد ميز الإرهاب نفسه عن نضال العصابات بجعل المدنيين هدفه المفضل، وإن ادعت عصابات الجناح اليسارى أنها مثل السمك فى الماء، فإن إرهابيى الجناح اليمينى مصرون على استنزاف الماء - الذى هو الحياة المدنية - حتى ينضب فيعزلوا السمك ويجتثوه - إن ما يسمى الآن بالضرر الجانبى، لم يكن ناتجًا ثانويًا سيئ الطالع للحرب، لقد كان هو ما قصده الإرهاب تحديداً .

الارتباط البناء:

كان الدور الأمريكى عندما ساد الإرهاب الذى أطلقته رينامو فى موزمبيق، والذى أعادته يونيتا على فترات منتظمة إلى أنجولا، هو دور الدعم السياسى . لقد رأينا الولايات المتحدة، وهى تدعم اليونيتا علنًا، غير أنها كانت حريصة على ألا تربط نفسها ألبتة مع رينامو، بل إن وزارة الخارجية سجلت استنكارها لأفعال إرهابية قامت بها الرينامو . لقد دعمت الولايات المتحدة بحرارة، على أى حال، نظام جنوب أفريقيا، الذى كان يغذى الرينامو مباشرة، وهى أول حركة إرهابية حقيقية فى أفريقيا، منذ الميلاد حتى النضج . وقد أطلقت إدارة ريجان على هذا الاحتضان تعبير " الارتباط البناء "، وهو تعبير وضعه حينذاك مساعد وزير الخارجية لأفريقيا، شيستر كروكر .

مـا كان فى وسع حكومـة جنوب أفـريقـيا دون الدعـم السيـاسـى الأمـريكى، أن تواصـل مسـاندة الحـركـة الإرهـابيـة، فى البلد الأفـريقـى حـديث الاسـتـقـلال، لأكـثـر من عـقـد من الزمان وأن تفعل ذلك وهى تتمتع بالمناعة والحصانة .

إن الهـدف من الارتباط البناء هو إخراج جنوب أفريقيا من العزلة السياسية، حتى توجـه طاقـتـهـا الحـربيـة الكامنة بصـورة أفـضــل، فى الحــرب ضــد الوطنيـة المناضلة - والموالية للسوفيت وقد بدأت عـمليات الإنقاذ على مـستوى الحكومـة، مع إعـادة تأهيل جنوب أفريقيا فى تلك المؤسسات، متـعددة الأطراف خـارج الفلك السـوفيتى، وفى ظل وصـاية الولايات المتحدة وحمـايتها، وقد حثت الولايات المتحدة عام ١٩٨٢، باعتبارها من يرفع الستـار[٣٠]، صـنـدوق النـقـد الـدولى (أى إم إف) أن يـمـنـح جنوب أفـريقـيـا ١,١ مليار دولار قرضًا، وهو مبلغ، كما لاحظ ويليام مينتر، جاء مساويًا للزيادة فى الإنفـاق العسكرى الجنوب أفريقى، من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٢ . ولقد قـامت حكومـة جنوب أفـريقـيـا، فـى مـحـاولة للـحـصـول على الدعم الشـعـبى للارتبـاط البناء، بالـعـديد من الاستثمارات الخفيفة فى وسائل إعلام الولايات المتحدة، والتى انفضحت فى النهاية، وأصـبـحت القـضـيـة مـعروفـة باسم "مولدرجيت " نسبة إلى وزير إعلام نظام الأبارتهيد كورنيليوس مولدر . وقد اشتملت مولدرجيت[٣١] على تحقيق حول استثمارات متنوعة لحكومة جنوب أفريقيا فى ١٦٠ إلى ١٩٠ مشروعًا سريًا لوسائل الإعلام، فى واشنطن تايمـز، والتى تمتلكها " كنيـسـة التـوحـيـد "، والسكرامنتـو يونيـون، يو بى أى تى إن، " أكبر ثانى منتج وموزع لأفلام الأخبار فى العالم، والمملوكة شراكة مع يونيتد برس إنترناشونال، وتلفزيون الأخبار المستقل فى بريطانيا " المرتبط سياسيًا بصـورة جيدة بشـركة سيدنى سى بارون للعلاقات العامة . وقد قدمت مشروعات مـولدرجيت منافع مباشرة لأفراد ومنظمات محافظة، مثل " الوزارات " المسيحية اليمينية. وفى عام ١٩٨٦ " بدأ مذيعو الولايات المتحدة الإنجيليون حملة دعاية متـعاطفة مع جنوب أفريقيا، فى تعاون مع حكومة جنوب أفريقيا "، ولم توجد شخصية[٣٢] من الموغلين فى اليمينية أقل قـدرًا من جيـرى فالويل، الذى تحدث علنًا لمصلحـة رئيس جنوب أفـريقـيـا دبليــو بوثا، ووعد بأن يعمل من أجل هزيمة لائحة العقوبات المقترحة .

إن الارتباط البناء قد جرت صياغته خدمة لسياق سياسة كلية تشكل العلاقات بين الولايات المتحدة وأبرتهايد جنوب أفريقيا واليونيتا والرينامو . ورغم أن العلاقة بين الراعي والوكيل كانت دومًا علاقة غير متساوية، غير أنها لم تكن ألبتة العلاقة من طرف واحد تمامًا . إن تأييد الولايات المتحدة قد مكن حكومة جنوب أفريقيا من أن تعمل وهى تتمتع بالحصانة . غير أن حكومة جنوب أفريقيا استخدمت أيضًا علاقة استراتيجية - لقد واصلت القيام بمبادرات تقوى العلاقات مع الجناح اليمينى داخل الحكومة وخارجها، وكان الأمر نفسه صحيحًا بالنسبة ليونيتا فى علاقاتها مع جنوب أفريقيا والولايات المتحدة، وبمدى أقل مع رينامو . وقد أعاد الارتباط البناء بالفعل، تشكيل السياسة الإقليمية لجنوب أفريقيا، عبر مزيج معقد من العمليات السرية والعلنية .. فقد دمجت جنوب أفريقيا فى موزمبيق، مثلاً، اتفاق سلام رسمى - "اتفاقية نكوماتى " ١٩٨٤ - مع دعم مادى خفى لإرهاب رينامو . وفى أقل من عام(٢٣) بعد نكوماتى، أمسكت القوات الموزمبيقية بمجموعة يوميات صاحبها عضو فى قيادة رينامو : وقد ذكرت " يوميات فاز " بالتفصيل الدعم المتواصل الذى قدمته قوات دفاع جنوب أفريقيا لرينامو .

لقد أخَّر الارتباط البناء، بوضوح، الإصلاح السياسى فى جنوب أفريقيا، مدة عقد على الأقل، وكان الاتجاه الخاص بانفراج العلاقات مع أفريقيا المستقلة قد قطع شوطًا بعيدًا، قبل أن تشجع الولايات المتحدة جنوب أفريقيا على التدخل فى أنجولا . وقد شرح رئيس الوزراء جون فوستر الاستراتيجية الجديدة " للموند" : " يجب ألا تحجب السياسة الداخلية التعاون الدولى" . كان رد فعل بريتوريا الأساسى . بالنسبة لطريق استقلال موزمبيق، ليس انسحابًا إلى دائرة دفاعية ضيقة، أطلق البوير عليها اسم الـ "لاجر"(*)، ولكن شق طريق لإمكانية الإصلاح الإقليمى وبدلاً من زيادة دعمها الجارى حتى الآن، مرة أخرى إلى إعلان إيان سميث للاستقلال من طرف واحد

(*) معسكر تحيط به دائرة من عربات مسلحة. (المترجم)

– والذى اشتمل فى حينه، على وجود " حوالى ألفين " من رجال شرطة جنوب أفريقيا فى روديسيا من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٥ – بدلاً من هذه الزيادة، أعدت بريتوريا للتحول إلى حكم الأغلبية فى المستعمرة البريطانية السابقة. وكتب رئيس الاستخبارات الروديسية فى ١ ديسمبر ١٩٧٤، فى مذكراته " أن جنوب أفريقيا على استعداد للتخلص منا، وهى تبحث عن انفراج[٣٤] علاقاتها مع أفريقيا السوداء " .

لقد تطابقت حقبة الارتباط البناء فى جنوب أفريقيا مع مرحلة صعود المقاومة الشعبية فى العقد الذى تلى انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ . ومع ذلك، فإن الشراكة مع الولايات المتحدة، قد قوت هؤلاء الذين فى الدوائر الحاكمة فى جنوب أفريقيا، والذين كانوا يعطون الأولوية لقتال الحرب الباردة . وحيث إن الأصوات التى كانت تطالب بالإصلاح الداخلى مهمشة داخليًا، وتلقى التجاهل دوليًا، فإن القوى العسكرية، فى جنوب أفريقيا، أحكمت قبضتها على العمليات الحكومية وحولت سياستها الإقليمية من الانفراج إلى " الانقضاض الكلى " . إن عسكرة نظام الأبارتهيد[٣٥] وسياسته الإقليمية مذكورة تفصيلاً وبوفرة فى التقرير المكون من خمسة أجزاء " للجنة الحقيقة والمصالحة "، فيما بعد الأبارتهيد. وإن التحول الإقليمى من الملاءمة إلى العدوان كان له صدى مماثل فى تحول كونى فى سياسة إدارة ريجان من " الأضواء " إلى " الانحسار والانسحاب " .

إن الذى لا شك فيه أن قوتين عظميين هما اللتان خاضتا الحرب الباردة، وقد أخضع كل منهما المصالح المحلية والنتائج لاعتبارات استراتيجية كونية، غير أننى مهتم هنا فقط بالولايات المتحدة، وغرضى المحدود هو أن أكشف الطرائق التى احتضنت بها الولايات المتحدة الإرهاب، وهى تعد لشن الحرب الباردة حتى النهاية .

الولايات المتحدة والنزاع ضئيل الحدة low-intensily conflict

كانت المخابرات الأمريكية والبنتاجون يطلقان على الإرهاب اسمًا آخر هو " نزاع ضئيل الحدة " (إل آى سى) . إن التحرك من الثورة المضادة إلى " النزاع ضئيل الحدة "

يدل على إعادة توجه استراتيجي فى استراتيجية الولايات المتحدة للحرب . لقد كان ذلك، أولاً وقبل كل شيء، إقراراً بأن التهديد السائد للمصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة لم يأت مباشرة من تمركزات القوات السوفيتية فى أوروبا، لكنه يجيء بشكل غير مباشر من ثورات العالم الثالث، والتى كانت واشنطن تعتقد أنها حروب سوفيتية بالوكالة . وقد كتب الكولونيل جون د . واغيلستين، الرئيس السابق لمجموعة الولايات المتحدة العسكرية فى السلفادور، والقائد المدافع عن النزاع ضئيل الحدة فى الميليترى ريفيو. " أما وقد تحدد أن اقتراح[٣٦] النزاع ضئيل الحدة، هو الشكل الأكثر احتمالاً لتدخلنا فى العالم الثالث، فإنه يبدو أن الجيش ما زال يعد للحرب الخاطئة بتأكيد التهديد السوفيتى فى سهول أوروبا "، ثانيًا، أشار النزاع ضئيل الحدة إلى إصرار على التحرك من فيتنام، قد حددتها مجموعة من الهزائم الأيديولوجية فى عدد من البلدان، منها أنجولا وموزمبيق وإيران ونيكاراجوا وإثيوبيا وجرينادا على الأقل .

إن لب عقيدة ريجان كان " الانحسار والانسحاب " إنها بدلاً من التعايش أو الاحتواء، دافعت عن دعوة محددة، ثابتة، عدوانية حتى تستبدل الهزائم فى العالم الثالث بضدها. وقد جاءت صرخة الصحوة عام ١٩٨٠، من مجموعة جمهورية تدعى "لجنة سانتافى " . وقد لاحظت هذه اللجنة أن " احتواء[٣٧] الاتحاد السوفيتى ليس بكاف "، وانتهت إلى أن " الوقت قد حان لنطلق نفيراً من أجل الحرية، والكرامة، والمصلحة الذاتية القومية، والتى سوف تردد صدى روح الشعب فى الولايات المتحدة . إن السلام السوفيتى والتصور المضاد، على اتساع العالم عن القوة الأمريكية، هما على مدى البصر. إن ساعة الحسم لا يمكن تأجيلها أكثر من ذلك " .

إن الجدل الثقافى حول " الانحسار أو الانسحاب "، ذلك الذى جعل هذا الأمر محترمًا فى الدوائر الرفيعة، جاء من الأكاديمية المحافظة الجديدة كيركباتريك، أولاً فى مقالة بعنوان " الديكتاتوريات والمعايير المزدوجة، ثم فى كتاب يحمل العنوان نفسه. وقد ربط جدل كيركباتريك، التوسع الكونى السوفيتى، بثورات العالم الثالث

فى علاقة سببية . وقد ادعت أن ثورات العالم الثالث غير شرعية، حيث إنها ناتج التوسع السوفيتي، أكثر من كونها قوة تاريخية محلية تناضل ضد الديكتاتوريات القمعية وقد استخرجت كيركباتريك، حينئذ، تمييزاً بين نوعين من الديكتاتورية: ديكتاتورية الجناح اليسارى (الشمولية)، وديكتاتورية الجناح اليمينى (السلطوية) . والفرق، كما قالت، إن الديكتاتوريات الشمولية عاجزة عن الإصلاح من داخلها، ومن ثم، يجب أن يطاح بها قهراً من الخارج، بينما الديكتاتوريات السلطوية مفتوحة للإصلاح الداخلى، الذى يمكن الوصول إليه عبر الارتباط البناء. إن الأهمية الثقافية لجدل كيركباتريك لا يمكن المبالغة فيه. إنها بعرضها الأسباب المنطقية للسؤال، لماذا يعد تحقيق صداقات مع الجناح اليمينى أمراً جيداً؟ بينما يتم فعل شيء للإطاحة بحكومات الجناح اليسارى، قد حلت المشكلة الأخلاقية المرتبطة " بالانحسار والانسحاب " .

أعلن وزير الخارجية الجديد ألكسندر هيج، بعد أن تولى ريجان السلطة عام ١٩٨١، " أن النكسة المتصاعدة التى حلت بمصالحنا فى الخارج، وما يسمى بحروب التحرر الوطنى، إنما تعرض للخطر قدرتنا على التأثير فى الأحداث الدولية "، وأكد ريجان، عندما أعيد انتخابه عام ١٩٨٤(٣٨) فى حديثه إلى الأمة، " أن مد الشيوعية السوفيتية يمكن قلبه فى الاتجاه المضاد، وكل ما يحتاجه ذلك هو الإرادة والموارد لتحقيقه".

وثمة تمييز واضح بين الثورة المضادة والنزاع ضئيل الحدة، مع التحول فى الاستراتيجية العسكرية إلى الانحسار والانسحاب: كان طموح الثورة المضادة، فى أثناء الحقبة الفيتنامية هو هزيمة المتمردين الثوريين، واستهدف النزاع ضئيل الحدة (إل آى سى) تدمير الحكومات الثورية، وليس فقط الحركات، وتعهد الرئيس ريجان، فى خطاب حالة الاتحاد، عام ١٩٨٥ بمعاونة القوى المعادية للشيوعية التى تحارب الحكومات ذات الميول السوفيتية، " فى كل قارة، من أفغانستان إلى نيكاراجوا " . وكان على " قوى العمليات الخاصة " (إس أو إف) أن تقوم بعمليات النزاع خفيف الحدة (إل آى سى) السرية . وكانت ميزانية قوى العمليات الخاصة (إس أو إف) قد

هبطت من ذروة تزيد عن مليار دولار، خلال أوج الحرب الفيتنامية، إلى أقل من ١٠٠ مليون دولار فى السنة المالية ١٩٧٥، كان هناك توسع غير مسبوق، فى زمن السلم، لميزانية إس أو إف، فى ظل ريجان، وصل إلى ١,٥ مليار دولار فى السنة المالية ١٩٨٦ . بل هنالك تقديرات أعلى للسنوات الثانية - إن لأموال إل إس أو إف[٣٩] ميزة واضحة على تلك التى لعمليات إل سى آى إيه السرية " ليس مطلوباً من البنتاجون، أن يقدم تقريراً بتفاصيل نشاطات إل إس أو إف إلى الكونجرس " .

لقد شكلت سلسلة من التطورات، عام ١٩٨٥ - ١٩٨٦، التحول إلى النزاع ضئيل الحدة (إل آى سى) باعتباره الاستراتيجية العسكرية الأساسية . بدأ الأمر بتأسيس مشروع نزاع ضئيل الحدة مشترك (جيش / قوة جوية) (جى إل آى سى) عام ١٩٨٥ مما قاد إلى نشر تقرير من ألف صفحة عام ١٩٨٦ حول المفاهيم والاستراتيجية والخطوط الإرشادية والتطبيق فى " العالم الثالث ". وعقد البنتاجون، فى العام نفسه ١٩٨٦[٤٠]، مؤتمره الأول حول الحرب ضئيلة الحدة، وأسس " مركز الجيش / القوة الجوية للمشاركة فى النزاع ضئيل الحدة " من أجل " رفع اليقظة : وتحسين وضع الجيش/ القوة الجوية للمشاركة فى النزاع ضئيل الحدة. إن إعادة الصياغة المزدوجة تلك، لسياسة الولايات المتحدة - محددة العالم الثالث باعتباره لب ميدان المعركة، والتحرك نحو الهجوم - قد غدت معروفة، بصورة واسعة، باعتبارها "عقيدة ريجان" ويبدأ معها إضفاء مسحة مثالية. وأيديولوجية - على قوات الثورة المضادة، وسلاحهم المفضل الذى يتمثل فى الإرهاب . كان الأمر كذلك، فيما يتعلق بالكونترا فى نيكاراجوا واليونيتا فى أنجولا والمجاهدين فى أفغانستان .

وأعلن وزير الخارجية[٤١]، جورج شولتز، فى خطاب أساسى عام ١٩٨٥، أن تلك القوى جزء من " الثورة الديمقراطية " التى " تجتاح العالم الآن " .

إن دعوة السيناتور كلارك، منذ عقد مضى، إلى " عنصر أخلاقى فى السياسة الخارجية أفرغ بصورة تراجيدية من مضمونه الأخلاقى والديمقراطى، وهى قد توجب هدفًا مزدوجًا: إنهاء " تدخل " الولايات المتحدة " سياسيًا وعسكريًا فى

الشئون الداخلية للبلدان الأخرى "، وأن تعاد صياغة سياسة الولايات المتحدة الخارجية وفق مبادئ ديمقراطية . غير أن محاربي الحرب الباردة، كانوا قد تعلموا، من الحركة المعادية للحرب، أن الميزة السياسية تجيء من اختراق المعنويات العالية الأفريقية . وأدخل الريجانيون " العنصر الأخلاقي "، رغم أنه عنصر بلاغي وديماجوجي لتعزيز التدخل، أكثر منه لإنهائه، إنهم يصرحون الآن بالأشكال السرية السابقة للتدخل، دون خجل، باعتبارها سعيًا للحرية . وقد وصف ريجان، في خطابه عن حالة الاتحاد عام ١٩٨٥، دعم الكونترا باعتباره شد أزر " المناضلين من أجل الحرية "، في معركتهم للإطاحة بـ" الطغيان الشيوعي في العالم الثالث . وعندما حول[٤٢] ريجان قرار " الأمن الدولي والتعاون الإنمائي " لعام ١٩٨٥ (إس - ٩٦٠) إلى قانون في ٨ أغسطس ١٩٨٥، امتدح " المساعدة المقدمة للثورة الديمقراطية في نيكاراجوا "، إن الحرب بالوكالة، التي خططها كيسينجر تعد وسيلة بديلة وبراجماتية لتجنب إشراف الكونجرس، وهي قد حُولت إلى انقضاض أيديولوجي بالغ النضج في ظل إدارة ريجان .

إن للنزاع ضئيل الحدة مفاتن عدة: إنه يقدم منظور شن الحرب دون إعلانها، ودون أجندة عسكرية، وعبر نشر عدد قليل من الجنود، بل حتى بعدد أقل يعود إلى الوطن في أكياس الجثث . ولكن، وبسبب تلك الأسباب تحديدًا، كانت تكاليف السياسة الوطنية للنزاع ضئيل الحدة عالية، وأحيانًا، أصبحت أعلى؛ لأنك عندما تشن حربًا دون إعلان، فإنها تؤدي أيضًا إلى تآكل عملية الديمقراطية في الوطن، ثم تدميرها في النهاية . إن منظري النزاع ضئيل الحدة لا يخفون اقتناعهم أن صحافة نشطة وإشرافًا يقظًا للكونجرس كانت عقبات مهمة أمام الفاعلية العسكرية . إن المرء ليصدم من الثبات الذي ظهرت به وجهة النظر هذه، سواء في شهادة للكونجرس، أو في مؤتمرات عسكرية، أو في التقارير الرسمية . إن أكثر البيانات درامية، قد جاء في شهادة الكولونيل أوليفر نورث، في يوليو ١٩٨٧، أمام لجنة الكونجرس المنتقاة التي كانت تتحرى الشأن المضاد لإيران، ولقد دافع نورث عن حق بعض الرسميين، في الولايات المتحدة، في خداع رسميين آخرين في الولايات المتحدة، بصورة متكررة مؤكدًا أن الأمن القومي للولايات المتحدة يبرر استخدام العمليات السرية ذات الطابع العسكري، والنشر المحسوب لمعلومات كاذبة أو مضللة لإخفاء مثل تلك

العمليات عن الأعداء . وأعلن بوجه خال تماماً من أى تعبير، وبطريقة واقعية(٤٣)، "أن هنالك قدراً كبيراً من الغش والخديعة يمارس فى سلوك العمليات السرية . إنها فى جوهرها أكذوبة، " مُنظر النزاع ضئيل الحدة، نيل ليفينجستون، قد أجمل وجهة النظر نفسها تلك لضباط أعلى رتبة فى جامعة الدفاع الوطنى فى فورت مكناير، واشنطن دى . سى : " إن الولايات المتحدة لن تكسب ألبتة حرباً تشن يومياً فى وسائل إعلام الولايات المتحدة، أو على أرضية الكونجرس " وقد قال نائب مساعد وزير القوة الجوية ج . ميشيل كيلى، فى مؤتمر جامعة الدفاع الوطنى عام ١٩٨٣، والذى كان حاضراً فيه الكولونيل نورث، " أعتقد أن مهمة العمليات الخاصة الأكثر حسماً هى ضرورة أن نقنع، اليوم، الرأى العام الأمريكى، أن الشيوعيين بعيدون عن أن ينالوا منا، فإن كسبنا حرب الأفكار، فإننا سوف نكسب فى كل مكان آخر " . " وأكد تقرير النزاع ضئيل الحدة المشترك (الجيش / القوة الجوية) (جى إلى آى سى) عام ١٩٨٥، " من أجل تعزيز فهم دقيق للموضوعات التى نشارك فيها، هنالك حاجة إلى جهد دبلوماسى عام يجرى إخراجه بعناية، جهد محنك متطور ومتقدم بصورة مستمرة " . وبغض النظر عن اللغة، فقد كانت الرسالة ملائمة : لقد شنت حرب " القلوب والعقول، أولاً فى ڤيتنام، ثم كان لا بد من نقلها إلى الوطن، وفى إطار هذا الجهد الدعائى، كانت كل الإجراءات الوقائية المؤسسية التى يمكن أن نفكر فيها باعتبارها أساسية لديمقراطية فاعلة – وخاصة إشراف الكونجرس وصحافة مستقلة – يُنظر إليها باعتبارها مجرد عقبات وعوائق يجب أن توضع جانباً عند تنظيم جهد حربى فاعل . وقد أعلن الكولونيل نورث فى شهادته فى ١٠ يوليو ١٩٨٧، أن مدير المخابرات الأمريكية، ويليام ج . كاسى، قد اقترح تأسيس كيان، كقوة مخزونة متاحة، تدعم ذاتها، وتقف بمفردها "، يمكنها أداء عمليات سرية سياسية وعسكرية دون محاسبة أمام الكونجرس . وقد لاحظ السيناتور وارين ب. رودمان، " إن أنت واصلت هذا إلى أقصى منطق له، فإنه لن يكون لديك أية ديمقراطية بعد ذلك " .

أمريكا الوسطى - احتضان الإرهاب علنا:

قادت الساندينيستا الثورة فى نيكاراجوا عام ١٩٧٩ فتحول مركز ثقل الحرب الباردة من أفريقيا الجنوبية إلى أمريكا الوسطى، رغم أن السياسة الخارجية لإدارة ريجان كانت واسعة المدى للغاية. ما إن سوغت كيركباتريك الاستراتيجية المزدوجة لاحتضان ديكتاتورى الجناح اليمينى واستهدف نظم الجناح اليسارى، حتى ترجمت "مؤسسة "هيريتاج"، الحد الأقصى النظرى إلى اقتراح عملى، حدد تسعة بلدان لعملية الانحسار: وهى أفغانستان وأنجولا وكمبوديا وإثيوبيا وإيران ولاوس وليبيا ونيكاراجوا وفيتنام. وفى مارس ١٩٨١، اقترح مدير المخابرات الأمريكية على ريجان هجوماً مضاداً للثورة فى ثمانية بلدان - نيكاراجوا وأفغانستان ولاوس وكمبوديا وجرينادا وإيران وليبيا وكوبا - ستة منها أخذت من القائمة المستهدفة " لمؤسسة هيريتاج " . وبينما أشار غزو جرينادا فى ٢٥ أكتوبر ١٩٨٣ إلى البداية الاحتفالية لعملية الانحسار، فإن نيكاراجوا كانت الاختبار الحقيقى لهذه السياسة .

كانت المخابرات الأمريكية قد أمسكت بزمام القيادة منذ أن أقام عملاء الوكالة السريين اتصالاً مع المجموعات المضادة للساندينيستا فى فلوريدا وأمريكا الوسطى، ووحدوهم معًا فى تنظيم واحد الـ (إف دى إن) (القوى النيكاراجوية الديمقراطية) تحت قيادة مسئولى الحرس الوطنى للديكتاتور السابق أناستاسيو سوموزا . وأصبحت الـ (إف دى إن) هى المنظمة القائدة فى التحالف الذى عرف باسم المضادين للثورة أو الكونترا.

كان الكونترا، من سلالة المخابرات الأمريكية منذ البداية ووقع الرئيس ريجان فى نوفمبر ١٩٨١ " القرار التوجيهى ١٧ للأمن القومى "، " مرخصًا المخابرات الأمريكية " بـ ١٩,٥ مليون دولار، " من أجل خلق فرقة مدربة على الإغارة، على النمط العسكرى "لتقوم بهجمات داخل نيكاراجوا " . وفى شهر آخر، كان عملاء أمريكيون - بعضهم من المخابرات الأمريكية وبعضهم من قوات الولايات المتحدة الخاصة - يعملون عبر وسطاء أرجنتينيين لإقامة مأوى آمن للكونترا ومراكز تدريب ومعسكرات قواعد على

امتداد حدود نيكاراجوا – الهندوراس . كان الكونترا ملكية خاصة للمخابرات الأمريكية، وكانت الحرب فى نيكاراجوا من إنتاج المخابرات الأمريكية من الألف للياء . لتأخذ، مثلاً، شهادة أرثر كروز، وهو أحد القادة الثلاثة للكونترا منذ ١٩٨٥ حتى استقال فى ٩ مارس ١٩٨٧ . أدان كروز، فى استقالته، إدارة ريجان لسماحها بأن يدير الكونترا، قادة عسكريون وسياسيون، تعينهم المخابرات الأمريكية، من الجناح اليمينى . وأعلن أن قادة الكونترا(٤٤) كانوا دُمى للولايات المتحدة، وقال إنه من المستحيل تحويل الكونترا إلى حركة ديمقراطية . وهنالك مثال آخر، مشابه للغاية، يمكن العثور عليه فى علاقة المخابرات الأمريكية بالجيش اللاوى الملكى فى فيتنام – وقد جاء فى كلمات ألفريد مكوى أنه، " الجيش الوحيد فى العالم، باستثناء جيش الولايات المتحدة، الذى كانت تموله حكومة الولايات المتحدة بصورة كلية " – وبقوى متنوعة من المرتزقة فى الأقاليم اللاوية، وكانت علاقة نظام الأبارتهيد، فى جنوب أفريقيا، والرينامو فى موزمبيق مماثلة أيضًا .

لقد أُعلنت الحرب المضادة للثورة، فى نيكاراجوا، بصورة غير رسمية فى ١٤ مارس ١٩٨٢، عندما " دربت المخابرات الأمريكية وجهزت مخربين نسفوا كوبريين، فى إقليمى شينانديجا ونيوفا سيجوفيا "، وأصبح للكونترا، فى غضون شهور، سمعة اتسمت بالقسوة والوحشية . وكتبت مخابرات دفاع الولايات المتحدة، فى منتصف ١٩٨٢(٤٥) عن اغتيال " الكونترا " لموظفى الحكومة الصغار" . واعترف دوان كلاريدج، عميل المخابرات الأمريكية، المسئول عن الحرب السرية، فى أواخر ١٩٨٣، فى إحاطة تزويد بالمعلومات، اقتصرت على أعضاء " لجنة استخبارات المجلس " أن الكونترا لم تقتل فقط " الرسميين من الساندينيستا فى الأقاليم " . لكنها قتلت أيضًا، " رؤساء التعاونيات والممرضات والأطباء والقضاة " . وقد وَثَّقت مجموعة "أمريكان واتش " لرصد حقوق الإنسان أن قوات الكونترا " تورطت بطريقة منهجية فى قتل الأسرى والعزل من السلاح "، بما فى ذلك "، هجمات دون تمييز بل والتعذيب وفظائع أخرى ضد الكرامة الشخصية "، وقد قدَّر وزير صحة نيكاراجوا، فى نهاية عام ١٩٨٥، أن ٣٦٥٢ مدنيًا قد قتلوا، و٤٠٣٩ قد جرحوا، ٥٢٣٢ قد خطفوا فى أثناء غارات

الكونترا . إن مسألة الخطف، سواء قامت بها الكونترا فى نيكاراجوا أو الرينامو فى موزمبيق، تمت من أجل القيام بعملية تجنيد من الرهائن . وقد ذكرت النيويورك تايمز أن الكونترا قامت بعمليات خطف جماعية، ما بين ١٥ و ٢٠ مدنيًا قرب مدينة " سينا " فى ٢٧ أبريل ١٩٨٧ . وقد أكد " الاتحاد النيكاراجوى لحقوق الإنسان(٤٦)" ومقره بالولايات المتحدة، فى يوليو ١٩٨٧، إنه بالإضافة إلى إعدام الأسرى وقتل المدنيين اختطفت الكونترا بالقوة، أيضًا، فلاحين للعمل كمجندين .

غدت سلسلة نشاطات طاحونة الكونترا – حيث نسف الكبارى، وتعذيب الرسميين والمهنيين واغتيالهم رخطف المدنيين – معروفة، فتدخلت المخابرات الأمريكية لتقديم غطاء سياسى للكونترا، بدأت المخابرات الأمريكية، فى يناير ١٩٨٣، بالاحتفاظ بشركة علاقات عامة مقرها ميامى، فى مقابل ٦٠٠,٠٠٠ دولار سنويًا، وقال العقد إن الشركة تستهدف " رسم صورة إيجابية " و " التنويه بذكر " الـ إف دى إن " (القوة النيكاراجوية الديمقراطية)، " فى بلدان مستهدفة بذاتها، عبر مقالات الجرائد والمجلات " . وقد بلغ جهد العلاقات العامة ذروته فى مايو، عندما عمد الرئيس ريجان إلى اعتبار رجال الكونترا هم " المقاتلون من أجل الحرية " . ثم سرعان ما رفع مقامهم إلى " النظراء الأخلاقيين لآبائنا المؤسسين "، وهى صفة أنعم بها فيما بعد ذلك على المجاهدين الأفغان .

وبينما نفذت الكونترا الأعمال الفظة التى تقوم على العنف وجهًا لوجه، نظمت المخابرات الأمريكية عمليات تخريب واسعة النطاق، تتجاوز القدرات العملياتية للكونترا، وهى قد نفذت العمليات، فى مثل تلك الحالات(٤٧) – وهى " على الأقل " على سبيل المثال، " اثنتان وعشرون غارة جوية وأرضية وبحرية على منشآت نيكاراجوية حيوية " تمت مابين سبتمبر ١٩٨٣ وأبريل ١٩٨٤ – نفذتها سرًا بواسطة " قوة مدربة تدريبًا خاصًا، من أصول لاتينية يحكمها طرف واحد (يو سى إل إيه إس) " . وقد أوضح هندوراسى من الـ" يو سى إل إيه " أنه، " كانت مهمتنا تخريب الموانى، ومعامل التكرير، والسفن، والكبارى، ومحاولة جعلها تبدو كأنها من فعل الكونترا" . ومن ثم، فإن

الـ " يو سى إل إيه " زودت زوارق تجارية سريعة بالرجال، وانطلقت من " سفينة رئيسية " تابعة للمخابرات الأمريكية، تبعد عن الشاطئ اثنى عشر ميلاً، وضربت منشآت بترولية فى بيورتوساندينو، فى ٨ سبتمبر ١٩٨٣ - وأطلق كوماندز المخابرات الأمريكية نيران مدافع المورتر والقنابل اليدوية لإشعال خمسة صهاريج تخزين مليئة بـ ٣,٤ مليون جالون من الوقود، فى ١٠ أكتوبر، عندما أقر الرئيس ريجان تلغيم الموانئ النيكاراجوية، كجزء من خطة " إنهاك " وضعها " مجلس الأمن القومى "، فى ديسمبر ١٩٨٣ . وقد قامت فرق كوماندوز الـ " يو سى إل إيه " بالعمل، مرة أخرى من سفينة رئيسية تابعة للمخابرات الأمريكية، بوضع ألغام، فى قنوات الملاحة . كما قامت فرق مشتركة من السى آى إن واليو سى إل إيه بشن هجمات على صهاريج الزيت، ومنشآت الميناء ومراكز الاتصال والمواقع العسكرية فى الثلث الأول من عام ١٩٨٤ . " إننا ننوى قطع الانسياب الملاحى الأساسى للتجارة النيكاراجوية قطعًا حادًا فى أثناء ذروة فترة التصدير " وهذا ما كتبه أوليفرنورث فى مذكرة " غاية فى السرية " عن نشاطات خاصة فى نيكاراجوا، بتاريخ ٢ مارس ١٩٨٤ . ويضاف إلى " تلك النشاطات تخريب اقتصادى شامل، بما فى ذلك وقف كل المعونات الثنائية الأطراف، ومقاطعة تجارية وحظر اقتصادى وضغط على البنك الدولى لتعليق كل ما له علاقة بإقراض الساندينيستا، فى أكتوبر ١٩٨٢، ولاشك أن لديك الفهم والإدراك الكلى لأبعاد السياسات التى تحشدها الولايات المتحدة، لعزل هذا البلد بالغ الصغر وسحقه والذى يبلغ حجمه حجم "لوا" .

الكوكايين، الكونترا، والمخابرات الأمريكية :

أدى تلغيم موانئ نيكاراجوا إلى اضطراب وهياج فى الرأى العام والكونجرس، وكان ذلك، تقريبًا، فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه بعض الديكتاتوريين فى العالم الثالث، الذين تدعمهم الولايات المتحدة فى فقدان مصداقيتهم، فى نظر الرأى العام : بدا الوضع المضاد للثورة فى السلفادور كأنه دعم لنظام يتغاضى عن فرق الموت . وبدأت صورة نظام ماركوس فى الفلبين، تماثل صورة هؤلاء الذين كانت تحميهم الولايات المتحدة من

قبل مثل: شاه إيران وسوموزا فى نيكاراجوا . وكان هنالك قلق متنامٍ داخل الحزب الجمهورى من مدى الدعم الانتخابى المحلى الأسود، والذى فقد لحساب الارتباط البناء مع أبرتهايد جنوب أفريقيا . إن المخابرات الأمريكية وإدارة ريجان يبدوان كأنهما قد تجاوزتا نفسيهما . وقد وافق الكونجرس[٤٨] كرد فعل لذلك، على " تعديل بولاند "، مرتبطًا بقرار تفويض الاستخبارات لعام ١٩٨٤ .

> **لن يكون هنالك، خلال السنة المالية ١٩٨٤، أكثر من ٢٤ مليون دولار من الاعتمادات المالية المتاحة لوكالة الاستخبارات المركزية، ووزارة الدفاع، أو أية وكالة أخرى أو كيان للولايات المتحدة، ينخرط فى نشاطات الاستخبارات التى يمكن أن تكون ضرورية أو ممتدة لتحقيق الغرض، أو أنها ذات تأثير داعم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة لعمليات عسكرية، أو شبه عسكرية فى نيكاراجوا، بواسطة أية أمة أو مجموعة أو منظمة أو حركة أو فرد .**

وبهذا التعديل – الذى يجب الإقرار بأنه صورة أكثر اعتدالاً بكثير من " تعديل كلارك "– يكون الكونجرس قد جعل ذروة تمويل الكونترا، تقريبًا، عند الربع لما اعتبرته إدارة ريجان ضروريًا لإنشاء قوة مقاتلة حقيقية . وسعى روبرت ماكفارلان[٤٩] وأوليفر نورث، فيما بعد بقليل، إلى اقتناص مصادر تمويلية إضافية: إذ طلبا من السعوديين دعمًا بمليون دولار شهريًا، وقاما بمهمة إلى أبرتهايد جنوب أفريقيا من أجل هدف مماثل. واتخذت إدارة ريجان مبادرتين كان لهما أثرهما الدائم، كجهد بذلته، لإحباط " تعديل بولاند " . كانت المبادرة الأولى هى التحول إلى تجارة المخدرات بحثًا عن مصدر محظور للتمويل، وكانت الثانية هى التحول إلى اليمين الدينى من أجل تطبيق السياسة الخارجية التى حكم الكونجرس ضدها . ومن ثم، بدأ اتجاه جديد لخصخصة الحرب .

وكما حدث فى " المثلث الذهبى[٥٠] لجنوب شرق آسيا "، حدث أيضًا فى أمريكا الوسطى، إذ قاد السعى إلى الحرب عبر الوكالة إلى تحالف بين المخابرات الأمريكية

وتجار المخدرات، ورغم أن نيكاراجوا لم تنتج ألبتة الكوكا، مثلما أنتجت لاوس الأفيون، فإن وجود المخابرات الأمريكية غدا أساسيًا لتوفير غطاء وقائي لانسياب الكوكايين من أمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة، في مقابل انسياب معاكس للمواد والأسلحة من المخابرات الأمريكية للكونتراس . وتحكم احتكار " ميديلين "، في كولومبيا، في إنتاج الكوكايين وتوزيعه. وقدر الدخل السنوي لهذا الاحتكار عام ١٩٨٨، بثمانية مليارات من الدولارات . وكان اثنان من قادته، هما چورچ أكوا وبابلو اسكوبار، تضعهما مجلة " فوربس " في قائمة أغنى رجال العالم. وقد لاحظ ألفريد مكوي، في دراسة حول تجارة المخدرات الكونية أن " صعود احتكار ميديلين تطابق مع بداية دعم وإمداد المخابرات الأمريكية لحرب عصابات الكونترا ". حقًا لقد لاحظ مكوي أن " كل وكالات الولايات المتحدة الكبرى قد داومت على الإقرار، بدرجات مختلفة من الصراحة، أن احتكار ميديلين قد استخدم قوات الكونترا للمقاومة، في تهريب الكوكايين إلى الولايات المتحدة . وقد جاءت أدنى البيانات من وزارة الخارجية، التي كانت وجهة نظرها تقول إن " عددًا قليلاً ممن ينتمون، بصورة ما، للكونتراس، قد يكونون متورطين بالكوكايين ". لكن الوكالات الأفضل معلوماتية، مثل المخابرات الأمريكية، و" إدارة التشديد على المخدرات " (دي إي إيه)، كانتا أكثر واقعية فقد " كتبتا أن القادة الآمرين للكونترا كانوا من كبار تجار المخدرات ".

إن أكثر البيانات تفصيلاً عن اشتراك المخابرات الأمريكية والكونترا في تجارة الكوكايين، في أثناء السنتين اللتين كان " تعديل بولاند " فاعلاً فيهما (١٩٨٤ - ١٩٨٦)، يمكن العثور عليه في تقرير لجنة السيناتور جون كيري الفرعية حول الإرهاب، والعقاقير المخدرة، والعمليات العالمية، هذا التقرير الذي يعد جزءًا من تقرير أكبر صدر عام ١٩٨٨، وكان بعنوان "المخدرات وتنفيذ القانون والسياسة الخارجية"، الذي أعدته لجنة مجلس الشيوخ حول " العلاقات الخارجية " وقد انتهى التقرير إلى أن " الأفراد الذين كانوا مرتبطين بحركة الكونترا " كانوا تجارًا، وأن مهربي الكوكايين قد شاركوا في " إمداد عمليات الكونترا ". وذكر التقرير مثالين مهمين، على نحو خاص، لتجارة الكوكايين المشتركة بين الكونترا والمخابرات الأمريكية، إلى داخل الولايات المتحدة . كان الأول عن

" آرن باسـتـورا " ، عضـو حرب عصـابات السـاندينيستا السـابق، والذى تحول إلى قـائد لجبهة الكونترا الجنوبية عندما افتتحت عام ١٩٨٣ . وقد أقام القادة عند باستورا حلفًا مع چورچ موراليس وهو مهرب كولومبى قيادى، ومقره فى ميامى، وأمد موراليس جبهة باسـتـورا، فى أواخـر ١٩٨٤، بطائرة سى - ٤٧، وبـالنقـود، طبـقًـا لما جـاء فى تقـرير مـجلس الشـيوخ، " ليحمل جوًا شـحنات من العقاقير المخدرة من أمـريكا الجنوبية إلى مواقع فى كوسـتاريكا ونيكاراجوا، حتى تنقل فيما بعد إلى الولايات المتحدة، وقد قامت السى - ٤٧، خـلال الفترة مـا بين أكتوبر ١٩٨٤ وفبراير ١٩٨٦، بأربع وعشـرين رحلة طيران من أمريكا إلى قواعد فى الجبهـة الجنوبيـة، على امتـداد حـدود نيكاراجـوا - كوسـتـاريكا حـاملة ١٥٦٠٠٠ رطل من المواد، وعـائدة تحـمل كـمية غيـر مـحـددة من المخدرات " . والمثـال الآخـر، للتجـارة الكبـرى، كـان صـاحـب مـزرعـة أمـريكى مـقـره كوسـتاريكا، ويدعى جون هول. لقد غدا هـول، طبقًا لكلمات تقرير اللجنة، " شـخصية أساسـية فى عـمليات الكونترا، عندمـا كان يديرها أوليفر نورث منذ عام ١٩٨٤ حتى آخر عام ١٩٨٦ " . كانت هنـالك ستة مهابط طائرات متناثرة، عبر مزرعة هول، حيث كانت تخرج منها بانتظام رحلات طيران، " البنادق مقابل المخدرات " لتنطلق عبر حدود الولايات المتحدة دون أن يكون عليها المرور عبر أية ضوابط جمركية .

وقد لاحظت لجنة مـجلس الشيوخ أيضًـا أن المخابرات الأمريكية قد خصصت " دفعات مـالية لتجـار المخدرات ... وللمعونة الإنسانية للكونترا، فى بعض الحـالات بعد أن يكون التـجـار قـد أحيلوا للمـحـاكـمـة ... بتـهـم خـاصـة بالمخـدرات" . وكـان أحـد الطيـارين المتعاقدين على نقل معونة المخابرات الأمريكية الإنسـانية تلك، مـاركوس أجوادو، وهو من نيكاراجوا وقد غدا ضـابطًا عـالى الرتبة فى القوة الجوية السلفادورية . وفى عـام ١٩٩٠ قـبض على نورمـان منسـيس، بـعد القبض على عـمـيل سرى آخـر[٥١]، فى نيكاراجـوا لمحاولته نقل ٧٥٠ كيلو جرامًـا من الكوكايين . وقد شـهد أنريك ميراندا، وهو ضـابط استـخـبـارات سـابق فى الحـرس الوطنى لسـومـوزا أن " أجوادو قـاد طائرات من قـوة الطيران السيلفادورية إلى كولومبيا، لتلتقط شحنات من الكوكايين قام بتسليمها لقواعد قوة طيران الولايات المتحدة فى تكساس " .

ومن هنا نشأت في نيكاراجوا – كما في لاوس – صلة قوية بين العملاء العسكريين السريين، وجماعات المخدرات الإجرامية . إن كلاً من المجموعتين متخصص[٥٢] في العمل السرى – العمل خارج المعايير القانونية – بعيداً عن وهج العلنية وقيود الرقابة العامة . إن كليهما يتجنب الأوساط التي يشكلها حكم القانون أو النظام الديمقراطي .

إن هذه الصلة طفت إلى السطح خلال مسألة إيران – الكونترا، وبصورة أكثر درامية في شخصية أوليفر نورث . وفي عام ١٩٨٩، أعد " أرشيف الأمن القومي " (إن إس إيه)، وهو مجموعة ذات اهتمام عام، ومقرها واشنطن، ملفًا بدعوى قضائية " لقانون حرية المعلومات "، وحصلت على وسيلة للوصول إلى دفاتر مذكرات أوليفر نورث الخطية، " معونة مجلس الأمن القومي، التي عاونت في إدارة حرب الكونترا وعمليات أخرى سرية لإدارة ريجان " . لقد قامت الـ (إن إس إيه) بالإفراج[٥٣] عن المعلومات المصنفة على موقعها في الإنترنت . وقد بيّن عدد مما هو مدون في كراسات المذكرات أن " نورث كان يُفاد، بصورة متكررة، بروابط الكونترا بتجارة المخدرات " . كان يحدث ذلك، في الغالب، بواسطة ضابط اتصاله بالكونترا، روبرت أوين . وتحرر مذكرة صادرة عن أوين في أبريل ١٩٨٥، تحذر نورث، بأن وحدات الجبهة الجنوبية الجديدة تضم، " أشخاصًا موضع شك، بسبب حماقات سابقة"، ذاكرًا " احتمال اشتراك " جوزيه روبيلو، " في إدارة عمليات خاصة بالمخدرات "، وكذا سيباستيان جونزاليس باعتباره " مشاركًا الآن في إدارة عمليات مخدرات إلى بنما " . ويسجل نورث في تدوين آخر، بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٨٥، لقاء مع أوين " يحتمل أن تكون دى سى – ٦ الهندوراسية، والتي كانت تستخدم في عمليات خارج نيو أورليانز، قد استخدمت في عمليات مخدرات داخل الولايات المتحدة " . ومع ذلك، فهنالك مذكرة أخرى من أوين، بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٨٦، تشير إلى " طائرة كانت تستخدم لحمل المساعدة الإنسانية إلى الكونترا، وكانت تستخدم سابقًا في نقل المخدرات " . كانت الطائرة مملوكة لـ " شركة نورتكس "، والتي يوجد مقرها في ميامي ويديرها ميشيل بالمر، وهو واحد من أكبر تجار الماريجوانا في

الولايات المتحدة". وقد لاحظت الـ إن سى إيه، فى مذكرة صدرت عنها أن أوليفر نورث - بالإضافة إلى مساعد وزير الخارجية لشئون ما بين الأمريكيين، إليوت أبرامز، وضابط المخابرات الأمريكية ألان فيرز - أشرفوا على مكتب المعونة الإنسانية النيكاراجوية (إن إتش إيه إو) والذى دفع لبالمر أكثر من ٣٠٠٠٠٠ دولار لنقل إمدادات إلى الكونتراس، رغم التاريخ الطويل لبالمر فى تهريب المخدرات" .

وكان نورث، أيضًا، وسيطًا أساسيًا بين إدارة ريجان والديكتاتور البنمى مانويل نوريجا - والذى كان تعاونه مع تجار المخدرات الكولومبيين موضوع سلسلة مقالات فى النيويورك تايمز فى يونيو ١٩٨٦ - وسرعان ما تقدم نوريجا، بعد ذلك، إلى نورث، يقترح عقد صفقة تعاون فى تنظيف سجله الرسمى . وفى رسالة بالبريد الإليكترونى، إلى مستشار الأمن القومى لريجان، جون بويندكستر، بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٩٨٦، طرح نورث، اقتراح نوريجا : إذا كان فى وسع الرسميين فى الولايات المتحدة " المعاونة فى تنظيف صورته "، ورفع الحظر عن مبيعات الأسلحة للقوة الدفاعية البنمية، فإن نوريجا سوف " يولى قيادة الساندينيستا عنايته من أجلنا " . وقد اقترح نورث حينذاك " أن يُدفع لنوريجا مليون دولار من أموال مشروع الديمقراطية، التى تم جمعها من بيع الولايات المتحدة للأسلحة إلى إيران، لمساعدة قائد بنما على تدمير المنشآت الاقتصادية النيكاراجوية " . وتحتوى كراسة مذكرات نورث على تفصيلات اجتماعه، فى ٢٢ سبتمبر، مع نوريجا فى فندق " لندن " . لقد ناقش الاثنان برنامج تدريب الكوماندو فى بنما، مع دعم إسرائيلى لمتمردى الكونتراس والأفغان ". و" تحدثا عن تخريب أهداف اقتصادية كبرى فى منطقة ماناجوا ". وتضيف تعليقات الـ إن إس إيه، أن هذه الخطط قد أجهضت، كما يبدو عندما تفجرت فضيحة إيران - الكونترا فى نوفمبر ١٩٨٦ " .

فضيحة إيران - الكونترا:

أقدمت إدارة ريجان على مبادرة ثانية بعد أن واجهتها الحدود التى فرضها الكونجرس على دعم الكونترا، وقد أصبحت هذه، أيضًا، ذات أهمية دائمة . وقد

تضـمنت المبـادرة توسيـع البـحث عن وكلاء من مـجـمـوعـات تمتد من وراء البحـار إلى مـجموعـات من الوطن، ولم يعد اليـمين الدينى خـاضـعًا فقط لهيمنة مجموعات مركزية قليلة، مثل " الأغلبية الأخـلاقية " وصـوت المسيحى"، كما كان الحال فى السبعينيات، لقـد شـهدت الثمانينيات تشكيل منظمات شعبية عديدة، لكل منها غرض محدد . وقد ركز النشاط اليمينى المسيحى، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، على أمريكا الوسطى، وبدأ بجواتيمالا، حيث كان الجنرال إفراين ريوس مونت قد تحول إلى " البنتاكوستالية "، بواسطة مجموعة من شباب كاليفورنيا، الذين جاءوا بكنيستهم، كنيسة العهد الجديد الإنجيلية إلى جواتيمالا، بعد هزة أرضيـة مدمرة . إذًا بعد انقلاب ١٩٨٢، الذى نصب مـونـت ديكتـاتـورًا لجـواتيـمـالا، حـاول بات روبرتسـون وقـادة آخـرون من اليـمـين المسيحـى بنـجـاح استئـنـاف مـعـونة الـولايات المتـحـدة العسكرية للبلاد . وعندما أباد جيش مونت قرى هندية بأكملهـا، دافـع أعـضـاء العهد الجـديد عـن حـمـلة " إتلاف الأرض " بتعبيرات دينية . وقد صاغها أحد الرعاة الدينيين المتحمسين(٥٤) بقوله:" إن الجيش لم يذبـح الهنود، لقد ذبح الشياطين، لقد تلبست الشياطين الهنود، إنهم شيـوعيون، إننـا نعتـبر الأخ إفـراين ريوس مـونت مـثل داود الملك فى العـهد القديم، إنه ملك العهد الجديد" .

وأصبـحت "حـرب الكونترا " مـعـمـلاً لاستـخـدام الإدارة للمنظمـات الخاصـة، الدينيـة والعلمـانيـة . هنا أيضـًا أصبح أوليـڤـر نورث وسيطًا أسـاسـيًـا بين الإدارة والمنظمات الدينية اليمينية . وصنف قادة الكونتـرا المستفيدين من المخصصات المالية فى الـولايات المتـحـدة فـى عـام ١٩٨٤ إلى فـئـات ثلاث: مـؤسسـات المرتزقة شبـه العسكرية، و " والدعـاة الدينيـون " لليمين المسيـحى، والشبـكة السيـاسـيـة العلمانيـة لجماعات الضـغط المحـافظة . وكان بات روبرث هو الأسـاسى من بين داعمى اليـمين المسيحى – وكان قد استخدم بالفعل إعفـاءه الضريبى، عن بث التلفاز، ليخصص ثلاثة ملايين دولار لـ إف دى إن (القـوى الديمقـراطية النيكاراجوية)، ولمؤسس " كنيسـة التـوحـيد "، المبجل سون ميونج مون، والذى كانت جريدته " واشنطن تايمز " قد أنشأت " صندوق الحرية النيكاراجوى " . وكانت هنالك منظمة مسيحية مهـمـة أخرى يمينية :

فى الشبكات الداعمة للكونترا هى " النساء القلقات على أمريكا " (سى دبليو إيه)، والتى كانت نشطة، بالإضافة إلى ذلك، فى تقديم النصح القانونى لأولياء الأمور الذين كانوا يسعون لاستبعاد الكتب " الإنسانية " العلمانية " من المدارس العامة، وعند ظهوره فى مؤتمر عام ١٩٨٧[٥٥]، شكر الرئيس ريجان منظمة " النساء القلقات على أمريكا " لدعمها الشعبى للكونترا. وتنهى سارادياموند دراستها عن حركات الجناح اليمينى فى الولايات المتحدة بملاحظة تقول عبرها إن تحقيق الكونجرس، فى فضيحة إيران-الكونترا، " قد أهملت دور أوليڤر نورث فى تجنيد نشطاء اليمين المسيحى لشبكة معاونة الكونترا متعددة الخطاطيف " .

وقد أصبح من المعروف الآن، على نطاق واسع، أن نورث قد شكل شبكة خاصة لتمويل الكونترا بعد أن خفضت المعونة الرسمية تخفيضًا حادًا، وكان الارتباط الإسرائيلى فى قلب هذه الشبكة، التى تضمنت أشد مبادراته طموحًا ببيع الأسلحة إلى إيران، طبقًا للإجراءات المتبعة فى شراء إمدادات الحرب للكونترا. وقد ظهرت إسرائيل كمورد عسكرى مهم للسلڤادور وجواتيمالا ونيكاراجوا فى نهاية السبعينيات، وأوائل الثمانينيات، بعد أن أصبحت تلك البلدان مدانة بانتهاك حقوق الإنسان. وأنهت إدارة كارتر المعونة العسكرية للبلدان الثلاثة كلها . " وكتعويض[٥٦] للسلڤادور على قرارها بنقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس "، أمدت إسرائيل النظام العسكرى بـ أكثر من ٨٠٪ من تسليحه للسنوات العديدة القادمة، بما فى ذلك النابالم لاستخدامه ضد السكان المدنيين السلڤادوريين " . وفى عام ١٩٨٣، عندما نفذت حكومة جواتيمالا مجازر فى قرى هندية، كتب مراسل مجلة التايم[٥٧]، " لقد باع الإسرائيليون للحكومة كل شىء، من المعدات المضادة للإرهاب إلى طائرات النقل "، وإن " المخافر الأمامية للجيش فى الأدغال أصبحت أقرب ما يكون إلى نسخ طبق الأصل من معسكرات الجيش الإسرائيلى الميدانية " . وأخيرًا، تحركت إسرائيل إلى نيكاراجوا، وما إن قطعت إدارة كارتر المعونة عنها، " باعت إسرائيل إلى سوموزا ٩٨٪ من الأسلحة التى استخدمها ضد السكان النيكاراجويين "، ما بين سبتمبر ١٩٧٨، وطرده من الحكم فى يوليو التالى.

بدأت عمليات تسليم السلاح الإسرائيلى الكبرى الأولى بعد فترة قصيرة من خلع المدربين والموردين الأرچنتينيين عقب حرب فولكلاندس، وكتبت " التايم "، أن مستشارى الأرچنتين قد استبدلوا " بقادة من الجيش الإسرائيلى معتزلين، أو من القوات الاحتياطية ... جرى تأجيرهم بواسطة شركات خاصة مبهمة " . وقد أكد أستاذ جامعة حيفا البروفيسور بنجامين بيت - هالاهمى، أنه " عندما كانت المخابرات الأمريكية تنشىء منظمة الكونترا عام ١٩٨١، كان الموساد هنالك أيضًا يقوم بعملية التدريب ودعم الوحدات الأولى".

وقد بدأت تظهر روابط إسرائيل العسكرية مع إيران بالحرب العراقية - الإيرانية، وكما قال إيريل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلى[٥٨]، الواشنطن بوست فى مايو ١٩٨٢، مبررًا مبيعات الأسلحة الإسرائيلية إلى طهران "إن العراق عدو إسرائيل ونأمل أن تتجدد العلاقات الدبلوماسية بيننا وبين إيران، كما كانت فى الماضى " . وقال بعد أربعة شهور فى مؤتمر صحفى فى باريس، " إن لإسرائيل مصلحة حيوية فى تواصل الحرب فى الخليج الفارسى وفى انتصار إيران "، وكان الجنرال المتقاعد هارون ياريف، الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية، أكثر صراحة، عندما تحدث إلى مؤتمر فى جامعة تل أبيب، فى أواخر ١٩٨٦، " سوف تكون فكرة جيدة إن انتهت الحرب الإيرانية - العراقية بصورة متكافئة، غير أنها يمكن أن تكون أفضل إن تواصلت " . لقد اتفقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة على الهدف الاستراتيجى نفسه: أن يطيلا الحرب العراقية - الإيرانية قدر الإمكان ولتحقيق هذا الهدف سلَّح كل منهما جانبًا مختلفًا.

اتفق أغلبية المراقبين أنه كان على إسرائيل أن تظهر فى مواجهة العلاقات الباردة مع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، باعتبارها موردًا مهمًا لقطع الغيار والأسلحة لحكومة إيران الإسلامية . وقد نشرت النيويورك تايمز، فى مارس ١٩٨٢، وثائق تشير إلى أن إسرائيل قد زودت طهران بنصف الأسلحة التى وصلتها، أو أكثر، فى الثمانية عشر شهرًا السابقة، والتى وصلت إلى مبيعات قدرها ١٠٠

مليون دولار، وقد أبلغت مصادر استخباراتية أجنبية " إيروسباس دايلى " فى أغسطس ١٩٨٢ أن دعم إسرائيل كان " حاسمًا " للإبقاء على القوة الجوية الإيرانية ضد العراق . وقد أخبرت مصادر إسرائيلية النيوزويك، أنهم باعوا للإيرانيين الكثير من الأسلحة الخفيفة والذخيرة التى استولى الجيش الإسرائيلى عليها خلال غزوه للبنان، وقد باعوا بالتالى، ماكينات نفاثة تم فحصها بعناية، وقطع غيار للدبابات إم - ٤٨ أمريكية الصنع وذخائر، ومكونات صلبة للحاسبات الآلية قيمتها ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٣ فقط ".

لقد عصى الإسرائيليون علنًا الحظر الأمريكى الرسمى الخاص بإمداد إيران بأسلحة أمريكية، وحاولوا حمل إدارة ريجان على التعامل مع الإيرانيين ووافقوا، فى المقابل، على أن يتحملوا، على الأقل، عبء إمداد الكونترا، باعتبار أن الكونجرس قد بدأ وضع قيود على معونة الولايات المتحدة العسكرية . إن لب الصفقة التى عُرفت بصفقة إيران - الكونترا تتمثل فى أن الولايات المتحدة قد وافقت على بيع أسلحة لإيران، إما بشكل مباشر أو من خلال إسرائيل، بأسعار تضخمية بصورة كافية لاستخدام الفرق فى شراء أسلحة للكونترا، وقد استطاع النائب جيم رايت (دى - تى إكس) بعد عرض موجز فى البيت الأبيض[٥٩] أن يقدم تفصيلات لواحدة من مثل تلك المعاملات: دفعت إيران للإسرائيليين ١٩ مليون دولار: عادت منها ٣ ملايين مرة أخرى إلى البنتاجون، وذهبت ٤ ملايين دولار إلى سماسرة الأسلحة، وذهبت ١٢ مليون دولار إلى حساب سويسرى للكونترا، ذهبت بعض النقود إلى الحكومة الإسرائيلية، وهى التى قامت طبقًا لنورث، بتحديد الأسعار التى كان على إيران أن تدفعها . وقد اتفق معظم المراقبين على أن فكرة الصفقة جاءت من الإسرائيليين . وقد قالت التايمز اللندنية، والحريصة بطبعها " إن لجنة استخبارات مجلس الشيوخ قد قدمت دليلاً قويًا للغاية يرى أن الخطة الخاصة بتحويل النقود من عملية الأسلحة الإيرانية إلى الكونترا النيكاراجوية قد قدمها، أول الأمر، شيمون بيريز، ثم رئيس الوزراء الإسرائيلى.

وقد كتب يويل ماركوس، فى هاأرتس الإسرائيلية اليومية " هنالك مجال للخوف أن إسرائيل هى القوة المحركة وراء الفكرة الكلية لمساعدة إيران، والدليل على ذلك يكمن فى حقيقة أن المجموعة اليهودية الضاغطة قد حاولت بنشاط، منذ فترة مبكرة، منذ يوليو ١٩٨٠، إقناع الإدارة بأن شحن قطع غيار عسكرية ومعدات إلى إيران سوف يساعد فى تحرير الرهائن (أعضاء سفارة الولايات المتحدة فى طهران) ... إنها بالضبط الدعوى نفسها، غير أنها الآن مع رهائن مختلفين " . كانت الإشارة هنا إلى اختطاف رئيس محطة المخابرات الأمريكية فى بيروت، ويليام بوكلى، من بين آخرين فى مارس ١٩٨٤ . كان بوكلى صيداً ثميناً : فطبقًا لجوناثان مارشال، وبيتر دال سكوت، وجان هنتر، فإن " معرفة بوكلى الإنسكلوبيدية بالإرهاب، وإلمامه بعملاء المخابرات الأمريكية فى لبنان، قد جعلته صيداً لا يقدر بثمن، وخاصة منذ تحطيم محطة المخابرات الأمريكية فى سفارة بيروت فى عملية إطلاق القذائف، والتى تركت الولايات المتحدة، ولديها عدد قليل للغاية من العيون والآذان فى المنطقة. إن هذه الأزمة قد أثرت فى إدارة ريجان لتعقد صفقة مع النظام الإسلامى فى إيران. إن مذكرة نورث للرئيس، والتى ذدمها مستشار الأمن القومى، جون بويندكستر، فى شكلها الموجز فى ١٦ يناير ١٩٨٦، قد انتهت إلى " أنهم [إسرائيل] أيضًا يشيرون إلى [أن] هذا المدخل، عبر الحكومة الإيرانية، يحتمل أن يكون طريقنا الوحيد لتحرير الرهائن الأمريكيين المقبوض عليهم فى بيروت " .

تفجرت فضيحة إيران - الكونترا فى ٢٥ نوفمبر ١٩٨٦، عندما ظهر ريجان فى مؤتمر صحفى مذاع على التلفاز ليعترف أنه " لم يبلغ بصورة كلية عن طبيعة النشاطات التى اتخذت ارتباطًا بهذه المبادرة [إيران] "، وليعلن عزل كل من بويندكستر ونورث . وتبعه المحامى العام إدوين ميس بالمفاجأة المذهلة الحقيقية: أن أموالاً من مبيعات السلاح إلى إيران قد حولت، وغالبًا بطريقة غير شرعية، إلى الكونترا فى نيكاراجوا " إن المحامى العام لم يكشف عن أى شىء أقل من مؤامرة على أعلى مستويات الحكومة لتحطيم القانون ونقض السياسة العامة حول إيران والإرهاب

والمساعدة العسكرية للكونترا. لم تعد المسألة مسألة حكم معيب، ولكن الأمر كان متعلقًا بخرق القانون .

وقد نشرت " الصنداى تليجراف "(٦٠) اللندنية، لمسئول سابق، فى بداية ١٩٨٩، قوله إن البيت الأبيض قد " طمس " مئات الوثائق حول " مرتزقة إسرائيليين هربوا أسلحة وذخائر إلى " تيجو سيجالبا" [هندوراس] بعلم إسرائيل وحكومة الولايات المتحدة فى وقت كان الكونجرس قد حظر المساعد العسكرية . وكانت الأسلحة توزع حينذاك على قواعد الكونترا على الحدود النيكاراجوية " وقد زعموا أن تلك الوثائق كانت " حاسمة لفهم الفضيحة كلها " . وأنهى المصدر الذى ينتمى إلى الكونجرس : " إن الرأى العام الأمريكى لم يعرف ألبتة أنها عملية إخفاء" .

كان يمكن لفضيحة إيران - الكونترا، التى نتجت عن ذلك، أن تأخذ أبعاد ووترجيت، التى أنهت فترة رئاسة نيكسون، غير أنها لم تفعل ذلك . إن جزءًا من السبب يكمن فى الأحلاف التى أقامها اللوبى المتعاطف مع إسرائيل فى الكونجرس، والذى تحول عبر السنين إلى لوبى ضد استرخاء العلاقات، وكان داعمو الدولة اليهودية راغبين فى التحالف مع أى أحد، ومع الكل، ليبراليين أو محافظين، من أجل إضعاف التقارب مع الاتحاد السوفيتى، خوفًا من أن استرخاء العلاقات الأمريكية مع روسيا قد يضعف الدعم الأمريكى لإسرائيل . وضعوا، من ناحية، أيديهم فى أيدى المحافظين الذين اعتبروا خط كيسنجر، مع السوفيت، خطًا لينًا، ووقفوا، من ناحية أخرى، مع الليبراليين الذين نظروا إلى صمته على انتهاكات حقوق الإنسان داخل الاتحاد السوفيتى، باعتباره فاقدًا للحساسية الأخلاقية ومتقلبًا، قياسًا بالقيم الأمريكية ووجهوا باشتراك إسرائيل فى فضيحة إيران - الكونترا . فهل يمكن أن يكون ما حدث بسبب تردد ليبرالى الكونجرس فى الضغط بصورة أكثر تحديدًا؛ لأن إسرائيل كانت مشاركة ؟

كان الرئيس ريجان يطالب بتجديد هجوم الكونترا على الساندينيستا، حتى قبل انتهاء أجل " تعديل بولاند " فى أكتوبر ١٩٨٦ . إن القليلين، من خارج واشنطن

الرسـمية[٦١]، كـانوا من الممكن أن يفكـروا فى نيكاراجوا - هذه الأمة الصغيرة الفقيرة، التى بزغت لتوها من تحت حذاء ديكتاتورية تحظى بالمباركة الأمريكية عام ١٩٧٩ وفق العبارات التى استعملها ريجان فى خطابه عن حالة الاتحاد فى ٤ فبراير : " إن هـذا تحـد أخلاقى كبير لكل العالم الحر . يقينًا ليس هناك موضوع أكثر أهمية للسلم فى نصف الكرة الخاص بنا، من أجل أمن حـدودنا، من أجل حماية مصالحنا الحيوية من ... نيكاراجوا " إن الهدف من التصـعيد المبالغ كان إقناع الرأى العام الأمريكى، وهذه الحرب الدموية المنهكة ضد هذا البلد الضئيل كانت، على نحو ما، من أجل الصالح الوطنى وكانت الفضيحة[٦٢]، إنه ما إن انتهى أجل: تعديل بولانـد فى ١٧ أكتوبر ١٩٨٦، حتى ارتفع الجزء المخصص فى ميزانية المخابرات الأمريكية إلى الكونترا إلى ١٠٠ مليون دولار .

لقد وحدت الكونترا عناصر من القديم والجديد . إن الحرب السرية كانت تمول، كما فى لاوس، من التجارة غير الشرعية . لقد اشتملت الحرب بالوكالة على مجموعة من الناخبين المحليين، وكان اليمين الدينى هو الأكثر أهمية . وأخيراً، فإن إدارة ريجـان تعلمت من نيكاراجـوا، كـيف تربط الأسـاليب السـرية والعلنيـة للعمل فى استراتيجية واحدة متماسكة، ومن ثم ربط الإرهاب بالسياسات الانتخابية حتى تترجم ملاحقة الإرهاب إلى نصر سياسى .

إن احتضـان المخابرات الأمريكية للإرهـاب تعرض للتصنيف خلال السنتين اللتين كان " تعديل بولاند " فعالاً خلالهما . كم كان بعد تفكير المخابرات الأمريكية[٦٣]، عن أيام فيتنام والأعـمال المضـادة للثـورة، كما اتضح فى كتابها الإرشادى التدريبى الذى نشرته عام ١٩٨٥ للكونترا تحت عنوان **العمليات السيكولوجية فى حرب العصابات** . لقد طالب الكتاب بربط سلسلة من التكتيكات، من " تحييد " للرسميين المدنيين إلى " الدعاية المسلحة " وتنصح الكتاب بالاستخدام الانتقائى للعنف، بما فى ذلك إشراك السكان فى أعمال العنف : " من الممكن تحييد أهداف منتقاة أو مخطط لها بعناية، مثل: قضاة المحاكم وسلك القضاء ومسؤلى أمن الدولة والشرطة ... إلخ.

ومن الضرورى، لأغراض سيكلوجية جمع السكان المتأثرين معًا، حتى يكونوا حاضرين للمشاركة فى العمل، وصياغة اتهامات ضد القاهر الغاشم. وبينما يدعو الكتاب للإرهاب المنتقى كوسيلة لتحقيق تآكل الثقة الشعبية فى الحكومة، فإنه يقدم النصح المعادى " للإرهاب الواضح الصريح " وإلا فإن السكان سوف يغتربون. " إن لم تستطع شرطة الحكومة إنهاء نشاطات العصابات فإن السكان سوف يفقدون الثقة فى الحكومة، التى عليها مهمة ملازمة لها، وهى ضمان سلامة المواطنين . كان على العصابات، على أى حال، أن تكون حريصة، حتى لا تصبح إرهابًا صريحًا، حيث يؤدى ذلك إلى فقدان الدعم الشعبى ". إن الحكومات والمجموعات الخاصة قد تقاسمت الهدف الأدنى نفسه، عندما وصل الأمر إلى ممارسة الإرهاب: إثارة الشك فى قدرة الحكومة الموجودة فى السلطة على ضمان أمن الشخص وممتلكات السكان الذين تدعى تمثيلهم.

إن التماثل بين رينامو فى موزمبيق – وخاصة بعد أن أصبحت جنوب أفريقيا هى الراعى الرئيسى لها عام ١٩٨٠ – والكونترا فى نيكاراجوا لافت للنظر حقًا . لقد بدأ كلاهما كحركة مضادة للثورة أوجدتها قوى أجنبية تسعى إلى وكلاء فى حرب لا تستطيع أن تتدخل فيها بصورة مباشرة، ولقد احتضن كلاهما الإرهاب كاستراتيجية ولم تراع فى الممارسة، إلا قليلاً، فكرة كسب السلطة أو الاستيلاء عليها. إن أحدًا، بما فى ذلك المخابرات الأمريكية، لم يتوقع أن تكسب الكونترا، حقًا، الحرب ضد الساندينيستا لم تكن الفكرة من هذه الحرب، من هذا الإرهاب، هى الكسب، لكنها كانت إدماء الحكومة لإظهارها عاجزة عن حماية السكان من الإرهاب، وبالتالى استنفارها للقمع والكبت، وسيلتان مختلفتان لكنهما فاعلتان لتشوية سمعة الحكومة . وقد شرح داڤيد ماك ميشيل، وهو محلل للاستخبارات الوطنية للمخابرات الأمريكية، تلك المعنية بأمريكا الوسطى منذ ١٩٨١ حتى ١٩٨٣، والذى أصبح، فيما بعد، ناقدًا لحرب الكونترا، فى شهادته أمام " المحكمة الدولية "[٦٤] فى ٨ سبتمبر ١٩٨٥، أن المخابرات الأمريكية توقعت أن تستفز غارات الكونترا، الساندينيستا، للقيام بثلاثة أنواع من العدوان : (١) أن تفرض القيود على الحريات المدنية داخل نيكاراجوا نفسها معتقلة معارضيها وكاشفة عن طبيعتها الشمولية التى يدعى أنها متأصلة فيها . ومن ثم،

زيادة الانشقاق الداخلى داخل البلد. (٢) استثمار " هجمات عبر الحدود تقوم بها قوات نيكاراجوية، وبالتالى تخدم فى إظهار الطبيعة العدوانية لنيكارجوا، مما يمكن أن يستدعى ذلك تدخل " منظمة الدول الأمريكية". (٣) استنفار رد فعل مضاد لمواطنى الولايات المتحدة، خاصة ضد موظفى الولايات المتحدة داخل نيكاراجوا . ومن ثم، يخدم فى إظهار عداء نيكاراجوا نحو الولايات المتحدة" .

إن مسألة قسوة الإرهاب، كجزء من حملة انتخابية، كان الهدف منها تحويلها إلى شكل من أشكال الابتزاز يمكن إشعاله وإطفاؤه حسب الطلب . هذه هى الطريقة التى تحولت بها الانتخابات النيكاراجوية إلى استفتاء حول الإرهاب . كانت الفكرة أن الجرعة الصحيحة من الإرهاب يمكن القيام بها بفاعلية ارتباطـًا بالحصانة، ويصبح الأمر مجرد وقت فحسب قبل أن يقتنع السكان بأن الوسيلة الوحيدة لإنهاء الإرهاب هى منح الإرهابيين هدفهم السياسى: السلطة .. وفى تلك الأثناء، فإن هؤلاء المسئولين عن إضفاء غطاء سياسى عليهم أن يواصلوا التنصل فى المسئولية السياسية، ما دام استمر الإرهاب . تمامًا مثلما وصفت صحف جنوب أفريقا وأمريكا، بطريقة روتينية، الوفيات المتصاعدة، فى جنوب أفريقيا، باعتبارها دليلاً على عنف الأسود ضد الأسود " نافين باستمرار سياقها الكلى، وهكذا بحثت الولايات المتحدة أيضًا عن " إمكانية الإنكار "، بوصف الإرهاب بأنه أمر يقوم على " حرب النيكاراجويين ضد النيكاراجويين "، إنه أمر نيكاراجوى داخلى وليست هنالك مسئولية على الولايات المتحدة فيما يتعلق به .

إن احتضان الولايات المتحدة للإرهاب يمكن رسمه كمنحنى تعليمى مرَّ عبر ثلاث مراحل متتالية، من الحرب الباردة، من جنوب أفريقيا إلى أمريكا الوسطى وآسيا الوسطى، ويمكن تحديد كل مرحلة بدرس واضح فاصل: فإن كان راعى الإرهاب فى المرحلة الافتتاحية خجولاً، أكثر شبهًا بالتسامح المعتدل المتساهل لممارسات حليف إقليمى عدوانى – أبرتهايد جنوب أفريقيا – فإن الولايات المتحدة اتجهت نحو احتضان إرهاب جرىء وقح، عندما جاءت إلى المضادين للثورة فى أمريكا الوسطى، رابطة

إياهم برعاية التجارة المحرمة للكوكايين، باعتبارها الطريقة المفضلة لتمويل عملياتها السرية . لقد كانت الولايات المتحدة، على أى حال، فى المرحلة الختامية من " الحرب الباردة "، ترى أن احتضان الإرهاب كان وسيلة لصالح الرأى العام العالمى . لقد فعلت ذلك بوسيلتين : خصخصة العمليات الرئيسية فى الحرب وتدويلها . وحيث إن كلاً من الاتجاهين كان موجوداً فى دعم الولايات المتحدة للكونترا، فإن كلاً منهما لم يزدهر حقًا إلا فى الحرب المضادة للسوفيت فى أفغانستان، والتى جرى صبغها أيديولوجيًا حتى إنه نظر إليها، بصورة أقل فأقل، على أنها تحرير وطنى وبصورة أكثر فأكثر باعتبارها حرباً صليبية دينية دولية : الجهاد .

الهوامش

(1) Ignacio Ramonet, "State-sponsored Lies", Le Monde Diplomatique, available at http://mondediplo.com/2003/07/orramonet.

(2) Charles Mechling, Jr., "Counterinsurgency: The First Ordeal by Fire," in Low-Intensity Warfare: Counter-Insurgency, Proinsurgency, and Antiterrorism in the Eighties, ed. Michael T. Klare and Peter Kornbluh (New York: Pantheon, 1988), pp. 41-45.

(3) Alfred W.McCoy, " 'Fallout': The Interplay of CIA Cover Warfare and the Global Narcotics Traffic.

ورقة مقدمة إلى مؤتمر الحرب الأهلية والحرب الباردة، ١٩٧٥ – ١٩٩٠ . تحليل مقارن لأفريقيا الجنوبية، وأمريكا الوسطى، وآسيا الوسطى. (معهد الدراسات الأفريقية، جامعة كولومبيا، بنيويورك، إن واي، ١٤– ١٥ نوفبمر ٢٠٠٢، آلة نسخ)، ص ص ٢–٣ .

(5) 'The Opium War" The Compilation Group of the History of Modern China Series (Peking: Foreign Language Press, 1976).

(٥) المادة حول نمو تجارة الأفيون والهيروين في المثلث الذهبي لجنوب شرق آسيا، والقائمة على،

Alfred W. McCoy, "The Politics of Heroin: CIA Complicity in the Global Drug Trade" (New York: Lawrence Hill Books, 1991), pp. 18-19, 162-63, 222-23, 290-91, 349,276-77.

(6) Alexander Cockburn and Jeffrey st. Clair, "Whiteout: The CIA, Drugs, and the Press" (London: Verso, 1998), pp. 245, 247.

(7) Georges Nzongola - Ntalaja, The Congo: From Leopold to Kabila: A People's History" (London: Zed Books, 2002), pp. 106-12.

(8) Piero Gleijeses, "Conflicting Missions: Havana, Washington, and Africa, 1959-1976" (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002), pp. 61-66.

(9) Ibid., pp. 69-70; on the Simba rebellion, see Nzongola-Ntalaja, "The Congo," pp. 131-35.

(10) Gleijeses, "Conflicting Missions," pp. 70-71, 73-75, 97, 126-28, 386.

(11) Ibid., pp. 72-73, 129-32.

(12) Ibid., pp. 157-58.

(13) Ibid., pp. 330 - 46.

(14) Ibid., p. 354.

(15) Lucas Khamisi, "Imperialism Today" (Dar-es-Salaam: Tanzania Publishing, 1981), pp.167-68.

(16) Michael T. Klare and Peter Kornbluh, "The New Interventionism: Low-Intensity Warfare in the 1980s and Beyond", in Klare and Kornbluh, "Low-Intensity Warfare," p. 13.

(17) Senate Resolutin 152, introduced on December 15, 1975.

(18) K.C. Johnson, "The Clark Amendment," Department of History, City University of New York, available at http://academic.brooklyn.cuny.edu/history/johnson/clark.htm.

(19) Ibid.

(20) Mohamed Heikal, "Iran: The Untold Story" (New York: Pantheon, 1982), pp. 122-16.

(21) Ibid., p. 116.

(22) Gleijeses, "Conflicting Missions," p. 392.

(٢٣) لم يكن كيسنجر بالطبع، هو الوحيد السعيد بهذه الترتيبات: "كان أيضًا واعيًا بوجود التحالف الجديد، وسعيدًا بضرورة وجوده، دافيد روكفلر وبنك شيس مانهاتن باستثماراته الأفريقية الثقيلة". انظر هيكل، إيران ص ١٢٢-، ١٣.

(٢٤) رينامو هى اختصار لكلمات، مقاومة موزمبيق الوطنية، وهى مجموعة سرية مسلحة أنشأها ضباط روديسيا البيضاء للإطاحة بحكومة موزمبيق المستقلة حديثًا.

(٢٥) لجنة الحقيقة والمصالحة بجنوب أفريقيا. تقرير.

"Report" (Cape Town: CTP Book Printers, 1998), vol. 2, para. 120, pp. 28-29.

(٢٦) حول أنجولا وموزمبيق. انظر:

William Minter, "Apartheid's Contras: An Inquiry into the Roots of War in Angola and Mozambique" (Atlantic Highlands, N.J.: Zed Books, 1994), pp. 2-5, 142-49, 152-68; Alex Vines, "RENAMO: Terrorism in Mozambique" (Bloomington: Indiana University Press, 1991), pp. 24, 39; Victoria Brittain, "Death of Dignity: Angola's Civil War" (London: Pluto Press, 1998), p. 65.

(27) Thomas Bodenheimer and Robert Gould, "Rollback: Right-Wing Power in U.S. Foreign Policy" (Boston: South End Press, 1989), available at htt://www.thirdworldtraveler.com/Ronald_Reagan/ReaganDoctrine_TWRollback.html, October 3, 2002, p.7.

(28) Quoted in Minter, "Apartheid's Contras," p. 152.

(29) Ibid., pp. 4-5.

(30) Ibid., p. 149.

(31) Karen Rothmyer, "The South Africa Lobby," "The Nation," April 19, 1980, pp. 455-58.

(32) Sara Diamond, "Roads to Dominion: Right-Wing Movement and Political Power in the United States" (New York: Guilford Press, 1995), pp. 222-23.

(33) Vines, " RENAMO," p. 24.

(34) Gleijeses, "Conflicting Missions," p. 274.

(35) Truth and Reconciliation Commission, "Report."

(36) John D. Waghelstein, "Post-Vietnam Counterinsurgency Doctrine," Military Review, May 1985, p. 46, quoted in Klare and Kornbluh, "The New Interventionism," in Klare and Kornbluh, "Low-Intensity Warfare," p.5.

(37) Bodenheimer and Gould, "Rollback," pp. 1-2.

(38) Cited in Klare and Kornbluh, " New Interventionism," in "Low-Intensity Warfare," pp. 6,9.

(39) Bodenheimer and Gould, Rollback, pp. 8-9.

(40) Cited in Klare and Kornbluh, "New interventionism," in Low-Intensity Warfare, pp. 4-5.

(41) Cited in Michael T. Klare, "The Interventionist Impulse: U.S. Military Doctrine for Low-Intensity Warfare," in Klare and Kornbluh, "Low-Intensity Warfare," p.63.

(42) Ronald Reagan, "Statement on Signing the International Security and Development Cooperation Act of 1985," available at htt://www.reagan.utexas.edu/resource/speeches/1985/8o885d.htm.

(43) Oliver North, Neil Livingstone, J. Michael Kelly, and Senator Rudman, cited in Klare and Kornbluh, "New Interventionism," in "Low-Intensity Warfare," pp. 14-16,19.

(44) Bodenheimer and Gould, "Rollback," p.6.

(45) Defense Intelligence Agency, weekly intelligence summary, July 16, 1982, p. 21; Clarridge's testimony is in The Miami Herald, October 20, 1984; Americas Watch, "Human Rights in Nicaragua: Reagan, Rhetoric and Reality," July 1985, p.16; David siegel, M.D., "Nicaraguan Health: An Update," LASA Forum, winter 1986, p. 30. All quotes cited in Peter Kornbluh, "Nicaragua: U.S. Proinsurgency Warfare Against the Sandinistas," in "Low-Intensity Warfare," pp. 140-41,142.

(46) Bodenheimer and Gould, "Rollback," p. 7.

(47) This information is from Kornbluh, "Nicaragua," in "Low-Intensity Warfare," pp. 142-46.

(48) Public Law 98-215 (H.R. 2968), December 9, 1983, Intelligence Authorization Act for Fiscal Year 1984.

(49) Cockburn and St. Clair, "Whiteout," P.9.

(50) McCoy, "Politics of Heroin," p. 24. All other information on this here and below is from pp. 478-84.

(51) Cockburn and St. Clair, "Whiteout," p. 14.

(٥٢) يقدم الفريد مك كوى أمثلة عديدة عن هذه العلاقة عبر سجل الحرب الباردة: ومن ثم، "عندما احتاجت المخابرات الأمريكية فرقة من القتلة المأجورين لتحطيم الإضراب الشيوعي في رصيف ميناء مرسيليا عام ١٩٥٠، اتجهت إلى ذلك الوسط في مدينة كورسيكية". وعندما أرادت اغتيال فيل كاسترو في الستينيات تعاقدت مع جمعيات المافيا الأمريكية الذين لم يكونوا بقادرين على القتل طبقًا للتعاقد فقط، لكنهم كانوا يضمنون السرية والخصوصية أيضًا - وذلك بشيء لا تستطيع أن تقوم به أية وكالة رسمية للولايات المتحدة غير المخابرات الأمريكية". وقد تحالفت المخابرات الأمريكية، في جبال أسيا "مع تجارالهيروين في لاوس" و "المتعاملين الصينيين في الأفيون في بورما". انظر:

McCoy, "Politics of Heroin," p. 15.

(53) Peter Kornbluh's "Crack, the Contras and the CIA: The Storm over 'Dark Alliance,' " available at htt://www.gwu.edu/~nsarchiv/BSAEBB/NSAEBB2/storm.htm.

(54) Diamond, "Roads to Dominion," pp. 214-15, 221,228, 237-38.

(55) Ibid., pp. 238-39, 243.

(56) Jane Hunter, "Israeli Foreign Policy: South Africa and Central America" (Boston: South End Press, 1987); Time, March 28, 1983; SIPRI Yearbook, 1980, p. 96; all cited in Jonathan Marshall, Peter Dale Scott, and Jane Hunter, "The Iran-Contra Connection: Secret Teams and Covert Operations in the Reagan Era" (Boston: South End Press, 1987), pp. 89-90.

(57) Washington Post, December 16, 1984, and June 16, 1984; "The Middle East," September 1981; "NACLA Report," May/June 1983; "Time," May 7, 1984; Benjamia Beit - Hallahmi, "U.S. - Israeli-Central American Connection", The Link, vol. xviii, November 1985; all cited in Marshall et al., "The Iran-Contra Connection," p. 14.

(58) The Washington Post, September 15; 1984; "U.S. News & World Report," December 15, 1986; "New York Times," March 8, 1982, and November 23, 1986; "Aerospace Daily," Auust 18, 1982; "Newseek," December 8, 1986; all cited in Marshall et al., "The Iran-Contra Connection," pp. 173-74.

(59) "New York Times," November 26, 1986; "Ha'aretz," November 18, 1986; all cited in Marshall et al., "The Iran-Contra Connection," pp. 114, 121, 168, 174, 183.

(60) "The Sunday Telegraph" (London), March 5, 1989; quoted in "Israeli Foreign Affairs," April 1989, p. 5; cited in Jonathan Marshall, "Israel, the Contras and the North Trial," "Middle East Report," September/October 1989.

(61) Kornbluh; "Nicaragua," pp.136, 137, 140.

(62) Cockburn and St. Clair, "Whiteout," p.9.

(٦٣) تُرجم الكتاب الإرشادى ونشر.

Tayacan, "Psychological Operations in Guerrilla Warfare" (New York: Vintage, 1985); for citations, see Kornbluh, "Nicaragua," pp. 140-42.

(٦٤) دافيد ماك ميشيل، شهادة أمام المحكمة الدولية، ٨ سبتمبر١٩٨٥، ص ٨ من النسخة المكتوبة، ذكر فى كورن بلوه "نيكاراجوا"، ص ١٣٨ .

الفصل الثالث

أفغانستان : ذروة الحرب الباردة

شد المفكر السياسى والناشط الباكستانى إقبال أحمد انتباهنا إلى صورة أمريكية تلفازية، عام ١٩٨٥، فى مقال كتبه فى " الفجر " يقدم الرئيس رونالد ريجان، إلى وسائل الإعلام، فى حديقة للبيت الأبيض، وهو يقدم متباهيًا مجموعة من الرجال الأفغان، كلهم من قادة المجاهدين : " هؤلاء السادة[1] هم النظراء الأخلاقيون للآباء المؤسسين لأمريكا " . هذه هى اللحظة التى حاولت أمريكا تقديم صورة قصوى للإسلام السياسى فى النضال ضد الاتحاد السوفيتى .

وقد شهد نصف العقد الذى تلا هزيمة فيتنام نكسات أخرى فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة، وقد تجسد هذا الوضع دراميًا عام ١٩٧٩، عندما اجتاحت الثورة الشعبية ديكتاتوريتين تدعمهما الولايات المتحدة، واحدة فى نيكاراجوا والأخرى فى إيران . وغزا الاتحاد السوفيتى أفغانستان، فى نهاية العام نفسه. من الذى كان فى وسعه التنبؤ بأن الاتحاد السوفيتى سوف ينهار، فيما بعد ذلك بعقد فقط، تاركًا الولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة المنتصرة ؟ وإن كان الحادى عشر من سبتمبر قد قطع الاحتفال بذلك النصر، فإنه قد طرح أيضًا السؤال : ما الثمن الذى كُسبت به الحرب الباردة ؟ إن إجابة هذا السؤال تقتضى التركيز على رئاسة ريجان؛ لأن رونالد ريجان كان هو الذى ادعى أن هزيمة الديكتاتوريات التى كانت تدعمها الولايات المتحدة، فى العالم الثالث، كانت دليلاً على أن الاتحاد السوفيتى " يتمدد " . وكان ريجان هو الذى طالب بوضع كل الموارد المحلية من أجل " تراجع " الاتحاد السوفيتى " بكل الوسائل الضرورية "، وكانت أفغانستان، أكثر من أى موقع آخر، هى ذروة الحرب الباردة .

إن حرب الأفغان قد جعلت العملية المضادة للثورة فى نيكاراجوا، عند المقارنة، عملية باهتة شاحبة فى كل من قدر الموارد التى حُشدت وخطورة الآثار التى نتجت .

كان هنالك ١٠٠,٠٠٠ من القوات البرية فى أفغانستان فى ذروة الحرب، ولقد أهدت أفغانستان الولايات المتحدة فرصة تقديمها للاتحاد السوفيتى، فيتنامه الخاصة به . وقد صاغ ريجان هذا فى هدف استراتيجى، ومن ثم، التقدم إلى حرب الأفغان عبر منظور كونى أكثر منه منظور إقليمى . وعندما امتدت حرب الأفغان عبر العقد القريب فى رئاسة ريجان، تحولت إلى نزاع إقليمى هو الأشد دموية فى العالم، وتحولت أيضًا هذه العملية، وهى أكبر عملية على النمط العسكرى للمخابرات الأمريكية، بعد حرب ڤيتنام، إلى أطول حرب فى تاريخ السوفيت .

كان لثورات ١٩٧٩ أثر عميق على مجرى حرب الأفغان. إذ أدت الثورة الإيرانية إلى إعادة بناء العلاقات بين الولايات المتحدة والإسلام السياسى، وكانت أمريكا ترى العالم، قبل ذلك، فى عبارات أقرب إلى البساطة: الاتحاد السوفيتى ومعه القوى الوطنية المقاتلة فى العالم الثالث، تلك القوى التى تنظر إليها أمريكا باعتبارها أداة فى يد السوفيت، فى جانب، وعلى الجانب الآخر الإسلام السياسى الذى تعتبره الولايات المتحدة حليفًا غير مؤهل فى النضال ضد الاتحاد السوفيتى، ولذا دعمت[٢] الولايات المتحدة " شركات الإسلام " ضد سوكارنو فى أندونيسيا، و " جمعية الإسلام " ضد ذو الفقار على بوتو فى باكستان و " جمعية الإخوان المسلمين " ضد ناصر فى مصر . إن توقع تقديم الإسلام السياسى حاجزًا محليًا ضد الوطنية العلمانية، كان أيضًا موقفًا شارك فيه، بصورة واسعة، حلفاء الولايات المتحدة داخل المنطقة، من إسرائيل إلى الأنظمة العربية المحافظة . لقد داعب الأمل إسرائيل حتى أثبتت الأحداث مجازفة هذا المشروع، داعبها الأمل فى تشجيع حركة إسلام سياسى فى الأراضى المحتلة، ودفعها لتلعب دورًا معاديًا للوطنية العلمانية لمنظمة التحرير الفلسطينية (بى إل أو) . وقد سمحت[٣] الاستخبارات الإسرائيلية لحماس بالعمل دون عوائق، خلال الانتفاضة الأولى، تاركة إياها تفتح جامعة وحسابات مصرفية،

بل حتى احتمال مساعدتها بالأموال. لتفاجأ إسرائيل بحماس كقوة منظمة للانتفاضة الثانية . وفى مصر بدا السادات كمحرر للإسلام السياسى، بعد وفاة عبد الناصر . لقد أفرج السادات، ما بين عامي ١٩٧١، ١٩٧٥[٤]، عن الإسلاميين الذين كانوا لا يزالون فى السجون، وأعطاهم، أولاً، حرية نشر وجهات نظرهم، وفيما بعد، حرية التنظيم . إننى أذكر هذه الحالات، لا لألطخ أو أفضح المنظمات ذات الشأن؛ لأنها كانت مدفوعة من الاستخبارات الأمريكية أو الإسرائيلية، ولكن لأوضح كيف أن نتائج المعلومات المضللة والتى هى محل شك، عن غير قصد، والأفعال الانتهازية يمكن أن ترتد على مرتكبيها .

إن أثر الثورة الإيرانية قد وضعت القصة المهينة لرهائن السفارة الأمريكية فى قالب درامى، ولقد حدث احتلال الطلبة الأول للسفارة، بعد فترة قصيرة من عودة الخومينى إلى إيران فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ . غير أن الخومينى ورئيس الوزراء مهدى بازرجان، تحركا سريعًا لطرد المحتلين . وتغيرت الأمور جذريًا بعد ثمانية شهور : عندما رحبت حكومة الولايات المتحدة بالشاه المخلوع فى نيويورك، للعلاج الطبى . كان رد فعل الخومينى هو نقد الولايات المتحدة باعتبارها " الشيطان الكبير " وهاجم بشدة، خلال أقل من شهر، ثلاثة آلاف طالب السفارة الأمريكية فى طهران، وأخذوا تسعين رهينة، وكان رد فعل الخومينى والحكومة، هذه المرة، مختلفًا، فبعد الإفراج عن النساء وحرس المارين السود، ظل الاثنان والخمسون دبلوماسيًا أمريكيًا رهائن مدة ٤٤٤ يومًا .

أدخلت الثورة الإيرانية تطورًا سياسيًا جديدًا على المشهد العالمى . هنا كان يوجد نظام إسلامى، لم يكن إسلاميًا ومعاديًا للشيوعية فقط، لكنه كان فى الوقت نفسه وطنيًا متحمسا، ومصرًا على التصرف بصورة مستقلة عن التأثيرات الأجنبية، وخاصة الولايات المتحدة . وكلما غدا ذلك الوضع أكثر وضوحًا، وسعت أمريكا الرسمية، بصورة أكثر من بحثها عن أصدقاء فى الجوار . وسرعان ما جندت الولايات المتحدة نظمًا علمانية، لكنها وحشية، مثل نظام صدام حسين فى العراق، كحليف

لأمريكا . وبينما كان الاحتلال الثانى للسفارة جارياً، غزت قوات صدام حسين جنوب غرب إيران فى ٢٠ سبتمبر ١٩٨٠ بتشجيع معلن من الولايات المتحدة، ورأت الحرب العراقية ضد إيران أول استخدام للأسلحة الكيميائية فى الحرب بعد فيتنام، وكانت أمريكا هى مصدر كل من الأسلحة والتدريب اللازم على استخدامها .

لقد علّمت الثورة الإيرانية الولايات المتحدة التمييز بين وجهين للإسلام السياسى: الثورى والنخبوى، ورأى الجانب الثورى أن تنظيم الحركات الاجتماعية الإسلامية ومشاركة الكتل الجماهيرية أمر حاسم لإقامة دولة إسلامية مستقلة . وعلى نقيض ذلك، فإن الجانب النخبوى لم يكن يثق فى المشاركة الشعبية . كان مفهومه للدولة الإسلامية هو مفهوم احتواء المشاركة الشعبية لا تشجيعها، وقبل أن تعقّد الثورة الإيرانية الصورة بزيادة حدة الفروق بين تلك الجوانب فى إيران، كانت الولايات المتحدة تعمل بمعادلة بسيطة، معادلة حددت الوجه الثورى للإسلام السياسى بإيران وطائفة الشيعة فى الإسلام، والوجه النخبوى بغالبية الأنظمة السنية الموالية لأمريكا مثل العربية السعودية وباكستان .

وكانت ثورة نيكاراجوا مصدراً لنوع آخر من الدروس: كيف تنظم حرباً مضادة للثورة وتسعى إليها بأساليب علنية وسرية . إن هذه المحاولة الأولى المهمة لتحقيق تراجع حكومة وطنية متعاطفة مع السوفيت، فى العالم الثالث، علمت إدارة ريجان كيف تسخر دعماً من اتجاهات مختلفة نحو هدف واحد . كان هنالك درسان مفيدان بشكل خاص من خبرة الكونترا: كان الاتجاه الأول اتجاهاً مواتياً، نحو تجارة المخدرات باعتبارها مصدراً للنقود للقيام بحرب سرية، وكان الثانى هو الحاجة لإشراك كل الجوار - رعاة اليمين المسيحى، شبكة المجموعات السياسية المحافظة العلمانية، مؤسسات المرتزقة شبه العسكرية - فى المجهود الحربى .

بدأت المعونة السرية الأمريكية لمعارضى النظام المتعاطف مع السوفيت فى كابول، قبل غزو الجيش السوفيتى لأفغانستان . إن وثائق المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية الأمريكية[٥]، والتى عُثر عليها وقت الاستيلاء على السفارة فى طهران قد كشفت

أن الـولايات المتحـدة كـانت قـد بدأت مقابلة ممثلى الأفغان المتمردين، فـى هدوء، فى باكستان، فى أبريل ١٩٧٩، ثمانية شـهور قبل التدخل السوفيتى العسكرى . إن هذا ما أكده(٦) زبيجنيو بـرزيزينسكى، مسـتشـار الرئيس كارتر للأمن القومى، فى لقـاء حـدث أخيـراً مع " لونوفـيل أوبزرفـاتور " التى مـقرها باريس (فى ١٥ - ٢١ يناير، ١٩٩٨) .

س : قد ذكر المدير السابق للمخابرات الأمريكية، روبرت جيتس، فى مذكراته [من الظلال] أن الاستخبارات الأمريكية بدأت مساعدة المجاهدين فى أفغانستان قبل ستة شهور من الغزو السوفيتى، وكنت أنت فى هذه الفترة مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر، ومن ثم، فقد لعبت دوراً فى هذه المسألة . هل هذا صحيح ؟

برزيزينسكى : نعم . وطبقًا للصورة الرسمية للتاريخ، بدأت المخابرات الأمريكية مساعدتها للمجاهدين خلال عام ١٩٨٠، أى يمكن القول، بعد أن غزا الجيش السوفيتى أفغانستان فى ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩، لكن الحقيقة، والتى تم الحفاظ عليها سرّاً حتى الآن، فهى على خلاف ذلك كلية . حقًا، وقع الرئيس فى ٣ يوليو ١٩٧٩، الأمر بالمعونة السرية لمعارضى النظام المتعاطف مع السوفيت فى كابول، وفى هذا اليوم تحديداً، كتبت مذكرة إلى الرئيس شرحت له فيها أننى أرى أن هذه المعونة سوف تحمل السوفيت على التدخل العسكرى .

إن الانتقال من رئاسة كارتر إلى رئاسة ريجان قد أثار أيضًا التحول فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة من الاحتواء إلى الانحسار، ولقد فضلت إدارة كارتر، فى أفغانستان، كما فى نيكاراجوا، مدخلاً ثنائى المسار، الجزرة والعصا معًا، تأييد مستويات متوسطة ودعم سرى للحلفاء المعادين للشيوعية، سواء كانت حكومة أو مجموعات، جنبًا إلى جنب مع تسويات تفاوضية . إن الاحتواء بهذا المعنى كان يسترشد بالسعى إلى التعايش السلمى، وعلى نقيض ذلك لم تكن لدى إدارة ريجان أى اهتمام بالوصول إلى تسويات تفاوضية، ولم تكن النظرة الأخرى، فى سياسة ريجان، هى التعايش السلمى لكنها كانت سياسة السداد : يجب القيام

بكل شيء لتحويل الحرب الأفغانية إلى ڤيتنام للاتحاد السوفيتي . كان الهدف الوحيد هو إدماء الاتحاد السوفيتي حتى النهاية، وكانت المخابرات الأمريكية مصرة[٧] على ألا يقف شيء في طريق " المهمة الحقيقية " في أفغانستان: " قتل الروس " . وكان من بين الأكثر نفوذاً[٨] في واشنطن ممن " يقومون بالإدماء " مساعد وزير الدفاع ريتشارد بيرل، وهو الذى سيجيء ثانية، فيما بعد، كصقر بارز لفريق جورج دبليو بوش بعد الحادى عشر من سبتمبر .

. إن كانت إدارة ريجان قد سبقت وأعدت مجموعات من المتشددين المعارضين أيديولوجيًا للاتحاد السوفيتى، ولم تبالِ بتسوية وسطية الحلول، فإن حكومات باكستان المتتالية لم تكن تثق بصورة فرضية فى الوطنية الأفغانية . وقد بدا ذلك واضحًا عندما خلع ملك الأفغان زهير شاه فى انقلاب أبيض قاده ابن عمه ورئيس الوزراء السابق محمد داود فى يوليو عام ١٩٧٣ . وقد شكل محمد داود حلفًا جمهوريًا فى قطاعات من العسكريين، وجناح من الحزب الشيوعى يدعى برشام (الراية) على اسم جريدته . وأخذت الحكومة الوطنية الجديدة على عاتقها قضية الباشتونستان الشعبية التى طلبت موطنًا لشعب الباشتون. لم يكن، فقط، نصف سكان أفغانستان من أصل باشتونى تقريبًا، بل كان هنالك أيضًا ملايين من الباشتون يعيشون فى " إقليم الحدود الغربية لباكستان " (إن دبليو إف بى)، على الجانب الآخر من حدود مصطنعة رسمها البريطانيون على قمة إمبراطوريتهم الكولونيالية فى الهند. وخوفًا من الوطنية الأفغانية كانت حكومات باكستان منفتحة على دعم القوى المعادية للوطنية فى أفغانستان، ولم يكن ضياء الحق استثناءً فى ذلك . إن المعارضة الإيديولوچية للوطنية، بما فى ذلك نمط " داود " السلطوية، جاءت أساسًا من الشيوعيين والإسلاميين، ومعظمهم من الطلبة والأساتذة الذين كانت لهم نظرة دولية قوية. وأدت المعارضة المتزايدة لحكم داود إلى انقلاب عسكرى آخر عُرف باسم " ثورة الساور "، والتى جاءت بقسمى الحزب الشيوعى، برشام وخلق (واسمه أيضًا منسوب إلى صحيفته) إلى الحكومة . وبهذه الثورة فى ١٧ أبريل ١٩٧٨، أصبحت " الدولية "

الشيوعية محترمة رسميًا . وصُنفت " الدولية " الإسلامية باعتبارها هدامة . وهرب المعتدلون والمتطرفون الإسلاميون فى جامعة كابول للجوء إلى باكستان حيث تم الترحيب بهم .

وقد أوجد انقلاب ١٩٧٨الشيوعى، أيضًا، تحولاً حاسمًا فى علاقات الولايات المتحدة بباكستان . كانت إدارة كارتر قد قطعت المعونة عن باكستان عام ١٩٧٧، كرد فعل لكل من سجلها الرهيب الداخلى فى مجال حقوق الإنسان - وقد صبغه القتل بصورة درامية، نتيجة حكم قضائى، طبقه الجيش، على رئيس وزراء منتخب، هو ذو الفقار على بوتو - فضلا عن الملابسات الكونية لبرنامجها النووى المتسارع . لقد غيرَّ الانقلاب والغزو السوفيتى[٩] لأفغانستان كل ذلك الوضع : " لقد قام كارتر، بعد أيام فقط من الغزو السوفيتى، بالاتصال بضياء، مقدمًا له مئات الملايين من الدولارات، فى صورة معونة اقتصادية وعسكرية، مقابل التعاون لمساعدة المتمردين، وسعى ضياء وراء المزيد. وظلت شراكة كارتر - ضياء فاترة تفتقد الحماس. لكن الدفء الحقيقى جاء مع إدارة ريجان، التى قدمت لباكستان " صفقة، معونة اقتصادية عسكرية مدتها ست سنوات، رفعت باكستان إلى ثالث أكبر متلقى للمعونة الخارجية للولايات المتحدة "، بعد إسرائيل ومصر .

كان هنالك تعادل متواصل، خلال رئاسة ريجان، بين المخابرات الأمريكية والاستخبارات الداخلية الباكستانية (المخابرات الباكستانية) . ولم يكن لدى أى من الطرفين اهتمام كبير بتسوية تفاوضية . وقد تشاركت وكالتا الاستخبارات هدفًا مزدوجًا: عسكريًا لتقديم أقصى قوة نيران إلى المجاهدين، وسياسيًا لتجنيد الإسلاميين الأكثر راديكالية، المعادين للشيوعية ليقفوا ضد القوات السوفيتية . وكانت النتيجة المشتركة هى إغراق المنطقة، ليس فقط بكل أنواع الأسلحة، ولكن أيضًا بأشد الإسلاميين الراديكاليين الذى تم تجنيدهم " وقد عهدا إلى المخابرات الباكستانية بإدارة[١٠] معسكرات التدريب فى باكستان، حيث كانوا " محملين أيديولوجيًا بشرارة الحرب المقدسة، ومدربين على تكتيكات العصابات، والتخريب، وإلقاء القنابل " . لقد جاء الإسلاميون المجندون من كل أنحاء الأرض، ليس فقط من البلدان التى تتشكل

غالبيتها من المسلمين مثل: الجزائر والمملكة العربية السعودية ومصر وإندونيسيا، ولكن أيضًا من البلدان التى توجد بها أقليات إسلامية، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا . وهنالك المثل المعروف(١١) عن الشيخ عبد الله عزام، الذى كتب عنه لورانس رايت، فى "ذى نيويوركر"، فى منتصف الثمانينيات، أنه " حارس بوابة الجهاد . وعالم دين فلسطينى يحمل درجة الدكتوراه فى القانون الإسلامى من جامعة الأزهر" .

وقد قام الشيخ عزام " بالتدريس فى جامعة الملك عبد العزيز، بجدة حيث كان أسامة بن لادن أحد تلامذته " . وسافر عزام، عبر العالم تحت رعاية المخابرات الأمريكية وقد ظهر فى التلفاز السعودى، وسباقات السيارات فى الولايات المتحدة . إنه أحد موجودات المخابرات الأمريكية(١٢)، الذى بدأ باعتباره تجسيداً للمحارب المقدس، "جال طول الولايات المتحدة وعرضها فى أوائل ووسط الثمانينيات وهو يجند للحرب المقدسة، رغم أنها فى أفغانستان فقط . وكان عزام أيضًا واحداً من مؤسسى حماس . كانت رسالة عزام واضحة : الاشتراك فى الجهاد، ليس فقط فريضة سياسية، لكنه واجب دينى . إن قضية الجهاد، ليست فقط قتل العدو الروسى، لكنها أيضـًا " دعوة للاستشهاد " . وفى عام ١٩٨٨، فى فيديو للتجنيد، قام رايت بفحصه، يقول عزام : وصلت أفغانستان، ولم أستطع تصديق عينى. لقد سافرت لأتعرف على أناس لسنوات مع الجهاد ... كنا نحاول إشباع ظمئنا للاستشهاد. إننا مازلنا نحب هذا ". كانت معادلة عزام للحرب المقدسة بسيطة : " الجهاد والبندقية فقط، لا مفاوضات، لا مؤتمرات ولا حوارات " . لقد كان ذلك صدى دقيقًا للهدف المشترك للمخابرات الأمريكية والآى إس آى .

إن العالم الإسلامى لم ير جهاداً مسلحًا منذ حوالى قرن. غير أن "المخابرات الأمريكية" كانت عازمة الآن على خلق إحدى حالاته فى خدمة هدف سياسى معاصر . إن تقليد الجهاد مثير، بالطبع، للنزاع. فمن الناحية العقائدية الجهاد "كحرب عادلة" ، يمكن إدراجه ضمن " الجهاد الأصغر "، وليس ضمن الجهاد الأكبر . إن تقليد " الجهاد الأصغر " نفسه، يتضمن، تاريخيًا، مفهومين مختلفين، ومتنازعين؛ الأول هو الحرب العادلة ضد المحتلين، سواء كانوا غير مؤمنين أو مؤمنين . كانت هنالك حروب أربعة، من

مثل تلك الحروب العادلة : جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، فى القرن الحادى عشر، وجهاد الصوفية ضد الأرستقراطيات التى قامت بالاستعباد فى غرب أفريقيا فى القرن السابع عشر، والجهاد الوهابى ضد الكولونياليين العثمانيين فى شبه الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر، ونضال المهدى المعادى للكولونيالية ضد الاتحاد التركى - المصرى والسلطة البريطانية فى أواخر القرن التاسع عشر فى السودان . كان الأول ضد المحتلين غير المؤمنين، وكان الثانى ضد مؤمنين قاهرين، وكان الثالث ضد محتلين مؤمنين، وكان الرابع ضد اتحاد من المؤمنين وغير المؤمنين . وكان التقليد النزاعى الثانى هو الذى بين جهاد دائم ضد اتجاهات عقائدية فى الإسلام، تعتبر رسميًا اتجاهات تقوم على " الهرطقة "، وهو تقليد قليل العمق تاريخيًا فى الإسلام . وقد ارتبط بذبح السكان الشيعة فى إيران والعراق، والتى قام بها انشقاق " إخوانى " عن الحركة الوهابية فى القرن الثامن عشر - يجب ألا يحدث خلط مع الإخوان المصريين أخيراً (جمعية الإخوان المسلمين) - وهذا التقليد يعد أكثر تماثلاً مع محكمة التفتيش فى المسيحية، من أية ممارسة تاريخية أخرى للجهاد فى الإسلام . إن مفهوم الجهاد الدائم - كمؤسسة للدولة دفاعًا عن مصالح الدولة - يجرى تحديده بصورة أقل مع الإسلام التاريخى عن تحديده مع التاريخ الحديث لآل سعود، والمملكة العربية السعودية . إن ارتباط هذا الجهاد تحديداً مع ممارسات طائفية متضمنة فى تاريخ قيام دولة ذات علاقة وثيقة بأمريكا الرسمية على هذا النحو الخاص هو الذى أغرى مخططى المخابرات الأمريكية بالموقف الجهادى المسلح .

هذا هو الوضع الذى نظمت فيه الولايات المتحدة الجهاد الأفغانى، والذى كشف عن هدفه الرئيسى: توحيد مليار مسلم على امتداد العالم فى حرب مقدسة، حرب صليبية، ضد الاتحاد السوفيتى، على تراب أفغانستان . إن مفهوم الحرب الصليبية أكثر من مفهوم الجهاد، يعرض بصورة أفضل الإطار العقلى الذى اتخذت فيه هذه المبادرة . وكان الهدف الثانوى هو تحويل خلاف بين طائفتين إسلاميتين - الأقلية الشيعية والأغلبية السنية - إلى انقسام سياسى، ومن ثم احتواء تأثير الثورة الإيرانية باعتباره شأنًا شيعيًا . إن الجهاد الأفغانى كان فى الحقيقة جهاداً أمريكيًا، غير أنه لم

يصبح شاملاً، إلا فى المدة الثانية فقط من رئاسة ريجان، وقد وقع ريجان[١٣] فى مارس ١٩٨٥ القرار التوجيهى للأمن القومى ١٦٦، والذى يفوض بـ " زيادة المعونة العسكرية السرية للمجاهدين، وأوضح أن الحرب الأفغانية السرية لها هدف جديد: هزيمة القوات السوفيتية فى أفغانستان عبر عمل سرى وتشجيع انسحاب سوفيتى " .

وقد اضطلع وليم كاسى رئيس المخابرات الأمريكية، والذى اتخذ ثلاثة إجراءات مهمة عام ١٩٨٦، بإعادة تحديد أبعاد الحرب[١٤]. وكان الإجراء الأول هو إقناع الكونجرس بالتدخل الأمريكى، ومد المجاهدين بمستشارين أمريكيين، وصواريخ ستينجر المضادة للطائرات أمريكية الصنع. وكان الثانى هو لطاجيكستان وأوزبكستان . وهو إجراء تم نقضه عندما هدد الاتحاد السوفيتى بمهاجمة باكستان انتقامًا لذلك . وكان الثالث هو زيادة تجنيد الإسلاميين الراديكاليين من أنحاء العالم؛ كى يتدربوا فى باكستان ويقاتلوا جنبًا إلى جنب مع المجاهدين .

وقد كثف القراران الثانى والثالث الصفة الأيديولوجية للحرب، كحرب دينية ضد الكفار فى كل مكان. كانت أفغانستان معركة أيديولوجية وإسلامية، أكثر مما كانت عليه نيكاراجو، وبمعان ثلاثة : استهدف حشد الحرب رأيًا عامًا إسلاميًا على اتساع العالم من جميع الوجوه : مالية ومادية وإنسانية . ثانيًا : كان الحشد يجرى، قدر المستطاع، عبر مؤسسات إسلامية تتراوح من البنوك والأعمال الخيرية، إلى المساجد والمنظمات البرتستانتية، ثالثًا كان لابد للحرب أن تتسع (نظريًا على الأقل) إلى آسيا السوفيتية . الجزء من الاتحاد السوفيتى الذى يوجد به سكان مسلمون تاريخيًا .

كيف حدث أن الجناح اليمينى الإسلامى، وهو اتجاه أيديولوجى، قليل العدد ومبعثر، قبل الحرب الأفغانية، استطاع أن يحتل المسرح الأساسى الكونى بعد الحادى عشر من سبتمبر؟ إن الإجابة تكمن فى جهاد الأفغان، الذى لم يقدم فقط لهذا الجناح التنظيم والإعداد والمهارات وبلوغ الغاية والثقة، لكنه قدم أيضًا هدفًا متماسكًا. كان الجناح اليمينى للإسلام السياسى، قبل جهاد الأفغان، منقسمًا إلى معسكرين: هؤلاء

المعدودون مع الأنظمة الموالية لأمريكا كما فى المملكة العربية السعودية وباكستان، وهؤلاء الذين يعارضون تلك الأنظمة نفسها، وينظرون إليها باعتبارها أذنابًا أمريكية خانت القضية الفلسطينية . وخلافًا لمسلمى الجناح اليمينى، من الإسلاميين الذين نظموا أحزابًا سياسية، وسعوا إلى تحفيز العديد من الناس فى نشاط سياسى، لم يكن لديهم، على أى حال، برنامج يخرج عن الأعمال المعزولة الإرهابية فى الحضر، ولم يكن لدى مسلمى الجناح اليمينى، خارج السلطة، حتى جهاد الأفغان، الطموح للحصول على القوة من المنظمات الشعبية، ولا إمكانية تنظيم القوة من أى مصدر بديل . وأنقذت إدارة ريجان الجناح اليمينى الإسلامى من هذا الزقاق التاريخى المسدود . وقد ادعى الجهاد الأمريكى أنه يخلق بنية أساسية إسلامية للتحرير، لكنه كان فى الحقيقة قد صنع " بنية أساسية للإرهاب "، استعملت رموزًا إسلامية لتدخل فى شبكات ومجتمعات إسلامية. وحتى تفهم الآثار العميقة لقرار أدلجة الحرب كحرب إسلامية، من الضرورى النظر إلى أوجه مختلفة للحشد الذى كان يقوم به الجهاد الأمريكى .

لقد وضعت المخابرات الأمريكية بالتعاون مع المخابرات الباكستانية تفاصيل تخطيط الجهاد الأفغانى، وقد حصلت المخابرات الأمريكية، للإدارة الفعلية للحرب، على الأسلحة والمتخصصين فى حرب العصابات من البلدان المختلفة، وقامت بتسليمها، بالإضافة إلى معلومات استخبارية ورصد لأفغانستان – إلى المخابرات الباكستانية التى كانت هى المسئولة عن نقل الأسلحة إلى الحدود، كما أشرفت على تدريب المقاتلين الأفغان داخل باكستان، ونسقت عملياتهم داخل أفغانستان . وبينما كانت الآى سى أى هى الوكيل الإقليمى الرئيسى[١٥] اشتمل الخط الثانى على استخبارات المملكة العربية السعودية ومصر مع استخبارات بريطانيا والصين والفلبين، بل حتى اشتراك إسرائيل أيضًا . كان الدرس الرئيسى للهند الصينية وأفريقيا الجنوبية وأمريكا الوسطى يطبق بحرص شديد: كانت هذه عملية يجب أن تكون المخابرات الأمريكية فيها بصورة متحفظة (على بعد أكثر من ذراع)، يجب أن تكون حربًا بالوكالة عبر طرف ثالث ورابع .

كانت هنالك مهام مختلفة تنفذها وكالات مختلفة بتعاقدات من الباطن، مما جعل خطة الحرب تكشف عن نمط يقوم على الفصل بين الأقسام المختلفة، والهدف هو ضمان الاشتراك المباشر لعدد قليل، قدر الإمكان، من الأمريكيين، وعدد أقل على اتصال مباشر بالمجاهدين أو قادتهم الميدانيين . وبينما أزاح التعاقد من الباطن الوجود الأمريكي بعيداً عن الميدان، ومن ثم، أي ضرر مباشر على الأشخاص الأمريكيين، فإنه كان من نتيجتها غير المقصودة، أن تعطى لمقاولى الباطن حرية تحاشى القيادة المركزية، والتعامل مباشرة مع وكالات مثل المخابرات الأمريكية والدى إى إيه، وكانت النتيجة نقص التماسك فى السياسة الأمريكية بأكملها.

كان يقف وراء الدول الوكلاء، فى خط الجبهة، ووكالاتها الاستخبارية بصورة متزايدة مجموعة من المؤسسات الخاصة، دينية وعلمانية. وكانت النتيجة الشاملة هى خصخصة الحرب باطراد على أسس دولية. ومن خلال هذه الآلية انطلقت القوى التى نفذت العملية التى نعرفها باسم الحادى عشر من سبتمبر.

لو كانت الحرب الصليبية المعادية للسوفيت قد نُظمت فى إطار وطنى لكانت المخابرات الأمريكية قد بحثت، أساساً، عن مجندين أفغان لشنها، ولكن لأن شكلها قد تغير إلى جهاد عالمى، فقد بحثت المخابرات الأمريكية عن متطوعين من السكان المسلمين – فى الكون كله – وكانت البلاد العربية، من خارج باكستان، هى المصدر الرئيسى لهؤلاء المتطوعين والذين عرفوا باسم العرب – الأفغان . وعُرف المجندون غير الأفغان بالهويات بصفات مثل الجزائريين – الأفغان، والأندونيسيين – الأفغان، وهكذا. وقد أقيمت شبكة من مراكز التجنيد، تربط مواقع أساسية من العالم العربى – مصر والمملكة العربية السعودية – بباكستان، وأخيراً جرى الانتشار بعيداً حتى السودان جنوبياً، وأندونيسيا شرقاً، والشيشان شمالاً، وكوسوفو غرباً . وشجع أعضاء من المؤسسة السعودية، بسبب الحساسية من النقد الذى وجه إليهم فى داخل اليمين، الدينى بأنهم فشلوا فى دعم النضال الفلسطينى وشجعوا المنشقين المحليين على الالتحاق بالجهاد الأفغانى، وغضَّت الحكومة المصرية البصر عندما شق الإسلاميون

المحليون طريقهم إلى أفغانستان، وكان المصدر العربى الرئيسى الثالث المكلف بالتجنيد هو الجزائر. ويكتب مارتن ستون[١٦] : أن " السفارة الباكستانية فى الجزائر، وحدها، أصدرت ٢٨٠٠ تأشيرة دخول لمتطوعين جزائريين خلال الثمانينيات " . إن الأعداد التى تم تجنيدها وتدريبها أعداد مؤثرة، طبقًا لأى حساب: إن تقدير عدد الراديكاليين الأجانب " الذين تأثروا مباشرة بالجهاد الأفغانى يصل إلى مائة ألف، وقد شكَّل العرب - الأفغـــان، قوة مصطفاة ، وتلقوا أكثر التدريبات تطورًا، وتلقى المقاتلون فى " قاعدة بيشاور الإسلامية[١٧]" " الفرقة الدولية"، أعلى المرتبات نسبيًا والتى وصلت إلى حوالى ١٥٠٠ دولار للشهر الواحد .

وبحثت المخابرات الأمريكية عن أمير سعودى ليقود هذه الحرب الصليبية، لكنها عجزت عن العثور على واحد منهم واستقرت على الأفضلية الثانية وجاءت على ابن عائلة فائقة الشهرة، وثيقة الارتباط بالبيت السعودى الملكى. علينا أن نتذكر أن أسامة بن لادن لم يجئ من عائلة متواضعة الشأن، لكنه جاء من عائلة كوزموبوليتانية. لقد حصلت عائلة ابن لادن على برامج فى جامعات مثل هارفارد، وييالى. وقد جُند ابن لادن[١٨] بموافقة أعلى مستوى فى الولايات المتحدة بمعرفة الأمير تركى الفيصل الذى كان وقتها رئيس الاستخبارات السعودية، وقد سافر ابن لادن أولاً، طبقًا للصحفى الباكستانى أحمد راشد، إلى بيشاور عام ١٩٨٠، وقابل قادة المجاهـدين هنـالك، وعاد إليها تباعًا خلال العامين التاليين بمنح سعودية مساعدة للقضية . وقرر عام ١٩٨٢ الاستقرار فى بيشاور. وعمل ابن لادن عام ١٩٨٦ كمقاول كبير لبناء مشروع كبير تموله المخابرات الأمريكية: مجمـع نفق الخـوست، عميقًا تحت الجبال الغربية من حدود باكستان، وقد أوى مجمع الخوست مستودعًا عسكريًا كبيرًا وموقعًا للتدريب ومركزًا طبيًا للمجاهدين . ومجمـع الخـوست هـو ذلك المجـمـع الذى قرر الرئيس كلينتون، عام ١٩٩٨، قذفه بصواريخ توما هوك كروز . ومجمع الخـوست - كـهوف الجبل الشهيرة - هو أيضًا الذى قاتلت فيه الولايات المتحدة أخيرًا بقايا القاعدة فى حربها الأفغانية الخاصة بها .

ورغم أن أسامة بن لادن كان تلميذاً للشيخ عبد الله عزام، أول عربي - أفغانى وحارس بوابة الجهاد فى منتصف الثمانينيات، غير أن قطيعة حدثت بين عزام وابن لادن قرب نهاية الجهاد الأفغانى . إن افتراق الطرق كان نتيجة خلاف نشب عام ١٩٨٩ حول مستقبل الجهاد: " تصور ابن لادن " فرقة لكل العرب، يمكن استخدامها فى النهاية لشن جهاد فى المملكة العربية السعودية ومصر "، بينما " عارض " عزام " بقوة القيام بحرب ضد الإخوة المسلمين " . وسرعان ما نُسِفَ عزام بعد ذلك بقليل، هو واثنان من أبنائه بواسطة سيارة مفخخة، بينما كانوا يصطحبونه إلى جامع فى بيشاور . وعقد اجتماع قرب نهاية ١٩٨٩، فى مدينة خوست، لاتخاذ قرار فيها يتعلق بالجهاد . وكان جمال الفاضل، وهو مقاتل سوداني، واحداً من العشرة المجتمعين، وقد شهد، فى غرفة محكمة فى نيويورك، فى واحدة من المحاكمات المرتبطة بقذف السفارات الأمريكية، فى شرق أفريقيا عام ١٩٩٨، إن تنظيماً جديداً قد أنشئ فى ذلك الاجتماع، لشن الجهاد فيما وراء أفغانستان وكان ذلك التنظيم هو القاعدة[٢٠] ومن ثم بزغ ابن لادن باعتباره المنظم والراعى الأبرز للقطاع الخاص للجهاد الأمريكى .

هنالك القليل من المعلومات المنشورة حول نمط التجنيد الدولى للجهاد الخاص بالمخابرات الأمريكية ومداه ومنهجه، من أجل جهادها . وإن كان " عملاء المخابرات الأمريكية "، هم الذين جندوا المتطوعين، فإن هؤلاء العملاء لم يكونوا، فى الغالب الأعم، موظفين بصورة مباشرة بواسطة المخابرات الأمريكية، كما أنها لم تكن تدفع لهم مباشرة أيضاً، ولا حتى كانوا يعملون وهم يعرفون أنهم وكلاء المخابرات الأمريكية. إن المعلومات القليلة المتاحة توحى بأن تجنيد المتطوعين الأجانب - ربما ليس على مستوى أسامة بن لادن، ولكن يقيناً عدد آخر كبير - قد تمت خصخصتهم عبر هيئات إسلامية دينية وخيرية . هل يمكن أن يكون عدم حصول هؤلاء المجندين على دفع مالى خاص أمراً مثيراً للدهشة، وأن يتحول الالتزام ليكون النمط الأساسى لإعداد النشاطات التطوعية ؟

يمكننا العودة إلى دراسة جون كولى حول إحدى المنظمات الدولية للدعوة الإسلامية (جماعة التبليغ) لنحصل على فكرة[٢١] عن نوع الهيئات الدينية والخيرية الإسلامية التى

تحولت، بعلمها أو دون علمها، إلى وكالات للتجنيد للجهاد الأفغانى . إن لجماعة " التبليغ " مقرًا رئيسيًا فى باكستان، ولها فروع فى كل أنحاء العالم، بما فى ذلك أمريكا الشمالية، والتى أسسها، عام ١٩٢٦، عالم مسلم هو مولانا محمد إلياس بهدف " تطهير " مسلمى التخوم " والذين اكتسبوا كثيرًا من التقاليد والممارسات الدينية من ماضيهم الهندوسى، ونمت جماعة التبليغ إلى قدر كبير وكافٍ لجذب أكثر من مليون مسلم من تسعين بلدًا، إلى مؤتمرهم السنوى قرب لاهور، باكستان، عام ١٩٨٨، آخر عام من أعوام الحرب الأفغانية، وجذب مؤتمرهم فى شيكاغو، فى العام نفسه أكثر من ستة آلاف مسلم من أنحاء العالم المختلفة .

إن جماعة التبليغ لم تؤسس ولم توظف كمنظمة إرهابية، وكان اتجاه هذه المجموعة الدينية على أى حال، هو الاتجاه السائد بين هؤلاء الذين استخدمتهم المخابرات الأمريكية باعتبارهم قناة لعملية تجنيدها، وكان من العسير تحديد كم من هؤلاء المجندين مرتزقة يبحثون عن ميزة ما، وكم كانوا مغامرين يبحثون عن الإثارة، وكم سجلوا عن اقتناع استجابة لنداء القتال من أجل استقلال شعب إسلامى من " إمبراطورية الشر الكافرة " التى تصر على أن تفرض عليهم مجموعة قوانين سلوكية علمانية. إن من بين هؤلاء الذين جندتهم جماعة التبليغ فى تونس، كان هنالك أكثر من ١٦٠ بقليل جُندوا لبرامج دينية فى لاهور، وقد أكمل " حوالى ٧٠ " من هؤلاء تدريبهم العسكرى . وحارب فعليًا فى الجهاد حوالى ١٥ إلى ٢٠ " . ومات من هؤلاء " طبقًا لكولى، عدد ضئيل فى القتال . وعندما " اتهم " الشيخ محمود الحميدى، وهو مدرس دين، هاجر إلى فرنسا، بمحاولة تجنيد مرتزقة للمجاهدين الأفغان، وسجن فيما بعد ثلاث سنوات "، عند ذلك فقط غدا واضحًا أن " شبكة التبليغ للتجنيد كانت تنتشر من شمال أفريقيا إلى فرنسا " .

واختفت المخابرات الأمريكية فى الولايات المتحدة أيضًا وراء منظمات شرعية إسلامية خيرية ودينية، ما المدى الذى انغمست فيه، فى تلك العملية ؟ الاحتمال أننا لن نعرف ألبتة . إن حالة واحدة سوف تفى لإلقاء الضوء على هذا التطور، حيث إن " مركز

كفاح اللاجئين الأفغان "، في " أتلانتيك أفينو " في بروكلين، ونيويورك، تحــول إلى مركز رئيسي " للتجنيد، وجمع المال، لجهاد أفغانستان "، ودعاه من يعملون فيه بمركز " الجهاد " . وكان الشيخ عبد الله عزام، والشيخ عمر عبد الرحمن، من بين القادة الذين يقـومون بالتجنيد في هذا المركز . وكان لكل منهما سجل مؤكد عن تعاونه مع المخابرات الأمريكية. كان الشيخ عزام، كما رأينا، مؤسسًا لحماس، وقائد تجنيد العرب – الأفغان لوكالة الاستخبارات الأمريكية . والشيخ عبد الرحمن، القائد الضرير المصري، والذي كان مؤسسًا للجماعة الإسلامية المصرية، قد أرسل أبناءه[٢٢] للقتال في أفغانستان " وكان معروفًا عنه، في الوقت نفسه، أنه قد " جند للمخابرات الأمريكية" . إن الشيخ عمر عبد الرحمن، والذي غيَّر موضعه إلى الولايات المتحدة، في الثمانينيات، كان " متهمًا في التفجير الناجح لمركز التجارة العالمي في فبراير ١٩٩٣، والمؤامرة التالية التي أجهضت في يونيو ١٩٩٣، لتفجير المقر الرئيسي للأمم المتحدة، وأنفاق المواصلات، والكباري ومقر رئاسة الإف بي آي، ومكاتب الحكومة وكذا بالمثل اغتيال الضباط المتعاطفين مع إسرائيل وأعضاء الهيئة التشريعية .

وقد قسم التدريب اللازم للجهاد الأفغاني إلى تدريب المدربين وتدريب المقاتلين، وبينما كان التدريب الأساسي للجهاد الأفغاني يجري في سلسلة المدارس القرآنية التقليدية، التي أتيحت زمن ضياء في باكستان، كما جرى تدريب المدربين – وبعض المجاهدين المجندين عاليي المستوى – في عدد من المعسكرات في الولايات المتحدة . وتشتمل قائمة كولي[٢٣] على: " هاي روك جن كلوب " في " ناوجاتوك "، " كونيكيتكوت "، " وفورت براج "، " نورث كارولينا " ؛ كامب بيري " الخاص بالمخابرات الأمريكية " في ويليامز فربرج "، فرجينيا " ؛ واستخدمت المخابرات الأمريكية موقعًا " لقوات الجيش الخاصة "، " هارفي بوينت "، نورث كارولينا "، " فورت أ . ب . هيل "، فرجينيا "، " كامب بيكبت "، " فرجينيا " .

يحتمل أن يكون التأثير الأكثر تدميرًا للجهاد الذي تمت خصخصته قد وقع على المدارس الدينية "Madrassah" والتي تحول العديد منها إلى مدارس تدريب سياسي

وعسكرى . كانت القضية هى دمج تدريب حرب العصابات مع تعليم الإسلام، ومن ثم تأسيس " حرب عصابات إسلامية " . وقد علق الصحفى الهندى المقيم فى لندن[٢٤]، ديليب هيرو، على البرامج التعليمية للمدارس بقوله: " كانت الموضوعات السائدة، هى أن الإسلام أيديولوجية سوسيو سياسية، وأن الإسلام المقدس قد انتهكته القوات السوفيتية الملحدة، وأنه توجًب على شعب أفغانستان المسلم إعادة تأكيد استقلاله بالإطاحة بالنظام الأفغانى اليسارى الذى تسانده موسكو. إن المدارس لم تفتح أبوابها فقط للطلاب الإسلاميين من أنحاء العالم، لكنها تعلم أيضًا أن الثورة الإسلامية فى أفغانستان ليست إلا البشير بالثورة فى البلدان التى توجد بها أغلبية مسلمة، وخاصة تلك التى توجد فى آسيا الوسطى السوفيتية . وبدأت مدارس ديوباندى القائدة، فى أواخر الثمانينيات[٢٥]، حجز أماكن خاصة لراديكاليى آسيا الوسطى، الذين تلقوا تعليمًا مجانيًا ورواتب إعاشة "، وكان هؤلاء من أوائل الطلبة الذين يُعدون لحرب أوسع ومنهم سوف يجىء الطالبان .

وقد أقام المجاهدون مركزًا تعليميًا لأفغانستان خلال الثمانينيات ويعطى برفيز هود بهوى[٢٦] الأمثلة التالية للكتب المرجعية، والتى أعدتها له جامعة نبراسكا، فى منحة معونة أمريكية قدرها ٥٠ مليون دولار، امتدت من سبتمبر ١٩٨٦ إلى يونيو ١٩٩٤ . ويسأل كتاب مرجعى للمستوى الثالث للرياضيات : " هاجمت مجموعة من المجاهدين ٥٠ جنديًا روسيًا، وقد قتل فى هذا الهجوم ٢٠ روسيًا . كم روسيًا هرب ؟" ويصعد كتاب مرجعى، للمستوى - الرابع، ما سبق : " إن سرعة طلقة الكلاشينكوف (المدفع الرشاش شبه الآلى)، سوفيتى الصنع، وموجود فى كل مكان هى ٨٠٠ متر فى الثانية، فلو كان هنالك روسى على بعد ٣٢٠٠ متر من أحد المجاهدين، وهذا المجاهد يصوب على رأس الروسى . احسب عدد الثوانى التى سوف تأخذها الطلقة لتضرب الروسى فى جبهته " . وقد انتهى البرنامج منذ عام ١٩٩٤، غير أن الكتب ظلت متداولة : " تكفلت الولايات المتحدة بالكتب المرجعية، التى حضًت الأطفال الأفغان على اقتلاع أعين أعدائهم وقطع أرجلهم، وهى كتب لا تزال متاحة على نطاق واسع فى أفغانستان وباكستان وبعض منها لا يزال فى هيئته الأصلية " .

كانت المدارس، إما مدارس خاصة أو أخرى تمدها الحكومة بالأموال . وهى قد تراوحت ما بين تلك التى تناولت الورع الإسلامى بعبارات دينية، إلى تلك التى كان الإسلام بالنسبة لها نداء سياسيًا أيضًا، ورغم تكاثرها[٢٧] فقد كان التدريب العسكرى يجرى أساسًا فى معسكرات الجيش ، وكان الذين يجرى تدريبهم ينقسمون إلى مجموعتين: المجاهدين الأفغان، والمتطوعين المجاهدين غير الأفغان . وقد أكد البريجادير محمد يوسف[٢٨]، رئيس خلية الآى سى آى الأفغانية، مدة أربع سنوات أنه : " تم تدريب حوالى ٨٠,٠٠٠ مجاهد، فى أثناء السنوات الأربع الخاصة بى " . ويقدر أحمد راشد أن خمسة وثلاثين ألف مسلم راديكاليًا، من ثلاثة وأربعين بلدًا إسلاميًا، حاربوا للمجاهدين ما بين ١٩٨٢ - ١٩٩٢ . وقد قدرت سلطات الولايات المتحدة[٢٩] أن " عشرة آلاف على الأقل " قد تلقوا " تدريبات عسكرية إلى حد ما، وقدر فريق من المخبرين الصحفيين بلوس أنجلوس تايمز، قاموا بمسح شامل لأربع قارات، أن ناتج جهاد الأفغان هو أن عدد " من حاربوا بالفعل لم يزد عن خمسة آلاف " . وأنه ما بين انسحاب القوات السوفيتية، فى فبراير ١٩٨٩، وانهيار حكومة كابول الشيوعية، فى أبريل ١٩٩٢، تلقت فرقة أخرى من ٢٥٠٠ أجنبى، على الأقل، تدريبًا عسكريًا، من نوع ما " . وهذا يعنى رقمًا إجماليًا، وليس فى المتوسط، قدره ٧٥٠٠، تلقوا تدريبًا بعيدًا عن أنظار العالم، إلى حد كبير، فى معسكرات تدريب فى أفغانستان وباكستان كان يجرى تشكيل شىء ما، قريب الشبه بفرقة أجنبية إسلامية راديكالية " . وكان هنالك، حول هذا القلب، مجموعة أكبر: عشرات الآلاف أيضًا يدرسون فى آلاف المدارس الجديدة فى باكستان . وأخيرًا يختم راشد[٣٠] : " كان لأكثر من مائة ألف مسلم راديكالى عبر العالم، علاقة مباشرة مع باكستان وأفغانستان " . إن غالبية خريجى المدرسة لم يكونوا، على أى حال، مخصصين لأفغانستان، ولكن للنزاع السياسى الداخلى فى باكستان. وقد قدر " طارق[٣١] على " وجود ٢٥٠٠ مدرسة بمحصول سنوى ٢٢٥٠٠٠ طالب، تعلم الكثيرون منهم القراءة والكتابة فى كتب تعليم القراءة التى تقول إن الحرف الأوردى التاء يرمز إلى " توب " (مدفع) والكاف ترمز إلى كلاشينكوف والخاء ترمز إلى " خون " (دم) . والجيم ترمز إلى " الجهاد " .

إن الضرر الحقيقى الذى سببته "المخابرات الأمريكية" لم يكن التزويد بالسلاح والمال، ولكن خصخصة المعلومات ذات العلاقة بكيفية إنتاج العنف ونشره وتشكيل ميليشيات خاصة على ممارسة الإرهاب . ويذكر كولى(٣٢) أن تدريب "المخابرات الأمريكية"، فى معسكراتها فى الولايات المتحدة، تراوح من تقنيات الشلل إلى وسائل انتزاع السجناء أو الأسلحة من وراء صفوف العدو، إلى أكثر من ستين " مهارة قاتلة " متنوعة . وقد اشتملت المهارات التى علَّمها المدربون للمقاتلين على " استخدام فتائل مفرقعات متطورة وساعات توقيت ومتفجرات وأسلحة أوتوماتيكية مع ذخائر تخترق الدروع، وأدوات التحكم عن بعد لتفجير الألغام والقنابل (والتى استخدمت، فيما بعد، فى بلدان المتطوعين أنفسهم، وضد إسرائيل فى الأراضى العربية المحتلة مثل جنوب لبنان) " . وكانت هنالك أيضًا مهارات أفغانية محلية مثل: قطع الرقاب ونزع الأحشاء والتى أدخلتها "المخابرات الأمريكية" فى تدريباتها .

وقد وجد فريق المخبرين الصحفيين للوس أنجيلوس تايمز، والذى قام بعمل تحريات فيما بعد الحرب الأفغانية " عبر قارات أربع "، أن القادة الأساسيين لكل عملية هجوم إرهابى كبير من نيويورك إلى فرنسا إلى المملكة العربية السعودية، لابد أن يكونوا ممن تمرسوا فى حرب الأفغان .

إن واحداً من هؤلاء قد اتهم عام ١٩٩٥ بمؤامرة قذف قنابل على مبنى الأمم المتحدة، ومقر قيادة "الإف بى آى"، فى مانهاتن السفلى، وأنفاق لينكولن وهولاند، التى تربط مانهاتن بنيوجرسى، وهو يدعى كلامنتس رودنى هامبتون – إل، كان يعمل "فنيًا" فى مستشفى ببروكلين – نيويورك، وكان قد عاد إلى الوطن بعد أن جرح فى ذراعه وساقه فى أفغانستان. إن كلاً ممن كان يسمى "السيد على الزناد " و الذى قام بتفجير " مركز التجارة الدولى " عام ١٩٩٣، وهو سائق تاكسى من بروكلين يدعى محمود حليمة، وكذلك العقل المدبر المزعوم رمزى أحمد يوسف، الكويتى المولد، قد قاتلا فى الحرب الأفغانية ضد السوفيت. وقد ألقت السلطات الباكستانية القبض عام ١٩٩٥، على الشاب البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، والذى يدعى يوسف وسلمته إلى

الولايات المتحدة، كان طبقًا للوس أنجيلوس تايمز " المثال الأكثر قبحًا فى شهرته حتى الآن لهذا القاتل، هذا المنتج الثانوى، غير المتوقع للحرب الأفغانية " . وقد اشتملت التهم التى وجهت إليه، تهمًا من الإف بى أى عن " مؤامرة مدعاة لتفجير دستة نفاثات جامبو من الخطوط الجوية لـ " دلتا، شمال غرب والخطوط المتحدة فوق الباسفيكى " . وكانت اتهامات الحكومة الفلبينية هى " التآمر لاغتيال البابا جون بول الثانى فى أثناء زيارته فى يناير ١٩٩٥ "، والاتهامات الباكستانية الخاصة بخطة أجهضت عام ١٩٩٣ لقتل رئيسة الوزراء بنازير بوتو .

وقد علق ضابط منفذ للقانون فى باريس عندما واجهت فرنسا، وبها ثلاثة ملايين مسلم، سلسلة من ثمانى هجمات بالقنابل فى صيف ١٩٩٥، بأن " كل قادة من قبضنا عليهم، تقريبًا بسبب الإرهاب، قد مروا بأفغانستان أو باكستان . لقد نالوا المعرفة من هناك . وكيف تعمل أيضًا بطريقة سرية " . وعندما انفجرت شاحنة خفيفة معبأة بالمفرقعات خارج مبنى مكون من طوابق ثلاثة فى الرياض، عاصمة السعودية، فى ١٣ نوفمبر ١٩٩٦، مما تسبب فى قتل خمسة أمريكيين " وقد اعترف ثلاثة من الفاعلين السعوديين الذين تم القبض عليهم بسبب ذلك الهجوم بأنهم تلقوا تدريبًا على الأسلحة النارية والمفرقعات فى أفغانستان، وشاركوا فى القتال هناك، وعندما دمرت شاحنة ماموث مفخخة ثكنات جنود من ثمانية طوابق فى قاعدة الملك عبد العزيز الجوية فى الظهران، بالمملكة العربية السعودية، فى ٢٥ يونيو ١٩٩٦، مما تسبب فى قتل تسعة عشر طيارًا أمريكيًا، وإصابة مائتين وخمسين آخرين، أخبر الجنرال ج . هـ . بنفورد بباى، رئيس القيادة المركزية للولايات المتحدة، لجنة مجلس الشيوخ للخدمات المسلحة، الذين كانوا يبحثون فى تفجير الظهران، " لقد لاحظنا مؤخرًا نموًا فى المجموعات العابرة للقومية، والتى تشتمل على متطرفين إسلاميين متعصبين، حارب الكثيرون منهم فى أفغانستان، وقد انتقلوا الآن إلى بلدان أخرى بغرض تأسيس أنظمة أصولية مضادة للغرب، وذلك عن طريق إفقاد الحكومات التقليدية استقرارها ومهاجمة الأهداف الأمريكية والغربية .

وكان الأخرون أكثر صراحة " لقد شاركت حكومتكم[٣٣] في خلق وحش هائل " والآن استدار الأمر ضدكم وضد العالم : إن ١٦٠٠٠ عربي قد جرى تدريبهم في أفغانستان ليتحولوا إلى ماكينة قتل حقيقية " .

تمويل الجهاد عبر تجارة المخدرات:

عندما بدأت إدارة ريجان نقل الأسلحة إلى المجاهدين في أفغانستان، كانت هنالك معارضة فورية من د . دافيد موستو، وهو طبيب أمراض نفسية بجامعة "يال" وكان أيضًا مستشار البيت الأبيض المعني بسياسة المخدرات، وقد سأل موستو وعضو طبي آخر في مجلس البيت الأبيض للمخدرات، في الصفحة التي تواجه صفحة الافتتاحية لنيويورك تايمز ": هل نقع في الإثم عندما نقيم صداقة مع تلك القبائل، كما فعلنا في لاوس عندما ساعد الطيران الأمريكي (برخصة من وكالة الاستخبارات المركزية) في نقل أفيون خام من مناطق قبلية معينة ؟ " وقد تذكر موستو[٣٤]، بعد سنوات في لقاء " ألفريد ماك كوي" : لقد أخبرت المجلس [مجلس البيت الأبيض للمخدرات] أننا نذهب إلى أفغانستان لندعم مزارعي الأفيون في تمردهم ضد السوفييت. ألا يجب علينا محاولة تجنب ما فعلناه في لاوس؟

كان هنالك سببان لعدم الالتفات إلى ما أثار قلق موستو؛ الأول تحديداً؛ لأن لوردات مخدرات أفغانستان كانوا متمردين علنًا ضد النظام الجديد الذي يدعمه السوفييت، ولقد اعتمدت المخابرات الأمريكية عليهم باعتبارهم حلفاء جاهزين، ويمكن الاعتماد عليهم . الثاني، أن لا شيء يمكن أن ينافس، كما عرفت المخابرات الأمريكية جيداً من خبرتها، المخدرات كمصدر يعتمد عليه لأموال كثيرة للحرب السرية . لقد جرى تمويل الحرب الأفغانية من مصادر متعددة، خارجية وداخلية، من الدولة والقطاع الخاص . كانت تزود، عندما بدأت، بمساهمات الدولة، وكفل زبيجنيو برينسكي، مبكراً منذ عام ١٩٨٠[٣٥]، تقديم دعم مالي من المملكة العربية السعودية " والتي يمكن في النهاية أن تضاهي ما تقدمه حكومة الولايات المتحدة " دولاراً بدولار " . وقد تحول الجهاد الأفغاني بعد أن

أصدر الرئيس ريجان قرار الأمن القومى ١٦٦، فى مارس ١٩٨٥، إلى أكبر عملية سرية فى تاريخ المخابرات الأمريكية، إذ بلغت المعونة العسكرية الأمريكية السرية فى السنة المالية ١٩٨٧ وحدها[٣٦] ٦٦٠ مليون دولار، طبقًا لأحد التقديرات، " وهى أكثر من مجمل المعونة الأمريكية الكلية للكونترا فى نيكاراجوا " . كان هذا المبلغ[٣٧] أكثر مما كانت تتلقاه باكستان نفسها من واشنطن " . وعندما لاحظ ستيف جالستر، من أرشيف الأمن القومى، هذا الوضع قدر أن الكونجرس قد قدم، فى النهاية، حوالى ثلاثة بلايين دولار، مساعدة سرية للمجاهدين، وهو أكثر من كل عمليات المخابرات الأمريكية مجتمعة خلال الثمانينيات " .

وكانت هنالك، بجانب تلك الأموال الخارجية، أموال أخرى يحققها المجاهدون من خلال تجارة المخدرات . وقد وحدت تجارة المخدرات المنظمة والمتمركزة تحت سيطرة المخابرات الأمريكية حكمة سوق الفلاحين، مع قدرات المجاهدين على الإكراه والسلب والقيام باستثمارات تقتضى المغامرة . وقد تابع ألفريد مك كوى الخطوات المختلفة فى اقتصاد المخدرات، ابتداء من إنتاج الفلاحين : " عندما وضعت عصابات المجاهدين[٣٨]، أيديها على الأراضى داخل أفغانستان، أمروا الفلاحين بزراعة الأفيون كضريبة ثورية " . وقد ساعد على ذلك، دون شك، أن سعر الأفيون، بالنسبة للمزارع، كان خمسة أضعاف سعر القمح . كذلك لم تكن هنالك حاجة للبذور فى أعمال المعالجة : " كان القادة الأفغان والمجموعات المحلية يديرون، عبر حدود أفغانستان وتحت حماية الاستخبارات الباكستانية، مئات معامل الهيروين . ويكتب لورنس ليفسكرلتز فى " ذى ناشن "[٣٩]، فى عام ١٩٨٨، مشيرًا إلى أن معامل الهيرويين الكائنة فى الإقليم الحدودى الشمالى - الغربى، كانت تدار تحت حماية الجنرال " فاضلى حق "، وثيق الصلة بالجنرال ضياء . وكانت الحلقة الثانية فى السلسلة هى النقل، والذى كانت توفره شاحنات من الوحدة الوطنية للإعاشة بالجيش الباكستانى (إن إل سى)، والتى تجىء بأسلحة المخابرات الأمريكية من كراتشى "، كما كانت غالبًا ما تعود محملة بالهيرويين، تحميها أوراق "الآى إس آى" من تفتيش الشرطة " . وقد ذكرت " ذى هيرالد " الباكستانية[٤٠] مبكرًا فى سبتمبر ١٩٨٥، أن " المخدرات

يجرى حملها فى شاحنات الـ إن إل سى، والتى تجىء مختومة " و " لا تتعرض لفحص الشرطة أبداً " و " أن هذا يحدث منذ قرابة ثلاث سنوات ونصف " . وأخيراً، قدمت المخابرات الأمريكية[٤١] الغطاء الشرعى، والذى ما كان يمكن بدونه لهذه التجارة المحظورة أن تنمو إلى مقادير ضخمة :

"فشلت إدارة التشديد على المخدرات الخاصة بالولايات المتحدة، فى إسلام أباد، خلال هذا العقد الذى جرى فيه التعامل مع المخدرات بصورة مفتوحة على اتساعها، فى تحقيق عمليات ضبط أو قبض .... وقد رفض مسئولو الولايات المتحدة فحص حمولات من الأفيون قام بها حلفاؤها الأفغان؛ " لأن سياسة الولايات المتحدة الخاصة بالمواد المخدرة فى أفغانستان كانت قد أخضعت للحرب ضد النفوذ السوفيتى هناك " .

لم يكن هنالك، قبل الجهاد الأفغانى، إنتاج محلى من الهيروين فى كل من أفغانستان وباكستان، وكان الإنتاج هنالك من الأفيون، وهو مخدر مختلف للغاية، وكان موجهاً إلى الأسواق الإقليمية الريفية الصغيرة، واختلف الوضع بصورة عنيفة عند نهاية الجهاد الأفغانى: أصبحت أراضى الحدود الباكستانية – الأفغانية هى المنتج العالمى الرئيسى لكل من الأفيون والهيروين المعالج، و" مصدر ٧٥٪ من الأفيون العالمى الذى يساوى كدخل العديد من ملايين الدولارات " . وقد جاء فى تقرير نشر فى أوائل ٢٠٠١ أن برنامج الأمم المتحدة للتحكم الدولى فى المخدرات قد تابع الانتشار السريع لإنتاج الأفيون الأفغانى، " ليست مصادفة أن أفغانستان قد بدأ بزوغها كمنتج مهم للأفيون المحظور بالدقة فى فترة الحرب التى طالت، وقد بدأت عام ١٩٧٩، ولا تزال قائمة " . إن الدفعة الكبرى جاءت بعد عام ١٩٨٥ . لقد كانت المنطقة تقدم أقل من ٥٪[٤٢] من الإنتاج العالمى للأفيون عام ١٩٨٥، غدت تقدم ٧١٪ منه عام ١٩٩٠ طبقاً للتقرير نفسه . إن مصير أفغانستان يماثل مصير بورما، منطقة أسيوية جبلية أخرى، كانت موقعاً لتدخل المخابرات الأمريكية فى بداية الحرب الباردة . وقد انتهى "ألفريد مك

كوى إلى أنه " مثلما زاد دعم المخابرات الأمريكية(٤٣) للقوات الصينية الوطنية (كى أم تى) فى ولايات "الشان" من محصول أفيون بورما فى الخمسينيات، فإن مساعدة الوكالة لعصابات المجاهدين فى الثمانينيات قد وسعت أيضًا من إنتاج الأفيون فى أفغانستان، وربطت معامل الهيروين الباكستانية التى فى الجوار بالسوق العالمى " .

لقد سمم اقتصاد الهيروين، حرفيًا، الحياة الأفغانية والباكستانية ولاقت الشخصيات التى ازدهرت فى هذه البلوعة ترحيب رونالد ريجان باعتبارهم " المناظرين الأخلاقيين للآباء المؤسسين لأمريكا" . وكان أسوأ الأمثال على ذلك هو قلب الدين حكمتيار، والذى تسلم أكثر من نصف موارد المخابرات الأمريكية، والتى قدرت بأنها تساوى ٢ مليار دولار خلال سنوات الحرب العشر، وسرعان ما هيمن على المجاهدين الأفغان. لم يكن حكمتيار، الذى عرف طويلاً بأنه " أصولى " محارب، رجل دين، لكنه كان طالبًا فى كلية الهندسة، شديدة التزاحم، بجامعة كابول، والتى يرعاها الأمريكيون " وهو الذى قاد مظاهرات الطلاب فى كابول فى أواخر الستينيات، معارضًا إصلاحات الملك العلمانية " . وقد ذكرت " النيويورك تايمز(٤٥) رغم مجىء ذلك، فقط، بعد انتهاء الجهاد الأفغانى حادثة فى أوائل السبعينيات عندما أرسل بأتباعه ليلقوا بنفايات أحماض على وجوه الطالبات اللواتى رفضن ارتداء الخمار " . وقد نفَّذ حكمتيار حكمًا بالسجن بسبب اتهامه بقتل طالب يسارى، ثم هرب إلى باكستان، وقد جاءت فرصته مع الانقلاب الجمهورى فى أفغانستان عام ١٩٧٣ . وقد أمرت الحكومة الباكستانية الجيش أن يقوم بتدريب مجموعة أفغانية سرية متمردة، خشية احتمال تشجيع الحكومة الجديدة فى أفغانستان انفصال الباشتون فى الإقليم الحدودى الشمالى الغربى لباكستان . وبدءًا فى ذلك أصبح حكمتيار هو " الثورى المتعاقد " المفضل لدى الجيش الباكستانى، وعندما قدمته "الآى سى آى" إلى "المخابرات الأمريكية"، كان حكمتيار يقود قوة عصابات مسلحة، تدعى " الحزب الإسلامى " من ابتكار الآى سى آى، وكان يتمتع بدعم محدود داخل أفغانستان وقد تلقت مجموعته، خلال عقد من الزمان، " أكثر من نصف كل الأسلحة " التى قدمتها

المخابرات الأمريكية . ونما الحزب الإسلامى، بين المجاهدين، مع توافر إعانة مالية مضمونة لمدى طويل إلى أكبر جيش عصابات "، جيش استخدمه حكمتيار " ليصبح لورد المخدرات القائد فى أفغانستان " .

كان المنافس الرئيسى لحكمتيار هو المُلاّ نسيم[٤٦] أخونزادا، والمعروف بـ " ملك الهيروين " . كان المُلاّ نسيم يسيطر على " الأراضى الأفضل ريًا فى وادى هيلماند الشمالى " . والذى كان يومًا ما، سلة طعام أفغانستان " و الذى أصدر مرسومًا بأن تزرع نصف أراضى الفلاحين أفيونًا "، و" حدد لكل مالك أرض نصيبه من الأفيون "، وكان يقتل أو يخصى كل من يعصى توجيهاته " . وعندما أمضى "آرثر بونر"، مراسل النيويورك تايمز، شهراً فى أوائل ١٩٨٦ مرتحلاً فى هيلماند، وجد حقول الخشخاش الكثيفة فى كل قرية ومدينة . وقد شرح محمد رسول الأخ الأكبر للمُلاّ نسيم " يجب أن نزرع الأفيون ونبيعه لنخوض حربنا المقدسة ضد الروس الكافرين "، وبينما كان لدى المُلاّ نسيم حقول أفيون، خشخاش هيلماند، كان لدى حكمتيار ستة معامل تكرير "للهيروين" . وكانت معامل التكرير تلك، والموجودة فى كوه - السلطان، فى النهاية الجنوبية لهيلماند داخل أفغانستان، تعالج الأفيون إلى هيروين . وقد تحدت " قوات حكمتيار، " حكم المُلاّ نسيم، على محصول أفيون هيلماند، وذلك فى ذروة الجهاد الأفغانى فى ١٩٨٨- ١٩٨٩ . إن الحرب الوحشية دامت على الأرض خلال ربيع ١٩٨٩، بعد أن ذابت الثلوج، وتحمل كل من الطرفين خسائر فادحة . هذه الحرب، وليس أى صدام مع السوفييت أو قوات الحكومة الأفغانية، هى التى تحولت لتصبح المعركة الكبرى الوحيدة فى الجهاد الأفغانى وقد كسب المُلاّ نسيم[٤٧] فى النهاية واحتفظ بسيطرته على الوادى .

" أطلقت " الآى إس آى " يد " حكمتيار " فى حكم معسكر اللاجئين الأفغان الذى امتد فيما حول بيشاور " . وقد تحدث بارنيت روبين، وهو متخصص محترم للغاية فى الشئون الأفغانية فى مركز التعاون الدولى بجامعة نيويورك "، أمام لجنة تابعة للكونجرس، فاستشهد بعامل لاجئ تابع للأمم المتحدة، وصف حكم حكمتيار

بأنه " عهد الرعب " . لقد أدار حكمتيار المعسكرات كلورد من لوردات المخدرات، ولقد استخدم العنف باعتباره مقياس كل العلاقات، مقرراً أن ذلك هو الجهاد، ولم يكن يأخذ سجناء، وبدلاً من الترحيب بالمرتدين، الذين انقلبوا على الحكومة كما يجب أن يفعل جيش عصابات كسبًا للدعم، كانت قواته تقتلهم ببساطة، وقد اتهم قادة آخرون من المجاهدين " منذ بداية الحرب السرية(٤٨) عام ١٩٧٩، اتهموا أتباع حكمتيار باستخدام العنف للسيطرة على مجموعات المقاومة المنافسة " .

حقًا لم يكن حكمتيار إنتاجًا أصليًا للمخابرات الأمريكية، غير أن الآى إس آى، قدمته إلى رئيس محطة المخابرات الأمريكية فى إسلام آباد، جون جوزيف ريجان، فى البداية تمامًا من الحرب السرية فى مايو ١٩٧٩، قبل أن تدخل القوات السوفيتية أفغانستان .

وقد انتهى غالبية من كتبوا عن أفغانستان إلى أن هامش المخابرات الأمريكية للمناورة كان قد تم تحديده بواسطة "الآى إس آى". ومع ذلك يجب علينا أن نضع فى الحسبان أن حكمتيار ظل المتلقى الأساسى لمنحة أسلحة المخابرات الأمريكية لمدة عقد من الزمان، من ١٩٧٩، عبر ١٩٨١، عندما زاد الإمداد فى ظل إدارة ريجان الأولى، إلى ١٩٨٥، عندما تضخمت بكثافة، فى ظل إدارة ريجان الثانية، وحتى نهاية الحرب . إن إسلام آباد، المركز العصبى للجهاد الأفغانى، أصبحت واحدة من أكبر محطات المخابرات الأمريكية. لماذا ازدهرت شئون المخابرات الأمريكية، مدة عقد من الزمان، مع الآى إس آى ؟ إننى أرى أن التفضيل المتواصل الذى قدمته كل من المخابرات الأمريكية والآى إس آى لحكمتيار، كان نتيجة هدف مشترك . لم تكن أى من الوكالتين مهتمة بشئون تقوم على المساومة، بينما كانت كل منهما تفضل إسلاميين راديكاليين معادين للشيوعية، يتشاركون الـرغبة فى " قتل الروس " وإدماء الاتحاد السوفيتى حتى يغدو أبيض .

مصرفيو الجهاد

إن خصخصة الجهاد غطت كل العمليات الرئيسية، من التجنيد حتى التمويل . إن واحداً من ممولى الجهاد كان البنك الباكستانى الناجح للغاية: البنك الدولى للاعتماد

والتجارة " (بى سى سى آى) . والذى أنشأه " قارون " باكستانى هو أغا حسان عبيدى . وقد أنشئ البى سى سى آى عام ١٩٧٢، وانهار عام ١٩٩١، بعد انتهاء الحرب الأفغانية، وقد ألقى به أمام المحاكم الأمريكية بتهم الاحتيال والرشوة والتآمر. كان البى سى سى آى والذى يعمل به أربعة عشر ألف موظف(٤٩)، وله مكاتب فى سبعين بلداً، كان مدرجاً ضمن مهربين ضريبيين، ويستخدم مجموعتين من مراجعى الحسابات، مما سمح له بتجنب نشر حسابات محكمة ذات معنى . وقد أطلق مدعى عام نيويورك(٥٠) على هذه العملية، " أكبر احتيال مصرفى فى تاريخ نيويورك المالى .

لم يجمع الكل على هذا الرأى، هؤلاء الذين أحسوا أن "البى سى سى آى" كانت له صياغته الخاصة، وأنه قد خدم غرضاً عبر الحرب الأفغانية، بما فى ذلك عدد كبير من المودعين، من بينهم أغا حسان عبيدى، وواصل البى سى سى آى الاحتفاظ بدعم مخلص وفى . هل كان البى سى سى آى على خط البنوك المعوجة نفسه مثل بنك كاسل، والذى مررت "المخابرات الأمريكية" من خلاله، أموالاً إلى العمليات المعادية لكاسترو فى كوبا، والتى استخدمتها عندما احتاجت إلى خدمات بنوك فاسدة أو إجرامية، لعمليات ما وراء البحار؟ أم هل كان واحداً من مبادرات أغا حسان عبيدى العديدة، التى جرى التكفل بها خلال مسار متألق كان مكرساً لتحطيم الاحتكار الكولوينالى للمؤسسات الغربية، غير أن تحالف سماسرة المخابرات الأمريكية أفسدته؟ أم هل كان، وذلك هو الاحتمال الأغلب، الاثنين معاً؟ ربما كانت جريمة البى سى سى آى أنه عمل على جانبى السياج . كان قناعاً للعمليات السرية لكل هؤلاء الذين كانوا فى حاجة إلى ذلك : من مجموعة أبو نضال الفلسطينية، إلى مبادرات باكستانية وأرجنتينية وليبية للحصول على أسلحة نووية (كما اتهمتهم مجلة تايم) إلى عمليات "المخابرات الأمريكية" والدى آى إيه) السرية . ومع ذلك، فإن الأكثر يقيناً هو أن قرار "المخابرات الأمريكية" بخصخصة الجهاد الأفغانى قد أدى إلى ظهور ممثلين لأفاقين من القطاع الخاص، كانت " القاعدة " واحدة منها وكان البنك الدولى للاعتماد والتجارة هو الواحد الآخر .

إن إضفاء طبيعة الخصخصة على الجهاد الأفغانى، استبعد أية دهشة عندما وجدت لجنة الكونجرس الفرعية المكلفة بالتحقيق فى " مسألة البى سى سى آى "، أنه

من الصعب للغاية[٥١] استخلاص معلومات من كل من "المخابرات الأمريكية" وبنك إنجلترا . واشتكت اللجنة الفرعية أنه بينما كانت " المعلومات الأساسية " المقدمة من "المخابرات الأمريكية" " غير حقيقية، فإن المعلومات التى قدمت فيما بعد كانت " ناقصة "، وانتهت اللجنة الفرعية إلى أن "المخابرات الأمريكية"، قد عرفت أكثر من أى أحد آخر فى الحكومة، عن أهداف البى سى سى آى ونواياها، فيما يتعلق بالنظام المصرفى للولايات المتحدة. ومع ذلك " فقد فشلت فى تقديم المعلومات الحاسمة التى جمعتها إلى الجهات التى تستخدم تلك المعلومات بجدارة أى الاحتياطى الفيدرالى ووزارة العدل "، وكان الأسوأ من ذلك، هو مواصلة "المخابرات الأمريكية" استخدام كل من البى سى سى آى و " فيرست أمريكان ". لقد حفظ البى سى سى آى دعم الولايات المتحدة، سراً حتى بعد أن عرفت المخابرات الأمريكية، أن البى سى سى آى كمؤسسة، كان مشروعًا فاسداً وإجراميًا، فى الأساس" .

وواجهت اللجنة الفرعية حائطًا صلداً آخر مع بنك إنجلترا، وحتى بعد أن " عرف تورط البى سى سى آى فى تمويل الإرهاب، وغسيل أموال المخدرات "، عام ١٩٨٨ و ١٩٨٩، ووجه له النصح مراجعو حساباته، بريس ووتر هاوس " مقدمين له ما يدل على الاحتيال، فوافق البنك، بصورة مؤقتة " على السماح للبى سى سى آى، بإعادة العمل فى ثلاث مؤسسات منفصلة، لندن وأبو ظبى وهونج كونج . ورغم تحقيقات محامى الإقليم، روبرت مورجنثاو، فى أبريل ١٩٩٠، سمح بنك إنجلترا للبى سى سى آى بنقل رئاسته وموظفيه وسجلاته خارج السلطة القضائية البريطانية إلى " أبو ظبى" " مع " نتائج سلبية عميقة للتحقيقات الخاصة بالبى سى سى آى حول العالم " . وعندما حاول " الاحتياطى الفيدرالى للولايات المتحدة " التحقيق فى موضوع البى سى سى آى، واجه أيضًا " نقصًا فى التعاون " من " مكتب التزوير الخطير " الخاص بالحكومة البريطانية .

إن إنكار "المخابرات الأمريكية" لصلتها "بالبى سى سى آى" لم يستطع الصمود أمام تقارير التحقيق الأمريكية والبريطانية. وقد تناولت وسائل الإعلام، وخاصة

الشبكات مثل البى بى سى إن حسابات "المخابرات الأمريكية" فى البى سى سى، أى فروع لندن، قد استخدمت حسابات لدفع حسابات لرعاية بريطانيين ومقيمين عملوا كمقدمى معلومات للسى آى إيه " . وسرعان ما ذكرت ذى فاينتشيال تايمز، تأكيد وزير المالية الباكستانى أن المخابرات الأمريكية استخدمت فروع البى سى سى آى، فى باكستان، كقنوات لأموال أرسلت إلى الجهاد الأفغانى، عبر الآى سى آى على الأرجح " . وقد تحول تسرب المعلومات حول صلات المخابرات الأمريكية والبى سى سى آى إلى فيضان عندما أعلنت لجنة تحقيق السيناتور جون كيرى " أن معاونًا لمجلس الشيوخ كان يعمل فى إمداد المجاهدين بصواريخ ستينجر وأسلحة أخرى، هو ميشيل بيلسبيرى، قد احتفظ بعلاقة وثيقة مع الرئيس الأسمى للبى سى سى آى محمد محمود " . وأخيرًا أعلنت الإن بى سى، فى ٢٣ فبراير ١٩٩٢، أن أغا حسان عبيدى كان يقابل مدير المخابرات الأمريكية، ويليام كاسى، " سرًا مدة ثلاث سنوات فى فندق واشنطن ماديسون، بعد أن أقر مدير المخابرات الأمريكية بالإنابة، بالتواطؤ بين الوكالة والبى سى سى آى .

وكلما ازدادت المعرفة بالصورة وضوحًا، زاد وضوح العلاقة بين البى سى سى آى والمخابرات الأمريكية، كان سابقًا على الجهاد الأفغانى، كان البى سى سى آى مجرى منتظمًا استخدمته الاستخبارات السعودية لتحويل الأموال إلى عمليات المخابرات الأمريكية السرية ، كان من المعروف أن الأموال السعودية تودع بانتظام فى الحسابات السرية للبى سى سى آى فى سويسرا ولندن وميامى، لاستخدام وكلاء المخابرات الأمريكية فى أفريقيا الجنوبية وأمريكا الوسطى . وقد وضعت تحقيقات الكونجرس قائمة بعدد كبير من المسئولين الأمريكيين والأجانب الذين كانوا يترددون داخلين خارجين من البى سى سى آى فى أوقات حاسمة من تاريخه ". وقد اشتملت الأسماء على المديرين السابقين للمخابرات الأمريكية، ريتشارد هيلمز، ويليام كاسى، وعملاء للولايات المتحدة، أجانب وأساسيين، مثل عدنان خاشوجى ومانوشر غوربا نيفار، ورسميين فى الاستخبارات السعودية مثل كمال أدهم وعبد الرؤوف خليل، وقد كُشفت الصلة السعودية بالبى سى سى آى[٥٢] فى الاتفاق القضائى الذى تم التوصل إليه فى المحاكمة الفيدرالية عام ١٩٩٢، فى نيويورك، عندما أقر كمال أدهم رئيس

الاستخبارات السعودية بجرمه أمام تهم التآمر، ووافق على دفع غـرامـة قدرها ١٠٥ مليون دولار، وأن يكشف عن تورط البى سى سى آى فى بعض العمليات الكونية، ولكن ليس قبل أن يُلَمِّح محاموه ومساعدوهم إلى أن المزيد من " أعمال الفضح عن أفغانستان " كان يمكن أن تجىء دون اتفاق قضائى .

تكلفة باكستان :

كان للجهاد الأفغانى أثر عميق على دولة باكستان ومجتمعها، أكثر مما كان له على أى بلد آخر خارج أفغانستان . وقد ادعى العسكريون أن تأسيس دولة الأمن القومى، يجب أن يعنى فى الحقيقة بناء دولة إسلامية . كان ضياء الحق[٥٣] مقتنعًا أن باكستان لن تواصل الحياة، ما لم يخضع نظامها لمثل ما تخضع له إسرائيل : " إن باكستان مثل إسرائيل، دولة أيديولوجية، حيث إن نزع اليهودية من إسرائيل معناه أن تنهار مثل منزل من أوراق اللعب، انزع الإسلام من باكستان، واجعلها دولة علمانية تنهار . لقد كنا نحاول خلال السنين الأربع الماضية المجىء بالقيم الإسلامية إلى هذا البلد". كان الأمر الحتمى واضحًا، أن باكستان سوف تتماسك فقط بمشروع أيديولوجى .

كان قلب دولة الأمن القومى هو الآى إس آى، كذلك الوكالة التنفيذية للجهاد الأفغانى. كانت المخابرات الأمريكية واعية، وقد أضفت صفة الوكالة على جهادها، إلا أنها فى حاجة إلى التعاون الكلى للآى إس آى، حتى تكون فعالة فى أفغانستان، وبصورة أكثر عمومية فى آسيا الوسطى السوفيتية . وكلما ازداد نمو الجهاد المعادى للسوفييت، ازداد تحرك الآى سى آى إلى مركز السلطة الحكومية فى باكستان . إن أسلمة النضال المعادى للسوفييت قد أوحت بأسلمة دولة باكستان فى ظل ضياء، مما أدى بدوره إلى دعمها وتعزيزها. لقد نظرت آى إس آى إلى نفسها كمدافع عن الإسلام والقيِّم عليه . وقد تواصلت أسلمة وكالات الدولة بعد موت ضياء وظلت قوانين التجديف، وبالمثل " حدود الشرع ١٩٧٩ "، والتى أكدت بصورة غير عادية على العقاب البدنى، واتجهت إلى إخضاع السلطة القضائية للسيطرة التنفيذية،

وغدت " جماعة علماء الإسلام " (جيه يو آى) . وهى طرف رئيسى فى التحالف المساند للجهاد الأفغانى، غدت جزءًا من ائتلاف حكومة بنازير بوتو عام ١٩٩٣ . كانت جماعة العلماء هى حزب "الديوبانديين الباكستانيين"، وكانت هى راعية طالبان، الناتج الأيديولوجى لمدرسة "الديوباندى". إن دخول الحكومة أعطى للجماعة الفرصة الأولى لإقامة علاقات وثيقة مع كل من الآى إس آى والجيش . وسرعان ما جاء الحصاد(٥٤) بعد ذلك : عندما استولت طالبان على السلطة فى كابول عام ١٩٩٥ وسلمت معسكرات التدريب لجماعة علماء الإسلام .

إن عمليتين مترابطتين قد كثفتا الأثر السلبى لدولة باكستان على مجتمعها . فقد أعطت العلاقات الحميمة للمخابرات الأمريكية مع الآى إس آى، سبيلاً للأخيرة لتصل إلى مستوى التطور الذى تم التوصل إليه فى مجال الرقابة والسيطرة، مما سمح لها برصد الشعب الباكستانى عن كثب، كذلك أيضًا سهولة إتاحة الأسلحة، مما أدى إلى تكاثر الفرق الانشقاقية المسلحة، وقد ارتبطت " بثقافة الكلاشينكوف" . وكان فى المركز، من تأثير الآى إس آى، على المجتمع الباكستانى، رعايتها لعدد من المنظمات الجهادية . والتى كانت فى الحقيقة قوى على النمط العسكرى، تطالب بالحجاب الإسلامى . إن المجموعتين الأكثر أهمية فى تلك المجموعات "لاشكار الطيبة" (جند المدينة) و" حركة الأنصار " (حركة المتطوعين). وقد قدر عدد لاشكار الطيبة بخمسين ألف مقاتل، وكانت تلك هى المجموعة القائدة فى الجهاد، "لتحرير كشمير الهندية" . لقد تم تشكيل " حركة الأنصار " لدعم الجهاد الأفغانى، وكان أعضاؤها الأكثر تكريسًا لطالبان وكان قائدها هو أسامة بن لادن، وكانت الولايات المتحدة تقوم بتمويلها، ذات يوم وقد غيرت اسمها إلى حركة المجاهدين، فور إعلان الولايات المتحدة أنها تنظيم إرهابى(٥٥) عام ٢٠٠١ ، وواصلت العمل دون أن تفقد أى موقع ومن ثم أُلحق الجهاد الأفغانى بالجهاد الكشميرى .

لم تغلق المدارس الدينية بعد انسحاب السوفييت من أفغانستان فى فبراير ١٩٨٩، وعُرف خريجو هذه المدارس الدينية، فيما بعد السوفييت، بـ " الموجة الثانية " من المحاربين. وقد أجرت لوس أنجلوس تايمز حديثًا مع واحد منهم، يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا،

هو افتكار حيدر . إن قصة حياته تعطينا لمحة عن نوع الحافز الذى يمكن أن يقود شابًا إلى صفوف الجهاد : " كان الطفل الوحيد(٥٦) لعائلة فقيرة فرت من الهند إلى جوجرا نوالا فى باكستان، بعد أن فقدت مزرعتها وغالبية أعضائها فى حمام دم تقسيم الهند، وكبر " حيدر " وهو يسمع حكايات مخيفة عن وحشية الهندوس والسيخ نحو المسلمين من والده، الذى كان عاملاً متواضع الدخل فى الإدارة الزراعية بالحكومة " . ومر حيدر بتدريبه الأول عام ١٩٩٠ وتحولت حياته بصورة بالغة الأهمية فى ديسمبر ١٩٩٢، يوم أن " هدم متعصبون من رعاع الهندوس فى أيودهيا، فى شمال الهند مسجدًا غير مستخدم، بُنى على موقع كان الإله الهندوسى كينج رام قد وُلد فيه " . وقد توفى اثنا عشر ألف شخص، أغلبهم من المسلمين، فى الشهر الذى حدث فيه اضطراب عام إثر تلك الحادثة، وسجل حيدر نفسه فى فبراير التالى فى " مركز الدعوة والإرشاد "، وهو واحد من مجموعات الجهاد، وانسل إلى كشمير التى تديرها الهند، وقُتل اثنان من رفاق سلاحه، غير أن حيدر أُسر ووضع محاصرًا فى سجن عالى الجدران فى كوت بهالوال خارج " جامو " فى كشمير الجنوبية، حيث جرى لقاء لوس أنجيلوس تايمز معه، وكان وهو فى الأسر. " يقظًا، صافى العين، غير نادم " . وقد أخبر الصحفى " أن ديننا يقول إن كل من كان قاهرًا يجب محاربته حتى وإن كان مسلمًا، مثل الرئيس المصرى أو الرئيس الليبى يجب علينا محاربته . إن مركز الدعوة والإرشاد سوف يحارب دفاعًا عن المقهورين، حيثما يوجد قهر " بدا " حيدر للصحفى الذى أجرى الحوار معه و " كأنه نسخة من توم جواد بطل رواية جون شتاينبك " عناقيد الغضب " .

وكلما نمت ثقافة الجهاد، زاد اشتعال الخلافات العقائدية داخل باكستان، متحولة إلى خلافات سياسية يجرى تسويتها عبر مواجهات مسلحة . وقد طورت كل من الطائفتين الدينيتين الكبيرتين(٥٧) السُنة والشيعة – مجموعتيهما شبه العسكرية خلال الثمانينيات . فقد نظم السُنة " جند الخلفاء " ورد الشيعة بالمثل بـ " جند محمد ". وعندما ثار النزاع الطائفى، تحول المجتمع الباكستانى إلى عنصر صغير من

أفغانستان . واتجهت ثقافة الجهاد الباكستانى، كما فى أفغانستان، إلى المضى يدًا فى يد، مع ثقافة المخدرات، وكان تأثير الهيروين والأفيون مدمرًا. إن زيادة المعالجة المحلية للهيرويين قد أدت مباشرة إلى زيادة استهلاكه المحلى، وقد ارتفع عدد مدمنى الهيروين المسجلين رسميًا(٥٨) فى باكستان من ١٣٠ عام ١٩٧٧ إلى ٣٠٠٠٠ عام ١٩٨٨، غير أن برنامج الأمم المتحدة للتحكم فى المخدرات قدر أن عدد السكان المدمنين للهيروين فعليًا كان شيئًا لا يلتفت إليه عام ١٩٧٩، وارتفع إلى ١,٣ مليون عام ١٩٨٥، " ارتفاعًا أكثر حدة من أى أمة [أخرى] "، وارتفاع تقدير برنامج الأمم المتحدة للتحكم فى المخدرات (يو إن أى دى سى بى) عام ١٩٩٧ إلى ١,٧ مليون مدمن، وحيث إن المجتمع الباكستانى يتشكل من مزيج العسكرة وثقافة مخدرات سريعة الانتشار، فقد أصبح واضحًا أنه حتى فى حالة انتهاء الجهاد الأفغانى، فإن آثاره على المجتمع الباكستانى لم تنته .

الحصيلة : طالبان

إن "المخابرات الأمريكية" لم تبذل جهدًا لتنشئ منظمة واحدة من آلاف المجموعات من المجاهدين الأفغان، وقد جاء هذا نتيجة الصفة الطائفية الأيديولوجية الإسلامية للغاية التى هيمنت على الجهاد الأفغانى، هذا من ناحية، وهنالك من ناحية أخرى الأهداف السياسية التى قادت الأمريكيين .

كانت هنالك، إجمالاً سبع مجموعات من المجاهدين عكست كل أنواع الانشقاقات الداخلية والخارجية، والتى تعرضت لها المقاومة الأفغانية، وكانت الاختلافات الداخلية فى الجهاد الأفغانى من نوعين مختلفين؛ الأول اختلافات إقليمية (شمال إزاء جنوب) ولغوية (فارسى إزاء باشتونى)، وإثنية (باشتونى إزاء غير الباشتونى). وقد عالج المجتمع الأفغانى، تاريخيًا، تنوعه الثقافى، عبر نظام حكم ومجتمع يقوم على لامركزية عالية. إن مشروع دولة متمركزة، كان يمكن أن يفاقم

الأوضاع أكثر من احتوائه لتلك الخلافات، ودرس التاريخ واضح : ليست هنالك حاجة لترجمة الخلافات الثقافية إلى خلافات سياسية .

لقد ثار نوع مختلف من الانقسام الداخلى بسبب الخلافات العقائدية، كما حدث بين الشيعة والسنة، حيث إن التمايزات العقائدية أيضًا يجب ألا تترجم إلى اختلافات أيديولوجية وسياسية . إن حدوث هذا، إنما كان نتيجة مباشرة لطبيعة الأيديولوجية السياسية التى هيمنت على السياسات الأفغانية والدولة . إن الاختلاف الأيديولوجى الذى هيمن على مجموعات المجاهدين السبع، كان بين وجهتى نظر سياسيتين : القوميين التقليديين والأيديولوجيين الإسلاميين . لقد جاء التقليديون عامة من القيادة المتدينة، بينما جاء الأيديولوجيون أساسًا من صفوف المثقفين السياسيين، واتجه التقليديون إلى التعامل مع التمايزات العقائدية مثل تلك التى بين الشيعة والسنة باعتبارها غير سياسية، وكان اتجاه الأيديولوجيين، على نقيض ذلك، هو تحويل الاختلافات العقائدية والثقافية إلى تقسيمات سياسية . وحتى نفهم لماذا ظهر الأيديولوجيون الإسلاميون - وليس المسلمين التقليديين - كمسئولين عن أفغانستان، عبر الحرب الأهلية، فإنه علينا أن نفهم، ليس فقط التركيب الداخلى الذى كان عليه المجتمع الأفغانى ولكن أيضًا كيف لعبت القوى الخارجية على هذه الاختلافات الداخلية .

إن هدفين أسياسيين، أحدهما إقليمى والآخر كونى، قد شكلا سياسة الولايات المتحدة فى أفغانستان، وكان الهدف الإقليمى هو احتواء نفوذ الثورة الإيرانية، وقد تحقق ذلك مع تحالفين إقليميين ضد إيران، أحدهما كان مع باكستان والمملكة العربية السعودية، والآخر مع العراق، وحيثما رأت الولايات المتحدة فى الحركات الإسلامية الاجتماعية تهديدًا لها، فإنها كانت شغوفة بتقوية مشروعات الدولة الإسلامية - السنية وتعزيزها وليست الشيعية . إن هذه الاستراتيجية الأمريكية وفرت فرصة لوكالتى الاستخبارات الباكستانية والمملكة العربية السعودية لإنجاح المذاهب السنية المعادية للشيعة،

بصورة مبالغ فيها، وكانت العقيدة الرئيسية هى العقيدة الوهابية من المملكة العربية السعودية والعقيدة الديوباندية من باكستان .

إن التحول الاستراتيجي، فى منظور الولايات المتحدة، عندما تقدمت الحرب الباردة من الاحتواء إلى الانحسار فى تطابق مع الانتقال من رئاسة كارتر إلى رئاسة ريجان، لم تظهر إدارة ريجان، وهى مصرة على زيادة عدد الروس القتلى فى أفغانستان، أى اهتمام بتسوية تقوم على التفاوض أو المساومة . لقد أرادت أن تتحالف مع الأيديولوجيين الدوليين المحاربيين الإسلاميين المعادين للشيوعية، أكثر من تحالفها مع المسلمين البراجماتيين المعتدلين، وهى رؤية شاركتها فيها "الآى إس آى". لقد بدا كلاهما غير مهتم بالوطنية الأفغانية: الولايات المتحدة لأنها كانت تخشى احتمال وصول الوطنيين إلى تنازلات إزاء الحرب المعادية للسوفييت وباكستان، لأنها كانت تخشى أن تتسبب الوطنية الباشتونية فى تآكل وحدة أراضيها. إن هذه الرؤية التى يتشاركها الراعى والوكيل؛ "المخابرات الأمريكية"، والآى إس آى، قد همشت بصورة مؤثرة المنظمات الإسلامية الوطنية / التقليدية، ذات الاتجاه السائد، ورفعت عاليًا الأقسام الأيديولوجية، وإن كانت منفية، حتى وإن كانت على حواشى المجتمع الأفغانى، كانت الحقيقة البسيطة، أنه بينما أدرك التقليديون أن نضالهم يجرى فى إطار وطنى للمرجعية، فإن الأيديولوجيين قد وجدوا قصدهم فى النضال باعتباره بداية جهاد دولى .

وقد اتجه المراقبون قريبو الصلة بالجهاد الأفغانى، إلى الوصول إلى نتيجة مفادها أن الآى إس آى كانت قادرة على الاستفادة من وضعها كعميل وحيد كى تضع أولويتها، الخاصة بدولة مركزية للإسلام السياسى، فى التطبيق، بينما كان المجرى الأمريكى للعمل يقوم على التهاون فى ذلك، ومن ثم كتب أحمد راشد(٥٩) :

> **عندما كانت "المخابرات الأمريكية" ترسل الأسلحة إلى المجاهدين الأفغان عبر استخبارات الخدمات الاستخبارية البينية الباكستانية (الآى إس آى)، كانت أولوية الآى إس آى تتمثل فى الأحزاب الأفغانية الإسلامية الراديكالية،**

والتى يمكن تحويلها بيسر أكثر إلى آلة للجهاد المعادى للسوفييت ودفعت جانبًا بالوطنيين الأفغان المعتدلين والأحزاب الإسلامية، ولم تعترض المخابرات الأمريكية فى ذلك الوقت على هذه السياسة .

غير أن غياب هدف مقرر للمخابرات الأمريكية، لم يكن يعنى افتقاد أولوية واضحة لها، ومما يبرر السخرية أن هذا الهدف كان أساسيًا لسياسة الولايات المتحدة حتى إنه أدى إلى مستوى عال من التسامح، من قبل مجموعات لم تكن ميالة بصورة خاصة جيدة للولايات المتحدة . فقد رفض قلب الدين حكمتيار، مبكرًا عام ١٩٨٥[٦٠]، وخلال زيارة لمخاطبة الأمم المتحدة، مقابلة الرئيس ريجان قائلاً " إن رؤيتى فى مقابلة مع ريجان سوف تخدم الكى جى بى والدعاية السوفيتية " والتى " أصرت على أن الحرب لم تكن جهاداً، لكن مجرد امتداد لاستراتيجية الولايات المتحدة للحرب الباردة " .

كانت مجموعات المقاومة السبع التى شكلت الجهاد الأفغانى منقسمة إلى كوكبتين سياسيتين متعارضتين، واحدة من القوميين التقليديين والثانية إسلامية . وقد صور " بارنت روبين[٦١] " تشكيلها التاريخى، ومنظورها السياسى ببعض التفصيل . إن قيادة الكتلة التقليدية جاءت من النخبة التاريخية للأفغان، الذين إما كانوا رؤساء للطرق الصوفية (القادرية أو الطريقة النقشبندية) أو العلماء التقليديين (العلماء الشرعيون) المتضلعون فى فلسفة التشريع الإسلامى . إن أحداً من هذه المجموعات الثلاث لم يتلق أى عون له قيمته، والجبهة القومية الإسلامية الأفغانية والتى يقودها زعيم الطريقة القادرية الصوفية كانت تعتبر أيضًا " قومية " و" غير كُفء إسلاميًا " لتسلم أموالاً، وكانت تقود الجبهة القومية لتحرير الأفغان العائلة التى تقود الطريقة النقشبندية. كانت أقرب إلى أن تكون مجموعة معتدلة، أخذت على نفسها عهداً بالدفاع عن " التقاليد القومية، وتأسيس " مجتمع إسلامى ، وهى أيضًا " بالكاد وجدت كقوة عسكرية " . إن المجموعة القومية التقليدية الوحيدة، ذات الوجود العسكرى فوق الأرض، كانت تسمى " حركة الثورة الإسلامية "، يقودها عالم مبجل أدار كُلاً من مدرسة تقليدية كبيرة، وأشرف على أراض شاسعة . وكان قادتها

[وخاصة المُلاّ نسيم آخو ندزادا بوادى هيلماند] من بين أكبر لوردات المخدرات داخل أفغانستان أيضًا .

وفى تضاد، مع تلك المجموعات الثلاث القومية - التقليدية، التى جاء قادتها من النخبة الأفغانية القبلية والدينية التاريخية، جاء قادة المجموعة الرابعة من الطلبة ونشطاء الكلية فى الجمعية الإسلامية، المنظمة الإسلامية الآب، فى جامعة كابول، فى السبعينيات . وجاء الانقسام الأول على الجمعية عام ١٩٧٥، وأدى إلى تشكيل " حزب حكمتيار الإسلامى " (الحزب) . وأدى انقسام لاحق عن الحزب إلى تشكيل انشقاق " الخاليس " . وكان يقود المنظمة الإسلامية الرابعة عبد رب الرسول سياف، والذى درس فى جامعة الأزهر بالقاهرة، ثم التحق بكلية الشريعة (القانون) فى جامعة كابول وكان نائب برهان الدين ربانى فى الجمعية فى السبعينيات .

إن الحزبين الرئيسيين فى الكوكبة الإسلامية كانا " الجمعية " و " الحزب "، وتحولت الجمعية بعد انقسام الحزب إلى " الصوت الرئيسى لغير الباشتون، وخاصة المتحدثين بالفارسية "، وكان القادة الميدانيون للجمعية يتمتعون بالحكم الذاتى، ويتحكمون فى أسلحة رجالهم. وقد تطورت الجمعية، تحت قيادة أكثر القادة نجاحًا، أحمد شاه مسعود، إلى " حزب المقاومة الأكثر قوة "، عبر مجرى الحرب. ومع ذلك، لم تكن الجمعية هى الملتقى المفضل لدعم "المخابرات الأمريكية" .

وكان هنالك سبب مهم لهذا: كانت الجمعية تمثل مركزًا معتدلاً فى السياسات الإسلامية، وكانت "المخابرات الأمريكية" تدعم، ليس فقط الإيديولوجيين الإسلاميين، ولكن أيضًا المتطرفين على المعتدلين .

كان الفريق المتطرف الأساسى هو " الحزب " الذى " مثَّل الجزء الأشد راديكالية لحركة الطلاب " . وكان " الأكثر ثورية والأكثر تنظيمًا فى الأحزاب الإسلامية " . كان لقلب الدين حكمتيار، على غير مثال القادة الآخرين للجمعية، خلفية سياسية تشتمل على المشاركة فى كل من الحركتين الشيوعية والإسلامية، وكان قد بدأ الحياة السياسية، فى المدرسة العليا، كعضو فى جماعة " برشام " للحزب الشيوعى، ثم ذهب

إلى " حركة الشباب المسلم " . ويعجب المرء، هل جاء حكمتيار بنظام منظمات الشباب الشيوعية إلى " الحزب "، إذ كان " الحزب مميزاً عن الأحزاب الإسلامية الأخرى بتنظيمه الحديث . كان يشدد على تفوق السلطة العليا للحزب على الأفراد، على الولاء للقادة الأفراد، ولذا كانت الأسلحة ملكًا للحزب وليست ملكية القادة الأفراد، كما في باقي المنظمات الأخرى . كان التجنيد والتعزيز يقومان على الأيديولوجية والمهارات الفردية أكثر من قيامهما على أرضية اجتماعية، وكان الحزب أيضًا هو الحزب الوحيد الذي تجري فيه انتخابات داخلية للقادة، وإن كان حق التصويت مقصوراً على الأعضاء الذين التحقوا به قبل الانقلاب الشيوعي عام ١٩٧٨ . وقد جاء في رأي " روبين " أن إسلام حكمتيار الراديكالي (ومن ثم عداءه للشيوعية)، والتنظيم المتفوق لحزبه، قد جعلا " الحزب " ليس فقط كالتنظيم المفضل عند الإسلاميين الباكستانيين والعرب، بما في ذلك ضباط الآي سي آي، ولكن كالتنظيم المفضل أيضًا عند الجنرالات الباكستانيين المعتدلين وجناح المخابرات الأمريكية للعمليات ". ولقد قدم هذا التفضيل وسيلة متميزة إلى معسكرات اللاجئين الأفغان في باكستان، وإلى المساعدة الأمريكية للاجئين ولمدارس اللاجئين، وقد رأينا أيضًا أن حكمتيار كان لورد مخدرات يمتلك سبعة مصانع لمعالجة الهيروين على الجانب الباكستاني من الحدود ومع ذلك، فقد كان هو المتلقي لأكثر من نصف أموال المخابرات الأمريكية، والتي قدرت بـ ٢ مليار دولار عبر سنوات الحرب العشر، ولم يكن الحزب هو الأكثر نشاطًا في حرب العصابات، وهي حقيقة أدت إلى تشكيل مجموعة منشقة انشقاق " الخاليس " والذي دعى إلى مشاركة أكبر في حرب العصابات .

أما فيما يتعلق بالوحدة، فإن غالبية المبادرات جاءت من أفراد خارج المخابرات الأمريكية / آي سي آي، والإسلاميين الراديكاليين الذين يرعونهم . وعادة ما جاءت العروض الجادة من معتدلين داخل المملكة العربية السعودية، باستثناء أن اهتمام السعودية كان مقصوراً على تحالف وراء قائدهم المفضل سياف . كان الجهد السعودي الأول للوحدة في عام ١٩٨١ . وقد أدى هذا الجهد إلى تحالف قصير[٦٢]، انتهى، وغادرته الأحزاب الثلاثة القومية التقليدية، وقد شكت من

الفساد والتمييز المفرط الذى يقوم به سياف، وظلت فقط، بقايا من هذه الأحزاب، تمت غوايتها بعطر المال السعودى، هذا هو السبب فى أنه رغم حقيقة بقاء أربعة تنظيمات فقط فى التحالف، فإن السجل يقول إنه كان التحالف المفضل للآى سى آى باعتباره " بيشاور سبعة " . وفيما بعد عندما اقترح قادة القوميين التقليديين أن يكونوا معًا، فى ظل وحدة يقودها مثل " الملك زاهر "، فأحجمت باكستان عن مغازلة القومية الأفغانية، وأصرت على وضع شخص إسلامى فى السلطة فى كابول، ورفضت أن تقدم لزاهر تأشيرة دخول، وواصلت الوحدة بين الإسلاميين مراوغتها، وقد اعترف قادة التمرد(٦٣) لمسئولى الولايات المتحدة فى أوائل ١٩٧٩ أن محاولة خلق مقاومة أفغانية موحدة كانت مثل " وضع خمسة حيوانات مختلفة فى قفص واحد " .

كان على الولايات المتحدة وحلفائها، فى هذا الوضع، الذى تعاون فيه أمريكا مجموعات لا تلقى دعمًا داخليًا أو إمكانية تنظيم هذا الدعم، مساعدة آلاف مؤلفة من المجموعات حتى إن كان ذلك فقط من أجل ضمان مواصلة الجهاد للحصول على فرصة سهلة، وتحول دعم المجموعات المختلفة إلى دعم حروب عدة تخوضها المجموعات المتنافسة، وكان هذا هو السبب فى دعم المخابرات الأمريكية الجهاد الذى تحول إلى حرب أهلية، ما إن انسحب الجيش السوفيتى من أفغانستان، وبدا النصر فى متناول اليد. لقد قاد الانسحاب السوفيتى عام ١٩٨٩، مع تهميش القوميين التقليديين، إلى معركة بين المجموعات الإسلامية المختلفة، مع إغراء للمتطرفين بقيادة قلب الدين حكمتيار و " الحزب "، ضد المعتدلين فى " الجمعية، بقيادة برهان الدين ربانى، وقائده الميدانى الناجح بصورة رائعة أحمد شاه مسعود، وعندما ذكرت الصحف العالمية(٦٤) أن حكمتيار قد ذبح ثلاثين عضوًا فى مجموعة مجاهدين منافسين، غضب رئيس الحكومة المؤقتة غضبًا شديدًا حتى إنه شهَّر بحكمتيار، الذى كان حينذاك وزير خارجيته باعتباره " مجرمًا " و " إرهابيًا " .

بلغت الحرب ذروتها في معركة اتسمت بالتأرجح والذبذبة من أجل كابول، وغدت الحرب الأهلية حربًا خبيثة . ولما بدا واضحًا أن قوات حكمتيار تفقد الأرض، حول الجيش الباكستاني دعمه إلى طالبان، وهي مجموعة تتكون أساسًا من طلبة قام هو بتدريبهم في المدارس في شمال غرب الإقليم الحدودي منذ عام ١٩٨٠ . لقد رأت الآي إس آي أن طالبان، باعتبارها خاضعة لسيطرة شديدة، فإنها، من ثم، بديل أفضل لما هو الآن تحالف إسلامي يفتقد المصداقية بقيادة حكمتيار، وبانتهاء الحرب الباردة ضاقت أيضًا بؤرة تركيز المسئولين الأمريكيين إلى بُعد نقدي مالي : النفط . أما بالنسبة للمصالح النفطية الأمريكية، وخاصة "يونوكال"، شركة النفط العملاقة التي كانت تأمل في بناء خط أنابيب عبر أفغانستان، يمتد من وسط آسيا إلى المحيط الهندي، كبديل عن المضي عبر إيران، فقد كان يمكن لأية مجموعة توفر الأمان في أفغانستان أن تؤدي الغرض، وقد كتبت لوس أنجيلوس تايمز في ٤ أكتوبر ١٩٩٦[٦٥]، ثمة إشاعة تدور في كابول – " أن العديد على ثقة من أن إدارة كلينتون تدعم الطالبان، الميليشا الإسلامية المنتصرة – وأضافت أن نظرية المؤامرة كانت مقبولة ظاهريًا "، وقد اتسمت بالغموض الكبير الذي حجب صعود طالبان وسرعة تقدمها: كيف أمكن لقوة هشة ظهرت في أواخر ١٩٩٤بين الطلبة المتدينين المسلمين في المنطقة الجنوبية في قندهار، والمناطق القريبة من باكستان، ونمت فيها سريعًا، حتى إنها سيطرت، بعد عامين على ثلاثة أرباع أفغانستان؟ من الذي دفع لإمدادها بالأسلحة والذخائر والمركبات ؟ من الذي نظَّم تدريبها ووفر الإعاشة لها ؟ هل المعونة الاستخباراتية أو العسكرية التي تم تسلمها من الخارج، كانت أحد أسباب تمتع طالبان بالتفوق المذهل، دون دماء، على المجاهدين المدربين الذين حاربوا قرابة عقد قوات الاحتلال السوفيتية ؟ وقد ذكرت " الدعم الكريم " من باكستان، غير أنها كانت لا تزال مندهشة، تتساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة قد شاركت في هذا الدعم، وقد قال مسئول له مكانته في الأمم المتحدة : " إن الولايات المتحدة تحتاج إلى القانون

والنظام فى أفغانستان، وتبدو طالبان الآن أشبه بأفضل رهان " وكان مدير محلى لمؤسسة خيرية أجنبية قد تهكم بالصورة نفسها : " هنالك شيئان مختلفان مصالح الدولة الأمريكية وحقوق الإنسان . إن حقوق الإنسان، بالنسبة للسياسيين الذين يديرون أمريكا، تحتل المرتبة الثانية "، وقد سأل خرّيج من جامعة كابول، كان يعمل مترجمًا، الصحفي: " كيف يمكن لبلدك أن تتعامل مع أناس يجلدون نساءهم بالسوط؛ لأنهن لا يمتثلن فيرتدين الزى الذى يردن ؟ " وقد شرح دبلوماسى كبير من الولايات المتحدة، بعد لقاء وزارة الخارجية(٦٦) مع وفد من طالبان كان فى زيارتها، فى ٣ فبراير ١٩٩٧، وجهة نظر حكومته : " إن طالبان سوف تتطور، على الأرجح، مثل المملكة العربية السعودية، سوف تكون هنالك أرامكو وخطوط أنابيب وأمير ولن يكون هنالك برلمان وسوف تكون هنالك كميات من قوانين الشريعة ونحن فى وسعنا أن نتعايش مع ذلك " .

إن كانت تنويعة مجموعات المجاهدين، هى الناتج الأيديولوجى للحرب الباردة - ناتج دربته، وأمدته بالمعدات، ومولته، "المخابرات الأمريكية" وحلفاؤها الإقليميون - فإن طلبان قد نشأت من ألم الحرب ورماده ضد الاتحاد السوفيتى . لقد ولدت طالبان كحركة عبر الحدود فى باكستان، فى وقت كان فيه كل سكان أفغانستان قد أزيحوا، ليس لمرة واحدة، ولكن لعدة مرات، وعندما لم تعد هنالك طبقة متعلمة تتحدث عما يجرى فى البلاد . إن " الطالب " هو دارس فى مدرسة دينية، والحركة حركة طلاب . لقد ولدت طالبان من الحرب التى امتدت عبر عقود، من أطفال ولدوا فى معسكرات اللاجئين عبر الحدود، من أيتام ذكور، لا يعرفون صداقة غير صداقة الصبية الآخرين فى المدرسة، والتى قدمت فى الأساس مجندين طلاب للدفاع عن السكان عمومًا - وياللسخرية، الدفاع عن النساء، والصبية الصغار بصورة خاصة - من شنق وسلب ونهب عصابات المجاهدين. ودون إدراك أن طالبان قد قدمت الحماية الفعالة للسكان، ضد أفعال قلب الدين حكميتار، ولوردات الحرب الذين تحولوا إلى لوردات مخدرات، فإنه يصبح من

الصعب فهم لماذا استدار السكان إلى طالبان . إن الوعد الذى جعل لطالبان شعبية وجاء بها إلى السلطة هو أنها سوف تقيم القانون والنظام، وكانت المأساة رغم ذلك، هى أن طالبان قد ولدت فى مجتمع صفته الوحشية، لتجعل هذا المجتمع أكثر وحشية . وقد قال رجل عجوز، لـ " إقبال أحمد "، فى جامع[٦٧] فى قندهار، أطلال معمارية لمدينة قديمة من حدائق ونافورات وقصور، حول طالبان " لقد شبوا فى الظلام وسط الموت، إنهم غاضبون وعديمو الدراية، ويكرهون كل شىء يجىء بالفرحة إلى الحياة " .

وقد لاحظ أحمد راشد أن " طالبان، لا تعكس أيًا من الاتجاهات الإسلامية الكبرى التى كانت سائدة مبكرًا فى أفغانستان، أو تلك التى ظهرت فى أثناء الجهاد فى الثمانينيات ". إن أحد الدوافع الثلاثة التى حددت الإسلام وعرفته فى آسيا الوسطى، وما اكتنفها، أمكن العثور عليه فى طالبان. إنهم لم يتبعوا الطرائق التى اتبعتها آسيا الوسطى الإسلام الخفى للصوفية، أو الإسلام المتبحر فى العلم للعلماء، وهم لم يكونوا موضع إلهام للراديكالية الاجتماعية والسياسية لمجموعة الإسلام السياسى. التى ولدت فى بداية القرن العشرين، جمعية الإخوان المسلمين، وهى التى كانت أقرب إلى الإسلاميين المعتدلين، الذين تقودهم الجمعية ". كانت أيديولوجيتهم هى أيديولوجية الإسلام الديوباندى المستوردة من باكستان. كانت الأجندة العالمية لطالبان تتبين، وبالمثل تتلاءم مع، وتستخدم ما كان جاهزًا من أسس يقوم عليها تحالف أسامة بن لادن والقاعدة. وقد جاء على لسان أحمد راشد[٦٩] " أن عشرات الآلاف من الباكستانيين المحاربين، والآلاف من آسيا الوسطى، والعرب والأفارقة، ومن شرق آسيا الذين حاربوا مع طالبان، منذ ذلك الوقت، قد جلبوا معهم منظورًا كونيًا للراديكالية الإسلامية وهو ما تبنته طالبان وكأنها صاحبته ".

إن كل هؤلاء الذين رأوا فى طالبان حركة إسلامية، وهؤلاء الذين رأوا فيها حركة قبلية (باشتون)، قد نظروا إليها باعتبارها بقية من ما قبل الحداثة، فى

عالم الحداثة غير أنهم افتقدوا النقطة الحاسمة فيما يتعلق بطالبان؛ إذ حتى لو أنها استدعت ما قبل الحداثة فى لغتها الخاصة وفى ممارسات بذاتها، فإن طالبان جاءت نتيجة صدام بين أناس مما قبل الحداثة مع إمبريالية حديثة، وعندما سألت خريجين، أحدهما أفغانى والآخر أمريكى دارس لأفغانستان، كيف يمكن لحركة بدأت مدافعة عن المرأة والشباب، أن تتحول ضد كليهما، قالا إنه علىّ أن أضع هذه النتيجة فى سياق ثلاثى: أولاً، تجربة إنصاف الجند الذى فرضه الشيوعيون، وثانيًا ، دمج فصل الذكر تقليديًا فى المدارس مع عسكرية تدريب الجهاد، وأخيراً، خوف قادة طالبان من تحول أعضائهم إلى مغتصبين متبعين فى ذلك النموذج قبيح السمعة للمجاهدين. وقد أقر إقبال أحمد بمأساة الشعب الأفغانى، الذى تواءم تاريخيًا مع نموذج للحياة عالى اللامركزية والمحلية، ثم أخضع لمشروعى دولة، شديد المركزية، خلال الحرب الباردة : الأول ماركسى يدعمه السوفيت، ثم أسلمة تدعمها المخابرات الأمريكية. " إن أيديولوجيات الحرب[٧٢] - الماركسية والأصولية - أيديولوجيات غريبة على الثقافة الأفغانية "، هكذا، كتب عام ١٩٩١: " إن أفغانستان مجتمع متنوع متعدد، والأجندات القائمة على إخضاعه للمركزية والتوحد، لا يمكن أن تتوافق معه " .

تكلفه العالم الإسلامى

كانت المخابرات الأمريكية هى الأساس فى ضناعة الرباط بين الإسلام والإرهاب فى آسيا الوسطى، وفى منح الإسلاميين الراديكاليين منالاً ومطمحًا . وقد تشاركت المجموعة التى دربتها ورعتها فى احتضان أمور ثلاثة: تكتيكات الإرهاب، الحرب المقدسة كأيديولوجية سياسية، وتجنيد محاربين عبر قوميين، وقد اكتسب هؤلاء هويات ذات خلفية مختلطة أو متنوعة .

وقد تناثر عشرات الآلاف من مقاتلي الجهاد المدربين في الحرب الأفغانية مع نهاية الحرب، وتشهد التطورات اللاحقة، في مواقع متفاوتة، على الأثر الشامل للجهاد الأفغاني وكذا على أهمية التواريخ والمظالم المحلية . لقد حققت الحرب الأفغانية حلم أبو الأعلى وسيد قطب : لقد دربت وربطت معًا طليعة جهادية دولية من : الجزائريين - الأفغان، المصريين - الأفغان، الأندونيسيين الأفغان، الفلبينيين - الأفغان، البريطانيين - الأفغان وهكذا . كانت أهمية الطليعة في تشارك أعضائها تجربة صاغت منظورها الأيديولوجي والسياسي، غير أن المنظور المشترك لم يستطع ضمان متابعة محلية. إن هذه الحقيقة المفردة تفسر الفرق بين الجريمة والإرهاب السياسي: إن الإرهاب السياسي، على غير مثال الجريمة، يجب أن يسعى إلى دعم شعبي، وإنكار أن دعم تلك المجموعات الإرهابية يقتضي تناول المظالم -- ومن ثم القضايا -- مما يعطي الإرهابيين فرصًا عديدة لتجنيد التابعين. إن الإرهاب على غير مثال الجريمة، يجب أن يحارب سياسيًا وليس عسكريًا فقط، إن البعد السياسي للإرهاب والحرب ضده، يتضحان تمامًا من الأحداث القريبة التي وقعت في مصر والجزائر .

الجزائر :

كسبت جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس)، عندما عقدت الجزائر اقتراعها الأول، بعد الاستقلال عام ١٩٩١، ١٨٠ مقعدًا من ٢٣١ مقعدًا في الجولة الأولى . وكان لابد من عقد جولة ثانية لتقرير وضع أكثر من مائتي مقعد في ١٦ يناير ١٩٩٢ . وقد أثار ذلك حذر المؤسسة العلمانية، بما في ذلك " جبهة التحرير الوطني والجيش: ليس فقط، لأن الإسلاميين لا ينقصهم غير ثمانية وعشرين مقعدًا فقط لتحقيق الأغلبية بالفعل، ولكن لأنه كانت هناك، أيضًا إمكانية حقيقية للحصول على أغلبية الثلثين، مما يسمح لهم بإعادة كتابة

الدستور الجزائرى، وتقدم الجيش وأبطل العملية الانتخابية واستولى على السلطة. لم يكن الحزب الجزائرى الحاكم والجيش هما فقط من أصابهما الحذر، إذ شاركتهما قلقهما القوى الكولونيالية السابقة فى الجزائر، وفرنسا. إن قطاعات مهمة، من المجتمع السياسى فى فرنسا مشتملة على الكثيرين من اليساريين، دعموا طلب إبطال العملية الانتخابية فى الجزائر لمنع جبهة الإنقاذ الإسلامية - والتى كانوا يصفونها بـ " الفاشية الإسلامية " - من الوصول إلى السلطة.

لم تكن جبهة الإنقاذ الإسلامية ديمقراطية، غير أن كلاً من جبهة التحرير الوطنى والجيش لم يكونا كذلك أيضاً. إن جبهة الخلاص الإسلامية تمثل على أى حال الدعم الواضح لأغلبية الشعب الجزائرى، ولقد كان صعود جبهة الخلاص الإسلامية مؤشراً على دخول العنصر الإسلامى فى السياسة، غير أن ذلك العنصر لم يكن من الممكن مساواته بالإرهاب السياسى. إن الفرق بين الإسلام السياسى والإرهاب السياسى غدا واضحاً عندما هيأ أبطال العملية الانتخابية المسرح لبداية حرب أهلية حقيقية بين الإسلاميين والعلمانيين، كما حدث فى هذا السياق نزاع بين الاتجاهات الإسلامية السياسية المختلفة. وما إن أغلق الطريق البرلمانى، حتى ثار نقاش وصراع، من أجل السلطة، بين هؤلاء الذين فى قيادة جبهة الإنقاذ الإسلامية، الذين مهدوا هذا الطريق، وهؤلاء الذين فى المجموعة الإسلامية المسلحة (جى آى إيه) ومنظمات آخرى تدعو للجهاد المسلح باعتباره السبيل الوحيد لإقامة دولة إسلامية فى الجزئر.

كان الشاذلى بن جديد شخصية بارزة فى حركة الاستقلال الجزائرى، خدم ثلاث دورات كرئيس من ١٩٧٩ حتى استقالته فى يناير ١٩٩٢. إن جيلين مختلفين، كل منهما ناتج نضال مسلح، أثبتا أنهما أساسيان فى تشكيل مجموعات الإسلاميين المتطرفين، فيما بعد أزمة الشاذلى. اتجه الجيل الأكبر سناً إلى أن يشكل نفسه فى صورة خاصة للنضال الجزائرى الوحشى المسلح، من أجل الاستقلال الوطنى، ضد الكولونيالية الفرنسية، بعد الحرب العالمية الثانية. وتؤكد

تقارير من الجزائر، ليس فقط المحاولة، التى انعدمت فيها الرحمة تمامًا، والتى قامت بها الحكومة لقهر الثورة الإسلامية، لكنها تطرح أيضًا أسئلة عن مدى صحة نسبة كثير من المذابح إلى الإسلاميين، أو أنها بالفعل من عمل " عملاء استفزازيين " إننا، كالمعتاد، لا نستطيع تجاهل العلاقة بين إرهاب الدولة والإرهاب المجتمعى. وعندما يجيء الأمر إلى تنافى الإرهاب فى المجتمع، فإن تأثير الجزائريين – الأفغان المحنكين يبدو أكثر أهمية . إن عالم الاجتماع الجزائرى(٧٣)، محفوظ بن نون يصر على أن " نواة الحركة الإرهابية فى الجزائر قد حصلت على خبرة قتالية فى أفغانستان. ويقدر كولى(٧٤) أن" ما بين ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ جزائرى يحملون خبرة قتالية قد عادوا إلى الوطن "، وقد كتب جون داهلبرج فى التسعينيات(٧٥)، وكان مراسلاً للوس أنجيلوس تايمز، سيرة حياة بعض من أهم الشخصيات التى نذكر منها هنا ثلاثًا.

ربما كان أكثر القادة الذين خرجوا من صفوف الجزائريين – الأفغان أهمية هو " قمر الدين خربان " . لقد ترك خربان العسكرية الجزائرية عام ١٩٨٣ ليلحق بالمجاهدين – الأفغان، وهنالك التقى بأسامة بن لادن وممثلين لمنظمة الإنقاذ الإسلامى، وهى مجموعة دعم، وناقش معهم إمكانية إقامة " الفيلق الجزائرى " لقيادة النضال من أجل دولة إسلامية فى الجزائر . وعمل خربان فى المجلس التنفيذى لجبهة الإنقاذ الإسلامية فى المنفى . وكان القائد الثانى شخصًا قبيح السمعة هو عيسى مسعودى المعروف بـ " طيب الأفغانى "، عاد مسعودى من أفغانستان بعد عام ١٩٨٩، وأصبح عضوًا نشطًا فى جبهة الإنقاذ الإسلامية. وبعد إبطال انتخابات ١٩٩١، نظم مذبحة مسلحة لحرس الحدود فى معسكر جومار، وهى واحة حدودية غنية بالنخيل، على الحدود التونسية. إن هذا الحدث الجلل غدا بداية علاقة الهبة المسلحة والحرب الأهلية فى الجزائر، وكذا ميلاد المجموعة الإسلامية المسلحة (الفيس) سيئة السمعة. وكتب داهليرج أن المجموعة قد استخدمت " التكنيكات نفسها التى أُستخدمت ضد الروس فى أفغانستان : كانوا يقطعون ضحاياهم إربًا حتى الموت بالسكاكين والسيوف ويحرقون آخرين بموقد لحام .

هنالك قائد آخر للمجموعة الإسلامية المسلحة، وهو أساسى فى استخدام الإرهاب فى الحرب الأهلية، " سى أحمد مراد "، وهو يسمى أيضًا جعفر الأفغانى . لقد أصبح مراد معروفًا لتوسيعه دائرة هؤلاء المستهدفين من عملاء الحكومة لتشمل مدنيين، أجانب، مثقفين، صحفيين - نساء وحتى الأطفال - ولوحشية تلك الهجمات كان التبرير بسيطًا: يجب استخدام العنف لبث الرعب فى الكتل الريفية اللامبالية . إن تأكيد استخدام الإرهاب بطريقة لها صداها، تسبب فى واحدة من أول الانقسامات الخطيرة فى المجموعة الإسلامية المسلحة، واحد من تلك الانقسامات التى تحدث بين الأطراف القومية والدولية؛ إذ بينما جاء القوميون بالحرب الأهلية البشعة إلى الوطن، فإن الدوليين كانوا حذرين من المذابح وإراقة الدماء فى بلدانهم فاستداروا للإرهاب فى الخارج .

مصـــــــــر:

تُعرف السياسة الإسلامية فى مصر بالتراث التاريخى لـ " جمعية الإخوان المسلمين " والتراث الأيديولوجى لسيد قطب . لقد رأينا أن الجمعية كانت تاريخيًا أقرب إلى أن تكون منظمة إصلاحية، منها إلى منظمة متطرفة . لقد جاء تحولهم الأيديولوجى مع راديكالية سيد قطب فى السجن، حيث شكلت كتابات قطب فى السجن قطيعة مع الفكر الإصلاحى لحسن البنا، وصلته بالإسلامى الهندى أبو الأعلى المودودى ولفهم نمو المجموعة الإرهابية فى التطبيق، فإننا فى حاجة إلى متابعة العلاقة بين الإسلام الراديكالى فى مصر والجهاد الأمريكى فى الثمانينيات. إن المشاركة المصرية فى الجهاد الأمريكى تدفقت بسبب إصرار أنور السادات على نقل مصر من دولة متعاطفة مع السوفيت إلى دولة متعاطفة مع أمريكا. لقد أصبح السادات مساندًا متحمسًا للجهاد الأمريكى؛ لتجىء مصر الثانية بعد باكستان والسعودية، غير أنه فيما يتعلق بالمجندين الإسلاميين الذين أرسلتهم استخباراتهم ليلتحقوا بالجهاد

الأمريكى، فإن التزام السادات كان يتناقض مع رغبته فى توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل، ومن ثم التخلى عن القضية الفلسطينية بالمساهمة فى عزلها، ومما يثير السخرية أن المجاهدين هم الذين قتلوا السادات فى أكتوبر ١٩٨١، فى الوقت الذى بلغت فيه مساندة الدولة المصرية للجهاد الأفغانى أعلى ذراها .

كان أيمن الظواهرى واحداً من قادة مجموعة المجاهدين، وهو جرّاح تدرب فى واحدة من جامعات البلد البارزة، وقد هرب الظواهرى من مصر، بعد اغتيال السادات، ووصل إلى بيشاور ليلتحق بأسامة بن لادن، ومع حرب الخليج ودخول القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية، التقت وجهة نظر الظواهرى، فى أن السادات قد خان القضية الإسلامية، مع رأى بن لادن، الذى أصبح يفكر الآن، بطريقة مماثلة فى آل سعود . إن العالم أحادى القطبية الذى ظهر بعد سقوط الاتحاد السوفيتى قد أثّر، دون شك، فى التحول الراديكالى للكيفية التى بدأت قيادة القاعدة ترى بها راعيها السابق، أمريكا . وقد كتب الظواهرى فى مذكراته[٧٦] أنه يعتبر الجهاد الأفغانى " أسلوباً تدريبياً، له أهمية قصوى فى إعداد المجاهدين المسلمين؛ لشن معركتهم المنتظرة ضد القوة العظمى التى لها الهيمنة الوحيدة على الكون، والتى هى تحديداً الولايات المتحدة " .

وقد جذب المصريون – الأفغان الانتباه العام فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٧، عندما قاد مسلح مصرى – قال مسئولو الأمن إنه تدرب فى معسكرات عصابات الأفغان – خمسة آخرين، فى عملية قتل جماعى لثمانية وخمسين من السياح، وأربعة مصريين على الأقل على ضفاف النيل فى الأقصر بصعيد مصر . إن الأساليب التى استخدمها الإرهابيون كانت بشعة كتلك التى استخدمت فى الجزائر – مثل قطع الرقبة ونزع الأحشاء مما أوحى بالتدريب فى الجهاد الأفغانى. إن هجمة الأقصر[٧٧] لم تكن حادثة معزولة، لقد جاءت فى أعقاب ١٥٠ عملية قتل، على الأقل، لمدنيين غير مسلحين عامى ١٩٩٦ و ١٩٩٧

قـادهـا، في حـالات عديـدة، وطـبـقًـا للشـرطة المصرية " مقـاتلون محنكون في حرب الأفغان " .

كان التدريب الذي طمس التمايز بين الجندي والمدني، وبرر أي هدف مادام الهجـوم عليـه سـوف يزيد فـرص النصـر، هو الأكثـر أهمـيـة في المهـارات التي تعلمها محاربو الجهاد . وسـواء كان الهـدف أجنبيًا أو محليًا، جنديًا عسكريًا أو قاضيًا أو ضابط شرطة، امرأة أم رجلاً أم طفلاً أم بالغًا، فالجميع يعتبرون لعبة مشروعة. إن هؤلاء الذين جندوا كطلائع الجهاد الأمريكي كانوا يضمون كل أنواع الشخصيات: من المؤمنين الشرفاء الذين يتصرفون من واقع التزامهم، إلى الشباب العاطل الذي يبحث عن مغامرة، إلى مجرمين قساة يبحثون عن ضحايا ، لم يكونوا جميعًا مهتدين إلى الدين القويم، كانوا متحمسين لتكتيكات الرعب التي علّمها لهم معلموهم الخصوصيون الجدد . وربما كان البعض، اعتمادًا على خبرة ماضيـة – مثل المجرمين والمتشـردين – يتقبلون تلك الخبـرات بصـورة أكـثـر استعدادًا من غيرهم . إن هذا قد يفسر أيضًا، لماذا اتجه ناتج الجهاد الأمريكي إلى المضي نحو عنف أكبر من ذلك الذي كـان صفـة مميـزة للنسـخة الأفـغانيـة الأصلية .

إن إضفاء الشرعية على العنف ضد المدنيين، كان نتيجة مباشرة لشيء ما يسميه كتاب "المخابرات الأمريكية" الإرشادي التدريب على " التخريب الاستراتيجي "، والذي صنف باعتباره إما بسيطًا أو غير مباشر. وقد فسر الكتاب الإرشادي التخريب البسيط باعتباره التخريب الخفي الذي تم تشخيصه، والذي يقوم به أفراد ومجموعات صغيرة، لإيقاع الضرر بالمنشآت أو المنتجات أو المؤن والذخائر وتدميرها " والتخريب غير المباشر باعتباره سبيلاً مختلفًا لتخفيض الإنتاج في أرض العدو. إن جزءًا من التخريب البسيط كان يتمثل في التدريب على الهدم والإحراق العمدي "، غير أن الأكثر أهمية هو أن الأشكال البسيطة وغير المباشرة من أشكال التخريب الاستراتيجي، قد ميزت بحق بين سبيلين مختلفين

لدعم المدنيين المدمر للعدو . إن أشكالاً مأثورة أو أصيلة من الإرهاب ضد المرأة – كالاختطاف والاغتصاب – قد أضفيت عليها صبغة قانونية من ثم عادية فى سجل الأحداث السنوية للجهاد الأفغانى باعتبارها " زيجات " ويكتب كولى[٧٨] " وتظهر تلك الأساليب نفسها بين الإسلاميين الثائرين فى صعيد مصر والجزائر، منذ بدأ المجاهدون العرب " الأفغانيون " العودة إلى هنالك، فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات ".

إن الإرهاب الإسلامى الذى نشهده الآن هو تحول فجائى أكثر منه نمواً للتاريخ الإسلامى. إنه ناتج عمليات حشد ثلاث : أيديولوجى وتنظيمى وسياسى، والعنصر الأيديولوجى نتيجة مواجهة بين المثقفين الإسلاميين (المودودى، قطب)، ومثل عليا ماركسية لينينية احتضنت الكفاح المسلح، فى فترة ما بعد الحرب . وكان العنصر التنظيمى نتيجة مباشرة للقرار الأمريكى بتنظيم الجهاد الأفغانى كحرب صليبية، شبه خاصة . وكان العنصر السياسى نتيجة الحط من الإسلام ومساواته بالإرهاب، وهو اتجاه ظهر بعد الحرب الباردة، وأعد للانفجار بعد الحادى عشر من سبتمبر . إن وجهة النظر التى تتعامل مع الإسلام باعتباره خبيثًا تشكك حتى فى إمكان وجود حداثة ذات أرضية تاريخية فى العالم الإسلامى، فيما بعد الكولونيالية . وقد عرَّفها برنارد لويس، أفضل تعريف بمساواة الحداثة بالعلمانية، والعلمانية بالتوجه نحو الغرب، والتوجه نحو الغرب بالقهر والإذلال. ولأنها ترى ضرورة التناقض بين الإسلام والحداثة، فإن وجهة النظر هذه ترى أيضًا تناقضًا ضرورياً بين الحداثة والديمقراطية حيثما يقطن سكان مسلمون .

الحرب الباردة والإسلام الراديكالى:

لقد شهد القرن العشرون ثلاثة فروق دقيقة، لا تكاد تدرك، داخل الإسلام السياسى؛ الأول، هو الشقاق بين الإصلاحيين والراديكاليين . إن الراديكاليين

مقتنعون بأنه لا يمكن تحقيق أى إصلاح اجتماعى، له قيمته، دون هزيمة سلطة الدولة . والثانى، هو شق يتعمق بين منهجين راديكاليين، واحد يقوم على التمركز المجتمعى، والآخر يقوم على تمركز الدولة . وبينما يدعى إسلاميو التمركز المجتمعى العمل على توازن النضال من أجل العدالة (الجهاد)، مع ذلك الذى من أجل الديمقراطية فى الدولة (الاجتهاد)، فإنه ليس لدى إسلاميى تمركز الدولة غير قليل من الثقة فى المنظمات الشعبية والعمل الشعبى، ويرون أن بوابات الاجتهاد قد أغلقت للأبد . إن منظورهم يحدده تكريس أحادى الهدف لمتابعة العدالة، وأخيراً أنجبت الحرب الباردة نمط الصحوة الدفينة، عناصر إرهابية فى داخل الإسلام السياسى الذى يؤمن بتمركز الدولة . إن الإسلام السياسى مرتبط حتى الآن بوجهتى نظر عدوانيتين : عدوانية عميقة للدولة الإسلامية المعاصرة، من أمثال قطب، الذين قهروا بوحشية فى السجون، وفقدان ثقة عميقة للمنظمات الشعبية والعمل الشعبى تشارك فيه المجموعات الإرهابية .

إن هذا يوضح، لماذا هنالك ضرورة[٧٩] لتمييز الإرهاب الإسلامى عن الإسلام الراديكالى. إن الحركات الاجتماعية الإسلامية الراديكالية فى القرن العشرين كانت جزءاً من بحث مستمر عن رد فعال لحيرة مزدوجة: الاحتلال الإمبريالى والإصلاح الاجتماعى. لقد كانت نقطة البداية لديهم، مثل جمعية الإخوان المسلمين، هى الإصلاح . لم يكونوا يبحثون عن رد عقائدى فى المسائل الروحية، ولكن رد فعل سياسى واجتماعى لهذه الحيرة العالمية، وقد جاءت هذه الحركات باعتبار أنها كانت مدفوعة بالمثقفين، أكثر من رجال الدين . قالت، بأن الإسلام ليس " مجرد دين "، لكنه أكثر، مثل أيديولوجية سياسية تتناول كل أوجه وجودنا الاجتماعى . إن اهتمام الإسلام ليس مقصوراً فقط على علم أصول الدين والأخلاقيات، لكنه أيضًا السياسة والقانون والاقتصاد والعدالة الاجتماعية، بل حتى السياسة الخارجية . ورغم أن الأمر بدأ بالدعوة لبناء مجتمع إسلامى يتجاوز القومية (الأمة)، كما كان الشاعر والفيلسوف محمد

إقبال فى بداية القرن العشرين فى الهند، فإن الإسلام الراديكالى قد أفرخ تأويلات قومية مختلفة عندما تبنته نماذج الدولة/ الأمة المختلفة، مثل حزب الله وحماس، وهما يلجآن أحيانًا للإرهاب - العنف ضد المدنيين - دون أن يحتضناه كسياسة ثابتة - إن التحول من الالتزام الذى يتجاوز القومية إلى توجه يحدده المجتمع السياسى، فى إطار حدود الدولة، كان التحول الأكثر درامية فى حركات مثل حزب الله، الذى دخل العملية الانتخابية وتخلى عن فكرة تأسيس دولة إسلامية وحماس التى يقل نقدها لمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها قد خانت الإسلام، ويزيد هذا النقد ويتضاعف باعتبارها قد خانت الشعب الفسلطينى .

حـــزب الله :

جـاء تأسيس حزب الله كرد فعل مباشر للغزو الإسرائيلى للبنان فى يونيو ١٩٨٢، ودخول القوات الغربية الذى جاء بعد ذلك تحت راية " القوات متعددة الجنسية ". وكان رد الفعل الإيرانى على ذلك هو إرسال ألف وخمسمائة من الحرس الثورى إلى وادى البقاع، الخاضع للسيطرة السورية، وسرعان ما نُظِّم حزب الله، بعد ذلك، سراً تحت الرعاية الإيرانية . إن تاريخ حزب الله القصير يمكن تقسيمه إلى مرحلتين، الأولى هى المقاومة المسلحة[٨٠] ضد الاحتلال الإسرائيلى، الذى دام منذ عام ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥، العام الذى انسحبت فيه إسرائيل من لبنان الجنوبى، وقد شكَّل حزب الله، خلال هذا الوقت منظمتين " المقاومة الإسلامية، والتى يمكن القول إنها كانت مسئولة عن هجمات انتحارية ضد أهداف غربية وإسرائيلية " . " والجهاد الإسلامى"، والتى قادت أكثر هجمات تقليدية ضد القوات الإسرائيلية فى الجنوب " . وقد هدف حزب الله، من هذه المرحلة الأولى، إلى تأسيس جمهورية إسلامية فى لبنان، جمهورية يحكمها قانون إسلامى لجزء من دولة إسلامية أكبر من لبنان .

إن التحول فى التوجه الأيديولوجى والسياسى لحزب الله نحو اختيار علمانى للدولة كان نتيجة نضال القيادة، الذى جاء إثر تغيرين كبيرين فى المنطقة؛ كان الأول هو نهاية الاحتلال الإسرائيلى للبنان والذى جاء بعده نهاية الحرب الأهلية (١٩٨٥ - ١٩٨٩) بين حزب الله وأمل، وهما منظمتان تتنافسان على قيادة المجتمع الشيعى فى لبنان . وكان الثانى هو تغير القيادة فى إيران، بعد وفاة آية الله خومينى، والذى أدى إلى توجه أقل من الناحيتين الأيديولوجية والسياسية . إن القيادة الجديدة فى لبنان، تحت زعامة " الشيخ فضل الله " دعت بثبات إلى حوار مع المسيحيين ... حول القيم المشتركة بين المسلمين والمسيحيين، وطالب مسئولو حزب الله بتأسيس نظام لا يقوم على المعتقد، وغير محدد بتعبيرات صريحة، ومن ثم، يترك خصائص تأسيس النظام مفتوحة للنقاش، " وكان هذا معادلاً ومساوياً لنداء من أجل جعل السياسة فى لبنان علمانية " . وفى الانتخابات البرلمانية اللبنانية عام ١٩٩٢، " أول انتخابات مفتوحة خلال عقدين "، ساند حزب الله مرشحين غير شيعة، سنة ومسيحيين، فى محاولة لتوسيع ندائه، وكسب حزب الله ثمانية مقاعد بما فى ذلك مقعدين لمرشحين من السنة ومقعدين لمرشحين مسيحيين.

إن حالة حزب الله قد تعزز درس الحرب الأهلية المعاصرة فى الجزائر: من الأفضل إدارة الإصلاح من الداخل، بدلاً من فرضه من الخارج. إن أبطال العملية الديمقراطية من الجزائر، والتى أشعلها رفض إقرار نتائج انتخابات ١٩٩١، والتى دفع إليها خوف علمانى من أن ناتجها سوف يسلم السلطة إلى المتطرفين الدينيين قد أوقع، فى النهاية، كلاً من العلمانية والديمقراطية فى الخطر. إن ذلك يعيد إلى الذاكرة تجنبًا مماثلاً لعملية الديمقراطية فى فيتنام، خوفًا من أن تؤدى تلك العملية إلى تسليم السلطة للشيوعيين، الذين سوف ينكرون الحقوق نفسها على مخالفيهم. إن هذا النوع من التفكير يتجاهل حقيقة أن التوتر بين العمليات الديمقراطية والنواتج غير الديمقراطية هو أمر متمم لكل عملية ديمقراطية، والدليل الأكثر قربًا على ذلك حدث فى الانتخابات

الأمـــريكيـــة عـــام ٢٠٠٠ . إن ذلك لا يمكن أن يكون جـــدلاً من أجل إلغـــاء الديمقراطية، لكنه فقط من أجل استنباط إجراءات حماية ترسخ العملية فى مواجهة النواتج التى يمكن أن تدمرها . ثانيًا، أن ذلك يخفى جمودًا عقائديًا يساوى العلمانية بترتيبات مؤسسة موجودة بالفعل، وخاصة الترتيبات من ذلك النوع، الذى يحدد ويعرف الحياة السياسية الأوروبية التى بدأت فى القرن السابع عشر. إن هذا الجمود العقائدى، وهو يؤكد على مفهوم(٨١) أن النمط الوحيد للتعايش الكونى بين الثقافات المختلفة (الآن الحضارات) إنما هو الوجود المتوازى – التسامح؛ يعنى يقينًا أنه جمود عقائـــدى غير ناضج، ولا يستنفد الإمكانيات التاريخية الأخرى التى تشدد أيضًا على الالتزام والنقد.

إيــــــران :

إن الجزائر وإيران تكشفان عن نموذجين للإسلام السياسى الراديكالى فى التاريخ المعاصر، وكليهما يؤكد أهمية ترك الحركات الاجتماعية – سواء كانت دينية أو علمانية – تعمل عبر نضالات داخلية أيديولوجية وسياسية، فى نمط يقوم على الحكم الذاتى. إن الحركات الاجتماعية والسياسية عندما سمح لها بالعمل داخل إطارات قانونية، رغم أنها ليست بالضرورة ديمقراطية، قد قوَّت الظروف لصالح الديمقراطية بتوسيع المشاركة فى العملية السياسية. إن إمكانيات هذا يمكن رؤيتها على النحو الأفضل فى إيران، حيث أثارت الحركة الإسلامية الواسعة كلاً من المطالب الديمقراطية ونمو الحركة النسائية .

وقد طرح هذه القضية ريتشارد بولييه، وهو مؤرخ اجتماعى لإسلام القرون الوسطى فى جامعة كولومبيا، إذ قال " جاء النظام الثورى إلى السلطة عاقداً العزم على نقض تشريع الشاه الليبرالى الخاص بالمرأة " وسرعان ما أنجز هذا الهدف وأصـــدر قيودًا جادة على لباس المـــرأة وتوصيفها وسلوكها "، ومع ذلك، " فبعد عقدين " فقط، رأت حـــركة نشطـــة إسلامية نســـائية فى إيران المرأة

تأخذ مكانها على منضدة مجلس الوزراء كمسئولة عن شئون المرأة، وحصلت أخرى على رتبة نائب الرئيس " يضاف إلى أن " البرلمان قد وضع مجموعة تشريعات جعلت القوانين الإيرانية الخاصة بالزواج والطلاق من بين القوانين الأشد ليبرالية فى العالم الإسلامى ". إن بوليبه يكتب بفهم أن الجزائر وإيران قد أمدتا أمريكا الرسمية باختيارين متناقضين، وهو واضح تمامًا فى الخيار الذى يأخذ به " يجب ألا يصبح الجزائريون نموذجًا إقليميًا يلقى الدعم النشط أو الضمنى فى الولايات المتحدة ". وفى الوقت نفسه فإن إيران على الأقل نموذج أكثر منه درسًا. الدرس هو ذلك الخاص بالديمقراطية، وبدلاً من التفكير فى الحداثة باعتبارها أمرًا مستوردًا إلى الإسلام فإن المرء يحتاج إلى أن يكون حساسًا لظهور حداثة إسلامية تنشأ من العمليات داخل المجتمعات الإسلامية.

إن حركتين مختلفتين تمامًا تدفعان[٨٣] السياسات الإسلامية والإسلاميين الراديكاليين إلى إعادة تنظيم المجتمع باعتباره السبيل الوحيد لتغيير الدولة، بينما يرى الإسلاميون المحافظون أن الإمساك بالسلطة هو السبيل الوحيد لتغيير كل من الدولة والمجتمع. لا يطالب دومًا الإسلاميون الديمقراطيون، مثل حزب الله أو جبهة الإنقاذ الإسلامى (الفيس) فى الجزائر بمشاركة كل امرئ بما فى ذلك النساء فى الحياة العامة، وعلى نقيض ذلك، لا تعارض فقط الحركات المحافظة وجود المرأة فى الحياة العامة، لكنها تتجه أيضًا إلى أن تكون عنيفة التعصب. إن كلاً من الإسلاميين الراديكاليين والمحافظين، يطالبون بالتشبث بالشريعة غير أن المفهوم المحافظ للشريعة يستبعد أية مساحة ذات معنى للديمقراطية. إن الفرق يكمن فى المنحى الخاص بهم للاجتهاد، وهو نهج يسمح للمبادئ القانونية بأن تؤول فى ضوء السياقات التاريخية المتغيرة. إن الإسلاميين المحافظين المؤمنين بتمركز الدولة، هم مدافعون أقوياء عن حكم القانون، غير أنهم يفهمون القانون باعتباره القانون القدسى الإلهى، وينظرون إلى أى شكل من أشكال الديمقراطية باعتباره مفسدًا لهذا القانون، وهذا هو

السبب فى أن الفاصل، حقًا، بين إسلامى تمركز المجتمع، وتمركز الدولة ليس هو الالتزام بحكم القانون، لكنه المشاركة الشعبية فى شئون الدولة .

إن الإسلاميين الذين يعتمدون على الدولتية - حيث تركيز الأمور فى يد حكومة شديدة المركزية - قد نشئوا عن جذور مختلفة، وجذر منها هو الأنظمة غير الشعبية - مثل ديكتاتورية ضياء فى باكستان - من أجل إضفاء شرعية على السلطة - والجذر الآخر - وهو الأساس فى هذا العصر - يتجسد مثاله فى مشروع الحرب الباردة الأخيرة فى آسيا الوسطى، الجهاد الأمريكى . وبينما كان من المحتم البحث عن دعم شعبى فى مباراة الديمقراطية، مما أرغم حركة الإسلاميين الراديكاليين، مثل حزب الله، على الاكتساب التدريجى لجذور قومية، فإن غياب هذه الإمكانية والخوف من تلك المباراة نفسها، فى بعض الحالات، قد أدى بالحركات الدولتية (المعتمدة على الحكومة شديدة المركزية) إلى أن تتحول لما يتجاوز القومية . إن مثل هذا النوع من الدافع، لم يؤدِ إلى ربط حكم "ضياء" بالجهاد الأمريكى، لكنه أدى أيضًا إلى تشكيل هيكل دولى من أفراد اقتلعت جذورهم، وقد حطموا روابطهم بالعائلة والوطن الأصلى للالتحاق بشبكات سرية تواجه عدوًا واضح التحديد والتعريف .

ومن ثم، فإنه فى وسع المرء أن ينتهى إلى أن الإسلام السياسى هو ظاهرة سياسية حديثة، وأنه ليس بقايا ثقافة تقليدية، ويمكن للمرء، حتى يتأكد من ذلك، من إرجاع ممارسات عدة فى الإسلام السياسى مثل إنتاج الأفيون، وتعليم "المدارس، وفكرة الجهاد نفسها إلى فترة ما قبل الاستعمار الحديث. والواقع أن الأفيون والمدرسة والجهاد الأكبر، كلها أعيد تشكيلها وصياغتها فى إطار المؤسسات الحديثة، كما تم وصفها فى خدمة الحملة الأمريكية ضد إمبراطورية الشر".

إن الإسلام السياسى هو حركة معاكسة، ذات عناصر متعددة، بل حتى متناقضة . لقد قلت بأنه من المفيد التمييز بين الحركات التى تركز على المجتمع وتلك التى تركز على الدولة، مع وجود معتدلين وراديكاليين على كل جانب، وحيث

إنهم ملتزمون باستراتيجية للتغير تنادى بمشاركة شعبية متزايدة فى السياسة، إن الحركات التى تركز على المجتمع تشبه الحركات الاجتماعية فى أمريكا اللاتينية، تلك التى يلهمها لاهوت التحرير المسيحى وتحاول الحركات التى تركز على الدولة، فى تناقض مع ذلك، احتواء المشاركة الشعبية السياسية . وترى الدولة - أكثر من المجتمع أو أى قطاع منه - باعتبارها المدار الحقيقى للتغيير التاريخى . إنهم يعكسون محاولات النخبة التى يُدفع بها لكبت انسياب المشاركة الشعبية، أكثر من كونهم أدوات للضغوط الشعبية من أسفل .

يجب عدم مساواة الحركات السياسية الإسلامية التى تركز على الدولة بالإرهاب. ومادامت الحركات السلطوية تظل مقصورة داخل الحدود القومية، وتلتصق، حتى بطريقة شبه ظاهرية، بحكم القانون - كما مع ديكتاتورية ضياء فى باكستان وآل سعود فى المملكة العربية السعودية، وطالبان فى أفغانستان - فإن الاحتمال الكامن للإرهاب يظل مغلقًا. إن ظهور الإرهاب يسير مع تآكل حكم القانون، والتمييز بين ديكتاتورية قانونية وإرهاب خارج القانون، سوف يساعد على التمييز بين الطالبان من ناحية والمجاهدين من ناحية أخرى، لقد أطلق عنان الإرهاب على الشعب الأفغانى باسم التحرير بعد هزيمة الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، وقد لاحظ إقبال أحمد[٨٤] أن الانسحاب السوفيتى قد تحول إلى لحظة للحقيقة، أكثر منه لحظة انتصار للمجاهدين. إن أقسام من المجاهدين قد اندمجت فى قوتين متنافستين، إحداهما أكثر تطرفًا وأيديولوجية من الأخرى، وقاتلوا من أجل السلطة وضربوا مدنهم بالقنابل ودمروها، لقد فقد المجاهدون، وهم على استعداد[٨٥] للإمساك بالسلطة تحديداً، العمل على كسب قلوب شعوبهم وعقولهم . هذا هو التفسير للكيفية التى يمكن بها لقوة " تحريرية " أن تفقد السلطة حرفيًا، لحظة الحصول عليها، لقوى طلابية، لم تشارك فى حرب " التحرير ". إن طالبان ما إن بدأت إدارة الدولة حتى اتخذت وحشيتها شكل حكم أبوى خشن كانت أهدافه الأساسية الشباب والنساء .

كانت القاعدة، على نقيض ذلك، حركة غير قومية لا يقيد عنفـها أى شكل من أشكال القانون، إن أعضاء القاعدة مجندون فى الأصل من عشرات البلدان على امتداد العالم، وهم لا يجدون داراً يعودون إليها عندما انتهى الجهاد . ويقدم جون كولى مثال من[٨٦] جندوا من شمال أفريقيا، والذين " خاف " الكثيرون منهم " العودة " و "ظلوا فى برنامج تدريب ما بعد الحرب، ليكونوا إرهابيى المستقبل، ويمولوا أساسًا بأموال سعودية خاصة وصناديق عربية أخرى ". إنهم رهائن، بلا جذور، مشوشون، يحسون المرارة، رهائن لوضع اجتماعى جعلهم، تقريبًا، عرضة للعدمية السياسية . لقد كانوا القوة الضاربة ضد الإمبراطورية، التى حاولوا فهمها بلغة مشتركة مع ريجان كإمبراطورية الشر ". إن مصدر الإرهاب الذى اتصف بالخصخصة والعولمة، فى عالم اليوم، والمجاهدون الدوليون هم الأبناء الأيديولوجيون الحقيقيون لحرب ريجان الصليبية ضد " إمبراطورية الشر " .

الهوامش

(١) ذكرت عند إقبال أحمد:

Genesis of International Terrorism," Dawn (Karachi), October 5, 2001 (Speech originally given in October 1998).

(2) Tariq Ali, The Clash of "Fundamentalisms," p. 275.

(٣) أقتبس عن قائد عسكرى إسرائيلى سابق لقطاع غزة عام ١٩٨٦، "إننا نمنح بعض المعونة المالية للمجموعات الإسلامية عن طريق الجمعيات والمدارس الدينية، حتى نساعد فى خلق قوة تقف ضد القوى اليسارية التى تدعم منظمة التحرير الفلسطينية". مقتبسة عن جراهام أوشر.

The Rise of Political Islam in the Occupied Terroitories," Middle East International (London), no. 453, June 25, 1993, p. 19.

بالنسبة لرأى الخبراء الإسرائيليين حول سياسة الدفاع، يقدم زيف شيف وأوهوديارى بيانًا قصيرًا عن سياسات إسرائيل نحو حماس فيما يتعلق بتحويلات البنك وهوامش أخرى للمناورة انظر:

Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, "Intifada" (New Yourk: Simon & Schuster, 1991), pp. 233-34.

وأخيرًا يقر خالد حروب أن الإسرائيليين استخدموا حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية كل ضد الآخر. غير أنه أنكر أى دور عمدى لمساعدة حماس. انظر:

Khaled Hroub, "Hamas: Political Thought and Practice" (Washington, D.C.: Institute for Palestinian Studies, 2000), pp. 200-203. I am thankful to Joseph Massad for pointing out these sources.

(4) Karen Armstrong, "The Battle for God: A History of Fundamentalism" (New York: Alfred A. Knopf, 2000), pp. 290-91.

(5) Steve Galster, "Afghanistan: The Making of U.S. Policy, 1973-1990," p. 11, in the National Security Archive, September 11th Sourcebooks, "Volume 11: Afghanistan: Lessons from the Last War", available at htt://www/gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB57/essay.html.

(6) Cited in Ali, "Clash of Fundamentalisms," pp. 207-8.

(7) Barnett R. Rubin, "The Fragmentation of Afghanistan: State Formation and Collapse in the International System, 2d ed." (New Haven: Yale University Press, 1995), p. 223.

(8) Pervez Hoodbhoy, "The Genesis of Global Jihad in Afghanistan" (Quaid-e-Azam University, Islamabad, Pakistan, mimeographed) p.5.

(9) Galster, "Afghanistan," p. 15.

(10) Hamid Hussein, "Forgotten Ties: CIA,ISI&Taliban, "Covert Action Quarterly 72," spring 2002, p.3.

(11) Cited in Lawerence Wright, "The Man Behind Bin Laden: How an Egyptian Doctor Became a Master of Terror," The New York, September 16, 2002, p. 72.

(12) John K. Cooley, "Unholy Wars: Afghanistan, America, and International Terrorism" (London: Pluto Press, 1999), pp. 87-88.

(13) Steve Coll, "Washington Post." July 19, 1992; quoted in Michel Chossudovsky, "Who Is Osama Bin Laden?" Montreal, Centre for Research on Globalisation, available at http://globalresearch.ca/articles/CHO109C.html, posted September 12, 2001, see n.4.

(14) Ahmed Rashid, "Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia" (New Haven: Yale University Press, 2000), pp. 129-30.

(١٥) كتب جون كولى، وهو مراسل سابق عن الشرق الأوسط، للكريستيان ساينس مونيتور و إيه بى سى - تى فى، عن التورط الإسرائيلى: أما بالنسبة لإسرائيل فإن الدليل أكثر افتقارًا للوضوح، فقد أصر أكثر من ستة أفراد ممن يملكون ناصية العلم والمعرفة للمؤلف، دون ذكر برهان على أن إسرائيل كانت حقًا متورطة فى كل من التدريب والإمداد .... إن العديد من الأمريكيين والبريطانيين الذين قاموا بدور فى برنامج التدريب قد أكدوا للمؤلف على أن الإسرائيليين قد شاركوا حقًا، غير أن أحدًا لن يقر بأنه قد رأى بالفعل معلمين إسرائيليين أو عملاء استخبارات، وتحدث معهم، فى أفغانستان وباكستان. ومن المؤكد أن الإسرائيليين، من بين كل الائتلاف المعادى للسوفيت، كانوا هم الأكثر نجاحًا فى إخفاء التفاصيل، بل حتى الآثار الواسعة، لدور التدريب (كولى، الحروب غير المقدسة، ص ١٠١).

ويوافق، أيضًا، "طارق على"، المعلق السياسى البريطانى، الباكستانى المولد، على أن الدور الإسرائيلى، "يظل واحدًا من أسرار الحرب التى تم الحفاظ عليها جيدًا". ثم يقدم تفصيلات مهمة: "لقد تعثر أحمد منصور، وهو صحفى شاب باكستانى، كان يعمل من أجل "المسلمين"، تعثر فى مجموعة من "المستشارين الإسرائيليين عام ١٩٨٥، فى بار إنترناشونال هوتيل فى بيشاور. ولأنه كان متنبهًا إلى أن تلك الأخبار سوف تكون كالمتفجرات لديكتاتورية ضياء، فقد أخبر رئيس تحريره، وبعض الأصدقاء، ومراسل زائر

للدبليوتى إن بالأمر. وبعد أيام قلائل قبض المجاهدون عليه بعد أن حذرتهم الاستخبارات الداخلية الباكستانية وقتلوه. انظر:

Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 209.

(16) Martin Stone, "The Agony of Algeria" (New York: Columbia University Press, 1997), pp. 182-83.

(17) Ibid., p. 183.

(18) Robin Blackburn, "Terror and Empire," chap. 3, "The U.S. Alliance with Militant Islam," available at http://www.counterpunch.org/robin3html.

(19) Rashid, Taliban, p. 132.

(20) Wright, "Man Behind Bin Laden," p. 75.

يؤكد بيان راشد أن عام ١٩٨٩ كان عام تأسيسها. ويقدم كولى التاريخ غير المحتمل بعام ١٩٨٥. انظر:

Rashid, "Taliban," p. 132, and Cooley, "Unholy Wars," pp. 120-21.

(21) Cooley, "Unholy Wars," pp. 83-86.

(22) Ibid., pp. 87-88.

(23) Ibid., pp. 188-89.

(24) Quoted in Chossudovsky, "Who Is Osama Bin Laden?" at http://globalresearch.ca/articles/CHO109c.html.

(25) Ahmed Rashid, "Jihad: The Rise of Militant Islam in Central Asia" (New Haven: Yale University Press, 2002), p. 44.

(26) Pervez Hoodbhoy, "The Genesis of Global Jihad in Afghanistan,".

النسخة التى تمت مراجعتها، ورقة قدمت إلى مؤتمر الحرب المدنية والحرب الباردة، ١٩٧٥ - ١٩٩٠: تحليل مقارن عن أفريقيا الجنوبية، أمريكا الوسطى، أسيا الوسطى، (معهد الدراسات الأفريقية، جامعة كولومبيا، نيويورك، إن واى، ١٤-١٥ نوفمبر ٢٠٠٢، آلة ناسخة) ص ص ٧-٨ .

(٢٧) بارتيت روبين، اتصال خاص، ١٠ فبراير ٢٠٠٤ .

(28) Hussein, "Forgotten Ties," p.3.

(29) "Los Angeles Times," August 4 and 5, 1996.

(٣٠) راشد، "طالبان"، ص ٤٤ . لقد أعيد تناول تلك الأرقام فى مقالات عديدة. وكان ذلك فى الغالب دون تمييز بين هؤلاء الذين جرى تدريبهم فى المدارس، وهؤلاء الذين قاتلوا بالفعل فى الحرب. هذا هو سبب وجود

مدى واسع من الأرقام – يتراوح من ٣٥،٠٠٠ إلى أكثر من ١٠٠،٠٠٠ – عندما يجرى تقدير عدد الذين دربوا أو قاتلوا فى حرب الأفغان. إن أروندانى روى تقول، مثلاً، أن المخابرات الأمريكية قد جندت "حوالى ١٠٠،٠٠٠" جندى لحرب أمريكا بالوكالة". ويقدم كولى رقم ٤٠،٠٠٠ إلى ٥٠،٠٠٠ من المقاتلين غير الأفغان الذين "دربوا أو قاتلوا فى أفغانستان". انظر:

Arundhati Roy, "The Algebra of Infinite Justice," The Guardian (London), September 29, 2001; Cooley, "Unholy Wars," p. 232.

(31) Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 196.

(32) Cooley, "Unholy Wars," 2000 edition, p. 90.

(33) John-Thor Dahlburg, "Legacy of Fear: Afghanistan's Mix of Faith, Terror - A Global Scourge," Los Angeles Times, August 4,5, and 6, 1996.

(34) Alfred W. McCoy, "The Politics of Heroin: CIA Complicity in the Global Drug Trades" (New York: Lawrence Hill Books, 1991), pp. 436-37.

(35) Cooley, "Unholy Wars", p. 60.

(36) Eqbal Ahmad and Richard J. Barnet, "Bloddy Games," The New Yorker, April 11, 1988, pp. 44-86.

(37) Galster, "Afghanistan," p. 18.

(38) Alfred McCoy, "Drug Fallout: The CIA's Forty Year Complicity in the Narcotics Trade," The Progressive, August 1, 1997, pp. 24-27.

(39) Lawrence Lifschultz, "Bush, Drugs and Pakistan: Inside the Kingdom of Heroin," The Nation, November 14, 1988, pp. 477, 492-96.

(40) Cited in McCoy, "Politics of Heroin," p. 454.

(41) McCoy, "Drug Fallout," pp. 24-27.

(٤٢) إن تقرير برنامج الأمم المتحدة للتحكم الدولى فى المخدرات (وهو جزء من مكتب الأمم المتحدة المعنى بالمخدرات والجرائم) مذكور فى:

Drug Prohibition and Political Violence: Making the Connection," in The Week Online with DRCNet, Issue 203, September 21,2001 available at http://stopthedrugwar.org/chronicle/203/politicalviolence.shtml.

إن معلومات مماثلة يُمكن العثور عليها فى:

The Opium Economy in Afghanistan: An International Problem".

وهى دراسة نشرها مكتب الأمم المتحدة المعنى بالمخدرات والجرائم فى يناير ٢٠٠٢ وهى دراسة متاحة على:

Online at htt://www.unodc.org/Pdf/publications/sfg_opium_economy_www.pdf.

(43) McCoy, "Politics of Heroin," pp. 440-41.

(44) Ibid., p.451.

(45) John F. Burns, "Afghans: How They Blame America," February 4, 1990; cited in McCoy, "Politics of Heroin," p. 450.

(46) New York Times, June 18, 1986; cited in McCoy, "Politics of Heroin," p. 458.

(٤٧) المعلومات عن حرب القتلة المأجورين مأخوذة من شهادة بارنيت روبين أمام اللجنة الفرعية للكونجرس حول أوروبا والشرق الأوسط ص ص ١٨-٢٠، ٣٥، وهى مذكورة فى:

McCoy, "Politics of Heroin," pp. 454-458, 450.

(48) McCoy, "Politics of Heroin," p. 452.

(49) Canal Walsh, "Spies Hide as Bank Faces BCCI Charges," The Observer (London), January 19, 2003.

(50) Cooley, "Unholy Wars," p. 114.

(٥١) لمتابعة تقرير اللجنة الفرعية للكونجرس، انظر:

The BCCI Affair," available at http://www.fas.org/irp/congress/1992_rpt/bcci/index.heml.

(52) Cooley, "Unholy Wars," p. 113. The BCCI question is discussed on pp. 112-16.

(53) Cited in Tariq Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 156.

(54) Ahmed Rashid, "The Taliban: Exporting Extremism," Foreign Affairs 78, no. 6, November-December 1999, p.22.

(55) Tariq Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 199.

(56) Dahlburg, "Legacy of Fear," Los Angeles Times, August 5, 1996.

(57) Tariq Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 198.

(٥٨) الأرقام الرسمية مأخوذة من:

Tariq Ali, "Clash of Fundamentalisms," p. 195. The UN estimates below are from McCoy, "Politics of Heroin," pp. 454-55.

(59) Rashid, "Jihad," P. 210.

(60) Cooley, "Unholy Wars," p. 62.

(61) Rubin, "Fragmentation of Afghanistan," pp. 83, 203, 210-21,272,279.

(62) Eqbal Ahmad, "In a Land Without Music", Dawn (Karachi), July 23, 1995.

(63) Galster, "Afghanistan," p. 23.

(64) Rubin, "Fragmentation of Afghanistan," pp. 250-51, 257.

(65) John-Thor Dahlburg, "Conspiracy Theory Links U.S. with Afghan Militia," Los Angeles Time, October 4, 1996.

(66) Rashid, "Taliban," p. 179.

(67) Ahmad, "In a Land Without Music."

(68) Rasgud, "Jihad," p. 210.

(69) Ibid., p. 211.

(٧٠) يوضح أحمد راشد أن طالبان لم تحرم الحياة العامة على النساء فقط، لكنها حرمت أيضًا نشاطات أساسية ذكورية، مثل أية رياضة تستخدم الكرة أو الموسيقى (ماعدا الطبول)، حتى لا تغرى أى من تلك أعضاء الجنسين. انظر:

Eqbal Ahmed, "In a Land Without Music," Dawn (Karachi), July 23, 1995.

(71) Barnett Rubin and Ashraf Ghani, conversation with author, November 16, 2001.

(72) Eqbal Ahmad, "In Afghanistan, A Ceasefire Please, "Dawn (Karachi), April 7, 1991.

(73) Quoted in Cooley, "Unholy Wars," p. 203.

(74) Ibid., pp. 203-5.

(75) Dahebur 9 "Legacy of Fear",

وخاصة من أجل السير الذاتية الثلاث. كما أننى اعتمدت أيضًا على:

Stone, "Agony of Algeria," p. 183, for my account of Kamerredin Kherbane.

(76) Cited in Wright, "Man Behind Bin Laden," p. 67.

(77) Cooley, "Unholy Wars," pp. 185-86.

(78) Ibid., pp. 99-91, 185, 195, 203-6.

(٧٩) كتب أوليفر روى مقالاً فى ١١ سبتمبر قابل فيه بطريقة مفيدة، بل متقنة للغاية - الإسلام السياسى الراديكالى و"الأصولية الجديدة" المحافظة، متناولاً الأول باعتباره حركات اجتماعية من أسفل،

والأخير باعتباره أداة موصلة لأجندات الدولة مدفوعًا بها من أعلى. غير أن التمييز ليس مفيدًا بصورة خاصة فى فهم الآلية التى قادت إلى الحادى عشر من سبتمبر، ويرجع ذلك أساسًا لأن روى أعطى أهمية هامشية فقط للمواجهة مع القوى الغربية خلال الحرب الباردة. انظر:

Olivier Roy, "Neo-Fundamentalism," Social Science Research Council, available at http://www.ssrc.org/

(٨٠) إن فهمى لحزب الله يعتمد أساسًا على نزار حمزة،

Lebanon's Hizbullah: From Islamic Revolution to Parliamentary Accommodation", Third World Quarterly 14, no, 1993. .

كما نشر أيضًا وثيقة إليكترونية على المشرق فى تعاون مع الجامعة الأمريكية فى بيروت، انظر:

http://almashriq.hiof.no/ddc/projects/pspa/hamzeh2.html.

(81) Talal Asad, "Introduction: Thinking About Secularism," in Formation of the Secular: Christianity, Islam, Modernity (Stanford: Stanford University Press, 2003.

(82) Richard Bulliet, "Twenty Years of Islamic Politics," The Middle East Journal 23, no.2, spring 1999, pp. 7-9.

(٨٣) يصف أوليفر روى كل الحركات الإسلامية التى شاركت فى أجندة سياسية واضحة بأنها حركات "الأصوليين الجدد". انظر:

Roy, "Neo-Fundamentalism," at http://ssrc.org/sept11/essays/roy/htm.

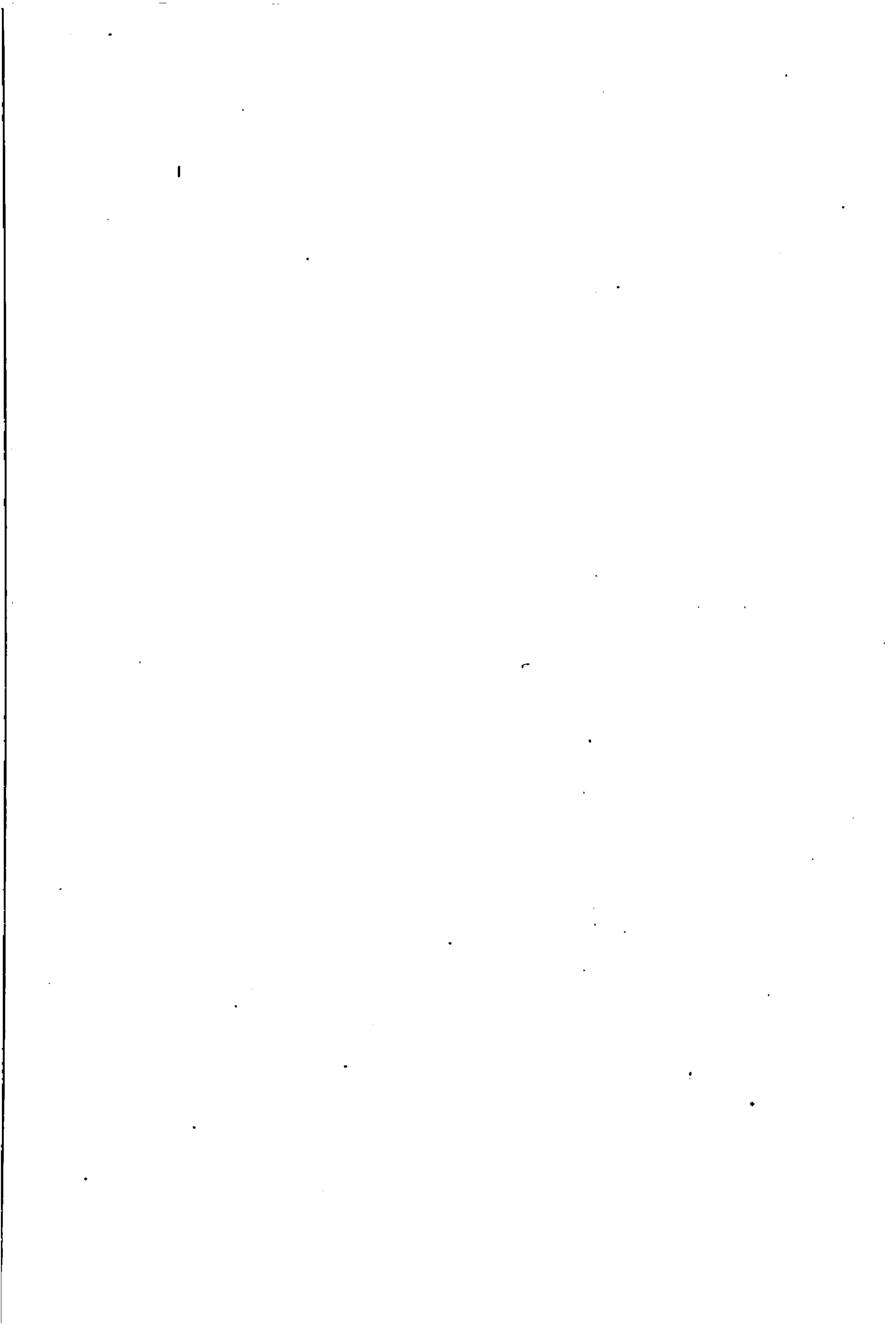
(84) Eqbal Ahmad, "The Afghan Lessons," Dawn (Karachi), May 3, 1992.

(85) Eqbal Ahmad, "Stalemate at Jalalabad," The Nation, October 9, 1989; "The Afghan Lessons," Dawn, May 3, 1992; "The War Without End," Dawn, August 20, 1992.

(86) Cooley, "Unholy Wars," pp. 83, 86.

الفصل الرابع

من الحرب بالوكالة إلى العدوان الصريح



واصلت أمريكا صراعها الأقل حدة ضد الأنظمة القومية المناضلة حتى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ونهاية الحرب الباردة خلال العقد التالى حتى الحادى عشر من سبتمبر. وكان ذلك، منطقيًا تمامًا من وجهة النظر الريجانية، أليست إدارة ريجان هى التى انتهت إلى أن التهديد الحقيقى بالحرب لا يكمن فى سهول أوروبا بل يكمن فى العالم الثالث، حيث كانت الثورات الناجحة تقود إلى أنظمة قومية مقاتلة، والتى زعمت أنهم ليسوا أى شيء غير وكلاء للسوفيت؟ لقد كان رد ريجان هو الحرب بالوكالة، وبناء على " عقيدة نيكسون " " على الأولاد الآسيويين أن يحاربوا الحرب الآسيوية، كما طبقها هنرى كيسنجر. وكانت نتيجة ذلك إعادة تصميم استراتيجية الحرب الأمريكية . وبدلاً من مواجهة محتملة، مع القوات السوفيتية الأرضية فى أوروبا، جرى الإعداد لشن صراع ضئيل الحدة ضد الأنظمة القومية المحاربة فى العالم الثالث .

واختلفت الوسائل بطريقة بالغة الأثر فى الحادى عشر من سبتمبر، من حرب بالوكالة ضئيلة الحدة إلى حرب مباشرة عالية الحدة . لقد جُعل هذا التحول ممكنًا بتغير المناخ السياسى فى أمريكا ما بعد الحادى عشر من سبتمبر: لم يعد الأمن فقط هو مثار الاهتمام، ولكن لقى هذا الاهتمام فى الأساس تعاطفًا من غالبية العالم وكانت هذه، بالنسبة لإدارة بوش، فرصة ذهبية لإسقاط مواقع الحرب الباردة، وإعلان موسم صيد مفتوح على القومية المحاربة . لقد كانت الحرب ضد القومية المقاتلة، فى وجهة النظر هذه، تعنى إنهاء أعمال الحرب الباردة التى لم تنته بعد. إن الطموح لتحطيم القومية المحاربة أُجمل كدعوة " لتغيير النظام " و" المقرطة " طبقًا للنمط الريجانى الحقيقى . وتحركت الولايات المتحدة فى لمحة تقل عن عامين من غزو أفغانستان التى

تحكمها طالبان إلى العراق التى يحكمها صدام حسين . وبينما كانت طالبان محددة بدقة باعتبارها تستضيف القاعدة، كان هنالك جهد قانونى محدود لربط غزو العراق بالإرهاب الذى حدث فى الحادى عشر من سبتمبر. وكان هذا بسبب تحرك " الحرب على الإرهاب " من مخاطبة هموم الأمن التى جرى تشاركها بصورة عريضة إلى استهداف القومية المحاربة .

كان مسار الحرب بالوكالة، خلال العقد الصعب، منذ نهاية الحرب الباردة حتى الحادى عشر من سبتمبر، واضحًا أفضل وضوح على الأرض العامة للعراق، وكان انشغال أمريكا: مابعد فيتنام، بالحرب بالوكالة ضئيلة الحدة والتى بلغت ذروتها فى العراق، حيث تم شنها فى صورتها المستحدثة كلية كحرب بالوكالة متعددة الأطراف، اتخذت شكل عقوبات للأمم المتحدة، يخفف من حدتها برنامج " النفط مقابل الغذاء "، مبررًا باسم التدخل الإنسانى، ولكن بتكلفة بلغت مئات الآلاف من حياة الأطفال الأبرياء. إن العراق، بعد الحادى عشر من سبتمبر، غدت أكثر من أفغانستان، المسند الحقيقى لشروع الولايات المتحدة فى تدخلها الوقح الذى قامت به وسط معارضة دولية بما فى ذلك المعارضة فى أبهاء الأمم المتحدة .

العراق: العقوبة الجماعية فى الحرب والسلم

يقدم عقدا الحرب بالوكالة، من الحرب العراقية - الإيرانية فى الثمانينيات إلى نظام عقوبات الأمم المتحدة، خلفية لغزو العراق، ويلقيان الضوء على تطور مستحدث لاستراتيجية الولايات المتحدة فى المنطقة. فإن كان توجه الولايات المتحدة قبل الحرب العراقية - الإيرانية يستدعى استراتيجية تم اختبارها فى حينها، استراتيجية للقوى العظمى تغذى وتدعم نزاعًا محليًا حتى تضعف الطرفين، فإن نظام العقوبات الذى جاء بعد حرب الخليج كان تطورًا ملحوظًا فى تاريخ النزاع ضئيل الحدة: فلأول مرة لم تكن الوكالة ثنائية لكنها كانت متعددة الأطراف. وبينما أوضح نظام العقوبات النجاح

الذى حولت به الولايات المتحدة الأمم المتحدة إلى وكيل متعدد الأطراف، فإن غزو العراق قد بيَّن حدود هذه الطريقة وفشلها فى نهاية الأمر .

إننا نحتاج فهم كيف غدا العراق مرتكزًا أساسيًا لاستراتيجية الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط إلى العودة إلى إيران عام ١٩٧٩ . لقد رأينا أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة كانت تعمل، فيما بعد الحرب طبقًا للافتراض البسيط، أن الإسلام كان قوة معادية للشيوعية ومعادية للقومية، وقد غيَّرت الثورة الإيرانية هذا المعنى بجعل الولايات المتحدة تتعرف على مذاق النظام الإسلامى القومى . وتحولت الولايات المتحدة إلى العراق لاحتواء القومية الإيرانية وقوة نموذجها، ولم تحقق ديكتاتورية صدام حسين الوحشية التى كان يدير بها الوطن، ولا إصراره على إيجاد دولة حديثة ومستقلة الكثير من الفروق فى ذلك الوقت . لقد حددت مراحل ثلاث العلاقة بين الولايات المتحدة والعراق، خلال العقدين اللذين تبعا ذلك . كانت المرحلة الأولى تحالفًا دعمت فيه الولايات المتحدة، العراق فى الحرب ضد إيران، غير أنها كانت أيضًا مشروعًا للإبقاء على الحرب مستمرة، أكثر منه سعيًا للوصول إلى نهاية سريعة، وكانت المرحلة الثانية هى الحرب التى جاءت إثر احتلال صدام للكويت، وكانت تلك حربًا ثأرية، وكانت المرحلة الثالثة: حملة خبيثة ضئيلة الحدة عالية الكارثية تمت إدارتها عبر مكاتب الأمم المتحدة. كانت، فى الحقيقة، لا شىء أقل من عملية إبادة عِرقية تدار رسميًا وتوقع عقوباتها رسميًا، وأساسًا على الأطفال وفى الغالب دون الخامسة .

كان صدام حسين عندما غزا إيران فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ بدعم أمريكى مفعم بالحماس، قد بادر بحرب مورِس فيها استخدام الأسلحة الكيميائية لأول مرة، منذ غزت الولايات المتحدة فيتنام . وقد كتب نيقولاس د. كريستوف[1]، من " النيويورك تايمز"، " أن الولايات المتحدة شحنت سبعة أنواع من الأنثراكس إلى العراق من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٨" . وقامت بتدريب ضباط عراقيين فى فترة مبكرة من الستينيات

على كيفية استخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية . وقد ذكر خطاب رسمي للجيش[٢] في أواخر الستينيات أن " الجيش الأمريكي قد درّب تسعة عشر ضابطًا عراقيًا، في الولايات المتحدة على الحرب الهجومية والدفاعية الكيميائية والبيولوجية، والإشعاعية من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧ . " وقد وجدت العراق، في ذلك الوقت، سبيلاً إلى ترسانة التسلح الكيميائي والبيولوجي الأمريكية، وكانت العسكرية الأمريكية تشيد بتلك الأسلحة، ليس فقط باعتبارها أقل سعرًا، ولكن أيضًا باعتبارها أكثر إنسانية، وقد شرح ماثيو ميسيلسون الأستاذ بهارڤارد، ونائب مدير برنامج هارفارد سوسكس، حول تسليح الحرب الكيميائية – البيولوجية وتحديد التسلح، " كان يقال، إنك ستفقد أرواحًا أمريكية أقل إن خضت حربًا؛ لأنك ستصرع خصمك للتو " .

يضاف إلى ذلك صدور تقرير[٣] في فبراير ٢٠٠٣ عن " السياسة الخارجية " يقول: إن الولايات المتحدة زودت العراق بصورة واضحة بقمر صناعي عن ميليشيات كردية وقوات إيرانية، حتى يمكن للعراقيين أن يصيبوا كليهما على نحو أكثر فعالية. إن شخصية أساسية في جهود ريجان[٤]، للتودد إلى صدام، كان الأكثر عنفًا على العراق بعد الحادي عشر من سبتمبر: إنه وزير الدفاع دونالد رمسفيلد، الذي قابل صدام حسين مبعوثًا لريجان في ديسمبر ١٩٨٣، كذلك قابل طارق عزيز، ثم وزير الخارجية في ٢٤ مارس ١٩٨٤، في اليوم نفسه الذي أصدرت فيه الأمم المتحدة تقريرها حول استخدام العراق لغازات سامة ضد القوات الإيرانية .

إن المساعدة الأمريكية لصدام حسين تراوحت من اعتمادات إنسانية إلى الحماية السياسية، وعندما بدأ صدام حسين قتل الأقلية الكردية، في العراق، بالغاز في مايو ١٩٨٧، كانت الولايات المتحدة تمد العراق، بالفعل، بمعونة قدرها ٥٠٠ مليون دولار في العام، ورغم الرؤى[٥] العامة حول استخدام الأسلحة الكيميائية، فإن الولايات المتحدة قد ضاعفت من مساعدتها للنظام . يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة سدت الطريق أمام محاولات إثارة الموضوع في مجلس أمن الأمم المتحدة . غير أنه

عندما قتلت قوات صدام حسين الأكراد بالغاز للمرة الثانية، بعد وقف إطلاق النار مع إيران فى سبتمبر ١٩٨٨، فإن هذه الوحشية قوبلت بحملة واسعة، حتى فى الصحف الأمريكية وطلبت الولايات المتحدة، وقد أجبرت على الاعتراف بالجريمة، أن يكون رد فعل الأمم المتحدة فى حدود تعيين فريق بحث عن الحقيقة لتأكيد هذا الحدث .

إن الأسلحة الكيميائية فى الولايات المتحدة لم تكن مطلقة العنان فقط على هؤلاء الذين صُنعت من أجلهم؛ ففى حادثة مأساوية واحدة، على الأقل، خلال حرب الخليج عام ١٩٩١، تعرض أكثر من ١٠٠,٠٠٠ جندى أمريكى لغاز الأعصاب " سارين "، عندما فجرت العسكرية الأمريكية، بطريقة غير صحيحة، مواقع أسلحة كيمائية فى " خماسية " . واليوم هنالك عشرات الآلاف ممن تمرسوا فى حرب الخليج مرضى – وتصل التقديرات " حتى إلى نصفهم "، حيث يعانى الكثيرون منهم من العديد من الأعراض التى تسمى مجتمعة " أعراض حرب الخليج " . وقد غدت الأمور متاحة[٦] للرأى العام بعد الغزو الذى قامت به العراق، عندما رفعت دعوى قضائية فى أغسطس ٢٠٠٣، باسم أكثر ١٠٠,٠٠٠ مقاتل فى حرب الخليج، ذُكرت فيها أسماء إحدى عشرة شركة وثلاثة وثلاثون مصرفًا يدعى أنها ساعدت العراق ببرنامج أسلحة كيميائية فى الثمانينيات، رغم معرفتها أن صدام حسين يستخدم بنشاط السلاح الكيماوى دبليو إم دى ضد كل من الإيرانيين وشعبه هو " .

إن هذا التحالف بين الولايات المتحدة وصدام حسين يمكن فهمه، بصورة أفضل، عندما نتأمل النظامين البعثى والإسلامى فى كل من بغداد وطهران، نظامان قوميان أحدهما مدنى والآخر دينى، وهما يمثلان المحاولات الأكثر نجاحًا لبناء الدولة فى المنطقة. كان لدعم واشنطن لبغداد فى الحرب، دلالة عما تراه الخط الأكبر، غير أن الهدف الحقيقى لاستراتيجية واشنطن كان إدماء كليهما حتى الموت، وقد عبر كيسنجر

بوقاحـة عن الاتجاه الفكرى وراء ذلك، وكان بالفعل خارج السلطة : " إننا نأمل أن يقتل الواحد منهما الآخر" .

وأنهى غزو صدام حسين للكويت هذا التحالف، وغدا حسين مثالاً للثمن الذى يجب أن يدفعه أى نظام ينتهك شرط التحالف مع الولايات المتحدة . لقد كانت حرب الخليج عام ١٩٩١، عقوبة بالمعنى الحرفى للكلمة، إذ كانت المرة الأولى التى طبقت فيها الولايات المتحدة عقيدتها العسكرية التى ابتدعتها فى لاوس أثناء الحرب الطويلة فى عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٤، "تعويض غياب القوات الأرضية عن طريق الضرب الجوى بالقنابل بكثافة غير مسبوقة بغض النظر عن الضرر اللاحق " وكانت الضرورة السياسية توجب ألا يكون الضرر اللاحق معلنًا، كما كان يحدث فى لاوس. ثم إنها كما " لاحقت أثر هوشى منه فى أدغال الجنوب " و " المناطق الكثيفة السكان فى سهل "الجار" فى الشمال "، لكن اللجوء لإلقاء القنابل ثانية قد أثار قلقًا كبيرًا فى الدوائر المعادية للحرب فى الولايات المتحدة. وقد أشارت مجموعة من علماء كورنيل، أن القصف بالقنابل قد انتهك مبدأ التناسب - " وجود تناسب معقول بين الخسارة الواقعة، والمكسب العسكرى الذى يجرى السعى لتحقيقه " - فى ظل القانون الدولى ويصل" نيل شيهان الصحفى بالنيويورك تايمز، والفائز بجائزة البولينزير، إلى نتيجة فى مقدمته(٧) لتقرير العلماء، أن " الحرب الجوية يمكن أن تشكل جريمة حرب جسيمة تقوم بها الحكومة الأمريكية وقادتها " . إن هذه العقيدة القائمة على القصف الجوى، دون النظر إلى مبدأ التناسب أو النتائج التى تحل بالسكان المدنيين، هى التى طبقتها الولايات المتحدة فى أثناء حرب الخليج وبعدها فى كوسوفو ثم فى أفغانستان .

شُنت حرب الخليج فى ظل مانع محدود وارتكبت الولايات المتحدة فى أثناء العملية العديد من جرائم الحرب، وقد وجه المحامى العام(٨) السابق، رامزى كلارك، اتهامًا جاء فيه أن الإدارة قد استخدمت " كل أنواع الأسلحة منتهكة بذلك القانون الدولى "، من المفرقعات إلى اليورانيوم المخصب إلى القنابل العنقودية . وكما استهدفت البنية

الأساسية العراقية بصورة شاملة، فإن القليل من الاهتمام قد وجه إلى الإصابات المدنية، والتي جرى تفسيرها باعتبارها أضراراً لاحقة " . وقد كتب إريك هوسكين، وهو طبيب كندي[٩]، وكان أيضًا منسق فريق هارڤارد في العراق، أن القصف بالقنابل عام ١٩٩١ " قد أنهى بصورة فاعلة كل ما هو حيوي لبقاء البشرى في العراق الكهرباء والماء وأنظمة الصرف والزراعة والصناعة والرعاية الصحية " . و ادعى توماس فريدمان[١٠]، رئيس المراسلين الدبلوماسيين لنيويورك تايمز علنًا أن " الأفضل في كل العوالم "، بالنسبة للولايات المتحدة، هو ديكتاتور آخر مثل صدام، " قبضة حديدية لعصبة عراقية دون صدام حسين " . غير أن جورج هـ. دبليو . بوش تردد في أن يحل آخر محل صدام حسين؛ لأنه لم يعد متيقنًا من النتائج التي يمكن أن يؤدي إليها تغيير النظام في المنطقة . لقد واجه بوش مأزقًا مزدوجًا؛ إذ كانت هنالك الأقلية الكردية، من ناحية، وهي المجموعة الأفضل تنظيماً بين العراقيين؛ ليستفيد من الإطاحة بصدام حسين، غير أن هدفها كان إقامة دولة كردية تشتمل أيضًا على أجزاء من تركيا، الحليف وثيق الصلة بالولايات المتحدة في المنطقة . وهنالك أيضًا، من ناحية أخرى، احتمال أن تقوم الأغلبية الشيعية، ذات العلاقات الدينية والثقافية بإيران، بتثبيت وجودها، بأن تجعل آمال أمريكا في عزل إيران آمالاً معتمة . وكان البديل هو مواصلة عقاب العراق، في زمن السلم، حتى تبعد النظام عن أن يكون مسلحًا بطريقة فعالة ضد أي أحد غير مواطنيه .

واستمرت فكرة أن العراق يشكل خطرًا على المنطقة، وهو قادر على القيام بعملية غزو، كما حدث مع الكويت، وخطرًا على العالم لقدرته على إطلاق العنان لأسلحة الدمار الشامل، حتى بعد هذه الحرب الضاغطة، وكان يقال عن العراق إنها قادرة في حالة أسوأ سيناريو[١١]، على امتلاك سلاح نووي . وقد علّق محرر "بوليتن أوف" أتوميك سيتتست، بعد حرب العراق عام ٢٠٠٣ أن " العديد من التهم التي لاحت أمام (الوسائط الإعلامية) قد فشلت في اختبار الضحك، غير أنه كلما كان الأمر أكثر سخفًا حاولت وسائل الإعلام جعل تجرعه بصدق اختبارًا للوطنية " . إن تلك

القصص الخيالية دعمت الجدل القائل بأن العراق يجب أن يخضع لنظام بوليسى، وتعاقب فى الوقت نفسه . إن هذا الدمج قد أجرته الولايات المتحدة وبريطانيا عبر القصف الجوى المتكرر، والذى استمر حتى بعد أن انتهت حرب الخليج وبدأت، مع الوقت، الحرب الثانية مع العراق عام ٢٠٠٢، وقد دام قصف العراق فى أثناء زمن السلم مدة أطول (منذ ١٩٩٠) من تلك التى استغرقتها غزو الولايات المتحدة لفيتنام أو الحرب فى لاوس . وقد أخبر الرسميون، من الولايات المتحدة، " الوول ستريت جورنال "، فى أكتوبر ١٩٩٨[١٢]، أنهم سوف يفرغون قريبًا من أهدافهم : " إننا سوف نصل إلى آخر مبنى صغير ملحق بمبنى كبير " . كان ذلك قبل شهرين من حدوث هياج شديد حول بيل كلينتون، بسبب فضيحة مونيكا ليونيسكى ومواجهته باقتراح فى مجلس النواب بالولايات المتحدة بتهمة الحنث باليمين وإعاقة العدالة، وقراره بإطلاق عنان قصف بالقنابل فعال للعراق . وقد بدأ القصف الفعال[١٣] فى السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٩٨، وانتهى فى التاسع عشر من ديسمبر وأطلق على المهمة اسم " عملية ثعلب الصحراء "، وهو أيضًا لقب الفيلد مارشال الألمانى أروين روميل . وقد ذكرت حكومة الولايات المتحدة أن القوات الأمريكية والبريطانية قد سددت أكثر من ٦٥٠ ضربة جوية وهجمات فى ضربات داعمة، وأن سفن الأسطول والغواصات قد أطلقت ٣٥٠ صاروخًا من نوع الكروز، وأن ٩٠ كروزًا إضافية قد أطلقتها القوة الجوية "بـ ٥٢ إس" للولايات المتحدة .

وقد جرى القصف المتكرر للعراق فى موازاة لنظام غير محدد من العقوبات الاقتصادية. وكانت الأمم المتحدة تبنت العقوبات الاقتصادية كجزء من دستورها لعام ١٩٤٥ وكوسيلة لصيانة النظام الكونى، واستخدمت العقوبات الاقتصادية، منذ ذلك الوقت، أربع عشرة مرة، منها اثنتا عشرة مرة منذ انهيار الاتحاد السوفيتى . غير أن العراق يمثل أول دولة توقع فيها العقوبات على بلد بصورة شاملة منذ الحرب العالمية الثانية، بمعنى أن كل وجه من أوجه صادراتها ووارداتها قد أصبح، فى آخر الأمر، خاضعًا لإشراف الأمم المتحدة وعرضة لفيتو الولايات المتحدة .

فرض مجلس أمن الأمم المتحدة عقوبات اقتصادية متعددة وشاملة فى القرار ٦٦١ الذى صدر فى ٦ أغسطس ١٩٩٠ . حيث تم حظر كل الصادرات من العراق والواردات إليها، باستثناء المواد الطبية والمواد الغذائية فى بعض الحالات . وفرض القراران ٦٦٥، ٦٧٠، فى هذا العام نفسه حصارًا بحريًا وجويًا لفرض العقوبات . وجدد نظام العقوبات، مع الإيضاحات الإنسانية نفسها، فى القرار ٦٨٧ (١٩٩١) وقد سمحت مجموعة أخرى من القرارات[١٤] عام ١٩٩١ببيع النفط والمنتجات النفطية حتى ١,٦ مليار دولار، كل ستة أشهر، غير أن ذلك لم يطبق حتى صدر القرار ٩٨٦ (١٩٩٥) الذى أنشأ برنامج النفط مقابل الغذاء، وظل تعليل نظام العقوبات يتحول . أولاً، كان يعتبر دافعًا لجعل العراق ينسحب من الكويت . وعندما انسحبت العراق، أصبحت الحجة هى الحاجة لنزع سلاحها، وخاصة أسلحة الدمار الشامل الكيميائية والبيولوجية . وكان الهدف الحقيقى هو مساومتها على سيادتها، وعندما طُرح، مبكرًا عام ١٩٩١، اقتراح بإشراف الأمم المتحدة على مبيعات نفط العراق، لاستخدامه فى شراء السلع الإنسانية، اعترضت العراق على أساس أن الاقتراح يمكن أن يضرب سيادتها ويختزل الحكومة إلى إدارة مدنية داخلية، واستمر نظام العقوبات ربما حتى أطول مما توقع العراقيون، وتوصل العراق والأمم المتحدة، فى النهاية، وقد تعمقت الأزمة الإنسانية الملازمة إلى اتفاق حول برنامج النفط مقابل الغذاء .

وقد كشف هذا النظام عن تطور جديد وخبيث بحق فى تاريخ النزاع الأقل حدة. لقد ادعى، وهو يشن حملة باعتبارها حملة من أجل حقوق الإنسان، أنه يهدف إلى تخفيف عقوبة مستحقة بالفعل، طبقًا لحكم شروط قانون خاص " بالسلع الإنسانية "، التى يشرف عليها " منسقو الأمم المتحدة للمعونة الإنسانية " . لقد أطلق ذلك فى الحقيقة العنان للقتل الشامل لمئات الآلاف من الأطفال أساسًا، فى إطار معرفة كاملة وقسوة بالغة، إن الضحايا لم يكونوا الهدف، كما كان ثمة قبول مثير للسخرية بأن العقوبات قد تمركزت بطريقة فعالة على تجارة الصادر - الوارد الرسمية، حتى إنها وضعت السكان الذين لا يزالون أحياء تحت رحمة النظام نفسه الذى ادعت أنها تستهدفه .

أما وقد تم ذلك باسم الأمم المتحدة، فقد حول الأمم المتحدة إلى وكيل أمريكى لنزاع ضئيل الحدة .

وحيث إنه لم يسمح بقروض أجنبية أو استثمارات أجنبية – ولا سبيل إلى تبادل أجنبى – فإن البرنامج قد عمل على النحو التالى: سمح للعراق ببيع كمية ثابتة من النفط عبر ستة أشهر (أساساً ٢/١ مليار دولار خالصة، ثم ٣ مليار دولار فيما بعد)، وذهبت الإيرادات مباشرة إلى حساب الأمم المتحدة. ورأت الولايات المتحدة وبريطانيا أن الأمر يقتضى تحويل ثلث هذا المبلغ تقريبًا (٣٠٪ من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠٠، و٢٥٪ فيما بعد) إلى صندوق تعويض يدفع للأجانب بسبب الخسائر التى زعموا وقوعها بسبب غزو العراق للكويت، و١٠٪ أخرى ذهبت كى تدفع لنفقات أعمال الأمم المتحدة فى العراق، ويشرف على الباقى مراقب الأمم المتحدة فقط، والذى قام بصرف الأموال للمتعاقدين والموردين للمواد الغذائية، والأدوية الأساسية التى وافقت عليها لجنة العقوبات. ولكن كما ذكرت ورقة عمل[١٥] كانت معدة للجنة الأمم المتحدة الفرعية " التعزيز وحماية حقوق الإنسان، فإن نصف إيراد البيع، على وجه التقريب، فقط هو الذى انتهى فى اتجاه شراء سلع إنسانية، وذهب غالبية الباقى فى اتجاه الإصلاحات والتكاليف الإدارية " وقد عامل نظام العقوبات فى النهاية الجزء الكردى الشمالى فى العراق معاملة تفضيلية، فى كل من الأموال التى قدمت ودرجة الاستقلال الذاتى، التى سمح بها لإدارتها المحلية عن الأجزاء الوسطى والجنوبية، وبينما نقصت وفيات الأطفال[١٦] فى المحافظات الثلاث الشمالية خلال فترة نظام العقوبات، فإنها ازدادت فى المحافظات الخمس عشرة فى وسط العراق وجنوبه .

لقد كان أثر العقوبات الشاملة مميتًا، ولقد وقعت بسببها كوارث حقيقية اجتماعية وديموجرافية، حيث جاءت فى أعقاب حرب استهدفت ودمرت البنية الأساسية المادية للعراق، ومع ذلك فقد كانت المعرفة العامة بالأزمات الإنسانية بطيئة التحقق .

إن جزءًا من السبب يكمن فى حقيقة أن مقرر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، حول العراق، كان محدوداً فى تعريفه وتحديده لانتهاكات حقوق الإنسان التى ترتكبها

الحكومة العراقية، كان محظوراً على المقرر طبقًا للتفويض من النظر فى انتهاكات حقوق الإنسان الناجمة عن العقوبات وافتقد برنامج النفط مقابل الغذاء، فى الوقت نفسه، عنصر التقييم، ومن ثم افتقد أيضًا آلية محركة يمكن أن تفرض رد فعل إن تدنت الأوضاع. وعندما غدت أبعاد الأزمة معروفة تقدم عضوان غير دائمين فى مجلس الأمن، كندا والبرازيل، بقرار فى ١٩٩٨ يفوض الأمم المتحدة بتنظيم الأوضاع الإنسانية فى العراق، وكانت النتيجة هى المسح الديموجرافى لليونسيف عام ١٩٩٩، والذى كشف لأول مرة الدليل الشامل، والذى له مصداقيته، عن المأساة الإنسانية التى صنعها نظام العقوبات .

كان هنالك، قبل عام ١٩٩٩ نوعان من الدراسات: ثلاث وأربعون دراسة مستقلة عن وضع تغذية أطفال العراق، تمت على امتداد خمسة عشر عامًا، وبيانات عن عدد الوفيات فى المستشفيات، جمعتها وزارة الصحة العراقية منذ عام ١٩٩٣ . وقد قيم ريتشارد جارفيلد بروفسور الرعاية الدولية للمستوصفات فى جامعة كولومبيا، ورئيس لجنة حقوق الإنسان لاتحاد الصحة الأمريكية العام، تلك الدراسات والادعاءات . وقد اعتبر جارفيلد أن إحصائيات الوزارة العراقية لا يعول عليها إلى حد كبير، حيث إن غالبية الوفيات لا تبلّغ المستشفيات عنها، كما أن كل الوفيات فى المستشفيات لا يمكن نسبتها للعقوبات، وعندما جاء إلى الدراسات المستقلة وجد أنه يمكن التعديل عليها، غير أن تركيزها محلى بصورة كبيرة لكن جارفيلد اعترف بأن المسح الذى قامت به اليونيسيف عام ١٩٩٩ " يقدم التقديرات الأولى التى يعول عليها عن العراق منذ ١٩٩١ .

وقد أوضحت بيانات اليونيسيف[١٧]، " أن معدل الوفيات أكثر من الضعف " بين الأطفال دون سن الخامسة، فى الخمس عشرة محافظة الوسطى والجنوبية للعراق، من ٥٦ لكل ألف مولود فى ١٩٨٤ – ١٩٨٩، إلى ١٣١ لكل ألف مولود خلال ١٩٩٥ – ١٩٩٩ . وكانت النتيجة أن خمسة آلاف " حالة وفاة أطفال أو يزيد " كل شهر بالإضافة إلى معدل ماقبل العقوبات عام ١٩٨٩ . وكتب جارفيلد، فى صيف[١٨]. ٢٠٠٠، مقدمًا الرقم

٣٠٠,٠٠٠ " كتقدير حذر من " الوفيات الزائدة، بين الأطفال دون سن الخامسة " . بل حتى الأسوأ لهؤلاء الأحياء كان ٢٥٪ من الأطفال سيئى التغذية بحالة مزمنة .

وحتى فى زمن القتل الشامل هذا، فإن ثقل تلك الأرقام يجب ألا يغيب عن انتباهنا . إننا نلاحظ أنه " حتى فى حالات[١٩] الهبوط الاقتصادى الشديد، مثل الكساد العظيم، فى الولايات المتحدة، فإنه لم تكن هنالك زيادة فى معدل الوفيات " . وأبرز جارفيلد ثقل الكارثة العراقية، باعتبارها " الحالة الوحيدة للزيادة المؤكدة والكبيرة فى الوفيات، فى عدد ثابت من السكان يزيد عن ٢ مليون فى المائتى سنة الأخيرة " وحيثما تبختر الموت كانت الحياة بائسة، إن مرتبة العراق فى " برنامج الأمم المتحدة للتنمية " هبط " مؤشر التنمية البشرية " من ٥٥ إلى ١٣٠ عام ١٩٩٠ وإلى ١٢٦ من ١٥٠ عام ٢٠٠٠(*) . وكان هنالك إجماع، فى عام ٢٠٠٠[٢٠]، فى كل من الأمم المتحدة ومجتمع حقوق الإنسان حول أن زيادة وفيات الأطفال مرتبطة مباشرة بالعقوبات، وقد أقر تقرير يونيو عام ٢٠٠٠ إلى " لجنة الأمم المتحدة الفرعية المعنية بتعزيز حقوق الإنسان وحمايتها " أن الوفيات الإجمالية " التى تعزى مباشرة للعقوبات "، قد تراوحت " من نصف مليون إلى مليون ونصف، مع غالبية من الموتى أطفال " : بل حتى كان أدنى تقدير هو ثلاثة أضعاف عدد اليابانيين الذين قتلوا فى أثناء هجمات الولايات المتحدة بالقنبلة الذرية .

إن الجانب الأخلاقى[٢١] لنظام العقوبات، والذى لا يمكن الدفاع عنه أو تبريره، كان واضحاً منذ فترة مبكرة، منذ ١٩٩٦، عندما سألت ليسلى ستاهل، مادلين أولبريت، سفيرة الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة فى البرنامج التليفازى " ستون دقيقة "، عن

(*) لقد جُمع مؤشر ١٩٩٠ من أسفل إلى أعلى، ومؤشر ٢٠٠٠ من أعلى إلى أسفل . ومن ثم، فإن العراق كانت مرتبتها الـ ٧٦ من ١٣٠ فى عام ١٩٩٠، وسوف تكون الـ ٥٥ لو كان المؤشر قد جمع من أعلى إلى أسفل، كما فى عام ٢٠٠٠ (المؤلف).

ثمن " احتواء " صدام : " لقد سمعنا أن نصف مليون من الأطفال قد ماتوا، أقصد، أن هذا العدد أكثر ممن ماتوا فى هيروشيما، وأنت تعرفين، هل يستحق الأمر هذا الثمن ؟ وقد أجابت مادلين أولبريت: " إننى أعتقد أن هذا اختيار صعب للغاية، غير أن الأمر كما نعتقد، يستحق هذا الثمن " .

كيف وبواسطة من تم لمدة طويلة تبرير هذا الموت بالقتل ؟ كان هذا السؤال موضوع بحث قامت به جوى جوردون، أستاذ الفلسفة بجامعة فيرفيلد، وهى تدرس أخلاقيات العلاقات الدولية وقد وصفت كلاً من تجربة بحثها[٢٢] وما اكتشفته، فى عرض قدمته " هاربرز ماجزين "، التى تقصّت موضوع " العقوبات الاقتصادية كسلاح للدمار الشامل " .

إن الحقيقة البسيطة هى أن الولايات المتحدة قد استخدمت الڤيتو بصورة مستمرة حول لجنة القرار ٦٦١ لمجلس الأمن، وهى الهيئة المسئولة عن كل من فرض العقوبات ومنح استثناءات إنسانية " من أجل إقلال السلع الإنسانية الداخلة إلى البلد. لم يكن مطلوبًا تقديم سبب للفيتو، غير أن السبب الذى قدمته فى الغالب الأعم كان يدور حول الاستخدام المزدوج، المدنى والعسكرى، مدعية أن السلع محل التساؤل تلك الضرورية لتوفير الكهرباء والخدمة الهاتفية، والنقل، بل حتى المياه النقية يمكن استخدامها لتعظيم قدرات العراق العسكرية .

وقد وجدت جوردون[٢٣] أن الولايات المتحدة قد عطلت فى سبتمبر ٢٠٠١ " قرابة ٢٠٠ عقد إنسانى "، مشتملة على " عقود لم تعترض عليها وكالة الأمم المتحدة الموكل إليها التفتيش على الأسلحة"، وكان الأمر الأكثر قبحًا هو ذلك الخاص بالسلع المحظورة لترميم أنظمة المياه، وحفظ الصحة العامة، مما جعل المزيد من وفيات الأطفال تجىء نتيجة " مباشرة أو غير مباشرة لتلوث المياه " . ومع ذلك، فإن الرسميين من الولايات المتحدة أوقفوا عقود السفن ذات الصهاريج لنقل المياه، " على أساس أنها يمكن استخدامها للحصول على أسلحة كيميائية بدلاً منها " . وفى سبتمبر ٢٠٠١ " كانت هنالك " عقود معدات طبية بحوالى مليار دولار محتجزة فى الوقت الذى كانت قد قدمت فيه كل المعلومات المطلوبة " .

كانت الولايات المتحدة قادرة على وقف حتى العقود التى وافق عليها القائمون بالرصد، التابعون للأمم المتحدة، بناء على أن منهج الأمم المتحدة يسمح بذلك . إن المرة الوحيدة[٢٤] التى أحست فيها الولايات المتحدة أنها مجبرة على تبرير الڤيتو الذى مارسته، كانت عندما فُرض عليها فعل ذلك علنًا فى الصحافة الأمريكية، كما حدث حقًا فى مارس ٢٠٠١، عندما ذكرت الواشنطن بوست ورويترز أن الولايات المتحدة حظرت منح ٢٨٠ مليون دولار من " الإمدادات الطبية، مشتملة على الأمصال لمعالجة الالتهاب الكبدى والتيتانوس والدفتريا وبالمثل الحضانات ومعدات خاصة بالقلب " . كانت حجة واشنطن المنطقية أن الأمصال تحتوى على أنسجة وبكتيريا حية، ولو أنها قد أضعفت ضعفًا شديدًا "، وأن الحكومة العراقية " تستطيع استخراج تلك بصورة يمكن تخيلها وأنها تطور فى النهاية سلالة خبيثة قاتلة " . وتواصل الڤيتو، رغم شهادة خبراء أوروبيين فى الحرب البيولوجية، " أن مثل ذلك المعمل الفذ، هو فى الحقيقة مستحيل، بكل معنى الكلمة " ورغم " الضغط الكامن وراء مشاهد من الأمم المتحدة ومن أعضاء فى مجلس الأمن "، وقد أعلنت الأمم المتحدة فجأة أنها ترفع الڤيتو، فى هذه الحادثة نفسها، عندما وجهت، فقط، بإعلان مضاد .

وقد قال إداريو الأمم المتحدة الذى يعملون على أرض الواقع، إنهم قد طوروا نظام رصد فعّال يعمل على منع الاستخدام المزدوج للواردات . وأشار منسق الأمم المتحدة للمعونة الإنسانية فى بغداد، هانز ڤون سبونيك، فى لقاء[٤٥] عام ١٩٩٩، "كان علينا التحكم فى كل أسطوانة غاز تجىء إلى هذا البلد . لقد كان لدينا رقم، وكان علينا التأكد أن هنالك ٧٦٥ أسطوانة غاز"، وأن الأسطوانة الأخرى هى أسطوانة زائدة . فإن كان فى وسعك القيام بهذه المهمة بهذا التفصيل، فإنه فى وسعك يقينًا أن تفعلها أيضًا بالآلات الحاسبة اللازمة لطلاب المدارس العليا أو الجامعات الذين يحتاجون إلى كيفية التعامل مع التقنية الحديثة " .

لقد فرض عليهم[٢٦] تحمل مسئولية سياسية لم يستطيعوا الدفاع عنها أو التأثير فيها، وقد اختار الكثيرون من هؤلاء الذين كانوا مسئولين عن تنفيذ سياسة

العراق من الأمم المتحدة إلى الاستقالة واحداً بعد الآخر، وكان أول من استقال هو دنيس هاليداى، وهو رجل إيرلندى، كان يعمل مساعداً للسكرتير العام ومنسقًا إنسانيًا فى العراق مدة ثلاثة عشر شهراً . استقال فى سبتمبر ١٩٩٨ معلنًا، " أننا نقوم بتدمير مجتمع بأكمله وأنها عملية بسيطة ومرعبة وغير شرعية وغير أخلاقية " . " وأبعدت الولايات المتحدة خليفته "، هانز فون سبونيك، الذى عمل منسقًا إنسانيًا حتى مارس ٢٠٠٠، " بتهم التحول إلى الليونة، فيما يتعلق بالعقوبات المفروضة على العراق " . هذا ما قاله مسئول فى الأمم المتحدة إلى " أجنس فرانس برس " . لقد جاءت الاستقالة بعد تحذير لڤون سبونيك، فى لقاء مع السى إن إن، جاء فيه أن برنامج الأمم المتحدة عاجز عن تحقيق حتى " أدنى الاحتياجات " اللازمة لـ ٢٢ مليون هم الشعب العراقى : " إلى متى يجب أن يتعرض السكان المدنيون الأبرياء ، لمثل تلك العقوبة لشىء لم يفعلوه ألبتة ؟ وأنا، باعتبارى مسئولاً، فى الأمم المتحدة، يجب ألا يتوقع أحد منى أن ألزم الصمت عن هذا الذى أعرفه كمأساة إنسانية حقيقية يلزم إنهاؤها" . وبعد يومين من هذا، استقال أيضًا جوتا بورغادرت، رئيس برنامج الغذاء العالمى فى العراق، مقرراً " أنا أدعم كلية ما يقوله مستر ڤون سبونيك " .

وكلما زاد رفض الأمم المتحدة لتخفيف نظام العقوبات، رغم أن معيار المذبحة الإنسانية فى العراق قد غدا معروفًا بصورة علنية، زاد الغضب فى مجتمع حقوق الإنسان. وقد كتبت هيومن رايتس واتش(٢٧) عن العقوبات : " إن الغرض المتواصل لعقوبات اقتصادية شاملة (ضد العراق) يدمر الحقوق الأساسية للأطفال وللسكان المدنيين عامة " وطالبت مجلس أمن الأمم المتحدة " بالإقرار بأن العقوبات قد أسهمت على نحو كبير، فى وجود حياة دائمة تهدد الأوضاع فى البلاد "، ووصفت حملة " أنقذوا الأطفال (بالمملكة المتحدة) العقوبات الاقتصادية باعتبارها حرباً صامتة ضد أطفال العراق " .

لقد رأينا الأسباب التى تبرر العقوبات المستمرة عبر السنين: وقد قيل أخيراً إنها ضرورية لإجبار العراق على نزع السلاح، وخاصة بسبب الأسلحة الكيميائية والبيولوجية . لقد تم تسليح العراق بأسلحة الدمار الشامل خلال فترة تعاونه العسكرى مع الولايات المتحدة، التى انتهت بحرب الخليج، وتلت ذلك فترة نزع سلاح وحوار حول المدى الذى كان به نزع السلاح مؤثراً، وكان من بين الحقائق الصعبة التى يمكن أن تعاون فى الإجابة عن هذا السؤال، أن مفتش الأسلحة، سكوت ريتر ضابط الاستخبارات البحرية الذى كان كبير مفتشى الأسلحة من عام ١٩٩١ حتى عام ١٩٩٨ كان الأكثر شكًا فى أن نظام صدام حسين يمثل الآن أهمية كبيرة، ناهيك عن أن يشكل تهديداً بارزاً، واستقال ريتر احتجاجًا على أن حكومة الولايات المتحدة قد خرَّبت مهمته، واضعة تسعة من ضباط الاستخبارات الأمريكية فى فريق التفتيش منذ عام ١٩٩٢، وقد قال ريتر على السى إن إن فى ١٧ يونيو عام ٢٠٠٢، مايلى :

> **كنا قد حددنا، حتى ديسمبر ١٩٩٨، قيمة ٩٠٪ إلى ٩٥٪ من قدرة أسلحة الدمار الشامل العراقية؛ لقد دمرنا كل المصانع وكل وسائل الإنتاج، ولم نستطع تقدير بعض التسليح، غير أن للأسلحة الكيميائية حداً للصلاحية خمس سنوات، وللأسلحة البيولوجية حداً للصلاحية ثلاث سنوات، وعليهم حتى تكون لديهم أسلحة اليوم أن يعيدوا بناء المصانع، ويبدأوا عمليات إنتاج تلك الأسلحة من ديسمبر ١٩٩٨ .**

وكانت وجهة نظره أن هذه الإمكانية بعيدة، حيث " إن أحداً لم يقدم الدليل على امتلاك العراق أسلحة دمار شاملة، أو أنه يحاول حيازة أسلحة دمار شامل" . وقد أكد هانز بليكس، آخر رئيس لمفتشى الأسلحة أيضًا أنه لم يكن هنالك دليل على أن العراق قد امتلك أسلحة دمار شامل .

لقد زعمت العراق أنها قد دمرت كل أسلحتها المحظورة بين عامى ١٩٩١ و ١٩٩٤، إما منفردة أو فى ظل تعاون مع المفتشين، وكان فى وسع المفتشين أن يؤكدوا صحة أن

التدمير المنفرد قد حدث على نطاق واسع، غير أنهم لم يستطيعوا تحديد الكميات التى تم تدميرها، ومن هنا، سجلوا المادة باعتبار أنه " لم يتم التأكد من صحة تدميرها كما أنه ليس هنالك قناعة بأنها مازالت موجودة "، وهو التباس أمسكت به كل من الولايات المتحدة وبريطانيا للادعاء بوجود " مخزون احتياطى " خفى .

وإذا كان من الضرورى قول الحقيقة، فإن البادى لم يكن نظام صدام حسين، لكنه كان إدارات الولايات المتحدة المتعاقبة، والتى لجأت إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل بحرية، بدءًا من حرب الخليج عام ١٩٩١ . لقد رأينا كيف وصف البرفيسور جوى جوردون العقوبات الاقتصادية، بعد حرب الخليج " باعتبارها سلاحًا للدمار الشامل " ، وقد استخدمت الولايات المتحدة، خلال غزوها للعراق، سلاحين آخرين على الأقل : نسخة عصرية من القنابل الحارقة، أطلق عليها اسم جديد هو النابالم فى أثناء الحرب الفيتنامية، ويطلق عليها الآن القنابل النارية مارك – ٧٧، واليورانيوم المخصب . وقد أسقطت القنابل النارية مارك – ٧٧ على القوات العراقية قرب الحدود العراقية والكويتية عند بداية الحرب، ورغم حظر الأمم المتحدة، عام ١٩٨٠، استخدام النابالم، غير أن الولايات المتحدة لم توقع قط على هذه المعاهدة . إن الولايات المتحدة تعتبر استخدام القنابل النارية مارك – ٧٧ شرعيًا لعدة أسباب . وبداية، فإنها لم تعد تعرف بالاسم الموصوم، النابالم . ومع ذلك، فإن هذا الجيل من القنابل الحارقة، التى جرى تطويرها، خلال الحرب العالمية الثانية، واستخدامها على المدن اليابانية، هذا الجيل معروف عنه أنه أشد تدميرًا لحياة البشر بأكثر من النابالم، إن القنابل النارية مارك – ٧٧ تنفجر فى تل من كرات اللهب، ويشرح روبرت ميوسيل مدير "علماء الفيزياء، من أجل المسئولية الاجتماعية"، وهى مجموعة مقرها واشنطن تعارض استخدام أسلحة الدمار الشامل قائلاً : " إن القنابل الحارقة تسبب حروقًا يصعب علاجها "، وقد وصف التمييز الذى قدمه البنتاجون بين النابالم والقنابل النارية مارك – ٧٧، باعتباره " بالغ الإساءة نوعًا ما "، وجاء رد فعل البنتاجون[٢٨] من الكولونيل ميك داليكار من " سلاح

البحرية "، ورغم إقراره أن لمارك – ٧٧ أثرًا " تدميريًا " مماثلاً " على البشر، فقد أكد أن " أثره أقل بصورة واضحة على البيئة " .

إن اليورانيوم المستنفد، هو منتج النفاية النشط إشعاعيًا والسام بصورة عالية، والذى يتبقى بعد أن يكون اليورانيوم الطبيعى قد تم " تخصيبه " . ومثله مثل القنابل النارية الحارقة، كان الاستخدام الأول لليورانيوم فى ذخائر الحرب العالمية الثانية قد جرى على يد النازيين وقد استخدمت الولايات المتحدة، خلال حرب الخليج، اليورانيوم المستنفد فى الذخيرة الحربية بطرائق متنوعة، مثل صفائح الدروع، ضد ما يخترق الدبابات وصواريخ كروز . ومن غير المحتمل أن تكون الاعتبارات الاقتصادية وحدها هى التى شكَّلت عقبة أمام استخدام اليورانيوم المستنفد. وطبقًا لشهادة داماشيو لوبيز[٢٩]، من الفريق الدولى لدراسة اليورانيوم المستنفد : " لقد مات أكثر من ١,٥ مليون جندى ومدنى لأسباب طبيعية منذ حرب الخليج ١٩٩١، وكان ثلثهم أطفالاً تحت سن الخامسة. وقد زادت اللوكيميا والسرطان والتشوهات الخلقية والأمراض النادرة، بمعدل خطير فى هذا البلد. وقد أظهرت الدراسات التى قام بها العلماء العراقيون، مستويات أعلى من تلك التى تسمح بها المعايير الدولية لليورانيوم – ٢٤٨ ومنتجاته، فى إمدادات مياه شرب بلدان مختلفة وفى نهر دجلة . كما أظهرت الخضراوات والأسماك واللحوم فى جنوب العراق مستويات من التلوث الإشعاعى بالمثل أيضًا" ومادام اليورانيوم المستنفد يدخل فى سلسلة الطعام، ويلوث المياه، ويقال إن " نصف حياته تصل إلى ٤,٥ مليار سنة ". فإنه سوف يواصل إيذاء كل أشكال الحياة فى المناطق الملوثة حتى نهاية الزمن إذا لم يتم تنظيفه . وحيث إنه من المعروف أن اليورانيوم يتسبب فى حدوث سرطان الرئة، عندما يجرى استنشاقه، وكذلك سرطان العظام واللوكيميا والتشوهات الخبيثة عندما يجرى تناوله فى الطعام، فإن النتائج لن تكون أقل من عنيفة وقاسية – ليس فقط للعراقيين والكويتيين والأفغان الذين وعدوا " بالديمقراطية " من خلال القوة الأمريكية، بل أيضًا من أجل أبناء الأمريكيين وبناتهم، الذين استحثوا كى يرتدوا بذَّات نظامية سعيًا إلى مهام

إنسانية فى معارك بعيدة " . تماماً مثلما كان الأمر مع القنابل النارية الحارقة، فإن استخدام الأسلحة التى تحتوى على اليورانيوم المستنفد ينتهك القانون الإنسانى، وقد أكدت محكمة العدل الدولية، فى رأى استشارى لها عام ١٩٩٦، أنه " يجب على الدول ألا تستخدام ألبتة أسلحة عاجزة عن التفريق بين الأهداف المدنية والعسكرية " . إن القتل العمدى أمر جسيم – جريمة حرب – طبقًا للمواد ٥١، ٥٢، ٥٨ من البروتوكول الإضافى(١) لاتفاقيات جنيف الأربع .

إن الدعاية قد غدت جزءًا جوهريًا من الحرب، فى الأزمنة الحديثة ، حيث إن تاريخ حرب أمريكا مع العراق، بدءًا من حرب الخليج إلى غزو العراق عام ٢٠٠٣، قد شهد تصعيدًا لدعاية من التشويه والتضخيم لحقائق معروفة إلى الاختلاق العمدى للأكاذيب . لقد كان بيان " ممرضة " كويتية حاسمًا فى استمالة أعضاء الكونجرس للتصويت لحرب الخليج، إذ ادعت أنها رأت الجنود العراقيين يسلبون إدارة الأمومة والولادة فى مستشفى الكويت ويقتلون الأطفال، وقد ظهر فيما بعد، أن الممرضة " كانت بالفعل ابنة السفير الكويتى فى واشنطن، وحكايتها قد تم تلفيقها لـ " رندون جروب "، وهى شركة إعلامية موظفة للحرب عن طريق ميشيل ك. ديفر، وهو مستشار إعلامى سابق لرونالد ريجان . وقد ادعى، بصورة كبيرة فى أثناء حرب الخليج، أن الجيش العراقى يُعد فى تعداد أكثر الجيوش قوة فى العالم . ومن ثم، فهو تهديد حقيقى للسلام، فى المنطقة وخارجها . وقد كشفت النيويورك تايمز فى ٢٠ فبراير ٢٠٠٢ أن البنتاجون قد أوجد، بناءً على قرارات من رونالد رمسفيلد، ومساعد وزير الدفاع دوجلاس فيث، مكتبًا للتأثير الاستراتيجى (أو إس أى) مع تفويض بابتداع أنباء كاذبة خدمة لمصالح الولايات المتحدة . وقد منح الـ أو إس أى سلطة، بالتنسيق مع جنرال القوات الجوية سيمون دوردن، كى يعمل على عدم تقديم معلومات، وخاصة لوسائل الإعلام الأجنبية، وقد تضمنت نشاطاته عقدًا قيمته ١٠٠,٠٠٠ دولار شهريًا مع " رندون جروب "، وقد تم حل الـ أو إس أى رسميًا بعد تلك الاكتشافات، غير أن التطورات اللاحقة – وخاصة " إنقاذ " برايفت جيسيكا

لينش – أثارت تساؤلات حول إن كان الحال هكذا حقًا أم أن التفويض قد أمسكت به وكالة أخرى .

إن القصة المعروفة الآن جيدًا عن " إنقاذ " جيسيكا لينش قد انتشرت كالرزاز عبر وسائل إعلام الولايات المتحدة فى أبريل ٢٠٠٣ . وطبقًا للحكاية الرسمية، فإنها قد وقعت فى كمين فى ٢٣ مارس، وقد أطلقت النيران على العراقيين حتى نفذت ذخيرتها ثم أصابتها طلقة ووجهت إليها طعنة وقيدت، وأخذت إلى مستشفى فى الناصرية حيث افترض ضرب ضابط عراقى لها، وتم تحريرها بعد أسبوع بواسطة قوات الولايات المتحدة الخاصة، الذين اقتحموا المستشفى وتغلبوا على مقاومة حراسها وأنقذوها وحملوها إلى الكويت بالهليوكوبتر، وأعلن الرئيس بوش إلى الأمة فى الليلة نفسها إنقاذها فى خطاب من البيت الأبيض، وزود البنتاجون وسائل الإعلام عبر ثمانية أيام أخرى بڤيديو عن عملية الإنقاذ، وهو ڤيديو ينافس بسهولة نموذج أفضل أفلام الإثارة .

وعندما انتهت الحرب ذهب صحفيون – بما فيهم هؤلاء الذين من النيويورك تايمز، وتورستار، والبى بى سى – إلى الناصرية ليعرفوا الحقيقة . وقال لهم الأطباء العراقيون الذين تحدثوا إليهم إن جراح لينش كانت ذراعًا وساقًا مكسورتين وكعبًا فى غير موضعه، وهى جراح لم تنتج عن رصاصات، ولكن عن حادثة للسيارة التى كانت تسافر فيها، وأكد الأطباء الأمريكيون الذين فحصوها، فيما بعد، هذه الحقيقة وبدلاً مما قيل عن إساءة معاملتها، فإن الأطباء العراقيين قد وفروا لها أقصى عناية، إذ كانت قد فقدت[٣١] قدرًا كبيرًا من الدماء "، هكذا شرح الدكتور سعد عبد الرزاق " وكان علينا أن ننقل لها دمًا، ولحسن الحظ فإن أفرادًا من أسرتى كانت لهم الفصيلة نفسها: إيجابى. كان فى وسعنا الحصول على دم، وكان معدل نبضها ١٤٠ عندما وصلت إلى هنا، أعتقد أننا أنقذنا حياتها "، وقام الأطباء، بعد المرور بمخاطرة ليست بالهينة، بالاتصال بالجيش الأمريكى لإخبارهم بأن الجيش العراقى

قد تراجع، ولينش فى انتظار من يطالب بها . وحدث قبل يومين من وصول القوات الخاصة، أن قام الأطباء بأخذها فى سيارة إسعاف إلى موقع قرب خطوط الولايات المتحدة، غير أن قوات الولايات المتحدة فتحت عليها النار وقتلتها تقريبًا، وعندما وصلت القوات الخاصة، وهى مزودة بمعدات خاصة، فى غارة قبل الفجر اندهش أعضاء طاقم المستشفى، وقد قال د. إمناركوداى لمراسل البى بى سى جون كامبفز : " كان الأمر مثل[٣٢] أحد أفلام هوليوود، لم يكن هنالك جنود عراقيون، غير أن القوة الخاصة الأمريكية كانت تستخدم أسلحتها، إذ كانوا يطلقون النار عشوائيًا، وسمعنا تفجيرات، وكانوا يصرخون انطلق ! انطلق ! انطلق ! . كان الهجوم على المستشفى نوعًا من الاستعراض أو فيلمًا مثيرًا مع سيلفيستر ستالونى "، وقد قام مساعد مخرج سابق، ريدلى سكوت، كان قد عمل فى فيلم " سقوط الصقر الأسود " بتصوير " الإنقاذ " بكاميرا ذات رؤية ليلية . وقد كتب روبرت سكير[٣٣]، من لوس أنجيلوس تايمز، أن الصورة أرسلت حينئذ لتنقيحها فى مركز قيادة الولايات المتحدة بقطر، ثم للبنتاجون لفحصها ثم تم توزيعها على امتداد العالم .

لقد أصبح إنقاذ جيسكا لينش يمثل فى الولايات المتحدة أكثر اللحظات بطولة فى نزاع ٢٠٠٣ فى العراق، ومع ذلك فإن قصة إنقاذها كاذبة مثلها مثل السببين الكبيرين اللذين قدما لشن الحرب على العراق: أسلحة صدام حسين للدمار الشامل، أو الروابط بين النظام العراقى والقاعدة . إن المفهوم نفسه عن أسلحة الدمار الشامل "، قد تم اختراعه كفزّاعة ليسير جنبًا إلى جنب مع مفهوم النظام " الشرير "، الذى يجب أن تثير ترسانته الخوف العميق، وكان هنالك فى قلب الحديث عن نوعية الاستخبارات التى بررت غزو العراق، وكالة سرية خاصة ابتدعتها إدارة بوش "، مكتب الخطط الخاصة " (أو إس بى)، قاعدته فى البنتاجون . وكان أو إس بى[٣٤] موضوع عمل ممتد لسيمور هيرش، وهو صحفى محقق محارب فى النيويوركر . وطبقًا لهيرش فإن الـ أو إس بى كان من تصور بول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع، ويشرف عليه مساعد وزير الدفاع ويليام لوتى ويديره أدم شولسكى، وكانت

مهمة الـ أو إس بى، وقد تم إنشاؤه بعد الحادى عشر من سبتمبر، هى تحليل البيانات القادمة من الخدمات السرية - بما فى ذلك المخابرات الأمريكية ودى آى إيه البنتاجون - والخروج بموجز يرسل إلى البيت الأبيض . غير أن مستشاراً بالبنتاجون أخبر هيرش أن الـ أو إس بى " قد تم ابتداعه ليعثر على الدليل الذى يثبت أن ما يؤمن به ولفوفيتز ورئيسه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أمر حقيقى، وأن لصدام حسين روابط وثيقة بالقاعدة ولدى العراق ترسانة هائلة للأسلحة الكيميائية والبيولوجية واحتمال النووية، التى تهدد المنطقة والولايات المتحدة بصورة كامنة " . ولتحقيق ذلك تحول الـ أو إس بى إلى مرتدين يحتمون بمظلة المجموعة العراقية المنفية، المؤتمر الوطنى العراقى بقيادة أحمد شلبى والذى كان لولفوفيتز " علاقة شخصية به ... تعود إلى سنوات عدة " . وعندما تجاوزت مجموعة المحللين الصغيرة فى الـ أو إس بى تنسيق المعلومات الموجودة إلى ابتداع معلومات جديدة، فإنهم قد حجبوا وكالات الاستخبارات - التجميعية الموجودة، وقد أخبر رئيس قسم الشرق الأوسط فى DIA باتريك لانج أخبر "هيرش" هيرش : " لقد أرهب الـ دى آى إيه، وضرب حتى النخاع وليس هنالك من شجاعة فى المخابرات الأمريكية " . وانتهى هيرش إلى أن الـ أو إس بى قد " حقق " خلال عام " تغييراً جوهرياً للاتجاه فى مجتمع الاستخبارات الأمريكية "، و " ساعد فى تشكيل رأى عام، وسياسة أمريكية نحو العراق " . ولاحظ هيرش أن استطلاع رأى جرى فى فبراير ٢٠٠٣، بيَّن أن ٧٢٪ من الأمريكيين يؤمنون أنه من المحتمل أن صدام حسين شخصياً متورط فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر .

إن الحجج الأساسية للـ أو إس بى[٣٥] قد وجهت بالجدل والخصومة مباشرة من لجنة الاستقصاء المشتركة للكونجرس، فى عملية الجو الانتحارية فى الحادى عشر من سبتمبر، التى انتهت إلى أن " استخبارات الولايات المتحدة ليس لديها دليل على أن النظام العراقى، نظام صدام حسين، كان متورطاً فى الهجمات أو أنه قد دعم القاعدة " وقد وضع سيناتور جورجيا، ماكس كليلاند، عضو لجة الكونجرس، التى أعدت التقرير، يده على القضية " لقد سوّقت الإدارة العلاقة لتثير فزع الشعب الأمريكى وتبرر الحرب . إن ما

رأيتموه هنا إنما هو معالجة بارعة للاستخبارات لغايات سياسية، وقد قال النائب جان هيرمان، الديمقراطى فى لجنة استخبارات المجلس وهو واسطة من كاليفورنيا، وكان قد صوت للحرب العراقية إنه لم يكن لدى بوش الحق، كما فعل فى السابع عشر من مارس فى إعلان " أن الاستخبارات التى جمعتها هذه الحكومات الأخرى لا تدع مجالاً للشك أن النظام العراقى يواصل امتلاك وإخفاء بعض من أكثر الأسلحة المخترعة قدرة على الإبادة "، وقد استخلص النائب هيرمان عدة نتائج للمستقبل : من الواضح أنه كانت هنالك شروخ فى استخبارات الولايات المتحدة، فأسلحة الدمار الشامل لم [تكن] موضوعة حيثما اعتقد مجتمع الاستخبارات باحتمال وجودها والأسلحة الكيميائية لم تستخدم فى الحرب، رغم حكم مجتمع الاستخبارات بأن استخدامها أمر محتمل. إننى أستحث هذه الإدارة ألا تفكر فى عمل عسكرى، خاصة إذا كان عملاً استباقيًا فى إيران أو كوريا الشمالية أو سوريا، حتى تتضح تلك الأمور، وقد اتهم سيناتور كليلاند الإدارة بالتأخير العمدى لإطلاق سراح التقرير لإبقاء الزخم الدافع للحرب. " إن سبب تأخير هذا التقرير مدة طويلة بمعارضته عمدًا فى البداية، ثم السير بطيئًا بعد إعداده هو أن الإدارة أرادت أن تدخل الحرب فى العراق وتنتهى منها . وإذا صدر هذا التقرير فى يناير، كما كان يجب أن يحدث، لكنا قد عرفنا تلك الأشياء قبل الحرب فى العراق الأمر الذى لم يكن مناسبًا للإدارة " .

لم يظهر خلال الحرب، أى دليل عن مخزون أو استخدام لأسحلة دمار شامل . وكان هذا يعنى أنه إما أن النظام لا يمتلك مثل تلك الأسلحة، أو أنه إن امتلك فهو نظام مسئول بما يكفى إلى حد أنه لا يستخدمها، حتى فى مواجهة هزيمة مؤكدة . إن المرء لتصيبه الدهشة! أية حقيقة يمكن أن تكون أكثر قبحًا للغزاة؛ فقد قامت الإدارة بعد الحرب بنشر فريق تفتيش بلغت عضويته ١٤٠٠ فرد، هو مجموعة المسح العراقية، تحت قيادة الجنرال دايتون، غير أنها فشلت أيضًا فى الخروج بأى دليل على مخزون أسلحة الدمار الشامل . وقد قال ولفوفيتز، فى لقاء مع مجلة " ڤانيتى فير "،

بمجرد انتهاء الحرب، وربما توقعًا لهذا الاحتمال[٣٧]، أن الولايات المتحدة قد ركزت على أسلحة الدمار الشامل المزعومة باعتبارها التبرير الأول لغزو العراق؛ لأنها الأكثر ملاءمة من الناحية السياسية: " لقد استقررنا لأسباب بيروقراطية على موضوع واحد هو أسلحة الدمار الشامل؛ لأنه كان السبب الوحيد الذى يمكن أن يوافق عليه الجميع " .

وقد يسأل المرء، لماذا استهدفت الولايات المتحدة نظام "حسين" إذا لم يكن يشكل تهديدًا وشيكًا طبقًا للتعبيرات العسكرية ؟ إن العراق يمتلك ثانى أكبر مخزون نفط متيقن منه بعد المملكة العربية السعودية، غير أن النفط لا يقدم التفسير الكلى أو حتى معظمه . إن الأهمية الحقيقية للعراق أهمية سياسية؛ فكما حدث بعد عام ١٩٩١ تحول العراق ليصبح مثالاً للعقوبة التى يمكن أن ينالها نظام يتجاسر على الخروج عن إطار العمل الذى حدده تحالف الولايات المتحدة، ولذا فإن دلالة العراق بعد الحادى عشر من سبتمبر تمت مرة أخرى، فيما وراء البلد نفسه. إن إدارة بوش بمهاجمتها للعراق قد أملت فيما هو أكثر من مجرد تغيير النظام: لقد مثل العراق فرصة أخرى لإعادة رسم الخريطة السياسية للمنطقة كلها، وهو أمر حاولته الولايات المتحدة مرات عدة من قبل وألقى الغزو الإسرائيلى للبنان الأضواء على ذلك غير أنه فشل فى خلق دولة مسيحية تشكل حاجزًا يمنع الصدام بين دولتين، وكذلك التحالف مع العراق ضد إيران فى الثمانينيات والحرب فى أفغانستان . لقد قصد بالإطاحة بنظام صدام حسين تغيير توازن القوى فى الشرق الأوسط ويكتب الميچور جنرال الإسرائيلى ياكوف أميدرور، بطريقة منظمة، فى أبريل ٢٠٠٣[٣٨]، تحت رعاية " مركز أورشليم للشئون العامة " أن " العراق ليست هى الهدف النهائى . إن الهدف النهائى هو الشرق الأوسط، العالم العربى والعالم الإسلامى، والعراق سوف تكون الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه . إن كسب الحرب ضد الإرهاب تعنى بنيويًا تغيير المنطقة كلها" .

إن الولايات المتحدة تسعى إلى استبدال الأنظمة المناوئة بإرهاب أنظمة أخرى، وفرض نظام إقليمى جديد عن طريق ملف أنظمة موالية لأمريكا، أولاً فى العراق

ثم دولة فلسطينية أشبه بالبانتوستان(*)، طبقًا لنمط الأبارتهيد، معبرة عن تغير فى النظام كاستراتيجية من أجل " المقرطة " . ومع ذلك فإن هجمة التحول الذى تسعى إليه هذه الإدارة هى هجمة كونية وليست مجرد هجمة إقليمية رغم ما يصدر أحيانًا من تساوى الإرهاب بالإسلام. إن " الأصولية " البروتستانتية تعمل على إحداث نقلة فى السياسة، وهى ذات توجه ضيق الأفق لكنه كونى النتائج " والمحافظة الجديدة " والتى تتميز بطموحات كونية . إن هدفها هو القومية المناضلة فى الشرق الأوسط وما وراءه، ورغم أن الأساليب قد تغيرت بعد الحادى عشر من سبتمبر، حيث أفسحت الحرب بالوكالة الطريق أمام الغزو الكلى، غير أن الهدف ظل هو بعينه كما ظل فى إدارة ريجان : استهداف القومية النضالية والقضاء عليها عبر تغيير النظام .

الاستغناء عن حكم القانون عالمياً:

إن السمة المحددة للإمبريالية الغربية الحديثة - خاصة البريطانية والفرنسية - كانت هى الادعاء بأن توسيع مجالات النفوذ إنما هو أساسى لحكم القانون عالميًا، بل حتى أكثر الديكتاتوريات وحشية التى كانت واعية ذاتيًا بكونها غربية مثل: ألمانيا النازية وأبارتهيد جنوب أفريقيا أصرت على أنها مناصرة ومؤيدة لحكم القانون .

ومن وجهة النظر هذه، فإن الازدراء الصريح لإدارة جورج دبليو بوش لحكم القانون مسألة لا مثيل لها فى تاريخ الإمبريالية الغربية، وفى الوقت نفسه، فإن الإبعاد الذى يتصف بالاحتقار للقواعد والاتفاقيات والمعاهدات، بل حتى الترتيبات الدستورية، يسير جنبًا إلى جنب مع مهمة مُدعاة عن نشر " الديمقراطية " كونيًا وعلى غير مثال هؤلاء، الذين عقلنوا الهيمنة الكونية الغربية، فى فترة مبكرة، ولكن فى

(*) مناطق ونظام العزل العنصرى البانتو - جنوب أفريقيا - تتمتع بدرجة محدودة من الحكم الذاتى . (المترجم)

تماثل كبير للغاية مع إدارة ريجان. ادعت إدارة بوش أن هنالك تضاداً بين حكم القانون والديمقراطية، وهما قيمتان كان ينظر إليهما حتى الآن باعتبارهما حجرى زاوية للحضارة الغربية، ولذا فإن أمريكا بعد الحادى عشر من سبتمبر قد أنهت أى احتمال للحكم العالمى للقانون، وادعت الحصانة للقوة الأمريكية باسم نشر الديمقراطية عالمياً، هل يمكن أن يصبح هذا الازدراء المتنامى للقانون الدولى سمة محددة لهذه الإدارة وطابعاً لأمة؟ هل تعبر قوى المحافظين المدنيين الجدد والأصوليين البروتستانت عن إجماع جاكسونى متنامٍ فيما بعد أمريكا الحادى عشر من سبتمبر؟ وهل هذا الأمر أمر ناب وشاذ أم أنه نقطة تحول ؟

لقد تعاملت الولايات المتحدة، فى أثناء الحرب الباردة، مع الأمم المتحدة، فى أقل الحدود، قاصرة المشاركة والتعاون على موضوعات ووكالات وفترات تتناسب والمصالح الأمريكية . لقد دفعت ما عليها من التزامات؛ إذ اعتبرت الأمر والوقت ضروريين وبالقدر الذى تختار هى دفعه، وتركت وكالات الأمم المتحدة التى عارضت أغراضها، مثل اليونسكو، وعادت إليها لتكسب خطوة مؤقتة، كما فعلت مع اليونسكو أيضاً بعد غياب ١٨ عاماً عنه. ما إن انتهت الحرب الباردة ووقفت الولايات المتحدة باعتبارها القوة الدولية العظمى الوحيدة، حتى أحست بأنها حرة فى التخلى عن اتفاقيات رأتها لم تعد تتسق ومصالحها، وهى تفرض، فى الوقت نفسه، وبصراحة تعيين الشخصيات القيادية فى وكالات الأمم المتحدة .

إن العاملين المدنيين الدوليين، على أعلى مستوى، الذين أصروا على أن تقبل أمريكا بحكم القانون قد استهدفوا وتركوا أمام اختيار واحد: أن يستقيلوا أو يعزلوا ، وكان أكثر هؤلاء بروزاً وشهرة هو السكرتير العام السابق للأمم المتحدة، بطرس بطرس غالى، الذى قاده اقتناعه العاطفى الساذج إلى أن انتهاء الحرب الباردة سوف يفسح الطريق للحكم العالمى للقانون، مما قاده إلى اختلافات عدة مع مادلين أولبريت، وأدى فى النهاية إلى رسالة واضحة من إدارة كلينتون أن ترشيحه سوف

يواجه بالڤيتو إن هو سعى إلى فترة ثانية. إن قائمة ضحايا سلطة الولايات المتحدة الآخرين من المستويات العليا، فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر، اشتملت على مارى روبينسون، الرئيسة الأيرلندية السابقة، التى اعتزلت فقط، بعد تجديد عام واحد لعقدها، باعتبارها المفوض الأعلى لحقوق الإنسان، وروبرت واتسون الرئيس الأكثر احتراماً لهيئة مابين الحكومات المعنية بتغير المناخ، وجوسى موريسيو بستانى، رئيس المنظمة المعنية بحظر الأسلحة الكيميائية، بعد عام واحد فقط من انتخابه بالإجماع لفترة ثانية قدرها خمس سنوات .

لقد جاء بطرس بطرس غالى إلى الأمم المتحـــدة بأوراق اعتمـاد مـؤسسية من الخطة: لقد رافق السادات إلى أورشليم، وكان واحداً من مهندسى اتفاقيات كامب داڤيد. وقد ظهرت اختلافات[٣٩] مع الولايات المتحدة بمجرد نهاية حرب الخليج، التى رأت فيها الولايات المتحدة نموذجاً لعمليات الأمم المتحدة المستقبلية: الأمم المتحدة تقترح بناء على مبادرة واشنطن والولايات المتحدة تحسم " . كان بطرس غالى يرى أن نهاية الحرب الباردة سوف تحرر الأمم المتحدة من قيود التنافس بين الشرق والغرب. وقد قدم اقتراحات فى العديد من الوثائق من أجل دبلوماسية وقائية، بما فى ذلك، إنشاء " وحدات انتشار سريع يمكنها أن تسمح للأمم المتحدة بكبح النزاعات المحتملة فى مهدها، بل حتى فرض ضرائب لتمويل عملياتها " . وحيطة أن تكاليف الأمـم المتحدة لعمليات حفظ السلام قد زادت أربعة أمثالها منذ عام ١٩٩٢ إلى ١٩٩٦ (من ٦٠٠ مليون دولار إلى ٢,٦ مليار دولار) . وامتنعت واشنطن عن دفع التزاماتها (التى بلغت حوالى ٢,٩ مليار دولار) . وقد شجب بطرس غالى " خداع " هؤلاء الذين جعلوا الأمم المتحدة بلا فاعلية، بحرمانها من أموال أساسية، بينما يرفضون دفع ما عليهم من أموال واجبة لها بحجة أنها غير فاعلة " . ونفد صبر واشنطن عندما بدأ بطرس غالى ممارسة استقلاله فى التطبيق . لقد انتقد انشغال واشنطن بالبوسنة " حرب الأغنياء " وإهمالها للصومال، حيث " يحتمل موت ثلث السكان جوعًا "

ورواندا، حيث اتهم الولايات المتحدة " بالوقوف فى كسل " والمشاركة فقط عندما تهلك المذابح بالفعل القسم الأعظم من السكان. "إن العديد يؤمنون أن غضب واشنطن قد بلغ الذروة فى أبريل ١٩٩٦، عندما أصر " بطرس " على نشر نتائج استقصاء الأمم المتحدة التى أوضحت تورط إسرائيل فى قتل حوالى مائة من المدنيين الذين أخذوا رهائن فى معسكر الأمم المتحدة فى قانا بجنوب لبنان "، ونجحت الولايات المتحدة، فى النهاية، فى استبدال بطرس غالى بأفريقى آخر، هو كوفى عنان، وكيل السكرتير العام للأمم المتحدة لحفظ السلام خلال مذابح رواندا العرقية، الذى أصبح أكثر تناغمًا بكثير مع ما تدعو إليه واشنطن . لقد جاء صعود كوفى عنان(٤٠) إثر أزمتين كبريين واجهتهما الأمم المتحدة: الأولى، يوغوسلافيا السابقة والثانية رواندا . وبينما لم يكن بطرس غالى راغبًا فى اتباع قيادة الناتو والموافقة على المطالب الأمريكية بالقصف الجوى للصرب بمعيار يتجاوز القصف الرمزى، التزم كوفى عنان على الفور عندما رشح ليحل محل بطرس غالى .

ويقول ريتشارد هولبروك إنه " غدا " حينذاك، السكرتير العام المتربص " غير أن رواندا هى التى أظهرت أن رغبة عنان فى خدمة الولايات المتحدة، إنما هى رغبة لا تعرف بوضوح أى حدود: وكما لاحظ إلكسندر كوكبورن، " فإنه مراعاة لرغبة أمريكا فى الإبقاء على سراييفو فى الضوء، قام بطمس تحذير الجنرال الكندى روميو دالير بأن مذابح مروعة على وشك الابتداء فى رواندا " .

لقد جلبت ماري روبنسون، أيضًا، على نفسها غضب الولايات المتحدة الشديد لمصادقتها على نتائج مؤتمر الأمم المتحدة العالى ضد العنصرية عام ٢٠٠١، الذى ناقش المعاملة العنصرية الإسرائيلية للفلسطينيين والعبودية، باعتبارها " جريمة ضد الإنسانية "، مما قاد كلاً من الولايات المتحدة وإسرائيل إلى الانسحاب . وقد أثار روبرت واتسون حنق لوبى البترول، عندما وصل فريق علمى برئاسته إلى إجماع يقول بأن النشاط الإنسانى يشكل عاملاً فى تغير المناخ، كما أنه قاد مجهودات إنشاء معايير دولية حول استخدام الوقود الحفرى. إن أهمية المصالح النفطية(٤١) فى

صياغة سياسة الولايات المتحدة قد تم الكشف عنها فى مذكرة تم تسريبها من إكسون موبيل، التى سألت فيها البيت الأبيض " هل يمكن استبدال واتسون الآن، بناء على طلب الولايات المتحدة "؟ وعندما زاد، جوسى موريشيو بستانى، بصفته مديراً عاماً لمنظمة حظر الأسلحة الكيميائية، عدد الموقعين على الاتفاقية الدولية التى تحظر الأسلحة الكيميائية من ٨٧ إلى ١٤٥ فى سنواته الخمس الأولى من عمل . وقد أثنت الجارديان[٤٢] على بوستانى لإنجازه، أسرع معدل نمو لأية هيئة متعددة الأطراف فى الأزمنة الحديثة"، وأشادت به لأنه " حقق خلال السنوات الخمس الماضية، تعزيزاً للسلام العالمى، أكثر من أى شخص آخر على ظهر الكرة الأرضية "، بل إن بستانى تلقى مذكرة تهنئة من وزير خارجية الولايات المتحدة، كولن باول غير أنه سرعان ما دخل فى مشكلات مع حكومة الولايات المتحدة، وكان السبب هو إصراره على استقلال مكتبه، مقاوماً المطالب الأمريكية، بأن يقرر الأمريكيون جنسية مفتشى منظمة حظر الأسلحة الكيميائية المخصصين لمرافق أمريكية، ومعارضة التشريع الأمريكى الذى منح الرئيس سلطات وقف التفتيش غير المعلن للمرافق الأمريكية، ومنع مفتشى منظمة حظر الأسلحة الكيميائية من نقل عينات من مواقع التفتيش، وكانت جريمته الكبرى، على أى حال، هى محاولة إقناع العراق بتوقيع اتفاقية الأسلحة الكيميائية، وإذا سمح لمفتش منظمة حظر الأسلحة الكيميائية بالدخول إلى المواقع العراقية، فإن النتيجة سوف تكون حرمان واشنطن من تبرير قانونى – إلى حد ما، للعمل العسكرى ضد العراق . وقد طلبت الولايات المتحدة من الحكومة البرازيلية أولاً، أن تستدعى بوستانى، غير أنها رفضت على أساس أنه كان منتخباً وليس معيناً، ثم إنها طالبته بالاستقالة، الأمر الذى رفضه، فضغطت أخيراً على المجلس التنفيذى لمنظمة حظر الأسلحة الكيميائية لعزله، الأمر الذى نفذه المجلس، وقد أخبر بستانى المحكمة الكنغرية(*) لهذا الغرض من أنه :

(*) محكمة لا تراعى فيها مبادئ القانون والعدالة. (المترجم)

" بعزلى سوف تنشأ سابقة دولية حيث إن رئيس أية منظمة دولية منتخب كما ينبغى، يمكن عند أية نقطة، خلال مدة توليه (أو توليها) أن يظل عرضة لنزوات واحد من المساهمين الكبار أو عدد منهم. إنهم سوف يكونون فى وضع يمكنهم فى إزاحة أى مدير عام أو سكرتير عام، من منصبه، عند أية نقطة من الزمن " .

وكانت الفترة التى تجاوزت الحرب الباردة هى تلك التى تلتها، والتى قادت إلى انهيار القواعد الدولية التى كانت تحكم استخدام القوة، ولنتذكر أن مجلس الأمن لم يمنح أحداً ألبتة سلطة استخدام القوة ضد يوغوسلافيا، فى حالة كوسوفو، إن دستور الأمم المتحدة يحظر استخدام القوة إلا فى حالة الدفاع عن النفس، ما لم يوافق مجلس الأمن، لقد قاد الناتو حرب كوسوفو التى لم يحدث أى ادعاء ألبتة بأنها كانت دفاعية، تعليلاً لها . وعندما أخبر روبين كوك(٤٢)، وزير الخارجية البريطانى، مادلين أولبرايت، أن لديه " مشكلات مع محاميه " حول استخدام القوة ضد يوغوسلافيا دون موافقة مجلس الأمن، ردت عليه أولبرايت " احصل على محامين جدد" .

وعندما سئل كولن باول إذا كانت الولايات المتحدة تسعى بوضوح لموافقة مجلس الأمن لمهاجمة العراق عام ٢٠٠٣، طرح الوزير كوسوفو كسابقة للعمل مثل تلك السلطة، ولكن عندما نوقشت النتائج الخاصة بالعراق لاحتمال الإخلال بالقرار ١٤٤١، لم يتردد باول فى الادعاء أن مجلس الأمن " يمكنه تقرير إن كان العمل مطلوباً أم لا، غير أننا فى الولايات المتحدة سوف " نحتفظ باختيارنا لما يُعمل "، وأننا " لن نكون بالضرورة مقيدين بما يمكن أن يقره مجلس الأمن فى هذه النقطة "، وفى كلمات أخرى، فإن باول كان يجادل على أساس أن قرارات المجلس مقيدة للعراق، لكنها غير مقيدة للولايات المتحدة .

إن منحاها الذى يتسم بالعجرفة فيما يتعلق بحكم القانون فى الخلية الدولية، واضح فى السهولة التى أحست بها الولايات المتحدة بحريتها فى الانسحاب من

الاتفاقيات، والتى تعتبر أكثر تقييداً بكثير من القرارات، وربما كان رامزى كلارك هو أكثر النقاد خشونة فى مسألة المقاومة الأمريكية لحكم القانون الدولى . وقد قدم عدد الاتفاقيات التى تخلت عنها الإدارات الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة، فى خطاب أرسله لكل أعضاء مجلس أمن الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢ :

" لقد تخلت الولايات المتحدة عن الاتفاقيات التى تتحكم فى الأسلحة النووية وانتشارها، وصوتت ضد بروتوكول تمكين تنفيذ اتفاقية الأسلحة البيولوجية ورفضت اتفاقية خط الألغام الأرضية، وسعت لمنع تشكيل المحكمة الجنائية الدولية، وهى تعمل، منذ ذلك الحين، على جعلها كسيحة، وأحبطت الاتفاقية المعنية بالطفل وحظر استخدام الأطفال فى الحرب . لقد عارضت الولايات المتحدة، فى واقع الأمر، كل جهد عالمى آخر للتحكم فى الحرب وتحديدها وحماية البيئة وخفض الفقر وحماية الصحة " .

إن الحقيقة المحزنة هى أن بزوغ الولايات المتحدة كقوة عظمى عالمية وحيدة، قد سار جنباً إلى جنب مع طلبها أن تستثنى من أى حكم دولى للقانون . وهى لم تتردد، فى الوقت نفسه، عن المطالبة بتطبيق انتقائى لحكم القانون، ساعية إلى استخدام القانون كأداة لوضع " الآخرين " تحت المحاسبة. إن هذه المواقف الكثيرة تتضح إن قابلنا معارضة الولايات المتحدة للمحكمة الجنائية الدولية باتجاهها لإقامة محاكم دولية لحالات منتقاة .

لقد أنشئت المحكمة الجنائية الدولية لمحاكمة أفراد بسبب أشد الأفعال قساوة وشناعة فى العالم: الإبادة العرقية، جرائم الحرب، الانتهاكات المنظمة لحقوق الإنسان . إن ما يثير القلق الأمريكى هو أن هؤلاء الذين ينوون الثأر والانتقام يمكن أن يجدوا فى هذا فرصة لأخذ الجنود أو المدنيين الأمريكيين إلى المحكمة . وقد سجل هذا فى الاتفاقية وقت كتابتها، ومن ثم، فإن المحكمة الدولية يمكن أن تكون محكمة اللحظة الأخيرة. إنها يمكن أن تتدخل فقط عندما تكون البلدان " غير قادرة أو غير

راغبة "، فى مقاضاة قتلة بالجملة أو مقترفى جرم الانتهاكات المنظمة الأخرى، ومع ذلك، فإن واشنطن طلبت من مجلس الأمن الموافقة على استثناء كامل وغير محدود، لرعايا الولايات المتحدة من سلطة المحكمة، بل هددت باستخدام الفيتو ضد تجديد عملية الأمم المتحدة لحفظ السلام فى البوسنة وأماكن أخرى، إن لم تحقق ما تريد وتم التوصل إلى مساومة بعد أسبوعين من المفاوضات المريرة ومعارضة الاتحاد الأوروبى: وافق المجلس على ضمان استثناء لكل أفراد البلدان التى لم تصدق على الاتفاقية ولكن لمدة عام فقط .

وثارت كندا غضباً من هذه الحركة(٤٤) وهى واحدة من الدول الأساسية الدافعة وراء المحكمة، وشجبت لىّ الذراع باعتباره غير قانونى فى ذاته، وابتدعت إدارة بوش استراتيجية جديدة عندما عجزت عن منع المحكمة الجنائية الدولية فى أن تصبح حقيقة: توقيع اتفاقيات ثنائية يتعهد فيها الطرفان الموقعان على عدم تسليم رعايا متهمين بجرائم ضد الإنسانية إلى المحكمة الجنائية الدولية . وفى ٦ مايو ٢٠٠٣ كان برلمان سيراليون هو الأول الذى صدَّق على مثل تلك الاتفاقية وأدانت منظمة العفو الدولية(٤٥) صفقة الحصانة هذه فى بيان جاء فيه : " إن هذا القرار هو قرار غير مقبول كلية، خاصة فى وقت كانت فيه (سيراليون) قد بدأت التعامل مع عملية انتهاكات شاملة لحقوق الإنسان، كانت قد حدثت فى الماضى القريب "، غير أنه فى منتصف يونيو كانت هنالك سبعة وثلاثون بلداً قد وقعت على مثل تلك الاتفاقيات. وباستثناء مصر وإسرائيل والهند والفلبين فإن البلدان الباقية كانت بلداناً صغيرة وفقيرة، وتعتمد اعتماداً كبيراً على معونة الولايات المتحدة .

إن الولايات المتحدة كانت وهى توالى معارضتها للمحكمة الجنائية الدولية، متلهفة على إنشاء محاكم دولية لسياقات محددة، مثل رواندا والبوسنة وكامبوديا . لقد أوضحت القضية الكمبودية خاصة، وبصورة جيدة، السياسة التى تنتهجها الولايات المتحدة، وعندما انتهت الحرب فى الهند الصينية لم يكن لدى أمريكا طريق واحد

متسق للتعامل مع جرائم الحرب فى المنطقة، وحيث إنه لم تكن هنالك محكمة دولية مفوضة لمقاضاة جرائم حرب الولايات المتحدة فى ڤيتنام أو لاوس، دعمت الولايات المتحدة الدعوة إلى محكمة دولية لمقاضاة قادة الخمير الحمر لجرائم الحرب التى ارتكبوها . وعندما بلغ الأمر مرحلة مسودة[٤٦] شروط المحكمة، طلبت واشنطن أن يكون تفويض المحكمة مقصوراً على الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩، حيث إذا اشتملت المدة على السنوات السابقة واللاحقة على تلك الفترة، لخاضت الولايات المتحدة مخاطرة أن تتهم هى ذاتها بجرائم الحرب . إن أى تدقيق للفترة السابقة على ١٩٧٥، كان سيوجه انتباه المحكمة لسنوات قصف السجادة الذى قامت به الولايات المتحدة فى الهند الصينية، تماماً مثلما يؤدى فحص السنوات التالية، لما بعد عام ١٩٧٩ إلى إلقاء الضوء على الغطاء السياسى الذى قدمته الولايات المتحدة للخمير الحمر، فى كل من الأمم المتحدة ودولياً ضد ڤيتنام التى غزت كمبوديا عام ١٩٧٨ .

إن معارضتها عقد المحكمة ذات المسئولية الدولية لا يميز إدارة بوش عن القوى الكبرى الأخرى تاريخياً ، إنما ما يميزها بالفعل هو إصرارها غير المبالى على التخلص من أى مشروع يمكن أن يجعل الآخرين يتكاملون - سواء كانوا متنافسين أو مختلفين أو منشقين أو شركاء صغار أو تابعين - فى نظام دولى يقوم على قاعدة، ويذكرنا أناتول ليفين[٤٧] زميل " لمنحة كارنيجى للسلم العالمى بواشنطن " أن خطة " الهيمنة على العالم - أحادية الجانب، عبر التفوق العسكرى المطلق " كانت " تترافع عنها بإلحاح وتعمل من أجلها مجموعة المثقفين وثيقة الصلة بديك تشينى وريتشارد بيرل منذ انهيار الاتحاد السوفيتى فى أوائل التسعينيات ". وقد شارك كولن باول، وزير الخارجية الذى يعتبر حمامة السلام الداخلية فى إدارة بوش، باقى مؤسسة الأمن هذا الهدف الأساسى، وقد أعلن باول مبكراً عام ١٩٩٢، عندما كان رئيس المجموعة الاستشارية العسكرية(*)، أن الولايات المتحدة تحتاج إلى قوة

(*) وهى مكونة من رؤساء أركان حرب الجيش والقوة الجوية ورئيس عمليات الأسطول وقائد السلاح البحرى أحياناً . (المترجم)

كافية حتى " تمنع أى مُتحدٍ يحلم، فى أى زمان، بتحدينا فوق المسرح العالمى " . إن وثيقة الاستراتيجية الشهيرة التى رسمها باول وولفوفيتز فى السنة الأخيرة لبوش الكبير، قد تضمنت هذا الهدف تحديداً وقد نادى ابنه بها فى خطابه فى دست بوينت، فى يونيو ٢٠٠٢، باعتبارها السياسة الرسمية: إن الغرض الذى يوجه استراتيجية الولايات المتحدة لما بعد الحرب الباردة يجب أن يكون منع ظهور أى منافس لنا فى أى مكان فى العالم . إن ما ميز بول عن الصقور فى الإدارة، ليس هذا الهدف الأساسى، ولكن التزامهم بالحرب الاستباقية، التى هى الآن العقيدة الأمريكية الرسمية . ليس مصادفة أن غالبية عمليات الإبادة العرقية قد ارتكبت زمن الحرب . إنهم يقولون للناس: إنك إن لم تقتل فإنك ستقتل، إنك تقتل لأنك تخاف أن يفعلوا بك ما توشك أن تفعله بهم . إن الحرب الاستباقية هى التى تطرح منطق عمليات الإبادة .

إن إدارة بوش الحالية هى الخلف الأيديولوجى لإدارة ريجان، و" الدمويين " البارزين فى إدارة ريجان، الذين صاغوا الصفة الأيديولوجية لحرب الأفغان، مثل ريتشارد بيرل، يشكلون مؤثرات قوية فى صياغة سياسة الدفاع فى الإدارة الحالية . إن الحديث عن " مقرطة " العالم العربى، بما فى ذلك الاقتناع بوجوب انتشار الديمقراطية عبر القوة الأمريكية، الذى يشكل صدى لريجان الذى بشَّر باعتبار الكونترا والمجاهدين " آباء مؤسسين للديمقراطية فى نيكاراجوا وأفغانستان والثورة المضادة باعتبارها " الثورة الديمقراطية "، وكما غدت الديمقراطية علمًا إمبرياليًا يلوح به فى وجه الأنظمة القومية للعالم الثالث، كما حدث فى سنوات ريجان، كذلك غدا الأمن القومى مشروعًا إمبرياليًا يعمل، فى الوقت نفسه، على تآكل الديمقراطية فى الوطن ويبتر المحاولات القومية لبناء سيادة ذات معنى فى حقبة العولمة .

قوة إسرائيل والحصانة المحلية:

يجب ألا يندهش أحد لأن الولايات المتحدة تضع " حلاً " للسلطة الوطنية الفلسطينية، في الأراضى المحتلة مماثلا لذلك الذى وضع للعراق: تغير فى النظام يليه شكل من أشكال الوصاية. إن التشابه بين سياسة الولايات المتحدة فى العراق وسياسة إسرائيل فى الأراضى المحتلة قد زاد بصورة ملحوظة منذ الحادى عشر من سبتمبر. فكما كانت الولايات المتحدة قادرة على أن تمارس فى العراق مزيجًا من حرب جوية متقطعة مع عقوبات اتضح أنها قد أدت إلى قتل بالجملة، خنقت إسرائيل الحياة الاقتصادية بصورة فعالة فى الأراضى المحتلة ونزلت بسكانها إلى مستوى العظام العارية من الفقر عبر مزيج من العقاب المنتظم، مع خطر تجول ممتد وحركة مقيدة . وقد أفادت النيويورك تايمز فى ٢ فبراير ٢٠٠٢[٤٨] عن نشر بيان فى أورشليم، وقعه أكثر من مائة من جنود الاحتياط الإسرائيلى، يقولون فيه إنهم سوف يرفضون مواصلة الخدمة فى الضفة الغربية والقطاع؛ لأن سياسات إسرائيل هنالك تتضمن " الهيمنة، وطرد وتجويع وإذلال شعب بكامله " . لقد رفضت إسرائيل علنًا، مثلها مثل الولايات المتحدة فى العراق، التفرقة بين الأهداف المدنية والعسكرية فى الأراضى المحتلة بتبرير أن "إرهابنا" إما هو ضربة استباقية أو كرد على " إرهابهم " وقد عانى الشعبان العراقى والفلسطينى، خلال هذه العملية، من العقوبات الجماعية التى توقع فى ظل الحصانة .

لقد غدت أحداث جنين، منذ احتلت إسرائيل الأراضى الفلسطينية، هى المثل الجلى لإرهاب الدولة الإسرائيلى. إن إسرائيل، مثلها مثل الولايات المتحدة، مقتنعة أيضًا بالحاجة إلى استخدام القوة على نطاق واسع، قوة مفرطة كلية قياسًا بالاستفزاز المزعوم، حتى لا يكون هنالك شك فى النتيجة. ويتساءل إدوارد سعيد، بأى حساب لا إنسانى[٤٩] يحدث هذا" :

" هل يستخدم الجيش الإسرائيلى عشرات الدبابات وحاملات الأفراد المدرعة، بالإضافة إلى مئات ضربات الصواريخ فى طائرات الهليكوبتر الآباتشى من على السفن

الحربية التى أمدته بها الولايات المتحدة لتحاصر معسكر لاجئى جنين لأكثر من أسبوع، ربع كيلو متر مربع من أكواخ يسكنها ١٥,٠٠٠ لاجئ، وعدد قليل من الرجال المسلحين بالبنادق الآلية، دون صواريخ أو دبابات ويدعون ذلك رداً على عنف الإرهاب وتهديد بقاء إسرائيل. إن استخدام القوة غير المتكافئة يمكن أن يجد دعماً فقط، فى ظل غياب الحساب والمساءلة، ومع ضمان الحصانة، الذى لا يمكن توفيره إلا بالقوة الأمريكية فقط . فى الحقبة التى أصرت فيها الولايات المتحدة بانتظام، على أن حماية حقوق الإنسان يجب أن تعلو فوق أى زعم بسيادة الدولة، ظلت إسرائيل هى الاستثناء . لقد رفضت بنجاح أن توضع أعمالها فى جنين، موضع البحث والتحرى، حتى عندما لم تدَّعِ السيادة على المدينة، يمكن ألا نعرف ألبتة قصة كل ما حدث فى جنين، ما دامت تحريات الأمم المتحدة لم تتحقق . غير أنه فى وسعنا الحصول على بعض الآراء من روايات الأفراد. إن قصة موشى نسيم تلقى الضوء بصورة خاصة[٥٠]، إنه يدعى " الدب الكردى " فى الإذاعة العسكرية – " كردى " تشير إلى أصوله الكردية، و" دب " لبولدوزر التدمير دى – ٩ الذى يعمل عليه، والذى يبلغ وزنه ستين طناً . لقد أعطى تدريباً فى قيادة البولدوزر مدة ساعات قليلة، ثم ترك مسئولاً عنه وقد جاءت قصته فى كلمات الصحيفة الإسرائيلية[٥١]: " كان يجلس مدة ٧٥ ساعة متواصلة دون انقطاع على البلدوزر الضخم، العبوات تنفجر حوله وهو يمحو بيتاً بعد بيت . لم يكن هنالك جندى واحد فى جنين لم يسمع باسمه . كان الدب الكردى يعتبر الأكثر تكريساً لذاته، الأكثر شجاعة، ويمكن أن يكون الأكثر تدميراً، " كيف يمكن لإنسان أن يعمل طويلاً هكذا دون انقطاع ؟

هل تعرف كيف كنت أصمد لخمس وسبعين ساعة ؟ حتى لم أغادر التراكتور . لم أكن أعانى من التعب لأننى كنت أحتسى الويسكى طوال الوقت ... ثلاثة أيام، وأنا أدمر وأدمر فقط كل المنطقة . أى منزل كانوا

يطلقون منه النار يُدك، وحتى توجه له الضربة القاضية كنت أمزق المزيد ... إننى إن كنت أسفًا على شىء ما فإننى أسف لأننى لم أهدم المعسكر كله .

فإن كان الدب الكردى قد مثل وجه الدولة الإرهابية، فإن الجيش الإسرائيلى لم يكن يخلو من هؤلاء الذين قاوموا أوامر استهداف المدنيين . إن جريدة الجناح اليمينى الإسرائيلى "هاتزفيه"(٥٢) قدمت قصة " طيار هليكوبتر سفينة بحرية إسرائيلية رفض إطلاق صاروخ على منزل فلسطينى "، وقد استشهد مراسل الجارديان فى أورشليم بهذه القصة باعتبارها " آخر علامة على الاضطراب المتنامى بين بعض القوات الإسرائيلية حول السلوك القتالى فى المدن الفلسطينية، فى الضفة الغربية ". رفض الطيار الأمر المتكرر بإطلاق النيران: المرة الأولى عندما أمر قائد فرقة عسكرية بضرب منزل " لتصفية خمسة إرهابيين مزعومين مختفين فى الداخل، كما يبدو "، والمرة الثانية عندما أكد القائد للطيار " أن الإرهابيين يمكن أن يكونوا موجودين فى المنزل بالضبط، وأمره ثانية بإطلاق النيران "، والمرة الثالثة عندما أخبره القائد " أن الإرهابيين قد اختفوا لكنه أمره، مع ذلك، بإطلاق النيران " .

إن التدمير فى جنين لم يكن مسألة غباء أو مجرد مسألة عقابية، وإذا كان شارون قد أعلن أن الغرض منها هو تدمير " البنية التحية للإرهاب "، فإن ذلك كان يمكن أن يكون معقولاً، فقط إن فهمه المرء على أنه يعنى بذلك البنية التحتية للمقاومة، بما فى ذلك تحديداً القدرة على تنظيم الحياة المدنية، إن كون العملية قد ذهبت بعيداً متجاوزة استهداف حرب العصابات المسلحة إلى تحطيم الحياة المدنية الفلسطينية، كان حقيقة نوقشت فى إسرائيل بصورة انتقادية، أبعد بكثير مما جرى فى الصحافة الأمريكية، وقد كتبت أميراهاس(٥٣) فى الهاآرتز :

دعونا لا نخدع أنفسنا . لم تكن مهمة للبحث عن البنية الأساسية للإرهابيين، وتحطيمها ... إنهم إن فكروا فى الحصول على دليل تجريم مخبأ فى وزارة التعليم وبنك فلسطين الدولى وفى متجر يؤجر بدائل

الأجزاء المفقودة ذات العلاقة بالجراحة والأسنان، لكان على الجنود أن يفحصوا وثيقة وراء وثيقة، وليس إلقاء الملفات على الأرض دون فتحها ... كان هنالك قرار بتدمير البنية التحتية المدنية والإدارية والثقافية التى طورها المجتمع الفلسطينى ... إنه لسهل ومريح للغاية أن نفكر فى كل المجتمع الفلسطينى باعتباره بدائيًا وإرهابيًا متعطشًا للدماء، بعد تدمير المادة الخام ومنتج النشاط الفكرى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى . وبتلك الطريقة يمكن استمرار خداع الشعب الإسرائيلى، واعتقاده أن الإرهاب مسألة جينية وليس تغيرًا مهمًا وأساسيًا اجتماعيًا وسياسيًا مروعًا كما يمكن أن يكون ناشئًا عن أهوال الاحتلال .

إن ممارسة العقاب الجماعى تتضمن إنكار كل من المسئولية الفردية والفعل الفردى . إن كلاً من هذين يعد أساسًا للخطاب الثقافى، ويبدو أن الوصف العنصرى للفلسطينيين – والعرب عامة – يكتسب قدرا من التقدير، لم تكن تخطر على بال قبل الحادى عشر من سبتمبر. لقد تحدث رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق إيهود باراك، فى(٥٤) لقاء حديث مع المؤرخ الإسرائيلى بينى موريس، فى كلمات يجرؤ القليل من الأمريكيين العنصريين النطق بها كتابة : " إنهم نواتج ثقافة ... لا يؤدى فيها قول الأكاذيب إلى أى تنافر، هم لا يعانون من مشكلة قول الأكاذيب على نحو ما فى الثقافة اليهودية – المسيحية . إن الحقيقة ينظر إليها باعتبارها شقًا فى غير محله، هنالك فقط ما يخدم غرضك وما لا يخدمه"، ويطبق باراك هذا التعميم على " المجتمع العربى " فى الجملة التالية : " لقد أخبرنى نائب مدير مكتب المباحث الفيدرالية بالولايات المتحدة، ذات مرة، أن هنالك مجتمعات لا يعمل فيها كشاف الكذب، مجتمعات لا تؤدى فيها الأكاذيب إلى تنافر فى المعرفة " .

إن الاتجاه إلى وصم الفلسطينيين والعرب عنصريًا لم يكن مقصورًا على مجال السياسة، خذ المثل التالى من المؤسسة الأكاديمية الأمريكية . طبعة ٢٠٠١ من مجلة **المناعة والحصانة البشرية**، صحيفة " الجمعية الأمريكية للنفور النسيجى، وما يتعلق

بالمناعة الوراثية "، اشتملت على مقالة كتبها فريق يقوده عالم الوراثة الإسبانى البروفيسور أنطوثيو أرنيزڤيلينا من جامعة كومبلوتينس بمدريد عنوانها **أصل الفلسطينيين، وصلة قرابتهم الجينية بسكان آخرين للبحر المتوسط** . بدأت المقالة بدليل علمي[٥٥] يشير إلى أن " اليهود والفلسطينيين، فى الشرق الأوسط، يتشاركون فى مجموعة جينية شديدة التماثل، ويجب اعتبارهم وثيقى الارتباط، إذ إنهم ليسوا منفصلين جينيًا " . وانتهى المؤلفون إلى أن " المنافسة فيما بين العنصرين تمثل تقدمًا، من ثم، فى الفروق الثقافية والدينية، لكنها ليست فى الفروق الجينية " . " وبعد عام من نشرها، رفعت المقالة من موقع دراسة المناعة والحصانة البشرية على الإنترنت، وكتب خطابات إلى المكتبات والجامعات عبر العالم تطلب منها تجاهل أو " الأفضل، الرفع المادى للصفحات ذات الصلة "، وتزعم محررة الجريدة، نيكول سوسيو - فوكا من جامعة كولومبيا، أن المقالة أثارت اضطرابًا من الشكاوى حول كتابتها السياسية المتطرفة حتى إنها أجبرت على نبذها، وجرى عزل أرنيزڤيلينا، من مجلس تحرير الجريدة، حتى يُزال أى شك حول وضع الجريدة السياسى .

وتُعرف ممارسة العقاب الجماعى فى عمليات تاريخ الدولة الحديثة بالكولونيالية والعنصرية . لقد أدخلت مفاهيم إلغاء مركزية المسئولية الفردية لحكم القانون لصالح المسئولية الجماعية لكل الأفعال السياسية، وفى هذا الصدد كتب ألان م . ديرشويتز[٥٦] فرانكفورز، أستاذ القانون فى هارڤارد، فى الجيروسالم بوست، يقترح تدمير قرية فلسطينية انتقامًا لكل عمل فلسطينى من أعمال المقاومة أو الإرهاب : " سوف يكون ذلك خيارًا مقبولاً أخلاقيًا، حتى لو كان من الضرورى التضحية بممتلكات بعض المدنيين الأبرياء خلال العملية " . إن دير شويتز، لا يمكن، باعتباره أستاذًا للقانون، أن يكون غافلاً عن أن المادة ٦ (ب) من دستور نورمبرج عام ١٩٤٥ لمحاكمة كبار مجرمى الحرب النازيين، تُعرف جرائم الحرب : " تحديدًا باعتبارها انتهاكات لقوانين أو أعراف الحرب . إن فعل تلك الانتهاكات سوف تشتمل على التدمير بلا رحمة للبلدان أو المدن أو القرى " .

إن الأفعال السياسية، على غير مثال الجريمة، يكون لها معنى فقط عندما تُربط بأذى جماعى. وسواء عرَّفناها كأعمال إرهاب أو مقاومة، فإننا فى حاجة للإقرار بملمح عام للأعمال السياسية: إنها تلجأ إلى الدعم الشعبى ويصعب أن تتواصل فى غيابه، وإن كان هنالك منطق وراء ممارسة العقاب الجماعى، فإنه الإقرار بأن العقاب الجماعى، يمكن فقط أن يكون رداً على أفعال سياسية، وليس أعمالاً إجرامية . خذ النقاش الذى دار ٣ سبتمبر ٢٠٠٢، حول قرار المحكمة العليا الإسرائيلية بأن فى وسع الجيش طرد أخ وأخت المقاتل الفلسطينى المتهم بتنظيم عملية تفجير انتحارية من الضفة الغربية، وإرسالهما إلى قطاع غزة، وقد قالت منظمة العفو إن " النقل الإجبارى غير القانونى " للفلسطينيين، تحت الاحتلال الإسرائيلى، يشكل جريمة حرب فى ظل اتفاقية جنيف الرابعة. إن الأكثر أهمية من الاستدلال القانونى لمجموعة القضاة التسعة، هو الحجة المنطقية السياسية وراء القرار، وقد اعترفت النيويورك تايمز[٥٧] أن هذا كان جزءاً من محاولة لوقف الهجمات الانتحارية الفلسطينية.

إن حقوق زمامات الأمن فى إسرائيل تجىء عندما يتعلق الأمر بحقوق الفلسطينيين، وفى الولايات المتحدة عندما تكون الحقوق محل البحث هى حقوق مجموعات موصومة بالإرهاب، فإن غزو أفغانستان إلى الحبس فى خليج جوانتانامو، وغزو العراق قد سار جنبًا إلى جنب مع حبس مماثل فى معسكر كروبر فى أطراف مطار بغداد الدولى . إن أحداً من سجنائه العراقيين - ٣٠٠٠ فى أغسطس ٢٠٠٢ - لم يتهم بأى جرم . لقد وضعوا فى قائمة المتهمين " كسلابين" أو " مشاغبين "، أو فى بساطة باعتبارهم " مخلصين لصدام حسين ". لقد سمح للصليب الأحمر الدولى بالدخول إلى المعسكر، غير أن المسئولين فيه منعوا من وصف ما رأوه إلا أن بعضاً من الطاقم تخلى، على أى حال، عن مقامه وأخبر العفو الدولية بأحوال الحياة اليومية فى معسكر كروبر، وهاهو وصف مركب[٥٨]: " إن كل سجين يتلقى ستة بنتات(*)

(*) البنت مكيال يساوى ١/٨ جالون أى أنه يتلقى فى اليوم ٣/٤ جالون. (المترجم)

من مياه فاترة فى اليوم . إنه يستخدمها فى الاغتسال والشرب فى الصيف الذى تصل فيه درجة الحرارة فى الظهيرة إلى ٥٠ سنتيجراد، وغير مسموح له بغسل ملابسه . ويزود بكوب صغير يحتوى على مسحوق مزيل للقمل للتعامل مع أسوأ ما يثيره جسده من مضايقات . وهو يجبر، عند أقل نقض للقواعد باللغة القسوة والوحشية، على الجلوس فى أوضاع مؤلمة، وإن صرخ محتجًا يغطى رأسه بكيس لمدة طويلة " ويضم معسكر كروبر أعدادًا متزايدة " من سجناء خاصين " مثل: طارق عزيز نائب رئيس الوزراء السابق وسعدون حمادى رئيس البرلمان العراقى ود. هدى عماش، والتى يقال عنها إنها عضو أساسى فى برنامج صدام الكيميائى والبيولوجى، وطبقًا لواحد من السجناء القلائل الذين أفرج عنهم، عدنان جاسم، فإن " طارق عزيز قد شاخ كثيرًا للغاية فى الشهور الماضية فى المعسكر؛ إنه يمشى متثاقلاً وقد ظهرت له حدبة وربما كان ذلك بسبب أنه توجب عليه حفر مرحاضه بنفسه وممنوع على أى شخص آخر أن يعاونه على إنجاز هذا، إنه يعامل مثل أى شخص آخر حيوان يساق إلى حيث يشاء الحراس أن يسوقوه " . وقد قال محتجز آخر هو قيس السايمان " إن أسوأ مذنبين كانت تقيد أيديهم خلف ظهورهم وكانوا يوضعون فى الشمس مدة ساعتين ووجوههم أسفل إلى الأرض "، وطبقًا لزائر من الصليب الأحمر فإن المرأة، مثلها مثل الرجل، " غير مسموح لها بغسل ملابسها التحتية - وقد أصيب العديد منهن بقروح كريهة المنظر "، وقالت منظمة العفو الدولية فى يونيو ٢٠٠٣، إن الأحوال فى المعسكر يمكن أن تصل إلى معاملة أو عقاب وحشى غير إنسانى يحط من قدر المعتقلين، الأمر الذى يحظره القانون الدولى " . هكذا كانت الحياة اليومية فى " جولاج " أمريكا المشين حتى أغلق فى أكتوبر ٢٠٠٣ ونقل نزلاؤه، على الأرجح، إلى موقع احتجاز آخر .

إن كان علينا أن نجد مخرجًا من منطق العقوبة الجماعية ومقاومة المجموعات وكذلك خارج دائرة الإرهاب فى أشكاله المختلفة، إرهاب الدولة، والإرهاب المجتمعى؛ فإنه ليس أمامنا من خيار غير تحديد السياسات التى تكشف عن كل جوانب النقاش وتعريفها ومخاطبتها .

المستوطن والانتحارى

إن عنف المستوطن والانتحارى قد حددا، أكثر من أى شىء آخر، الإرهاب المعاصر والعالم المضاد له . إن النقاش المعنى بالإرهاب يدور حول محورين؛ ثقافى وسياسى . إن الخطاب الثقافى يسعى إلى تفسير فعل فى ثقافة الفاعل، ويتجه الحديث السياسى، فى تناقض مع ذلك، إلى تفسير الفعل كرد فعل لموضوعات ولسياق سياسى لمظالم لا تجرى معالجتها . وبينما أتحيز إلى التفسيرات السياسية للإرهاب السياسى، أكثر من تلك الثقافية فإننى يقظ أيضًا إلى أن كليهما يشتركان فى استعداد طبيعى عام : إن الإرهاب السياسى، بالنسبة لكليهما، هو رد فعل حتمى، إما فى قبضة ثقافية سابقة على الحداثة أو فى وجه قهر رهيب . إن كلاً من وجهتى النظر لا يعتبر الإرهاب السياسى فعلاً اختياريًا، وكلاهما يفتقر إلى منظور تاريخى، والتفسيرات الثقافية تتجاهل الموضوعات الخاصة التى تغذى النزاع، بينما التفسيرات السياسية تغفل أن ممارسة الإرهاب تؤدى، عبر الزمن، إلى تطور وجهة نظر قصيرة المدى للغاية، وثقافة سياسية تفتقد الحساسية الأخلاقية التى تشرع استخدام الإرهاب سعيًا وراء قضايا تستحق الاهتمام .

إن النقاش حول الانتحاريين قد أنتج التفسيرات الثقافية السياسية للإرهاب السياسى . إن مقالة[٥٩] ستيفن شوارتز " الأرض صفر والصلة السعودية "، لا تزال أفضل مقالة معروفة لجدل يحاول فصل جذور الإرهاب عن التقليد الثقافى للإسلام، ووضعه فى إطار تقليد واحد خاص داخل الإسلام . إنه يبدأ بموقف فكرى صحيح سياسيًا : " إن هجمات الحادى عشر من سبتمبر إنما هى ببساطة غير مؤتلفة مع أصول الدين الإسلامى الخالص، والذى يدعو الجنود أن يحاربوا أعداءهم ؛ ابتغاء وجه الله، وجهًا لوجه دون إيذاء غير المقاتلين، النساء أو الأطفال " . إن شوارتز يبحث عن الجذور الثقافية للإرهاب فى " تيار من الإسلام " - الإسلام الوهابى - " شكل من أشكال تجزئة الإسلام الذى يكره التظاهر الروحى "، والذى ظهر " منذ أقل من قرنين مضيا " وهو " عنيف و غير متسامح "، متعصب بما لا يقاس " . إن مثالاً واحدًا حيث

انقض الوهابيون على مدينة كربلاء عام ١٨٠١، وقتلوا ألفين من المواطنين العاديين في الشوارع والأسواق " – وهذا يكفي لإقامة الادعاء القائل " . إن هذه الطقوس ارتبطت منذ البداية بالقتل الجماعي لكل هؤلاء الذين يخالفونهم "، ثم يصل إلى نتيجة وضعها بصورة مجردة " إن كل المسلمين الانتحاريين وهابيون "، ثم يتابع فيقدم فكرة لاحقة " ربما ماعدا بعض مريدي اليساريين الملحدين، الذين اتخذوا وضع المسلمين طبقًا لمصالح السلطة الشخصية مثل: ياسر عرفات أو صدام حسين " . ويواصل كاتبنا دون مانع أو عائق " إن ابن لادن وهابي وهكذا أيضًا حلفاؤه المصريون . وهكذا أيضًا الإرهابيون المسلمون الجزائريون وهكذا أيضًا العصابات التي في كشمير والتي تعمل طبقًا للنمط الطالباني . إن المرء يحس هنا أن شوارتز يتحدث عن إرهابيين وكأنهم ضحايا تقليد سابق على الحداثة، أمسك بهم كما تمسك بالمرء حمى استوائية أو صحراوية، وتعدو " الثقافة " كأنها كلمة شفرية لوصف أناس بذاتهم، تنسب إليهم مجموعة من الصفات الثابتة التي تؤدي وظيفة نظير معاصر لخطاب عنصري .

ويمكن العثور على نسخة أكثر رقة للخطاب الثقافي في قطعة لسهيل هاشمي، بروفيسور في العلاقات الدولية، في كلية ماونت هوليبوك في ماسا شوسيتس . إن هاشمي، وهو يكتب في واشنطن بوست[٦٠]، يصدم من أن بعض العلماء الإسلاميين، مثل الشيخ المحبوب يوسف قرضاوي، في مصر، يمكنه أن يدين بشدة بعض الهجمات الإرهابية (مثل تلك التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر)، لكنه لا يدين هجمات أخرى (مثل الانتحاريين في إسرائيل) " إن العلماء الدينيين مسئولون بنفس قدر صانعي القنابل الذين يرسلون بالشباب والنساء – والذين هم في الغالب مراهقون قابلون للتأثر إلى مهامهم القاتلة، مع وعود بثواب الشهيد " . إن هاشمي منزعج لأن الانتحاريين يتخذون مبدأين أساسيين في مبادئ الأخلاق الإسلامية: خطر الانتحار والقتل العمد لغير المحاربين "، وهم، في الوقت نفسه يمكن ألا يكونوا "مؤتلفين مع رفض الإسلام لفكرة المسئولية الجماعية" .

إن وجهة نظر(٦١) الانتحارى، قد جاءت على أفضل وجه فى مقالة نشرت فى التايمز (لندن) عنوانها داخل عالم انتحارى فلسطينى . يُقدم إلى القارئ يونس، وهو فى السابعة والعشرين من عمره، متخرج من مدرسة الفنون " كان يعد لمهمة انتحارية يمكن أن تحدث بعد أيام أو أسابيع " . إن يونس يشرح قراره باعتباره، أولاً وقبل كل شىء، رد فعل لحقيقة سياسية معاصرة بذاتها، هى الاحتلال؛ " إن هدفى هو حرمان المستوطنين من الاستمتاع بحياتهم هنا، وإجبار نقاط التفتيش الإسرائيلية على الخروج من بلدى، فإن غادروا فى سلام فليس فى نيتى ملاحقتهم فى مناطقهم، لكنهم إن ظلوا هنا فإننى سأستخدم الأساليب الموجودة تحت تصرفى لإجبارهم على الخروج " . إن قراره يشكل اعترافه أيضًا بوجه آخر للحقيقة، الحقيقة البسيطة لعدم التوازن التقنى بين دولة إسرائيل والقاطنين الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة " أنا أعرف أننى لا أستطيع الوقوف أمام دبابة يمكنها أن تمحونى فى ثوان؛ لذا سوف أستخدم نفسى كسلاح . إنهم يدعون ذلك إرهابًا، وأنا أقول إنه دفاع عن النفس " غير أنه ينوى العمل أيضًا على أساس أنه نشيد للحرية . إنه يعلن أن الحياة " ثمينة، " لذا فإنه ليس لنا من اختيار غير القتال " : " الحرية لا تقدم هدية . إن التاريخ شاهد على حقيقة أن التضحيات الكبرى يجب القيام بها للحصول عليها "، ويقدم يونس رسالته الأخيرة مدعيًا أن الانتحاريين إنما هم " مناضلون متعلمون " و " ليسوا إرهابيين " إننى فى لحظة تنفيذ مهمتى التى تتعدى كونها مجرد قتل للإسرائيليين؛ حيث إن القتل ليس هو هدفى النهائى، رغم أنه جزء من المعادلة. إن ما أفعله سوف يحمل رسالة وراء ذلك إلى هؤلاء المسئولين وإلى العالم على اتساعه، إن أقبح شىء للبشر هو أن تفرض الحياة عليهم دون حرية " .

لقد تعجبت فى غالب الأحوال من صفة " الانتحارى "، وهل هى عنوان على السيطرة الدقيقة للممارسة أم الحافز الكامن وراءها . إن الهدف الرئيسى للانتحارى، بوضوح، ليس هو إنهاء حياته أو حياتها، ولكن حياة الآخرين المعروفين باعتبارهم أعداء. إننا فى حاجة للإقرار(٦٢) بأن الانتحارى هو أولاً وقبل كل شىء، مرتبة من مراتب الجنود، ألا يوحد الانتحارى وجهى إنسانيتنا، خاصة تلك التى صاغتها الحداثة

السياسية برغبتنا فى جعل الحياة - حياتنا وحياة الآخرين - أقل أهمية من أهداف نعتبرها أسمى من الحياة؟ إن الانتحارى يحتاج إلى أن يكون مفهومًا كملمح من ملامح العنف السياسى الحديث، أكثر من أن يوصم باعتباره علامة من علامات البربرية . إن خطر المناقشة الأخلاقية فى ذاتها (كيف يمكن لأية ثقافة أن تصفح عن الانتحار؟) تتحول سريعًا إلى لعب للخطاب الثقافى مرة أخرى، مما يثبت الأفراد بصورة رتيبة ويحول دون أى تفكير مترو فى استراتيجيات بديلة ومن ثم، تجىء الحاجة إلى دمج نقاش أخلاقى مع نقاش تاريخى وسياسى واسع . إن المستوطن الذى ينتمى إلى الجناح اليمينى، مثله مثل محارب عصابات الجناح اليسارى، يطمس أيضًا الحد بين المدنى والعسكرى . إن قدرًا كبيرًا من القوة المحاربة، غالبًا ما يكون مكونًا من قوتين مدنيتين، والجميع من ذكور بالغين، كما فى جنوب أفريقيا أو الجميع بالغون ذكورًا أم إناثًا، كما فى إسرائيل ويخضعون للتدريب العسكرى الإجبارى، وهم يجندون فى القوات الاحتياطية، ويوضعون فى موضع الاستدعاء قصير المدى . إنه التوسع الإسرائيلى الاستيطانى فى الضفة الغربية وغزة، والذى يشكل مشهدًا يستحق الرؤية بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، خاصة بعد محادثات أوسلو عام ١٩٩٣ وهو الذى يفسر السياق الذى أنتج الانتحاريين .

لقد احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ . ولم تتضمن حركة المستوطنين فى الأراضى المحتلة أعدادًا ذات بال حتى حرب " يوم كيبور " من ١٩٧٣ - ١٩٧٤، ونمت فى هذه الفترة حركة دينية يقودها "الكوكيون" (أتباع الحاخام كوك) نموًا سريعًا وأقرت دينيًا برنامجًا سياسيًا لتحقيق انتصار المستوطن وتفوقه .

وقد كشفت حركة الكوكيين[٦٣] عن نفسها عندما شكلت مجموعة من الحاخامات والصقور العلمانيين الشباب، والكوكيون ومتدينون صهاينة آخرون خدموا فى قوات الدفاع الإسرائيلية وقاتلوا فى الحرب الإسرائيلية، شكلوا مجموعة أطلقوا عليها اسم " جوش أمونيم "، " كتلة المؤمنين " . كان الانتصار الإسرائيلى عام ١٩٦٧

بالنسبة للكوكيين، برهانًا حاسمًا على أن " الخلاص كان حقًا فى الطريق، وكان الله يدفع التاريخ، حقًا إلى الأمام من أجل بلوغه حد الكمال . لم يكن هنالك أى تساؤل عن الانسحاب عن أى من الأراضى المحتلة؛ " لأن عودة كل بوصة من الأراضى المقدسة سوف يكون انتصارًا لقوى الشر"، وبينما كان العمل الصهيونى يحاول جعل الحياة اليهودية طبيعية، حاولت الجوش جعلها حياة استثنائية غير طبيعية، مؤمنين أن " اليهود، بسبب اختيار الرب لهم، مختلفون بصورة أساسية عن كل الأمم، وليسوا مقيدين بالقواعد نفسها بما فى ذلك قرارات الأمم المتحدة، التى تمنع إقامة المستوطنات اليهودية فى الأراضى الفلسطينية المهزومة".

وقد وضعت جوش، بعد حرب يوم كيبور، " خطة رئيسية لاستيطان كل الضفة الغربية: وكان الهدف استيراد مئات الآلاف من اليهود إلى المنطقة لاستعمار كل المعاقل الجبلية الاستراتيجية " . لقد حضر احتفال ذكرى استقلال إسرائيل عام ١٩٧٦ حوالى عشرين ألف يهودى مسلح فى " نزهة " فى الضفة الغربية، سائرين من جزء من السامرة إلى جزء آخر . وعندما جاء الجناح اليمينى الجديد لليكود إلى السلطة عام ١٩٧٧، " زار مناحم بيجين " الحاخام رابى كوك المسن فى " مركاف هاراف "، وركع عند قدميه، وانحنى أمامه "، وبدأت " حكومة الليكود " مبادرة استيطان كثيفة فى الأراضى المحتلة، وبدأ آريل شارون الرئيس الجديد " للجنة الأراضى الإسرائيلية " بإعلانه أن " نيته تتجه إلى توطين مليون يهودى فى الضفة الغربية خلال عشرين عامًا " . وفى عام ١٩٧٨ غدت كل مستوطنة فى الضفة الغربية " مسئولة عن الأمن فى منطقتها وسُرح مئات المستوطنين من وحدات الجيش المنظمة لحماية مجتمعهم وحفظ نظام الطرق والحقول، ومنحوا كمية كبيرة من الأسلحة المتطورة والمعدات العسكرية " . وفى مارس ١٩٧٩ " أنشأت الحكومة خمسة مجالس إقليمية فى الضفة الغربية لها سلطة جباية الضرائب والإمداد بالخدمات وتشغيل العمال " . وقد قدمت الجوش ٢٠٪[٦٤] من مستوطنى الضفة الغربية " وكان لأعضاء جوش، عادة، أدوار رئيسية " فى تلك المجالس .

وقـد وافـق أعضاء جوش، عامة، على " أنه ليس للفلسطيني حقوق في الأرض، لا مكان له هنالك " . وقد جرت حركة المستوطنين على مراحل كانت تتسارع مع كل مرحلة تالية . كان يقدر عدد المستوطنين عام ١٩٨٤ بستة وأربعين ألفًا، عند نهاية العقد الذي تلي حرب يوم كيبور، وأصبح هنالك، عام ١٩٩٢، وقت توقيع اتفاقية أوسلو، أي خلال أقل من عشر سنوات، فيما بعد، حوالي ٢٠٠,٠٠٠ مستوطن في الأراضي المحتلة، وكان الأمر المثير للسخرية هو ازدياد الانسياب بعد اتفاقية أوسلو، وتضاعف عدد المستوطنين في العقد الثالث في نهاية عام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٤٠٠,٠٠٠، بما في ذلك هؤلاء الذين في أورشليم الشرقية التي تطالب بها إسرائيل الآن . وقد لاحظ تقرير إسرائيلي حديث عن حقوق الإنسان[٦٥] أن المستوطنات الإسرائيلية تسيطر الآن على ٤٢٪ تقريبًا من الضفة الغربية، غير مشتملة على أورشليم الشرقية الفلسطينية .

إن المدى الذي وصل إليه المستوطنون يتجاوز الأرض التي يسيطرون عليها مباشرة، إلى صياغة الأحوال التي يكمل الفلسطينيون معاشهم من خلالها . إن المستوطنين، في قطاع غزة مثلاً، يشكلون ٥٪ من القاطنين بها، غير أنهم يسيطرون على ٢٠٪ من الأرض، وطبقًا لأميرا هاس[٦٦] في هاآرتز، " فإن المستوطنين قد واصلوا " حتى بعدما سمي بعملية السلام عام ١٩٩٣، " إملاء الكيفية التي يجب أن يعيش بها الفلسطينيون؛ المكان الذي يجب ألا توجد به أنبوبة مياه، المكان الذي يجب ألا يتسع فيه معسكر للاجئين، المكان الذي لا يمكن أن تقاد فيه سيارات، المكان الذي لن يقام به مشروع صرف ... إن الأمر " البديهي " الآن، هو أن " أراضي الدولة لليهود فقط والفلسطينيون يحتاج الفرد منهم أرضًا أقل وماء أقل من الفرد اليهودي، وأنهم لا يحتاجون أو يستحقون البنية الأساسية نفسها أو وسائل الراحة مثل اليهود، وهم يعيشون هنا؛ لأن اليهود سمحوا لهم بذلك، وليس لأن ذلك حق لهم ... ذلك هو التمييز الذي يمارس كل يوم بل كل دقيقة.

إنه الإقصاء والإبعاد، الإهانة الملتهبة، الأمر نفسه الذى كان معتاداً مع السود فى جنوب أفريقيا وسود الولايات المتحدة ويهود أوروبا الشرقية .

إن الأراضى المحتلة لا تتضمن شرق أورشليم فى البيانات الرسمية الإسرائيلية غير أن حياة الفلسطينيين، فى أورشليم لا تختلف عن ذلك كثيراً، ورغم أن الفلسطينيين يشكلون أكثر من ثلث سكان أورشليم الإسرائيلية "، " ليس لهم من سبيل إلا إلى ٦٪ من أرضها لكل احتياجاتهم السكنية والمجتمعية والتجارية " . إن منازل الفلسطينيين[٦٧] تهدم بانتظام فى شرق أورشليم، وقد سجل جيف هالير، من اللجنة الإسرائيلية ضد هدم المنازل، بالوثائق "أكثر من ٣٠٠ حالة فى العقد الماضى، مع مئات أوامر الهدم الواضحة البارزة" . وقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية، حتى بعد توقيع خارطة الطريق التى صممتها الولايات المتحدة، " عشرات من أوامر الهدم فى أسابيع قليلة فقط، وطبقًا لهالير فإن " إسرائيل تجادل فى أن شرق أورشليم لا تغطيه خريطة الطريق، حيث إنه ملحق رسمياً بإسرائيل " .

إنه من الصعب، دون فهم هذا السياق، الإمساك بمعنى فقدان الأمل واليأس الذى ميز بداية الانتفاضة الثانية وفيض الانتحاريين . إن النقاش المعاصر حول الانتحاريين يعيد إلى ذهن الشخص الذى بلغ النضج السياسى حتى مستوى الصراع المعادى للأبارتهيد، يعيد نقاشًا مبكرًا للأبارتهيد حول التطويق، تطويق العنف، وهى ممارسة يغمس فيها شباب المدينة الساهر اليقظ، إطار عجل السيارة المطاطى فى البنزين، ويضعونه حول عنق مشبوه فيه بالوشاية عند نظام الأبارتهيد، ويشعلونه، وقد دار النقاش حول التطويق، كما يدور حول الانتحاريين، من زاويتين. كان صدى الجانب الأخلاقى، فى الغالب، أشبه بنقد للتطويق أكثر منه خطابًا للمستوطن حول افتقاد الحضارة بين أهل البلاد: ما نوع المجتمع الذى يمكن أن يستحسن مثل تلك الممارسة ؟ وفى تناقض مع ذلك لم يكن النقاش بين أهل البلاد – فى مراتب حركات التحرير – فى الغالب الأعم يمكن أن يدور حول الفاعلية السياسية للتطويق فى كبح تكاثر الوشاة .

إن فى استطاعتنا استخلاص أربعة دروس من تلك الفترة؛ أولاً، أنه كلما أُطلقت اليد العليا للنقاش الأخلاقى، زاد خفوت النقاش السياسى . ثانيـاً، إن انتـشار عمليات تطويق عنق الخونة كان شهادة على تطورين وثيقى الصلة: كان هنالك، من ناحية اختراق وكالات دولة الأبارتهيد للمقاومة المضادة للأبارتهيد، وكان هنالك، من جهة أخرى، انتشار لثقافة عصابات الشوارع التى تحبذ العسكرية، والتى غدت بدورها ثقافة يقظة، خشنة وجاهزة بين أهل البلاد. ثالثًا، كان على النقاش السياسى حول عملية "التطويق" أن يميز بين فاعليتها المباشرة وطويلة المدى، وكان من الصعب إيجاد إدارة مباشرة حول عدم فاعلية عملية التطويق . بل على العكس، قدم التطويق أيضًا - تمامًا كما حدث مع الانتحاريين - دليلاً على أنه فى مقدور المقهورين حشد قوة تقف ضد قرون استشعار المستوطن المنتشرة . وقد أحنى الكثيرون رءوسهم موافقة، عندما أعلنت وينى مانديلا، والنار فى عينيها، فى مونسيثيل، قرب جوهانسبرج، فى ١٣ أبريل ١٩٨٥ : " ليس لدينا بنادق بل لدينا فقط أحجار وعلب كبريت وبترول . إننا معًا، يدًا فى يد، مع علب كبريتنا وأطواقنا، سوف تحرر هذا البلد " . وحتى قيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى (إيه إن سى) كانت مترددة فى نقل هذا الحديث علنًا وقال أوليفر تامبو رئيس الـ إيه إن سى(٦٩) فى اجتماع قمة لدول عدم الانحياز فى هرارى : " إننا لسنا سعداء بالطوق، غير أننا لن ندين الناس الذين دفعوا لتبنى مثل هذه الأعمال المتطرفة " . وأخيراً تجاوز النقاش السياسى، على أى حال، مسألة الفعالية المباشرة للتطويق، ليتحسس تكاليفها السياسية طويلة المدى: إبعاد الحلفاء فى كل من الوطن والخارج، عندما يكون الشخص الخطأ هو الذى جرى تطويق عنقه وعندما يكون غير ذلك، وهى الحالة التى رفعت من الشعور بالقلق نحو نمو الروح العسكرية فى ثقافة المقاومة وكان الدرس الأخير(٧٠) بالطبع، أنه مادام لم يكن هنالك بديل سياسى فعال، فقد كان من الصعب الحط سياسيًا من عملية التطويق . وما إن ظهر سبيل غير عنيف، كبديل، لإنهاء الأبارتهيد، حتى بدا ذلك وكأن الشمس قد أشرقت والضباب قد انقشع، وكان هنالك فجر جديد فى أرض جرؤ فيها القليلون على الهمس بالنقد بالأمس فقط، فأصبح من الصعب العثور على أى فرد يضفى البطولة على التطويق فى اليوم التالى .

انتهى النقاش الجنوب أفريقى حول التطويق ليكون جزءًا من نقاش سياسى أوسع حول قضايا مثل: من هو المستوطن ومن هم أهل البلاد؟ من هو العدو ومن نحن ؟ وقد حدد هذا النقاش الفروق بين المستوطنين وأهل البلاد، وبين ثلاث رؤى سياسية؛ الأولى، التى كان يجب صياغتها، كانت مكونة من اثنين متباينين وطنيًا، المحافظين والراديكاليين . كانت الإجابة بالنسبة للمحافظ الوطنى، أن كل مهاجر هو مستوطن وكانت نقطة الصراع ضد وطنية المستوطن هى استعادة الحالة التى كانت موجودة قبل التغلب على المستوطن: حرية أهل البلاد تضمنها دولة أهل البلاد . وقد فرقت الوطنية الرديكالية، على أى حال، بين المهاجرين والمستوطنين؛ كان المستوطن هو الشخص الذى أدرج امتيازه فى القانون، والمهاجرون، بالتعاقب، كانوا من أنواع مختلفة، بيض لهم امتيازات وغير بيض دون امتيازات . وبينما كان فى وسع المهاجرين وأهل البلاد التعايش فى شكل واحد للحكم، فإن المستوطنين وأهل البلاد لم يستطيعوا فعل ذلك، وكانت القضية حينئذ هى إخلاء الأرض من المستوطنين الذين سعوا إلى السلطة السياسية حتى يضعوا أساس وضع متميز اقتصاديًا ومجتمعيًا. إن مؤتمر عموم الأفارقة الوطنى الراديكالى قد أجمل وجهة النظر هذه بإتقان، وإن كان أقرب للخشونة فى رمزه وشعاره: " مستوطن واحد، طلقة واحدة " . وكانت وجهة النظر الثالثة هى الأكثر سدادًا فى صياغة مستقبل جنوب أفريقيا مابعد الأبارتهايد، وهى التى فاقت كلاً من الشكلين الوطنيين . هنا، لم تكن المشكلة هى المستوطن ولكن دولة المستوطن، الإنشاء الشرعى الذى ضمن ميزة المستوطن؛ إذ دون دولة تميز تشريعيًا بين المستوطن وأهل البلاد، لن يكون هنالك ميزة للمستوطن، ومن ثم لا مستوطن، ما دام سوف يصبح كل المستوطنين كالمهاجرين الذين سوف تكف أصولهم التاريخية على أن تكون لها أية أهمية فى القانون . وكان العدد، من وجهة النظر هذه، هو من دافع عن سلطة دولة المستوطن، وبدلاً من احتضان صورة معكوسة فى المرآة لأيديولوجية المستوطن، وذلك بتحويل هوية " ابن البلاد " من وصمة عنصرية إلى علامة مميزة للفخار العنصرى، وكان وعد جنوب أفريقيا، ما بعد الأبارتهايد هو ترك كل من " المستوطن " و " ابن البلاد " كهويتين سياسيتين، توأمين، أنتجتهما دولة

المستوطن، وكما وضع "حزب المؤتمر" الأمر بصورة معكوسة تمامًا فى " ميثاق الحرية "، فإن جنوب أفريقيا تنتمى لكل هؤلاء الذين يعيشون فيها . إن الموضوع الحقيقى، من وجهة نظر ما بعد الأبارتهيد، فى فلسطين وإسرائيل ليس هو أن تكون هنالك دولة أو دولتان أو عشر دول، لكن المسألة هى كيف تؤسس دولة على أساس مواطنة متساوية لكل هؤلاء الذين يعيشون فيها .

الهوامش

(1) Nicholas D. Kristof, "Cheney Didn't Mind Sadam," International Herald Tribune, October 12-13, 2002, p.8.

(٢) ذكر كل من جيش الولايات المتحدة وميسيلون، فى دافيد روب، أن " الجيش قدم تدريبًا خاصًا بالحرب الكيميائية - البيولوجية للعراقيين".

Global Security Newswire, http://www.govexec.com/dailyfed/0103/012803gsn.htm.

(3) John J. Mearsheimer and Stephen M. Walt, "An Unnecessary War," Foreign Policy, no. 134, January/February 2003.

(4) Charles Glass, "Iraq Must Go!" London Review of Books, October 3, 2002, p. 13.

(5) Samantha Power, "A Problem from Hell": America and the Age of Genocide (New York: Basic Books, 2002); for details on U.S. Loans and credits, see pp. 173, 174-77, 236.

من أجل تفاصيل حول حماية الولايات المتحدة الدبلوماسية للنظام العراقى خلال هجمات الغاز الكيميائية الأولى والثانية، انظر ص ص ١٩١-١٩٥، ٢٠٠-٢٠١، ٢١٠، ٢٣٠-٢٣١، ٢٣٤ .

(6) Available at http:/www.gulfwarvets.com/victims htm. And Heather Wokusch, "Lawsuit for Gulf War Veterans Targets WMD Businesses," available at http://heatherwokush.com/ columns/columns50.html.

(7) Alfred W. McCoy, " 'Fallout',: The Interplay of CIA Cover Warfare and the Global Narcotics Traffic,".

ورقة قدمت إلى المؤتمر المعنى بالحرب الباردة والحرب الأهلية، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة كولومبيا (نيويورك، إن واى، ١٤-١٥ نوفمبر ٢٠٠٢، آلة نسخ) ص ٣ .

(8) Ramsey Clark, interview with Rasha Saad in Al-Ahram (Cairo), December 26, 2002.

(9) Cited in David Edwards and David Cromwell, "The British Liberal Press Target Iraq," Third World Network Features, Sunday News (Dar-es-Salaam), July 14, 2002.

(10) Thomas Friedman, "A Rising Sense that Saddam Hussein Must Go," New York Times, July 7, 1991.

(11) Linda Rothstein, "Editor's Notee: Loyal to a Fault," Bulletin of Atomic Scientists, 59, no. 4, p.2.

(12) Cited in Tariq Ali, "The Clash of Fundamentalisms," p. 145; also see Anthony Arnove, ed., "Iraq Under Siege: The Deadly Impact of Sanctions and War" (Cambridge, mass.: South End Press, 2002), pp. 9-20. Also see Alex de Waal, "Us War Crimes in Somalia," New Left Review 1, no. 230, July/August 1998.

(١٣) هذه المعلومات متاحة فى وزارة الدفاع على الموقع التالى:

http://www.dod.gov/news/Dec1998/t12202998_t1219coh.html.

أعداد الصواريخ والضربات الهجومية متاحة على موقع:

Ties is at http://www.dod.gov/news/Dec1998_t1219coh.html.

(14) A Macr Bossuyt, "The Adverse Consequences of Economic Sanctions on the Enjoyment of Human Rights,".

ورقة عمل للجنة الفرعية للأمم المتحدة حول تعزيز وحماية حقوق الإنسان متاحة على موقع:

http://www.scn.org/ccpi/UNreport-excerpt.html.

وأشكر آدم برانش لتنبيهى لهذا التقرير.

(15) Ibid., para. 62, p.2.

من أجل المزيد من المعلومات حول الكيفية التى عمل بها برنامج النفط مقابل الغذاء، انظر:

Denis J. Halliday (former head of the program), "Iraq and the UN's Weapon of Mass Destruction," Current History 98, no. 625, February 1999, pp. 65-68; interview with Hans von Sponeck and Denis Haliday in The Guardian, November 29, 2001; Hans Von Sponeck, "Too Much Collateral Damage: 'Smart Sanctions' Hurt Innocent Iraqis," The Globe and Mail (Toronto), July 2, 2002.

(١٦) لم يتسلم الشمال ٢٢٪ فقط، سلعًا إضافية لكل فرد، مقيمة بالدولار من برنامج النفط مقابل الغذاء، ٢٢٪ أكثر مما تسلمه الوسط والجنوب، لكن ١٠٪ أيضًا من قيمة ما يذهب إلى الشمال، المنطقة التى تتمتع بالحكم الذاتى، كانت تذهب فى صورة نقدية، مما يسمح بمشاركة محلية أكبر - بينما ذهبت السلع فقط إلى الوسط والجنوب.

(17) Cited in Von Sponeck, "Too Much Collateral Damage."

(18) Richard Garfield, "The Public Health Impact of Sanctions: Contrasting Responses of Iraq and Cuba," Middle East Report 215, summer 2000, pp. 16-17.

(19) Richard Garfield, "Changes in Health and Wellbeing in Iraq During the 1990s," in "Sanctions on Iraq: Background, Consequences, Strategies," proceedings of the conference hosted by the Campaign Against Sanctions on Iraq, November13-14, 1999, Cambridge, England, pp. 36, 50-51; Garfield, "Public Health Impact of Sanctions," pp. 16-17.

(20) Gossuyt, "Adverse Consequences of Economic Sanctions on the Enjoyment of Human Rights," para. 63, p. 2.

(21) Ibid., p.5, n.59.

(22) Joy Gordon, "Cool War: Economic Sanctions as a Weapon of Mass Destruction," Harper's Magazine, November 2002, pp. 43-49.

(23) Ibid., p. 47.

(24) Ibid.

(٢٥) هانز فون سبونيك، لقاء سجله جرانت ويكفيلد وميريام ريل، مبنى الأمم المتحدة - بغداد، ١٥ أبريل ١٩٩٩، متاح على:

http//www.firethistime.org/sponeckinterview.htm.

(26) Bossuyt, "Adverse Consequences of Economic Sanctions on the Enjoyment of Huam Rights," para. 68, p. 3; Halliday, "Iraq and the UN's Weapon of Mass Destruction," p. 67; for Hans Von Sponeck's remarks, see Agence France-Presse, "UN Aid Coordinator Quits Under US Pressure Over Iraqi Sanctions, "February 14, 2000, available at http://www.commondreams.org/headlines/021400-01.htm

(27) Cited in Edwards and Cromwell, "British Liberal Press Target Iraq," p. 3.

(28) Ben Cubby, "New, Improved and More Lethal: Son of Napalm," available at http://www.smh.com.au/articles/2003/08/08/1060145828249.html,

August 8, 2003; James W. Crawley,

يؤكد الرسميون أن قصف القوات العراقية بالقنابل الحارقة، جاء بنتائج مماثلة لاستخدام النابالم، بصورة "لافتة للأنظار".

The "San Diego Union Tribune," available at http://www/signonsandiego.com/news/military/20030805-9999_1n5bomb.html.

(٢٩) داماسيو أ. لوبيز، المدير التنفيذى للفريق الدولى لدراسة اليورانيوم المستنفد. شهادة أمام البرلمان الأوروبى، بروكسل، بلجيكا، ١٠ يونيو ٢٠٠٢، متاح على:

http://www.idust.net.

(30) "El Pais" (Madrid), May 7, 2003; John Kampfner, "Saving Private Lynch Story 'Flawed'" BBC, London, May 18, 2003; "Los Angeles Times," May 20, 2003; "New York Times," June 3, 2003.

(31) "El Pais," May 7, 2003.

(32) Kampfner, "Saving Private Lynch Story, 'Flawed.'"

(33) Robert Scheer, "Pentagon Aims Guns at Lynch Reports," The Nation, posted online on May 30, 2003, http://www.thenation.com/doc.mhtml?!=20030616&s=scheer20030529;

and "Saving Private Lynch: Take 2," posted online on May 20,2003,

http://www.thenation.com/doc.mhtml?I-20030602&s=scheer200230520.

(34) Seymour M. Hersh, "Selective Intelligence," The New Yorker, May 12, 2003.

(35) Shaun Waterman, "9/11 Report: No Iraq Link to al-Qaeda," Washington, United Press International, July 23,2003.

(36) David Cron, "Did Bush Mislead US into War," The Nation, June 26, 2003.

(37) David Usborne, "WMD Just a Convenient Excuse for War, Admits Wolfowitz," The Independent, May 30, 2003.

(38) Cited in Anatol Lieven,"ATrap of Their Own Making," London Review of Books, May 8, 2003.

(39) Eric Rouleau, "The US and World Hegemony, Why Washington Wants Rid of Mr. Boutros-Ghali," Le Monde Diplomatique, November 1996; also see Paul Lewis, "Boutros-Ghali's book Says Albright and Clinton Betrayed Him," New York Times, May 24, 1999.

(40) Alexander Cockburn, "Counterpunch Diary-Handmaid in Babylon: Annan, Vierira de Mello and the UN's Decline and Fall," available at http://www.counterpunch.org/cockburn08302003.html.

(41) Cited in Tom Barry, "The U.S. Power Complex: What's New," Interhemispheric Resource Centre, http://www.fpif.org/papers/02power.index.html.

(42) George Monbiot, "Ghemical Coup d'etate," The Guardian (London), April 16, 2002. Subsequent examples and quotes are taken from Ian Williams, "The US Hit List at the

United Nations," April 30, 2002, circulated by Women's Caucus for Gender Justic, May 7, 2002. Williams is a writer for "Foreign Policy in Focus" and author of the "UN for Beginners" (New York: Writers and Readers Publishing, 1995).

(43) Cited in Michael J. Glennon, "How War Left the Law Behind," New York Times, November 21, 2002.

(44) Evelyn Leopold, "Bitter Fight with US Leads to Compromises on Court," Sunday News (Dar-es-Salaam), July 14, 2002.

(45) "Amnesty Criticizes US, S. Leone Impunity Deal," The Monitor (Kampala, Uganda), May 10, 2003, p. 6.

(46) Chalmers Johnson, "Blowback: The Costs and Consequences of American Empire" (New York: Henry Holt, 2000), pp. 12-13.

(47) Anatol Lieven, "The Push for War," London Review of Books, October 3, 2002, pp. 8-11.

(48) Joel Greenberg, "Protesting Tactics in West Bank, Israeli Reservists Refuse to Serve," New York Times, February 2, 2002.

(49) Edward Said, "What Israel Has Done," The Nation, May 6, 2002, pps. 20-23.

(٥٠) جاء فى كلمته، فى الصحيفة الإسرائيلية يديعوت أحرونوت، التى نشرها على الويب ناشط السلام الإسرائيلى المعروف يورى أفنيرى. انظر، تسادوك يهيسكلى "جعلت منهم ملعبًا فى قلب المعسكر"

Yedoit Aharonot, May 31, 2002, available at http://www.gushshalom.org/archives/kurdi_emg.html.

(51) Ibid.

(52) Peter Beaumont, "Helicopter Pilot 'Refused Order to Blast Palestinian House,' " The Guardian (London), April 18, 2002.

(53) Amira Hass, "Vandalnacht: Operation Destroy the Data," Ha'aretz, April 24, 2002.

(54) Benny Morris, "Camp David and After: An Exchange (An Interview with Ehud Barak)," The New York Review of Books 49, no. 10, June 13, 2002, p. 42.

(55) A. Arnaiz-Villena, N. Elaiwa, C. Silvera, A. Rostom, J. Moscoso, E. Gomez-Casado, L. Allende, P. Varela, and J. Martinez-Laso, "The Origin of Palestinians and Their Genetic Relatedness with Other Mediterranean Populations," Human Immunology 62, 2001, pp. 889-900; for the ful story, see Robin McKie "Journal axes gene research on Jews and Palestinians," The Observer (London), November 25, 2001 and online at http://observer.guardian.co.uk/international/story/o,6903,605798,00.html.

(56) David Villareal, "Dershowitz Editorial Draws Fire," The Harvard Crimson (Cambridge, Mass.), March 18, 2002.

(57) Joel Greenberg, "Court Says Israel Can Expel 2 of Militant's Kin to Gaza,": New York Times, September 4, 2002.

(58) Gordon Thomas, "America's Gulag for Iraq's VIP Prisoners," available at http://www.yourmailinglistprovider.com/pubarchive_show_message.php?globeintel+141; "U.S. Closes Notorious Baghdad Prison Camp," Agence France-Presse, October 6, 2003 available at http://quickstart.clari.net/qs_se/webnews/wed/dg/Qiraqprison.RAD_DO6.html.

(59) Stephen Schwartz, "Ground Zero and the Saudi Connection," The Spectator, September 22, 2001.

(60) Sohail H. Hashmi, "Not What the Prophet Would Want: How Can Islamic Scholars Scanction Suicidal Tactics?" Washington Post, June 9, 2002.

(61) Hala Jaber, "Inside the World of the Palestinian Suicide Bomber," The Times (London). March 24, 2002.

(٦٢) أتذكر عندما كنت طالبًا بالمدرسة الثانوية فى أوغندا الكولونيالية، أننى كنت أحفظ، عن ظهر قلب، قصيدة تينيسون "هجوم الفرقة الخفيفة – أتذكر تنويهه ببطولة الجنود البريطانيين الذين ذهبوا، عن علم ومعرفة، إلى "فكى الموت". "مدفع عن يمينهم/ مدفع عن يسارهم/ مدفع وراءهم/ القذائف تنطلق نحوهم دفعة واحدة، الضرب كقصف الرعد ... إلى فكى الموت/ إلى فم الجحيم، ركب الستمائة".

(63) Armstrong, "The Battle for God," pp. 261-63, 281-87, 345-49.

إن ما أنتهى إليه أنا يختلف، رغم ذلك، عما يقول به أرمسترونج، الذى يميل إلى مساواة الحق الدينى بالأصولية الدينية، وكل أشكال الحق الدينى مع الإرهاب السياسى.

(٦٤) إن كل إمكانية للسلام تضع "الجوش" ضد العلمانيين فى الحكومة، وأول إمكانية لمثل تلك الإمكانيات كانت بعد زيارة أنور السادات التاريخية لأورشليم عام ١٩٧٧، وتوقيع اتفاقية كامب دافيد بين بيجن والسادات فى العام التالى. وقد قررت إسرائيل، تنفيذًا للاتفاقية إخلاء مستوطنةياميت فى سيناء. وأعلن موشى لينينجر أن الصهيونية قد تلوثت بـ "فيروس السلام". وقاد الآلاف من المستوطنين، مرة أخرى، إلى ياميت. "وذكر ليفينجر المستوطنين بالحروب اليهودية ضد روما، والتى انتحر فى أثنائها ٩٦٠ رجلاً وامرأة وطفلاً فى قلعة ماسادا بدلا من الاستسلام للجيش الرومانى. لكنه عندما استشار حاخامات الجوش "حكم"رئيسا حاخامات إسرائيليين "ضد الاستشهاد". فمزق ليفينجر ثيابه فى حزن. انظر:

Armstrong, "Battle for God," pp. 66-72, 287.

وكانت الإمكانية الثانية للسلم، هى تلك التى تبعت الاتفاقية الثانية لكامب دافيد، والتى وعدت فيها إسرائيل بالجلاء عن جزء من الضفة الغربية، فثار الجوش غضباً.

(٦٥) من أجل التعرف على أعداد المستوطنين عبر العقود، انظر:

Saeb Erekat, "Saving the Two-State Solution," The New York Times, December 20, 2002.

هنالك رقمان متعارضان عن عدد المستوطنين الإسرائيليين فى الضفة الغربية: ٢٢٠٫٠٠٠ فى مقابل ٤٠٫٠٠٠ تقريباً. إن العدد الأقل استبعد المستوطنين الإسرائيليين فى أورشليم الشرقية الفلسطينية، على أساس أنه مادامت تلك مندمجة قانونياً فى دولة إسرائيل، فإن الإسرائيليين الذين يتحركون إليها لا يمكن احتسابهم كمستوطنين. والنتيجة اقتصار العدد على الإسرائيليين المستوطنين فى باقى الضفة الغربية، تلك "المحتلة قسراً" من إسرائيل، ولكن مع استبعاد أورشليم الشرقية الفلسطينية التى دمجت قسراً فى إسرائيل.

(66) Amira Hass, "No End to the Growing Settlements Insult," Ha'aretz, July 2, 2003.

(٦٧) جيف هالبر، منسق اللجنة الإسرائيلية ضد هدم المنازل،

A Test of the Road Map," July 29, 2003 available at http://www.icahd.org/eng/articles.asp?menu=6&submenu=2&article=125.

مثل أية دولة مارقة، تدعى إسرائيل، أيضاً، أن السيادة هى رخصة غير محدودة لانتهاك حقوق المواطنين.

(٦٨) هنالك ما هو مواز للحالة الفلسطينية، التى استطاع فيها عرفات، بناء، ليس فقط تسع وكالات أمنية مختلفة بمعاونة أمريكية - كما يوجد ذلك حقًا، لدى حكام عرب آخرين مستبدين - غير أن عجز تلك الوكالات فى مواجهة الهجوم الإسرائيلى العنيف هو الذى دفع العسكرية من أسفل، فى صورة عصابات الشوارع. وتعلق حنان عشراوى على ذلك موضحة: بالطبع، كانت تعمل هنا ثقافات مختلفة. هنالك ثقافة العسكرية، ثقافة الثورة. "إن عشروای تناقض تاريخ فلسطين ما قبل الحرب، قبل أن تقدم إسرائيل على أنها "مركز الاستنارة" فى المنطقة. وهى تقول بأن العسكرية قد جرت تغذيتها من مصدرين، من "بين الناس الذين عادوا من المنفى ليقيموا حكومة"، ومن بين هؤلاء الذين فى الشارع، والذين وجدوا أن هذه الحكومة عاجزة عن حمايتهم ضد عدوان المستوطنين - انظر :

Avi Machlis and James Drummond, "Colliding Cultures Hamper the Palestinian Road to Democracy," Financial Times (Johannesburg), June 28, 2002.

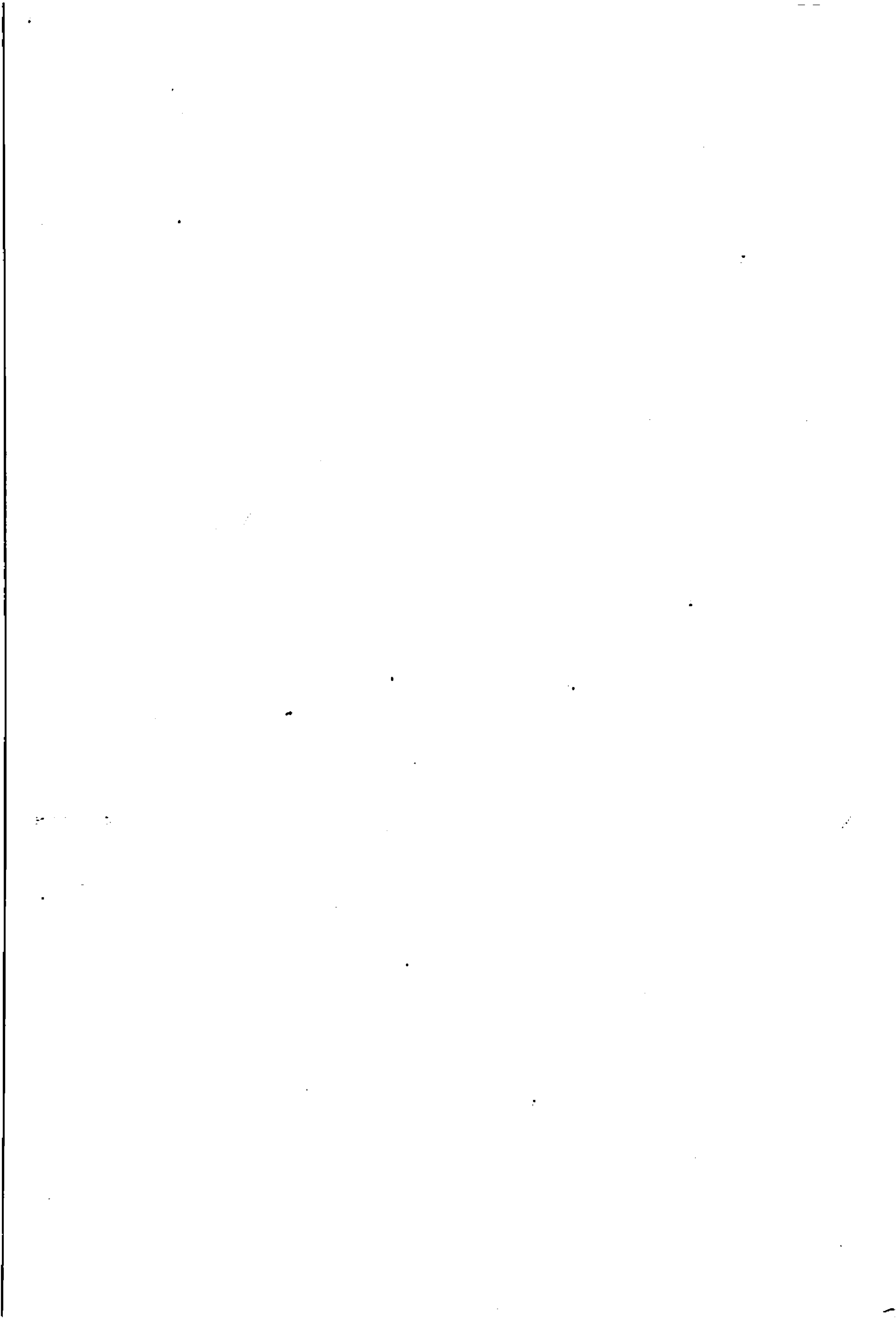
(69) Anthony Sampson, "Mandela, The Authorized Biography" (New York: Alfred A. Knopf, 1999), p. 350.

(٧٠) من وجهة النظر هذه، فإن استعادة التاريخ القصير للقصف الانتحارى فى لبنان، والأوضاع التى أدت إلى توقفه، إنما هى مسألة تعليمية. لقد مهد حزب الله للقصف الانتحارى فى لبنان، بعد الاحتلال الإسرائيلى عام ١٩٨٢ . إن المقاومة الإسلامية التى أوجدها حزب الله عام ١٩٨٢ - والأعضاء الذين احتوتهم، والذين كانوا مقاتلين وقت الحاجة، عادوا إلى الأوضاع الطبيعية عندما لم تكن مطلوبة - ادعت مسئوليتها عن العديد من أعمال القصف الانتحارى ضد سفارة الولايات المتحدة والمجمع الفرنسى العسكرى. وقد شُهد لها بأنها هى التى حرضت على انسحاب القوات متعددة الجنسيات عام ١٩٨٤ . وفى الوقت نفسه، فإن الانسحاب الإسرائيلى عام ١٩٨٥ هو الذى أوجد الظروف السياسية لنهاية القصف الانتحارى فى لبنان - انظر:

Nizar Hamzeh, "Lebanon's Hezbullah: From Islamic Revolution to Parliamentary Accommodation," Third World Quarterly 14, no. 2, 1993, pp. 2, 8.

خاتمة

ما بعد الحصانة والعقاب الجماعى



هل يمكن التعامل مع الإرهاب، كما يجرى التعامل مع فعل إجرامى، كما قال العديد ممن نقدوا القذف الأمريكى لأفغانستان؟ إن للأمر صدى مغريًا، ولكن إذا كان الإرهاب ببساطة جريمة. فإنه ماكان يغدو مشكلة سياسية. إن التمييز بين الإرهاب السياسى والجريمة هو أن الأول يقدم دعوة للدعم الشعبى العلمى، حيث إن الإرهابى السياسى، على غير مثال المجرم لا يرتدع بسهولة من العقوبة، إن الإرهابيين، مهما فكرنا فى أساليبهم، ليسوا فى حاجة فقط إلى أن يستمعوا لكنهم يحتاجون، فى الغالب أكثر من ذلك، إلى دا ع كى يكونوا أبطالاً، وعلى الرغم من ادعاء سلمان رشدى، فى مقاله فــى النيــويورك تايمــز، أن الإرهابيين عدميون يتلفعون بأهداف فى حين أنه لا أهداف لهم، ولذا فإننا يجب أن نهاجمهم بقسوة. إن المرء فى حاجة للاعتراف بأنه ليس لدى الإرهاب حلا عسكريًا، وحتى المواجهة العسكرية الناجحة مع الإرهابيين تقتضى عزلهم السياسى، وذلك تحديداً يتناول الموضوعات التى يثيرونها، وذلك هو السبب فى أن الحملة الرسمية للقذف الأمريكى لأفغانستان يجرى، فى الغالب ذكرها، باعتبارها مزيجًا من ثأر الدم، وطرد الأرواح الشريرة طبقًا لنمط العصور الوسطى، أكثر من اعتبارها بحثًا عن حل للإرهاب.

إن عددًا قليلاً سوف يفشل فى ملاحظة الأرضية المشتركة النامية بين محترفى جرم الحادى عشر من سبتمبر، ورد الفعل الرسمى له، والذى يدعى «محاربة الإرهاب». إن كلاً من الطرفين ينكر إمكانية وجود أرضية فى الوسط. مناديًا بالحرب حتى النهاية. إن كليهما يحشد قواه باسم العدالة، غير أنه يفهم العدالة باعتبارها انتقامًا، وحدث ورفض مرتكبو جرم الحادى عشر من سبتمبر التمييز بين أمريكا الرسمية والشعب الأمريكى،

بين الهدف والضحية، فإن «الحرب ضد الإرهاب» قد مضت توزع العقاب الجماعي في استهانة قاسية بكل من «الخسارة المتماثلة» أو المظالم المشروعة. إن كلاً من الممارستين تغذي، على الأرجح، روح الانتقام. لقد كتبت هذا الكتاب بقناعة أن رد الفعل يكون للضرر والأذى، لا يجب أن يكون لمجرد الانتقام، وأننا في حاجة للتمييز بين الانتقام والعدالة. إن رد فعل آخر، غير الانتقام، أمر ممكن ومرغوب فيه؛ إننا في حاجة لتحقيق ذلك، على أي حال، لتحويل لحظة الضرر والأذى إلى لحظة حرية واختيار. إن ذلك يعني بالنسبة للأمريكيين تحويل الحادي عشر من سبتمبر إلى فرصة للتفكير في مكانة أمريكا في العالم. إن الحزن والأسى على الضحايا يجب ألا يطمس حقيقة أنه ليس هنالك اختيار دون نقاش، وأنه لا ديموقراطية دون اختيار.

إن النقاش الذي دار بعد أفغانستان في الولايات المتحدة وفي العالم قد شغله سؤال ثان : ما العلاقة ، إن كانت هنالك علاقة، بين الحرب على الإرهاب والحرب على العراق؟ وإن كان الحادي عشر من سبتمبر قد حطم الإحساس بالمناعة، والذي يدعي في أيامنا تلك بالأمن الذي أمسك به الأمريكيون العاديون، فإنه قد أدى أيضًا إلى تآكل الثقة التي تشاركتها الإدارات المتتالية . إنه في وسع أمريكا أن تواصل ممارسة القوة في ظل الحصانة والمناعة، وكان هذا بالنسبة للبعض في المؤسسة سببًا للشك في ميراث الحرب الباردة وتحركه متجاوزًا إياها، ليشكل قاعدة للقانون ونظامًا للمحاسبة الدولة. غير أن الحادي عشر من سبتمبر، قدم لإدارة بوش فرصة تاريخية نادرة لتحويل قلق اجتماعي واسع حول الأمن في مواجهة الإرهاب، إلى فرصة لملاحقة أجندة حزبية ريجانية جديدة لتسوية عمل لم ينته من الحرب الباردة. هذه الأجندة هي التي قدمت مفتاحًا لكل من الفضيلة الذاتية والسلوك العقابي للحرب على الإرهاب، وإلى تغطيتها كحرب جديدة ضد «محور الشر» إن ذلك يلقي الضوء على الجسر الذي يربط غزو أفغانستان وغزو العراق. إلى أي مدى يكون محور الشر طبعة لإمبراطورية الشر، فيما بعد الحرب الباردة؟ ألا يعيد وعد إدارة بوش «بمقرطة» المحور إلى الذاكرة،

الإنكار الريجانى للانفراج فى العلاقات الدولية، حتى يدفع بإمبراطورية الشر إلى الوراء، معلنًا «ثورة ديموقراطية»؟

خصخصة الإرهاب خلال الحرب الباردة الأخيرة :

ينتج الإرهاب السياسى عن فشل الحكومة أو حركة العصابات فى كسب الدعم المدنى، والرباط الأكثر وضوحًا يظهر فى ممارسة الثورة المضادة التى مهد لها البريطانيون الطريق فى مستعمراتهم الماليزية خلال الحرب العالمية الثانية، والتى نصح صموئيل هنتينجتون أمريكا أن تقتدى بها خلال حرب فيتنام: لقد طالب هينينجتون بإيجاد استراتيجية للقرى والكفور يعاد وضع السكان المتعاطفين مع الفيت كونج فيها، حتى تفصل العصابات عن السكان الذين تعتمد على دعمهم، وقلبت الثورة المضادة نظرية نضال العصابات على رأسها، فإن ادعت العصابات أنها تشن نضالًا سياسيًا بالسلاح متحركة عبر السكان بالسهولة التى تتحرك بها الأسماك فى الماء، إذا استخدمنا استعارة ما، وأن تلك الحرب ليست حربًا تقليدية يمكن فيها للمرء أن يفصل بسهولة العسكريين عن المدنيين، وبذا يكون هدف الثورة المضادة هو أولا، صرف المياه حتى تُعزل الأسماك. إن الثورة المضادة لم تنجح، على أى حال، حيث كانت العصابات تتمتع بالفعل بالدعم السياسى للسكان المدنيين، ولذا فإنه كان من الضرورى استهداف المدنيين عسكريًا وإرغامهم بالتخويف والإرهاب على الاستسلام والإذعان.

إن الفرق بين الثورة المضادة واستراتيجية الإرهاب هو أن الأخيرة كانت تضرب عمدًا أهدافًا هشة ضعيفة، وهو درس تعلموه بعناد من حرب العصابات، التى طمست أيضًا الخط بين ماهو عسكرى وماهو مدنى، إن العصابات لم تتكون وحدها من المدنيين الذين حملوا السلاح دفاعًا عن الحقوق المدنية والسياسية، إذ إن قلب استراتيجيتها كان يكمن فى تحديد الأهداف الهشة والسياسية، تلك الأهداف تتمثل فى

المدنيين أكثر من العسكريين. إن الجناح اليمينى من مجموعات الإرهاب التى تواجه الحكومات القومية المحاربة فى العالم الثالث، بدأت كأنها قد أخذت إشارة من الجناح اليسارى للعصابات التى تحارب ديكتاتوريات الجناح اليمينى، بدأت باجتثاث القادة المدنيين، الذى يتراوحون من القادة السياسيين إلى قادة المجالس المحلية والقادة المدنيين، والكادرات الفنية فى التعاونيات والمراكز الصحية ومزارع الدولة، وفى إيجاز فى أية حكومة مرتبطة بمرافق إنتاج أو خدمة اجتماعية.

ليست تلك هى المرة الأولى التى يتعلم فيها المستشارون من بعضهم بعضًا. ألم ينتهى جيرى فالويل، وهو يرى النجاح الضخم الذى حققته الكنائس السوداء؛ فى حركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة، إلى أن الطريق نحو الأمام يكمن فى كسر الخط مابين الدينى والعلمانى؟ إن المثقفين السياسيين فى الأبارتهيد العسكرى قاموا بالعمل الطليعى، عندما وصل الأمر إلى التعلم من عصابات الجناح اليسارى. خذ مقال وزير دفاع الأبارتهيد، ماجنوس مالان، والذى جعل دراسة الكتابات الأساسية لمادتس تونج، حول حرب العصابات إجبارية على الوحدات المضادة للعصابات، وبدأت قوات دفاع جنوب أفريقيا تحت قيادته(٢) فى الاقتداء بأساليب المخابرات السوفيتية، متجاوزًا استخدام التعذيب لاستخلاص معلومات من العصابات التى يقبض عليها، إلى «تحويل» أفراد العصابات السابقين إلى عملاء للأبارتهيد، قبل إعادة إدخالهم صفوف العصابات كمرشدين - كما حدث فى فلاكبلاس - أشهر معسكر للتحويل إلى الأبارتهيد.

إن الفرق بين «عصابات» الجناح اليسارى «وإرهابى» الجناح اليمينى يتمثل فى التالى: إن العصابات تعمل كقاعدة فى سياقات تمكنها من حشد دعم سياسى مدنى حقيقى، بينما الإرهابيون معزولون حقيقة عن السكان المدنيين وقد طمس التمييز، فى التطبيق، فى حالات عدة الأولى، حينما فشلت العصابات(٣) فى كسب دعم سياسى كما حدث مع قيادة «الجبهة الثورية المتحدة»، وكادراتها فى سيراليون - العصابات المعادية

للحكومة، والتى تحولت إلى العنف لتفرض دعم المدنيين لهم، هؤلاء الذين فشلت فى استمالتهم فى المقام الأول. والثانية، عندما فقدوا الدعم الشعبى، كما فى حالة سينديرو لومينوسو (الممر المضىء) فى بيرو، حيث دعوا إلى إضرابات مسلحة، وعمدوا إلى العنف ضد كل هؤلاء الذين لم يلتحقوا بهم، حتى وإن لم يكونوا مع الحكومة، ورغم حصولهم على دعم مهم من السكان الأمريكيين - الهنود فى المنطقة، حيث تم تنظيمهم من البداية غير أن السينديرو لومينوسو فشلت فى كسب باقى البلد. وكانت الثالثة عندما كفت العصابات عن تحديد مايميز العملاء المدنيين للديكتاتورية غير الشعبية، والذين يستفيدون منها أو يدعمونها من السكان المدنيين، محولين الأخيرين إلى أهداف هشة ضعيفة. إن هذه الأخيرة تنطبق على الحركات التى لجأت للإرهاب كتكتيك أكثر منه استراتيجية فى نقاط مختلفة من تاريخها، من المدافعين عن الأحوال الجوية فى الحركة الجماهيرية المضادة للحرب، فى الولايات المتحدة فى الستينيات، إلى أقسام من المقاومة الفلسطينية، وفى جنوب أفريقيا، والتى لجأت إلى العنف ضد أهداف مدنية، عندما بدا المستقبل معتماً. إن عمليات الإغراء والفخاخ التى تقع فيها حركة تحرير، تلجأ إلى العنف السياسى لأغراض تكتيكية، قد جرى تصويرها بصورة رائعة فى فيلم «معركة مدينة الجزائر (١٩٦٧)».

ما تكلفته الولايات المتحدة:

كان تلاعب الولايات المتحدة بالإرهاب جزءًا من الجهد الذى قام به الفرع التنفيذى للتخلص من القيود التشريعية الخاصة بالسياسة الخارجية فى حقبة مابعد - فيتنام. لقد تبدى القيد رسميًا ، أولاً فى تعديل كلارك لعام ١٩٧٦. والذى حرم تقديم أية مساعدة سرية أو خفية للأطراف فى الحرب الأهلية الأنجولية، ثم فى تعديل بولانو لعام ١٩٨٤، وقت حرب الكونترا فى نيكاراجوا، إن أول تكلفة دفعتها أمريكا لاحتضانها الإرهاب كانت تتمثل فى التآكل المتنامى للديمقراطية فى الوطن. إن إرادة فصل

السياسة الخارجية عن تلك الداخلية، مسألة تتميز بها الديموقراطيات الإمبريالية وكانت واحدة من المواريث الأساسية للحرب الباردة، إذ كلما قلت مسئولية الفرع التنفيذى قبل الأدوات التشريعية، زاد اتجاه أمريكا الرسمية للنظر إلى السياسة الخارجية باعتبارها مصطلحات أداتية خالصة، ومرة أخرى تم تبرير ذلك باعتباره براجماتية سوقية. إنها صحيحة لأنها ناجحة.

ونشأت التكلفة الثانية لحرب الأفغان من أن الولايات المتحدة وحلفاءها قد أوجدا إرهابًا مدربًا. وأقاموا بنية تحتية له، بنية دولية فى مداها، متحررة من أى تحكم فعال للدولة، إرهابا يتلفع بلغة الحرب الدينية، وتعلمت أمريكا الرسمية التمييز بين نوعين من الإرهاب - «إرهابهم» و«إرهابنا» - وقامت برعاية اتجاه متنامى الرقة فيما يتعلق بإرهابنا، غير أنه أدى حينذاك إلى ولادة إرهابهم من إرهابنا.

إن أفضل إرهابى دربته المخابرات الأمريكية[٤] كان بالطبع هو ابن لادن، وقد جاء فى كلمة واضحة كتبتها أرونداتى روى[*]، «تميز ابن لادن بأنه كان من صنع المخابرات الأمريكية وهو مطلوب من الـ إف بى أى»، لم يكن ابن لادن هو المتميز الوحيد[٥] فى المخابرات الأمريكية فقد تضمن الآخرون، كما قلنا، عبد الله عزام، مؤسس حماس، والشيخ عمر عبد الرحمن المصرى الضرير، الذى يؤم الصلاة. الجميع من صناعة المخابرات الأمريكية، والجميع كانوا على قائمة أشد المطلوبين للـ إف بى أى. وقد اشتملت جماعة المتآمرين فى أحداث تفجير المركز التجارى العالمى عام ١٩٩٣، على اثنين آخرين من متمرسى الجهاد الأفغانى، رمزى أحمد يوسف ومحمود أبو حليمة. لقد انفجرت قنبلة المركز التجارى العالمى تحت الأرض تاركة حفرة اتساعها مائتى قدم، وعمقها عدة طوابق، وكانت القنبلة مصنوعة[٦] من نترات الألمونيوم وزيت الوقود، وهى، طبقًا لكولى، معادلة «تعلمها الكتب الإرشادية للمخابرات الأمريكية.

(*) روائية هندية حائزة على جائزة الـ «بوكر»، ومؤلفة «رواية رب الأشياء الصغيرة». (المترجم)

إن التكلفة الثالثة للجهاد الأفغانى كانت إقامة بنية تحتية موازية للإجرام، مرتبطة بإقامة تجارة مخدرات عالمية محرمة . إن الحقيقة البسيطة التى كان على الحكومة مواجهتها؛ هى أنك إن قررت شن حرب دون موافقة شرعية، فإن هنالك احتمالاً أن تواجه نقصاً فى التمويل . ويبدا، مرة أخرى، أن الوكالات التى تمارس الحرب الخفية تصل إلى الحل نفسه لمشكلاتها المالية: التواطؤ مع لوردات المخدرات، وقد أقر شارلس كوحان، المدير السابق(٧) للعملية الأفغانية عام ١٩٩٥ أن المخابرات الأمريكية قد ضحت حقًا بحرب المخدرات لتحارب الحرب الباردة، غير أنه أضاف:

كانت مهمتنا هى إيقاع أكبر ضرر ممكن بالسوفيت . لم يكن لدينا حقًا المــوارد أو الـوقت، لتخصيصه لتحقيق حول تجارة المخدرات ... إننى لا أعتقد أننا فى حاجة للاعتذار عن هذا، حيث إن لكل حالة نتائجها المترتبة عليها ... فكانت هنالك نتائج حدثت نتيجة المخدرات، نعم، غير أن الهدف الأساسى تم تحقيقه وغادر السوفيت أفغانستان .

غير أن النتائج المترتبة مستبعدة ولم تكن غير متوقعة، إنها مسألة مطروحة للنقاش، مسألة إذا ما كان يمكن اعتبار النتائج المترتبة مبررة، إذا ما تعرضت الوكالات التنفيذية بصورة فعالة للمحاسبة الديموقراطية . إن هذا واضح للغاية فى دراسة ألفريد مك كوى عن تجارة المخدرات العالمية منذ حرب فيتنام ، إن الانتشار المفاجئ للهيروين عالى الجودة، رقم ٤ ، وسط القوات الأمريكية فى ڤيتنام(٨) ، جاء فى عام ١٩٧٠، استبعد قائد البوليس الحربى ، لجيش الولايات المتحدة ، أى احتمال لمجىء الهيروين من الشمال ، وقد قدر الضباط الأطباء ، لجيش الولايات المتحدة، فى منتصف ١٩٧١ أن ١٠٪ إلى ١٥٪ من جنوده، الأدنى رتبة، كانوا يتعاطون الهيروين بطريقة منظمة .

أمدت أفغانستان، وقد أصبحت خلال الجهاد الأفغانى(٩) " أكبر منتج للهيروين عالميًا"، الولايات المتحدة بـ ٦٠٪من احتياجاتها، ويذكر دافيد موستو الطبيب

النفسي بجامعة يال، والمستشار السابق للبيت الأبيض، حول سياسة المخدرات، وقد تدفق الهيروين من أفغانستان وباكستان[١٠] إلى أمريكا، «إن عدد من ماتوا بسبب المخدرات فى منطقة مدينة نيويورك قد ارتفع بنسبة ٧٧٪».

وكانت النتائج مباشرة عندما وصل الأمر إلى حرب الكونترا، وتورط المخابرات الأمريكية فى تجارة الكوكايين، الذى ارتفع عدد المتعاطين له فى الولايات المتحدة، مابين عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٥[١١] إلى ٣٨٪ ليصل إلى ٥,٨ مليون، أكثر من عشرة أمثال عدد مدمنى الهيروين. وقد نشرت «ذى ميركيورى نيوز» الصادرة فى سان جوزيه، كاليفورنيا، فى ١٨ أغسطس ١٩٩٦، قصة رئيسية بعنوان **لطاعون أمريكا المتفشي: فى حرب نيكاراجوا**، والموضوع الأساسى : «باعت عصبة منطقة خليج سان فرنسيسكو، خلال أفضل جزء من عقد من الزمان، أطنانًا من الكوكايين لعصابات «كريبس آند بلودز» فى لوس أنجلوس، وصبت ملايين من أرباح المخدرات إلى جيش عصابات فى أمريكا اللاتينية تديره المخابرات الأمريكية . وتناولت القصة التفاصيل، كيف كونت مجموعة من المنفيين النيكاراجويين عصبة كوكايين فى كاليفورنيا، وكيف أقامت روابط مع عصابات الشوارع السوداء فى جنوب وسط لوس أنجلوس، الذين يصنعون أجزاء من شحنات مسحوق الكوكايين ، وكم من الأرباح التى يحققها المنفيين النيكاراجويين قد أعيد صبها فى جيش الكونترا. وفى ٤ أكتوبر[١٢] سعت الواشنطن بوست إلى المدينة وراء ما جاء فى «ذى ميركيورى نيوز»، ومراسلها، جارى ويب، منكرة وجود دليل على «مؤامرة مرتبطة بالكونترا . غير أن الغضب الذى تبع سلسلة مقاولات ذى ميركيورى نيوز، لم يكن فى الإمكان تجاهله، فقد أمر مدير المخابرات الأمريكية جون ديونش، مفتش عام وكالته، فردريك هينز، أن يشرع فى إجراء تحقيق، واستغرق التحقيق، الذى قام به سبعة عشر محققًا، مدة ثمانية عشر شهرًا لمراجعة ربع مليون صفحة من الوثائق وإجراء ٣٦٥ لقاء، لإعداد تقرير من جزأين، وكانت النتيجة لا تقل عن كونها جديرة بالملاحظة. وقد أنكر المفتش العام بصورة قطعية أى تورط مباشر للمخابرات الأمريكية، وقال وهو يقدم تقريره إلى

الكونجرس، فى مارس ١٩٩٨، بأنه لم يجد «على الإطلاق دليلاً يشير إلى أن المخابرات الأمريكية كمنظمة أو "موظفيها قد تورطوا فى أى مؤامرة لإحضار المخدرات إلى الولايات المتحدة" . غير أنه أنهى المقدمة نفسها بإقرار مهم «دعونى أكون صريحاً: هنالك حالات لم تقطع فيها المخابرات الأمريكية العلاقات مع أفراد يدعمون برنامج الكونترا بأى طريقة تتسم بالسرعة أو الثبات، أو قاموا بفعل لتبرير هذه المزاعم»، وقد اعترف المفتش العام بأن أحداً لم يسأل فى مسألة التعامل مع المخدرات، بطريقة سريعة كما كان عليهم أن يفعلوا ذلك»، ووضعت المخابرات الأمريكية فى النهاية، نسخة من الجزء الثانى لتقرير هيتز بعد أن أخضع لرقابة صارمة، على الموقع فى الإنترنت. وقد كشف التقرير أن المخابرات الأمريكية قد عملت مع ثمان وخمسين من الكونترا كانوا متورطين فى تجارة الكوكايين، غير أنهم أخفوا نشاطاتهم الإجرامية عن الكونجرس، ويعلق ألفريد مك كوى، والذى اتبعت مثاله (١٢) فى قراءة الطبعة المبهمة، عن عمد، من التقرير:

> **إن هيتز يستكشف بصراحة غير مسبوقة، إن بدأنا الفقرة ٩١٣، تحالف الوكالة من ألان هايد سيئ السمعة، مقدماً دراسة كاشفة لحالة الضغوط ذات العلاقة بالعمليات، والتى قادت المخابرات الأمريكية إلى علاقة تقوم على المساومة مع مجرم كان يمكن أن يكون بصورة مؤكدة، المهرب الرئيسى للكوكايين عبر الكاريبى إلى داخل الولايات المتحدة. وهنالك فيما وراء الحيز ٤٨ الكثيف، فقرات تفصيلية، اقتبس المفتش العام منها مراسلات مصنفة تصل إلى مستوى نائب المدير العام، ليقوم توثيق غير عادى من ديناميات تحالف المخابرات الأمريكية مع لوردات المخدرات، وهى قصة أغفلتها الصحافة القومية، على نحو ما، رغم أن الجدل حول حالة «التحالف المظلم» كان لا يزال محتدماً.**

والتكلفة الرابعة لجهاد الأفغان، كانت التفكك المتزايد لوكالات الدولة المضيئة بتقوية سياسة الولايات المتحدة، وهى حقيقة ظهرت فى الضوء، بطريقة درامية فى الحادى عشر من سبتمبر اليوم الذى عبر فيه الرعب الذى أنتجه جهاد الأفغان، الحدود القومية للولايات المتحدة، والذى أخذ، فعلاً، أبعاداً دولية، ووضح التفكك بطريقة درامية

فى العلاقات بين المخابرات الأمريكية ووكالتين أخريين للحكومة الفيدرالية هما إف بى أى وإدارة التشديد على المخدرات (الـ دى إى إيه. ويذكر كولى حالة(١٤) روبرت فوكس، المدير الإقليمى لـ إن بى أى فى نيويورك ، والذى ذكر أن المخابرات الأمريكية قد دربت العديد ممن فجروا المركز التجارى العالمى، على إذاعة تليفازية عام ١٩٩٣ والذى تم نقله «صدفة» بعد عدة أسابيع.

منذ الوقت الذى تورطت فيه المخابرات الأمريكية فى تجارة المخدرات كوسيلة لتمويل العمليات السرية، حدث تفكك مماثل بين المخابرات الأمريكية وال دى إى إيه، وقد بلغت تلك الحالة، حقًا نسبًا صارخة فى إدارة ريجان. وأعلن المحامى العام ١٩٨٢ أن الـ إف بى أى، وليست الـ دى أى إيه (إدارة التشديد على المخدرات) سوف تتحكم من الآن فصاعداً، فى الحملات المضادة للمخدرات داخل الولايات المتحدة. وقد كشف تقرير المفتش العام لعام ١٩٩٨ للمخابرات الأمريكية، أنه بعد شهرين فقط من إجازة ريجان دعم المخابرات الأمريكية السرى للكونترا، كان فى وسع وليام كيسى مدير المخابرات الأمريكية أن يعد «مذكرة تفاهم» سرية مع المحامى العام ويليام فرنش سميث، وقد أعفت هذه المذكرة المؤرخة بـ ١١ فبراير ١٩٨٢ المخابرات الأمريكية من الإبلاغ عن تجارة المخدرات التى تقوم بها عناصرها المهمة، والذين لم يكونوا موظفين رسميين فى المخابرات الأمريكية مثل الطيارين الذين ينقلون الإمدادات إلى الكونترا وكذا الرسميين فى الكونترا وآخرين، وتم تعديل الاتفاقية بعد أربع سنوات للحصول على المزيد من التقارير، غير أن المخابرات الأمريكية واصلت العمل مع تلك العناصر المهمة، بل وكان الأمر الأكثر غرابة أن هذا التنازل عن الحق ظل قائمًا حتى نبذته إدارة كلينتون عام ١٩٩٥.

المخرج :

إن الإمبراطوريات الحديثة مختلفة عن تلك القديمة وبالمثل عن الإمبراطورية السوفيتية ابنة الأمس فى وجه واحد مهم: أنها تدمج نظامًا سياسيًا ديموقراطيًا فى

الوطن مع نظام استبدادى فى الخارج . وحتى فى الحالة الألمانية(١٥)، كما يذكرنا شيلدون وولين، فإن الإرهاب النازى لم يكن يطبق على السكان عامة، ومادامت الديموقراطية حقيقة حية فى الوطن، فإن الإمبراطوريات الغربية تحوى فى طياتها إمكانية التصحيح الذاتى. إن أى امرئ عاش عبر الحركة المعادية للحرب، فى حقبة فيتنام، يمكنه أن يقر بأهمية هذه الحقيقة. إن درساً رئيسياً من الحرب الفيتنامية، هو أن الحركة المعادية للحرب والمعادية للإمبريالية داخل الولايات المتحدة قد قيدت القوة العسكرية الأمريكية من أن تكون مطلقة السراح كلية على الشعب الفيتنامى.

إن الإدارات المتعاقبة فى الولايات المتحدة قد اعتبرت الصحافة الأمريكية مسئولة عن الهزيمة فى فيتنام، وكانت حجتهم بسيطة مادامت هى فى خدمة ذواتهم، إن الصحافة بتركيزها على فظائعنا، والتزام الصمت قبل فظائعهم. قد عاونت حركة شعبية ضد الحرب. وأصبح للاتهام رنة مصداقية بعد حقول القتل فى كمبوديا، ومنذ ذلك الحين، وقُدُماً حتى العراق، اتجهت الصحافة للالتفات إلى إحصاءات أمريكا الرسمية لتعد «فظائعهم»، وهى، بفعلها ذلك، أسهمت فى تحريك السياسة الخارجية بعيداً عن عملية المسئولية الديموقراطية وهى عملية بدا أنها قد بلغت نهايتها «الوطنية» مع وصول محررين صحفيين «مكلفين» فى حرب العراق الحديثة.

إن الرقابة الذاتية للصحافة قد جرى تعزيزها من خلال تطورات حدثت فى السوق إذ مع تغيير ملكية عمالقة وسائل الإعلام، فإن العديد منها استولت عليه شركات تقوم على صناعة الدفاع أو المتعة والتسلية، معززة الاتجاه لمعاملة الأخبار كتسلية قابلة للتسويق. ومع ذلك، فإن سبباً آخر لتواصل تآكل حرية الصحافة نشأ عن فهم أن الصحافة تشارك هؤلاء الذين فى السلطة، وعندما تجىء إلى الشرق الأوسط، فإن إسرائيل هى كعب أخيل لليبرالية الأمريكية، البقعة العمياء التى هى جزء من «فهمها العام». إن الأهمية المحلية لإسرائيل غدت واضحة بصورة درامية خلال الفترة الثانية

من إدارة ريجان. فكما فسرت وأولت فضيحة إيران - الكونترا. أصبح واضحًا أن الفرع التنفيذى غدا مذنبًا - فيما يتعلق بعدم الاكتراث الكبير للقيد التشريعى، حتى إن النتائج المحتملة أصبحت لا تقل قوة عن تلك التى جاءت بعد فضيحة ووترجيت. غير أن هذا لم يحدث لسبب واحد وهو تردد الليبراليين فى الكونجرس والصحافة، وكان جزء مهم من السبب هو أن إسرائيل كانت متورطة.

أمريكا وإسرائيل: لب الموضوع

إن رأى نقاد سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، أنها سياسة مدفوعة بمسألة النفط، والمدافعون عنها يرون أن الدفاع عن إسرائيل يقع فى القلب من هذه السياسة، كلما غدا الشرق الأوسط أكثر محورية فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة كما حدث بعد الحادى عشر من سبتمبر، بدت إسرائيل فى مخيلة المدافعين والنقاد بالمثل، غدت تكلفة السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل أعلى، وأصبح الدافع إليها غامضًا وصعبًا على الاستقصاء. ألا يمكن أن يكون هذا أمرًا لا يزيد عن كونه ردًا على الارتباط الرسمى الأمريكى البنَّاء مع أبارتهايد جنوب أفريقيا؟ أم هل يشير غياب، نقد سياسة أمريكا تجاه إسرائيل - ولو على سبيل الإشارة الخفيفة - إلى علاقة أكثر خصوصية، يجب أن تنال حقها أكثر من كونها مجرد مصلحة الدولة؟

لقد التفت الكثيرون، عند البحث عن إجابات قابلة للتصديق، إلى تأثير المجموعات القائمة فى المجتمع المدنى، أولاً للقوة غير العادية للوبى الإسرائيلى فى واشنطن، كذا الوضع الأكثر قربًا للوزن المتنامى لليمين المسيحى فى الحزب الجمهورى. إن اللوبى الإسرائيلى عبارة عن «شبكة فضفاضة لأفراد ومنظمات». الأكثر أهمية فيها لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية إيباك - (إيه أى . بى إيه سى)، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى. إن اللوبى الصهيونى أكثر من كونه «آلة تصويت

إثنية تقليدية»، تنظم التصويت اليهودى وراء مرشح معين. إن هذا اللوبى يقوم أكثر بوظيفة آلة إثنية مانحة نافست أساليب المجموعات التى تقوم على المصلحة مثل «الاتحاد القومى للبنادق» أو المجموعات التى تقف مع الإجهاض أو ضده. إن قوته تمارس عبر حملات المساهمات والتعينات الحكومية ، وأكثر التعينات شهرة، فى إدارة بوش الحالية، هى تلك التى تم بواسطتها تعيين ريتشار بيرل عضواً (وحتى استقالته الحديثة من المنصب) شبه رسمى، وإن كان عالى النفوذ فى المكتب الاستشارى للدفاع، ودوجلاس ج. فيت وكيل وزارة الدفاع، ولكل منهما قدم فى مؤسسات الدفاع والسياسة الخارجية الأمريكية والإسرائيلية. وقد كتبا معًا ورقة مشتركة ينصحان فيها رئيس وزراء إسرائيل، بنيامين نيتانياهو أن «يفسخ بطريقة محكمة عملية السلام»، وكتب فيث[١٦]، عام ١٩٩٧، ورقة عنوانها **استراتيجية إسرائيل**، داعيًا إسرائيل إلى إعادة احتلال «المناطق الخاضعة لسيطرة السلطة الفلسطينية» حتى وإن كان «الثمن دما غاليًا».

لا الأسباب التى قدمتها الدولة ، مثل الجغرافيا السياسية ولا وزن بعض المصالح فى الدولة ولا المجتمع المدنى، استطاع أن يقدم شرحًا، لماذا لا يوجد، حتى مجرد أثر نقاش عام فى أمريكا، عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، دوليًا، هنالك دولة واحدة تقف عمليًا متحدية كل قرار للأمم المتحدة، يمكن أن يؤثر عليها: أى على إسرائيل. إن إسرائيل فى المجتمع الدولى تناصر ممارسة القوة وهى تتمتع بالحصانة. إن إسرائيل تتحدى المجتمع الدولى باستمرار ليس لأنها القوة العظمى الدولية الوحيدة، ولكن لأن القوة العظمى الدولية الوحيدة تدعمها. وفى الوقت نفسه، فإنه من السهل داخل أمريكا أن تنتقد الحكومة من أن تنتقد إسرائيل. إن الليبراليين الأمريكيين أنفسهم الذين يدعمون حقك الديمقراطى لنقد أية حكومة فى العالم، بما فى ذلك حكومة الولايات المتحدة ، سوف يعتبرون نقد دولة إسرائيل عملاً يحتمل أن يكون معاديًا للسامية، وذلك فى كلمات الرئيس الحالى لهارفارد سواء كان ذلك بالفعل أو بطريقة متعمدة. لماذا لايطبق الليبراليون الأمريكيون المعيار نفسه على دولة إسرائيل، ذلك المعيار الذى

لايترددون فى استخـدامه مـع كـل دولة فـى العالم، بما فى ذلك الولايات المتحدة ، ما الذى يفسر الطبيعة الدائمة للعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل؟ إننى أعتقد أنه من الضرورى لفهم هذا الواقع الدائم التركيز - بعيداً عن المصالح الخاصة - إلى العام الأمريكى، وذلك حتى يمكن فهم السبل التى استجاب فيها المشروع السياسى، الذى يدعى إسرائيل للحساسيات الأمريكية التاريخية.

وحتى تكون متأكداً فقد مرت العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، منذ تأسيس دولة إسـرائيل عـام ١٩٤٨ عبـر مراحـل مخـتلفة، وقـد بلغت أشـد صـورها توتراً خـلال أزمـة السويس عام ١٩٥٦، عندما أجبرت إسرائيل ومعها بريطانيا وفرنسا على الإقرار بصعود أمريكا باعتبارها القوة القيادية الغربية: إننا نستطيع أن نتحدث فقط، بعد عام ١٩٦٧ ولاسيما عام ١٩٧٣، عن بناء تحالف استراتيجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل. لقد استطاع صانعو التحالف الاستراتيجى أن يصبوا من الحسـاسيـة الأمـريكيـة مستودعاً من الدعم، حتى يحتفظوا لهذا التحالف بهالة من القداسة.

إن المرء كى يدرك هذه الحساسية التاريخية، عليه أن ينظر إلى العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، عبر التجربة التاريخية لأفريقيا مابعد الأبارتهيد. إنك إن نظرت إلى أمريكا من الطرف الجنوبى للتجارة الأفريقية وتفرست من رأس الرجاء الصالح عبر الأطلنطى، فإن أفريقيا وأمريكا لا يبدوان فـقـط كـأنهما مجـرد اسمين لقارتين مختلفتين، ولكن كاسمين أيضا يدلان على مسارين تاريخيين مختلفين جذرياً. إن التجربة الأفريقية تمثل، مع نهاية الأبارتهيد، نهاية كولونيالية المستوطن - ويكون ذلك على غير مثال التجربة الأمريكية التى تدل على انتصار كولونيالية المستوطن.

إن هذا الانتصار مكتوب فى تاريخ المواطنة فى الولايات المتحدة والتاريخ يظهر ذلك بوضوح. إن سأل المرء، من هو الأمريكى؟ لقد صاغ الإجابة نضالان كبيران، هما

الحرب الأهلية والنضال من أجل الحقوق المدنية. لقد بدأت الحرب الأهلية بعد سنوات قليلة من قرار «دريد سكوت» ١٨٥٧ . هذه هى الكيفية التى طرح بها قاضى القضاة «روجر تانى» المسألة، وهو يضع مكانة المواطنة الأمريكية فى الولايات المتفردة أكثر منها فى الاتحاد:

إن السؤال فى بساطة هو : هل يمكن لزنجى تم استيراد أسلافه إلى هذا البلد تم بيعهم كعبيد، أن يصبح عضوًا فى المجتمع السياسى الذى شكّله وأوجده دستور الولايات المتحدة . ومن ثم، تُجاز له كل الحقوق والمميزات والحصانات التى ضمنتها تلك الأداة للمواطن؟

وكما يلخص «بول فينكلمان[١٧]» الأمر، فإن رد فعل «تانى» ، لم يدع أى مجال للشك فى: «أن السود الأحرار لن يكونوا أبدًا من مواطنى الولايات المتحدة، وأنه تعهد قضية رُفعت فى محاكم فيدرالية»، وقد أزاحت الحرب الأهلية وضع المواطنة الأمريكية من الولايات المنفردة إلى الاتحاد، ومن ثم عكست ميراث «دريد سكوت»، وغيَّرت أسس مواطنة الولاية من الأسلاف إلى موضع الإقامة، غير أنها لم تؤد إلى مواطنة متساوية للأمريكيين السود والبيض، لقد كانت الأمة الأمريكية، بعد الحرب الأهلية ، لا تزال أمة المستوطنين البيض وإعادة تعريف الأمة، من أمة البيض إلى أمة المستوطنين بغض النظر عن اللون، كانت ثمرة حركة الحقوق المدنية التى جاءت بعد الحرب العالمية الثانية.

إن مرحلة مابعد الحرب تمثل نقلة مزدوجة على أرضية كل من العنصر والدين، وكان من المفترض، قبل الحرب، أن البعض كانوا مسيحيين وكان ميراث المسيحية يعرف، فى الغالب، فى تضاد مع اليهودية، إن فكرة وجود تقليد واحد يهودى - مسيحى[١٨]، إنما هى فى الأساس فكرة جاءت فيما بعد الهولوكست، وهى فكرة ذات عمق تاريخى ضحل. إنها الترياق الأمريكى لمعاداة السامية فيما بعد الهولوكست. إن أمريكا المعاصرة، إنما هى مجتمع سياسى متعدد الثقافات والديانات، والتى عليها أن تمسك، مع ذلك، بأصول مستوطنيها.

لقد وجدت نفسي وجهًا لوجه مع هذا الإدراك الذى أنجبه هذا التاريخ خلال تدريب الذات ضد الحرب فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر، وأكثر تحديداً فى سبتمبر ٢٠٠٢، عندما نظمت جامعة كولومبيا مؤتمراً يدعى «مناقشة حالة جنوب أفريقيا حول إسرائيل وفلسطين». لقد أثارت فكرة أن إسرائيل مستعمرة مستوطنين، معارضة قوية، حتى بين العديد من الشباب الأمريكى المضاد للحرب، على أساس أن الإسرائيليين لم يكونوا مستوطنين، ولكن مواطنين عاديين. إن العاطفة والاقتناع ذكرانى بالوضع الذى كان عندما كنت محاضراً فى جامعة دار السلام فى السبعينيات. واستمعنا إلى مجموعة دافعت عن أهل البلاد الأصليين الليبيريين، حيث ادعو أن ليبيريا كانت دولة كولونيالية المستوطنين لا تختلف عن أبارتهيد جنوب أفريقيا، وانزعج المستمعون التنزانيون، ومن شرق أفريقيا ، بصورة واضحة . إننا ، جميعًا، نعرف أن ليبيريا، مثلها مثل سيراليون، تأسست كمستعمرة للعبيد الذين تحرروا فى القرن التاسع عشر: كانت ليبيريا مستوطنة للعبيد المحررين الأمريكيين ، وسيراليون للعبيد المحررين البريطانيين، بمعنى أنهم العبيد البريطانيون الذين ألقوا بثقلهم مع بريطانيا فى حرب الاستقلال البريطانية، وبالتالى انتقلوا إلى الجزر البريطانية. إن ترددنا فى قبول التشبيه بأبارتهيد جنوب أفريقيا كان يقف على أرضية هذه الحقيقة التاريخية.

لقد رأينا الليبيريين ، كأهل بلاد أصليين عائدين، حتى وإن كانوا عائدين بعد قرون وليسوا كمستوطنين. وأدركت حينئذ فى حرارة النقاش الذى جرى فى الأكاديمية الأمريكية فيما بعد الحادى عشر من سبتمبر، لماذا كان على المرء أن يقر بالحساسية التاريخية الأمريكية، يُعد مهتمًا بتغير وجهة النظر الأمريكية، والتى تعترف هى من جانبها بموضوعية اليهود الذين «عادوا» إلى إسرائيل. إن يهود إسرائيل لا يرون، من وجهة النظر هذه، أنفسهم كمستوطنين، ولكن كأهل بلاد أصليين عائدين، حتى وإن كانت عودتهم بعد آلاف السنين. إن مثل هذا التشبيه يمكن أن يؤدى إلى مفاهيم مثمرة للعلاقات بين

أمريكا وإسرائيل، والتشبيه الليبيرى يؤكد عدم الإحساس بمصالح أهل البلاد الأصليين والذى تأتى به خبرة المستوطن، ومن الواضح عند مقارنة ليبيريا بإسرائيل أن كليهما يضع ضحايا ومرتكبى جرم الكارثة محل التساؤل، حتى لو كان ذلك على حساب مجموعة جديدة من ضحايا أهل البلاد الأصليين. لقد كانت ليبيريا تجربة دافع عنها كل من العبيد السابقين وملاك العبيد السابقين، وهناك فى حالة إسرائيل، أكثر الصهاينة حماسًا، جنبًا إلى جنب مع القطاعات الأشد عداء للسامية، من اليمين المسيحى، والتى يقودها جيرى فالويل، وباث روبتسون وهنا. مثلاً[١٩] نص لصفحة كاملة من النيويورك تايمز الصادرة فى ٣ ديسمبر ٢٠٠٢:

الدكتور المزيز باث روبرتسون : إننا نشكرك وقادة مسيحيين آخرين أظهروا دعما لا يتردد لإسرائيل، باعتبارنا قادة نشطين للمجتمع اليهودى، الذى انضم إليه أناس حسنو النية فى كل مكان. إن على أعداء الإرهاب أن يجهروا بآرائهم بصراحة وأمانة، فى الوقت الذى تعانى منه إسرائيل من مثل هذا التهديد القاتل. إننا نقول، ونحن ننهض فى وجه الشر «توده رباه». التوقيع: التحالف من أجل الهموم اليهودية - إيه إم سى إتش إيه (التحالف من أجل الهموم اليهودية، مقره ريفردال، نيويورك).

إن هذه الوحدة قد صيغت حول الالتزام بمهمة حضارية مشتركة، مع حضارة تفهم باعتبارها منتجا يجب أن يجىء به المستوطن إلى أهل البلاد الأصليين، ولقد فكر الليبيريون - الأمريكيون، بأنها حق منحه الله لهم ليدخلوا الحضارة لليبيراليين، أهل البلاد الأصليين الذين لم يغادروا ألبتة الوطن. ليس هذا فقط، إذ إن مفهومهم للحضارة، قد تمت صياغته فى أرض العبودية - حضارة تميزت بالمنتجات اليدوية الفنية نفسها التى حرم عليهم دخولها - منتجات تتراوح من القبعة الطويلة السوداء إلى الدولار الأخضر إلى البيت الأبيض. إن الصهيونيين الذين جاءوا إلى إسرائيل يرون

فى الفلسطينيين طفيليين ومغتصبين دون حق راسخ فى تاريخ حضارى معتمد من الكتاب المقدس، وعليهم الآن أن يفسحوا الطريق لأصحاب الأرض الشرعيين.

إن رد الفعل الأمريكى للكوارث الكبرى - أولاً العبودية ثم الهولوكست - قد بلور اتجاهًا بين الأمريكيين رأى أن مستوطنات ما وراء البحار حلاً وليس مشكلة، لقد كان الحل الأمريكى لكل من الحالتين هو العودة إلى الوطن، غير أنها عودة تميزت باستهانة غليظة بحقوق هؤلاء الذين كانوا فى الوطن بالفعل ولم يتركوا الوطن ألبتة، حتى إن المشروع تحول فى كل حالة إلى كولونيالية المستوطن. كيف يمكن للمرء أن يفسر عدم الإحساس بمصالح أهل البلاد؟ الأمر الذى يبدو كسمة خاصة للتاريخ السايسى الأمريكى. وهل يمكن أن تكون أمريكا الرسمية وغير الرسمية التى تتمتع بالميزات أو لا تتمتع بها، تلك التى لم تجرؤ قط على النظر إلى جريمتها الأصلية، نزع ملكية أهالى البلاد الأصليين الأمريكيين وإبادتهم العرقية، قد اتجهت تاريخيًا للنظر إلى مشروعات المستوطنين باعتبارها وسائل فاعلة تتعامل بنجاح مع أعمال الإزاحة الداخلية الكبرى، وتقديمها فى الوقت نفسه، باعتبارها مشروعات مهام حضارية عديدة إلى العالم على اتساعه؟

إن الخبرة الأفريقية تبين أن إدعاء المهمة الحضارية يمكن أن تتخذ أشكالاً كثيرة، من الذى يستطيع أن ينسى أن نظام أبرتهيد جنوب أفريقيا قد زعم أنه يمثل الديموقراطية الوحيدة فى أفريقيا، كما تدعى إسرائيل اليوم أنها الديموقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط . إن هذه ليست مزحة كلية غير أنها لا تعكس الوضع الكلى فى الحالتين. حقًا إن العديد من أهل البلاد الأصليين، فى دار السلام أو كمبالا، يحظون بحقوق أقل من بعض أهل البلاد الأصليين فى جوهانسبرج أو دربان، كما أن الفلسطينيين الذين فى إسرائيل يحظون بحقوق أكثر من تلك التى يحظى بها أهل البلاد الأصليين فى العالم العربى. إن الحقيقة الكبرى، على أى حال، هى أن «المهمة الحضارية» لم يقصد منها ألبتة أن تشتمل على كل أهل البلاد الأصليين، ولم تكن تعنى ألبتة تعميم

نظام الحقوق أو الديموقراطية على أهل البلاد الأصليين. إنما هى كلها تعنى أن مستعمرة ليبيريا وأبارتهيد جنوب أفريقيا مثلها مثل إسرائيل الصهيونية تماماً، تعكس وحدة متناقضة واستبداداً ديموقراطياً فى حيز واحد. إنها لا تختلف على مستوى أكثر عمومية عن مهمة نقل الحضارة التى جاءت بها القوى العربية إلى المستعمرات فى حقبة سابقة، وحتى نبدأ ، فإن تلك المهمة قد حجبت الغالبية العظمى ممن استعمروا مشروع الحداثة الديموقراطية ، وعندما قاوم أهل البلاد هذا الاستعباد وصفوا باعتبارهم معادين للحداثة، ومن ثم، لايستحقون الديموقراطية.

إن دولة إسرائيل ، دولة ، وليست ديناً أو شعباً يجب أن تخضع للتدقيق نفسه الذى تخضع له أية دولة أخرى، ليس فقط من أجل الشعب الفلسطينى أو الشعب الإسرائيلى، ولكن الآن أكثر من أى وقت مضى، من أجل الإنسانية. إن مدى الفظائع الإسرائيلية - إرهابياً - قد تزايدت سرعتها منذ الحادى عشر من سبتمبر. وتم وضعها كحزمة واحدة، فى الإعلام الأمريكى - باعتبارها رد فعل لابد منه لإرهابهم . وبيَّن ذلك طريق إدارة بوش «للحرب على الإرهاب». إن قضية تفى بالغرض المطلوب هى قضية البناء الذى شيد بعد الحادى عشر من سبتمبر، والذى تدعوه الحكومة الإسرائيلية بـ «السياج»، ويصفه الإعلام الأوروبى بـ «الجدار» ، والذى اختار الإعلام الأمريكى ألا يصفه على الإطلاق، بينما هاآرتز فقط، هى التى امتلكت[٢٠] وصف هذه الفظاعة :

إن إسرائيل ما زالت تستخدم التعبير المريح المضلل «السياج» حتى تصف نظام التحصينات، الذى يجرى تشييده على الأراضى الفلسطينية فى الضفة الغربية. بل وحتى تعبير «الجدار» المستخدم بصورة أكثر عمومية فى التقارير أجنبية اللغة، غير كافٍ لوصف ما تم بناؤه فعلاً فى هذه اللحظة نفسها : إن حائطاً أسمنتياً يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار، له سياجات من أسلاك وأجهزة إليكترونية

حساسة، وخنادق بعمق أربعة أمتار على الجانبين، وممر ملوث لكشف آثار الأقدام، وهى منطقة ممنوع دخولها، وطريق على حارتين لدوريات الجيش، وأبراج مراقبة، ومراكز عسكرية لإطلاق النار كل ٢٠٠ متر على الامتداد الكلى للطول . تلك مكونات «السياج» .

إن التكلفة المقدرة لإسرائيل هى مليارات دولار، أما التكلفة بالنسبة للفلسطينيين فهى معيشتهم ورزقهم. «إن آلاف الفلسطينيين قد فقدوا أراضيهم وأرزاقهم ومدخراتهم، التى استثمرت فى مستنبتات ومستودعات ومنازل لأطفالهم بسبب تلك التحصينات. إن عدد الفلسطينيين الذين سيضارون مباشرة، فى النهاية، بسبب تلك التحصينات طبقًا للبنك الدولى يتراوحون بين ٩٥٫٠٠٠ و ٢٠٠٫٠٠٠» . ذلك أمر فظيع مقارنة بالطرد الجماعى عام ١٩٤٨ والاحتلال عام ١٩٦٧. وإن اتبعت خريطة الطريق التى دفعت بها إدارة بوش ، فإن أميراهاس تقول فى ختام المقال نفسه : إن حدود دولة فلسطين سوف تحددها «تلك الحقائق على الأرض»: «ثلاث مقاطعات محاصرة بأرض أجنبية منقطعة الصلة تمامًا عن بعضها بعضًا دون وادى الأردن، ودون الأراضى الزراعية الخصبة بين جنين وقلقيلية، ودون القدس ذات الصلة بالعاصمة، والتى تشتمل على الأرض بين مستوطنات جيفات زييف إلى الشمال الغربى، «وبيتار» إلى الجنوب الغربى و«فعله أدومين إلى الشرق» إنه ليس سياجًا جبريًا لا يضر ولايؤذى، قصد به إبقاء المعتدين بعيداً. إنه أكثر طموحًا بكثير من حائط - مثل حائط برلين والذى قصد به حبس سكان المدينة داخل حد سياسى جبرى - إن هذه التحصينات قصد بها كل من التجزئة والحبس، باعتبارها تضرب سبل عيش الآلاف. إنها مابين بانتوستانات على نمط الأبارتهيد ومعتقلات على النمط النازى.

هنالك أكثر من تشابه عابر بين المشروع الصهيونى فى إسرائيل والأراضى المحتلة، والمشروع الإسلامى السياسى فى آسيا الوسطى: إن كليهما تمدد فى ظل المظلة السياسية الأيديولوجية للولايات المتحدة، وكانت الرعاية الأمريكية فى الحالتين هى أساس تحويل الهويات الدينية إلى هويات سياسية، وكان للإصلاح السياسى

فى الحالتين نتائج عدمية. لقد رأينا أن تأثير الجهاد الأفغانى كان أساسيًا لكل من أسلمة الدولة الباكستانية، فى ظل نظام ضياء، وخصخصة الإرهاب وتدويله خلال إدارة ريجان. لقد كان فى وسعنا أن نرى فى كل من الطرفين ندين مثيرين للاضطراب فى الشرق الأوسط. إذا ابتدأنا بإسرائيل فإنها - مثل باكستان - مكرسة لمفهوم وجوب أن يكون المجتمع الدينى أيضًا أمة تمتلك دولتها، ومن ثم، تجعل من مواطنيها الذين لا ينتمون إلى دين الدولة ليس فقط أقلية سياسية، ولكن أيضًا مواطنين من الدرجة الثانية لهم حقوق أقل، ويعتبر من أسسوا إسرائيل أنفسهم، فى الوقت نفسه، يهود علمانيين، مثل مؤسسى باكستان، الذين أعلنوا عن أنفسهم باعتبارهم مسلمين علمانيين. إن التحول من الصهيونية العلمانية إلى الصهيونية الدينية، زمن بيجن، يماثل تماما أسلمة الدولة فى ظل ضياء، والتى حدثت تحت مظلة الحماية الأمريكية، خلال الحرب الباردة، كما أن احتلال المستوطنين للأراضى الفلسطينية قد جرى تدويله، فى الوقت نفسه، باعتباره مشروعًا سياسيًا لكل من اليمين المسيحى والصهيونى، وكلاهما يؤكد أن الصلاح أو الأصولية فى الدين لا تتحول بطريقة أتوماتيكية إلى إرهاب سياسى والأصح، أنه فقط عندما يندمج منظور يقوم على الصلاح - الدين أو العلمانى - فى مشروع سياسى يقوم على التعصب الأيديولوجى وعدم الرحمة حينئذ يقدم اللغة التى تغذى الإرهاب.

المسئولية التاريخية:

إن مقابلة الحالتين سوف يساعد على أن نفهم من الذى يتحمل مسئولية الحادى عشر من سبتمبر ، حالة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وحالة ما بعد الحرب الباردة، لقد جرت الحرب العالمية الثانية فى أوروبا وآسيا وليس فى الولايات المتحدة، وواجهت أوروبا وآسيا تدميرًا ماديًا ومدنيًا عند نهاية الحرب، تدميرًا لم تواجهه أمريكا. إن مسألة مسئولية إعادة تعمير ما بعد الحرب، صارت كمسألة سياسية أكثر منها مسألة أخلاقية .

إن ضرورتها العاجلة كانت مفهومة بسبب الحالات السياسية المتغيرة فى يوغوسلافيا وألبانيا واليونان بشكل خاص، ولقد قبلت الولايات المتحدة، وهى تواجه احتمال تعاظم النفوذ الشيوعى، مسئولية إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه من أجل حياة مدنية محترمة فى أوروبا غير الشيوعية وكانت النتيجة هى خطة مارشال.

ولم تجر الحرب الباردة بصورة كبيرة، فى أوروبا، ولكن فيما أطلق عليه «العالم الثالث» عبر حروب كانت فى غالبيتها حروبًا سرية. هل يجب علينا، الإنسانية العادية، أن تحمل أمريكا الرسمية مسئولية أعمالها خلال الحرب الباردة؟ وهل تُحمل أمريكا الرسمية مسئولية قنابل النابالم ورش «العميل البرتقالى» فى فيتنام وكمبوديا ولاوس؟ هل تُحمل مسئولية بيئة الإعفاء من العقاب التى غذت الحركات الإرهابية فى جنوب أفريقيا وأفريقيا الوسطى وآسيا الوسطى؟ إن احتضان أمريكا الرسمية للإرهاب لم ينته بنهاية الحرب الباردة ، فالولايات المتحدة وبريطانيا أجبرتا، حتى ١٠ سبتمبر ٢٠٠١، بلدان أفريقية على التصالح مع حركات إرهابية؛ خذ مثلاً، سيراليون، حيث أُعيدت الحكومة المدنية عام ١٩٩٨، وقام حملة البنادق المتمردون، فى ٦ يناير ١٩٩٩، بالقتل والتخريب واغتصاب طريقهم عبر العاصمة فريتاون. إن أفعال الإرهاب التى يعجز اللسان عن وصفها قد أخذت حياة أكثر من خمسة آلاف مدنى، وكان رد الفعل البريطانى والأمريكى[٢١] هو الدعوة إلى المصالحة بين الضحايا ومتعهدى الإرهاب، بين الحكومة والمتمردين فى «اتفاقية لومى» فى يوليو ١٩٩٩ ، إن سيراليون هى مجرد مثال واحد للنظرة الرقيقة التى تتغاضى بها الحكومات الغربية عن الإرهاب - «الأسود ضد الأسود» - فى أفريقيا قبل الحادى عشر من سبتمبر . وقبل تلك كانت هنالك الإبادة العنصرية فى رواندا، والتى قتل فيها ٨٠٠,٠٠٠ مدنى فى تسعين يومًا . والحرب فى الكونغو ، والتى قتل فيها ما يزيد عن ثلاثة ملايين . كان المطلب دومًا وجود تشارك الحكومات السلطة مع متعهدى الإرهاب باسم التصالح فى موزمبيق وسيراليون وأنجولا . لقد تحول إلى كلمة رمزية للحصانة والإعفاء من العقاب وأصبحت جزءًا من الاستراتيجية السياسية للحرب الباردة التى صممت لتدمير استقلال الدول الذى تم كسبه بصعوبة .

إننا فى حاجة للاعتراف باختلاف الطرق إلى الإرهاب، حيث إن هنالك، على الأقل، ثلاثة أسباب ترد إلى الذهن، لقد تابعت الطريق الأساسى: بحث إمبريالى عن طرق فعالة لتدمير الدعم السياسى الذى تحظى به الحكومات الوطنية اليسارية (مثل الفريليمو فى موزمبيق ، والسانديستا فى نيكاراجوا) أو ببساطة حكومات تعتبرها منتمية إلى معسكر معادى (مثل حكومة أمين فى أفغانستان) . إننى أعتبر هذا الطريق هو الطريق الرئيسى لسبب واحد: إنه دون الاحتضان الاستراتيجى للإرهاب، بواسطة قوى عظمى ما كان يمكن أن توجد بيئة سياسية كونية من الحصانة، التى هى حاسمة تطور الإرهاب عبر طرق أخرى. والطريق الثانى الذى هو المرآة المقابلة للأول، يشتمل على التفسخ الداخلى لحرب العصابات، كما حدث مع الـ «آر يو إف» فى سيراليون، والطريق المضىء فى بيرو ، وجاء الطريق الثالث نتيجة أزمة اجتماعية عميقة أكثر منه ما يكاد يكون أزمة سياسية ؛ فبدلاً من أن تعتنق الإرهاب مجموعات ذات أجندات أيديولوجية واضحة سواء من اليسار أو اليمين، وبدلاً من سعى خالص للسلطة، نجد، فى هذه الحالة، استخدام العنف السياسى بواسطة مجموعات غير أيديولوجية، لم تطرح علنًا قضية، ولاحاولت تنظيم دعم فى الطبقة المدنية . إن أفضل مثال لهذا النوع من المجموعات غير الأيديولوجية هو «جيش الرب للمقاومة» (إل أر إيه) فى شمال أوغندا ، وهو مجموعة محلية، بصورة كبيرة، على نمط «رينامو» ، مجموعة قامت بخطف الأطفال وتحويلهم إلى مجندين.

وقد حاولت ، بدلاً من الجدل حول إذا ما كان الإرهاب مستوردًا أجنبيًا أو منتجًا محليًا ، أن أبين العلاقة بين الاثنين: ليس فى وسع المنتج المحلى أن يزدهر إلا فى بيئة عالمية تغمض فيها قوة عظمى واحدة ، على الأقل، عينيها عن إرهاب «ها» . لقد كان هذا بعد كل شىء امتدادًا منطقيًا لأطروحة كيرك باتريك التى ميزت بين الدكتاتوريات اليمينية واليسارية :

مبررة ديكتاتورية «نا» ، فى حالات مثل موزمبيق ونيكاراجوا فيما بعد، فإن الاحتضان الاستراتيجى للإرهاب فى ليبيريا وسيراليون كان يميل أكثر إلى أن يكون نتيجة عملية تدنى داخلية مرتبطة بالتعلم من مثال آخر من سياقات الحرب الباردة، وحتى إن كان الإرهاب من صنع الحرب الباردة، فإنه قد تحول إلى جرعة محلية كلما تقدمت الحرب الباردة. مسئولية من هذه؟ مثل أفغانستان هل استضافت تلك البلدان الإرهاب، أم كانت هى أيضًا رهينة الإرهاب؟ إننى أعتقد أن كليهما صحيح.

ربما لم يدفع مجتمع سعرًا أعلى، بسبب هزيمة الاتحاد السوفيتى ، من السعر الذى دفعته أفغانستان . لقد مات مليون مواطن من عدد مواطنين يكادون أن يبلغوا عشرين مليونًا، وتشرد مليون ونصف آخرين، وتحول خمسة ملايين آخرين إلى لاجئين . ويكاد يكون كل واحد قد عانى التشرد والإزاحة، وتقدر وكالات الأمم المتحدة أن حوالى مليون ونصف قد أصيب بالجنون إكلينيكيًا بسبب عقود متواصلة من الحرب وهؤلاء الذين ظلوا أحياء[٢٢] يعيشون فى أكثر البلدان التى قوضت فى العالم، ولقد كانت أفغانستان مجتمعًا صبغه التوحش قبل أن يبدأ قذف القنابل الأمريكية.

وعلى غير مثال أفغانستان، التى استضافت المواجهة الأخيرة الكبرى للحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، كانت العراق هى الأولى التى تواجه القصف المدفعى ضئيل الحدة عبر الوكالة متعددة الأطراف للأمم المتحدة، وقد دفع العراق، بافتراض الاستفادة من برنامج النفط مقابل الغذاء الإنسانى، الثمن حياة مئات الآلاف من الأطفال تحت سن الخامسة.

إن أمريكا تتمتع بعادة عدم تحمل مسئولية أعمالها، وهى عادة ما تبحث، بدلاً من ذلك، عن عذر أخلاقى رفيع تنتحله لعملها هذا. كنت فى ديربان عام ٢٠٠١، فى المؤتمر العالمى ضد العنصرية، عندما انسحبت الولايات المتحدة منه.

وكان مؤتمر دربان حول جرائم الماضى الكبرى مثل العنصرية وكراهية الأجانب، وعدت من ديربان إلى مدينة نيويورك لأسمع كوندوليزا رايس - مستشارة الأمن القومى للرئيس بوش - تتحدث عن الحاجة لنسيان العبودية، لأن ملاحقة الحياة المتحضرة ، كما تقول، تقتضى أن ننسى الماضى. حقًّا، إننا ما لم نتعلم النسيان، فإن الحياة سوف تتحول إلى مسعى للثأر. إن كلاً منا سوف يجمع قائمة بالأخطاء التى وقعت خلال خط طويل فى الأسلاف ورعاية تلك المظالم، غير أن الحضارة لا يمكن تشييدها بالنسيان فقط. علينا أن نتعلم، ليس فقط أن ننسى، ولكن يجب علينا أيضًا ألا ننسى أن نتعلم، ويجب علينا أيضًا أن نبقى على ذكرى الجرائم البارزة . لقد بُنيت أمريكا على جريمتين بارزتين : الإبادة العنصرية للأمريكيين من أهالى البلاد الأصليين، واستعباد الأمريكيين للأفارقة. إن الولايات المتحدة تتجه إلى الإبقاء على ذكرى جرائم الشعوب الأخرى وليس جرائمها، بحثًا عن أرضية أخلاقية رفيعة كعذر تنتحله لتتجاهل القضايا الحقيقية.

قدمت أحداث الحادى عشر من سبتمبر للعالم تحديًا سياسيًا صعبًا، بصورة خاصة، حتى وإن بدا هذا التحدى هو الأكثر مباشرة للمسلمين. إن كلاً من المؤسسة الأمريكية بقيادة الرئيس بوش ومجاهدى الإسلام السياسى يصران على أن الإسلام هوية سياسية، وليس فقط هوية دينية أو ثقافية. إن كلاً منهما مصر على التمييز بين «المسلمين الصالحين» و«المسلمين الطالحين»، حتى يمكن تهذيب الأول واستهداف الأخير. هل يجب أن تحذرنا أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما بعدها من قراءة سياسية شخص ما، من واقع ثقافته أو ثقافتها، من دينه أو دينها؟

إننى لا أعرف أحدًا ، ممن حركهم أسامة بن لادن لدواعى دينية ، إن ابن لادن سياسى، وليس عالمًا دينيًا. إن من احتضنوه، قد فعلوا ذلك سياسيًا. إن كلاً من بوش وابن لادن يوظف لغة دينية، لغة الخير والشر، لغة لا تقبل المساومة:

إما أنك معنا أو ضدنا، إن كليهما ينكر احتمال رد فعل ثالث، فولاء كل منهما السياسى يجىء قبل استقلاله السياسى، ولا يمكن التقليل من تقدير خطر إدخال مفاهيم الخير والشر فى السياسة. يجب أن تكون نتيجة المجىء بلغة الحرب على الإرهاب إلى الوطن - أيًا كان هذا الوطن - واضحًا : إنها سوف توفر رخصة بوصم الخصوم باعتبارهم إرهابيين مما يمهد لحرب حتى النهاية، حيث لا مساومة مع الإرهابيين والنتيجة هى تحويل الانتباه من القضايا إلى الولاءات، من أجل تجريم المخالفين واستدعاء الدمار المحلى، والأسوأ من ذلك إن جرى تعريف النضال ضد الأعداء السياسيين باعتباره نضالاً ضد الشر، حيث يتحول هذا النضال إلى حرب مقدسة ، وليس هنالك من مساومة فى الحرب المقدسة، حيث إن الشر لا يمكن تحويله بل يجب اجتثاثه.

لقد حدث خلال الحرب الباردة إغراء بلدان صغيرة بالاصطفاف وراء واحد أو آخر من العتاة الدوليين سعيًا للحماية. وحاول البعض فى العالم الثالث تمهيد الطريق لنظام دولى بديل يكون مكرسًا لتحقيق هدفين، محاسبة كل عاتٍ طبقًا لأدنى المعايير وضمان نصيب من العدالة لكل ضحية تاريخية. وتم تعريف تلك المبادرة مع باندونج، المدينة الأندونيسية التى استضافت الاجتماع الأخوى للدول غير المنحازة فى الحرب الباردة. وبانتهاء الحرب الباردة، وإدارة الولايات المتحدة للحلبة إدارة المنتصر الذى يدق صدره، أصبحت أكثر حاجاتنا هى البناء على هذا الميراث. وإن كان هنالك درس استخلصه العالم الثالث من ماضيه الكولونيالى، وجرى الذود عنه خلال الحرب الباردة، فهو عدم إمكان تحقيق الاستقلال دون فكر مستقل، ويجب أن تكون أولويتنا الأولى التى ندافع عنها، خلال الأسابيع والأشهر والسنوات القادمة، هى حق التفكير المستقل.

لقد شجعت أمريكا، خلال ربع قرن الماضى، حربين دينيتين مختلفتين، واحدة عبر مجرى الحرب الباردة والأخرى بعدها، واحدة فى أفغانستان والأخرى فى إسرائيل، واحدة إسلامية، والأخرى صهيونية. واليوم أطلق عنان المشروعين على نطاق واسع، وقد ارتد أحدهما على أمريكا وانبسط الآخر كجزء من الحرب الكونية الأمريكية الرسمية على الإرهاب ، وإذا حدث وأنهت الولايات المتحدة الحرب الباردة بنزع السلاح وفسحة من السلام. لما حدثت واقعة الحادى عشر من سبتمبر . غير أن الولايات المتحدة لم تفكك الجهاز الكونى للإمبراطورية فى نهاية الحرب الباردة ، وركزت بدلاً من ذلك على ضمان أن الدول العدوانية – الموصومة بأنها «دول حمراء – لاتحتاج إلى أسلحة دمار شامل، هى تمتلكها بالفعل. ومن ثم أثارت الشك فى أن معارضتها ليست ضد أسلحة الدمار الشامل، ولكن حق انتشارها فى أيدٍ لاتستطيع التحكم أو الثقة فيها. وبالمثل، لم تقبل الولايات المتحدة تحمل مسئولية تسليح الحياة المدنية والدول، فى مناطق شنت فيها الحرب الباردة وأدت إلى نتائج مدمرة، كما فى جنوب شرق آسيا وأفريقيا الجنوبية وأمريكا الوسطى وآسيا الوسطى. لقد اتجهت بدلاً من ذلك، بعيدًا عن المسئولية. أنهت الحرب الباردة بقهر بطل واحد للرواية هو الاتحاد السوفيتى، وتركت الإنسانية الآن أمام تحد يتمثل فى كيفية قمع ومحاسبة القوة المرعبة التى أنشأتها الولايات المتحدة فى أثناء الحرب الباردة .

وإن زعم إرهاب الدولة أنه ممارسة لصيانة القانون والنظام، فإن الإرهاب المجتمعى يقدم نفسه كنضال من أجل العدالة، ولقد أكدت أهمية الإمساك بالعلاقة بين الاثنين: لا يوجد حائط صينى يقسم إرهاب «نا» عن إرهاب «هم» . إن كلاً منهما يتجه إلى أن يتغذى على الآخر. إن للإرهاب بعدًا سياسيًا سواء كان محليًا أو دوليًا، ولقد فجر جندى مشاة أمريكى يحمل أوسمة ويُدعى تيموثى مك فيج، مبنى فيدراليًا فى مدينة أوكلاهوما، فى ١٩ أبريل عام ١٩٩٥، مما أدى إلى مقتل ١٦٨ بريئًا من الرجال والنساء والأطفال. وقد أشار مك فيج، فى

خطابات من السجن[٢٣]. «أنه قد تصرف انتقامًا لما حدث فى واكو» منذ عامين مضيا، عندما ساعد عملاء الـ إن بى أى، فى قتل أكثر من ثمانين عضوًا من طائفة مسيحية محافظة كان منهم سبعة وعشرون من الأطفال. علينا ملاحظة أن واكو كانت «أكبر مذبحة للأمريكيين بيد حكومتهم منذ عام ١٨٩٠. عندما ذُبح عدد من الأمريكيين أهالى البلاد الأصليين فى ووندد فى جنوب داكوتا» . وقد بيَّن جور فيدال، كاتب المقالات الإمريكى، أن مك فيغ قد اختار الذكرى الثانية للمذبحة فى ١٩ أبريل للقيام بانتقامه. وقد ظل مك فيغ صامتًا طوال المحاكمة، فيماعدا بيان واحد، عندما دعاه القاضى للكلام، قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه. وهذا ماقاله : «إننى أود استخدام كلمات القاضى (لويس) براندیس المنشق فى أولمستينيد لنتكلم عن: إن حكومتنا هى المعلم القوى، صاحب النفوذ، إنها تعلم الشعب كله، بما تقدم من مثال للخير أو الشر». إننا فى حاجة إلى فهم أن كلاً من شكلى الإرهاب المعاصر قد تمت صياغته فى بيئة تتمتع بالحصانة التى أوجدها إرهاب الدولة خلال الحرب الباردة الأخيرة . إننا فى حاجة إلى هذا الفهم أكثر من حاجتنا لتقديم أسباب تقلل من أهمية أشكال الإرهاب المجتمعى، باعتباره بلاء عنصريًا أو ثقافيًا، أو «عنف الأسود ضد الأسود» فى أفريقيا أو الإرهاب الإسلامى كونيًا. إننا بدلاً من فصل إرهاب «نا» عن إرهاب «هم» – فقط لتبرير الأول ، ولعن الأخير، كما حدث مع المسلمين «الصالحين» و «الطالحين» – علينا وضع وفهم كليهما كجزء من عملية تاريخية واحدة.

لقد دعت الولايات المتحدة قبل الحادى عشر من سبتمبر، إلى المصالحة فى مواجهة الإرهاب المجتمعى، وتحول الموقف إلى عكس ذلك بعد الحادى عشر من سبتمبر. هنالك الآن سياسة عدم التسامح تمامًا، والمطالبة بالعدالة، بدلاً من المصالحة. إن الدعوة إلى العدالة عندما يصاحبها رفض يشوبه التعتيم عند التعامل

مع القضايا، فإنه يتحول إلى طلب الثأر، وسعى للانتقام. إن الأمر فى مثل هذا السياق يستحق التفكير فى الفرق بين القانون والعنف ضد من نستخدم نحن القانون؟ وضد من نستخدم العنف؟ ما فكرة التمييز بين نوعين من الإرهابيين الأمريكيين وغير الأمريكيين عند نقطة معينة، والغربيين وغير الغربيين عند أوقات أخرى؟ ما الفكرة التى تضعها حكومة الولايات المتحدة عندما تكفل العملية الواجبة لأمريكيين متهمين بالإرهاب. سواء كان تيموثى مك فيغ أو جون والكر لينده (والذى يدعى طالبان الأمريكى)، غير أنها تنكر على غير الأمريكيين وغير العرب المحتجزين فى خليج جوانتنامو، حتى العناصر الأساسية العملية الواجبة مثل توفير دليل الاتهام والمراجعة بواسطة المحاكم؟ وقد اخترعت الحكومة الأمريكية قصة خيالية قانونية لتحقيق الغرض، فأطلقت على غير الأمريكيين اسم «مقاتلين غير شرعيين». حقًا، إنهم إذا اعتبروا أسرى حرب، الحرب ضد الإرهاب، فإن اتفاقيات جنيف ذات العلاقة سوف تطبق عليهم، مما يجعل استجواب أسريهم لهم، أو حتى تجاوز ذلك ومطالبتهم إثبات هويتهم جريمة حرب. وإن كان من الضرورى للحياة طبقًا لقاعدة القانون أن تنتمى إلى مجتمع سياسى مشترك، إذن ألا يؤكد التطبيق الانتقائى لقاعدة القانون تصميمًا على عزل أقسام بكاملها من الإنسانية، باعتبارهم من نوع من الحضارة أهل للعقوبة الجماعية؟

وأخيرًا يتوجب التفكير فى الخصمين المتقابلين فى الحرب على الإرهاب: الولايات المتحدة والقاعدة. إن كليهما ممن تمرس فى الحرب، فى الحقيقة، على الجانب نفسه، وكليهما قد وسم بها بعلامة لا تمحى. إن كليهما يرى العالم عبر عدسات القوة. وقد حققا معرفته بواسطة وجهات نظر دولية عالية

الأيديولوجية، والتى يعبر عنهـا، كـل منهمـا، بلغة دينية سياسية عالية، لغة هى لغـة الصلاح الذاتى، ويسير الصلاح الشخصى جنبًا إلى جنب مع إدانة الآخر باعتباره شراً .

إن الفكـرة فيمـا يتعلق باللغة الأيديولوجية، سواء كانت لهجتهما دينية أو علمانية، هى أنها تبرر استخدام القوة مع الحصانة. إن لكل منهما . فى مجال المنافسة من أجل القوة، عيونًا لا ترى أحداً غير الآخر. هنالك تماثل رهيب بين القصف الأمريكى للعراق وأفغانستان بالقنابل، وبين قصف القاعدة للسفارتين فى نيروبى ودار السلام، والبرجين التوأمين فى الحادى عشر من سبتمبر: إن كليهما يشهد بأنه ما إن تصبح المسألة هى المنافسة أو المنازعة حول القوة فإن باقى العالم لا يوجد إلا بصوة جانبية أو إضافية.

هنا يجب، على أى حال، أن تنتهى المقارنة، حيث لا يترجم التكافؤ الأخلاقى بين الاثنين إلى تكافؤ سياسى. ليس هنالك من ينكر الصفة الكونية للقوة الأمريكية، والتى توصف الشبكة المعروفة بالقاعدة أمامها بقلة الشأن فقط.

وحيث يضبط الخصمان فى حالة زعم بالحرب ضد الإرهاب، محاربة الإرهاب بأسلحة إرهابية، فإن لا شىء أقل من حركة كونية من أجل السلام يمكن أن تنقذ البشرية، وإن كان علينا أن نسترشد بدرس النضال الكونى الأخير من أجل السلام – من أجل إنهاء الحرب فى فيتنام – فإن هذا النضال أيضًا، يجب أن يشن كحركة جماهيرية داخل كل بلد، وخاصة البلدان الديموقراطية، لاسيما داخل الولايات المتحدة وإسرائيل.

إن حقيقـة الحـروب بالوكالة، والتى ابتدأت بهزيمة أمريكا فى ڤيتنام، انتهت بغـزو العـراق. إن الغـزو العلنى الذى لا يخجل أو يستحى قام على افراضين:

محليًا قدمت إدارة بوش الغزو كحركة دفاعية، ضربة استباقية ضد تهديد وشيك الحدوث للأمن القومي، كضرورة لحقبة مابعد الحادى عشر من سبتمبر. وأكد استراتيجيو المحافظين الجدد لغزو العراق، فى الوقت نفسه، لأمريكا وللعالم أن شعب العراق الذى عانى طويلاً سوف يرحب بالجنود الأمريكيين كقوة تحرير.

غير أن الاحتضان العراقى الدافئ لم يتحقق، وبدلاً من الترحيب به كجيش تحرير، عومل الجنود الأمريكيون كقوة احتلال، وعندما تمت المواجهة بالمقاومة، بحثت أمريكا الرسمية بالفعل عن حلفاء - ووكلاء - فى العراق. وينتشر فى العراق بالفعل، نوع جديد من الوكالة، وقد كتبت الجارديان (لندن)[٢٤] إنه «بينما تشتمل قائمة الائتلاف الرسمى على بريطانيا، باعتبارها ثانى أكبر مساند، بقوات تصل إلى ٩٩٠٠ جندى، فإن العشرة آلاف متعاقد عسكرى خاص، على أرض الواقع الآن، يزيد عددهم بدقة عنهم، ونتيجة ذلك، قدر أن «عدد أشخاص الأمن المتعاقدين، فى خط النار، يصل إلى عشرة أضعاف ذلك الذى كان فى أثناء حرب الخليج الأولى. كان هناك فى عام ١٩٩١، مائة رجل وامرأة فى الخدمة العسكرية، مقابل كل متعاقد خاص. والآن هناك عشرة يقدر جيش الولايات المتحدة أن ثلث الـ ٨٧ مليار دولار المخصصة لحملة العراق هذا العام، أى حوالى ٣٠ مليار دولار. سوف تنفق على عقود شركات خاصة، وحتى يُفهم نوع المصالح التى تدفع هذه الحملة، فإن المرء يحتاج إلى أن يتذكر الميزة الأساسية لخصخصة الحرب: إنها تسمح للانتشار بالتقدم «دون إشراف أو رقابة صادرة عن الكونجرس، ووسائل الإعلام التى تخضع لها عمليات الانتشار التقليدية» .

هنالك فى الوطن، أيضًا، قلق متنامى من أن الحرب الموعودة على الإرهاب، الحرب الوطنية الدفاعية، قد تحولت إلى حرب هجومية إمبريالية. إن أجندة ائتلاف المحافظين الجدد والمسيحيين الأصوليين، فى إدارة بوش، قد

منحت رتبة الفروسية للحرب ضد «محور الشر»، مما يضفى عليها صدى الهجوم الريجانى القديم ضد وطنية العالم الثالث. إن الريجانيين الجدد يدافعون عن هذا المسعى الإمبريالى باعتباره مطلبًا كونيًا أليس لهم فيه غرض خاص من أجل الديموقراطية، من أجل الخير ضد الشر، من أجل تقوية العراقيين الصالحين ضد العراقيين الطالحين فى الزمن الحالى، والمسلمين الصالحين ضد الطالحين منهم؟ إن الريجانيين الجدد الذين يتحدثون مثلهم مثل الإسلاميين الراديكالين الذين يمكن أن يغلقوا للأبد «أبواب الاجتهاد»، يتحدثون عن «الخير» و «الشر» يغلقون باب الإصلاح السياسى. إننا يمكن أن نرى من منظور ما بعد الحرب الباردة كيف كان إدعاء جين كيركباتريك بزهو أن هنالك تمييزًا بين «شمولية» أنظمة الجناح اليسارى و «سلطوية» أنظمة الجناح اليمينى. وأنه بينما يمكن إصلاح الأخير من داخله، فإن الأول يجب أن يطاح به جبراً من خارجه. لكن الحقيقة هى أن أنظمة الجناح اليسارى - من الاتحاد السوفيتى إلى الصين - جرى إصلاحها بنجاح من الداخل. وكان الشرط الأساسى هو الدفاع عن السيادة، وحق الإصلاح فى ذلك السياق. ولم يسمح للعراق، على نقيض ذلك، بأن تجرى الإصلاح من الداخل، وإن كانت كوريا الشمالية قد أفلتت من المصير نفسه، فهل يمكن أن يكون ذلك بسبب امتلاكها أسلحة دمار شامل، تلك التى لم تمتلكها العراق، وهى التى وفرت الضمان الأخير لحقها فى الإصلاح؟

ولكن إن كان العراقيون أنفسهم الذين رحبوا بالأمس بالإطاحة بصدام حسين، يرون اليوم فى القوات الأمريكية، قوة احتلال، ألم يحن الوقت للشك فى الافتراض الذى يبسط الأمور: ويقول إن المشكلة تكمن فى الطالحين الذين يعارضون العراقيين الصالحين؟ وإن كان العراقيون الصالحون والطالحون، والمسلمون الصالحون

والطالحون هم فى الحقيقة أسماء شبه رسمية تطلق على هؤلاء الذين يدعون إلى السياسة الأمريكية أو على هؤلاء الذين يعارضونها، ألم يحن الوقت لتجاوز المناداة بتلك المسميات، ومراجعة السياسة التى تعمل بثبات على تآكل الدعم، وتولد المعارضة؟ إن إعادة إحياء الديموقراطية سواء فى أمريكا أو العراق أو أى مكان آخر، فى حقبة عولمة القوة الأمريكية، يقتضى ألا يكون الأمر أقل من ذلك.

هنا، يكمن التطابق المتصل مع مثال فيتنام، لقد كان درس فيتنام هو أنه لايمكن كسب المعركة ضد الوطنية باعتبارها مواجهة عسكرية. إن أمريكا فى حاجة للاعتراف بشرعية الوطنية فى حقبة الإمبريالية، وعليها أن تتعلم كيف تتعايش معها، وكما تعلمت أمريكا التمييز بين الوطنية والشيوعية فى فيتنام، عليها أن تتعلم الفرق بين الوطنية والإرهاب فى عالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر. إن كسب الحرب ضد الإرهاب يقتضى القبول بأن العالم قد تغير، والكولونيالية القديمة لن تكون ولن تعود، واحتلال أماكن أجنبية سوف يكون باهظ الثمن فى الأرواح والمال. ليس فى وسع أمريكا أن تحتل العالم وعليها أن تتعلم الحياة فيه.

الهوامش

(1) Salman Rushdie, "This is About Islam." New York Times, November 2, 2001.

(2) See Truth and Reconciliation Commission of South Africa, "Repot," vol.2, p. 30, para. 124.

(3) Deborah poole and Gerardo Renique, "Terrror and the Privatized State : A peruvian parable," Radical History Review (winter 2003), pp. 150-63.

(4) Arundhati Roy, "The Algebra of Infinite jnfinire ." The Guardian (London), september 27, 2001.

(٥) نشر الاتحاد الثورى للمرأة الأفغانية ، بعد ثلاثة أيام من الحادى عشر من سبتمبر بيانا عامًا عبّر فيه عن أسفه وإدانته لهذا العمل البربرى من العنف والإرهاب ، ثم أضاف :

ولكن علينا أن نقول، لسوء الحظ إن حكومة الولايات المتحدة التى ساندت ديكتاتور باكستان الجنرال ضياء الحق فى إنشاء آلاف المدارس الدينية، التى نبعت منها بذور طالبان، وبالنهج نفسه، كان أسامة بن لادن، كما هو واضح للجميع، هو ابن المخابرات الأمريكية أزرق العينين غير أن الأمر الأكثر إيلامًا ، هو أن السياسيين الأمريكيين لم يستخلصوا درسًا من سياستهم المتعاطفة مع الأصولية ولا يزالون يساندون، تلك العصبة أو القيادة الأصولية.

«بيان الاتحاد الثورى للمرأة الأفغانية حول الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة ، والصادر فى ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ متاح على الموقع الإلكترونى التالى :

http://www.golbalresearesearch. ca/articles/RAW109A.html.

(6) Cooley, "Unholy Wars," pp. 223, 236-37,243,245

(7) Alfred Mccoy, "Drug Fallout : The CIA's Forty Year Complicity in the Narcotics Trade," The progresssive, August 1, 1997.

(8) McCoy, "The Politics of Heroin," pp. 222-23.

(9) Mc Coy, "Drug Fallout."

(10) Mc Coy, "politics of Heroin," p. 437.

(11) Ibid., p. 478.

(12) Alexander Cockburn and jeffrey St. Clair. "Whiteout: The CIA, Drugs, and the press" (London : Verso, 1998), pp, 1-2,37.

(13) U.S. Central Inteligence Agency, Office of the Inspector General, "Allegations of Connections Between CIA and Contras in Cocaine Trafficking in the United States" (1) (96-0143-IG). All quotations cited in Alfred W. McCoy,"Fallout': The Interplay of CIA Covert Warfare and the Global Narcotics Trffic,".

ورقة قدمت إلى مؤتمر الحرب الأهلية والحرب الباردة، ١٩٧٥ - ١٩٩٠، تحليل مقارن لأفريقيا الجنوبية، وأمريكا الوسطى، وآسيا الوسطى (معهد الدراسات الأفريقية، جامعة كولومبيا، إن وای ١٣-١٥ نوفمبر ٢٠٠٢ آلة ناسخة) ص ص ٢٤-٢٥.

(14) Cooley, "Unholy Wars,"p.0134.

(15) Sheldon Wolin, "Inverted Totalitariasm, "The Nation, May 19,2003.

(16) For more on the lobby, see "The Israeli Lobby,"Prospect Magazine (Britain), no. 73, April 2002, p. 3.

(17)Paul Finkelman, "Dred Scott v. Sandford: A Brief History with Documents" (Boston : Bedford Books, 1997), p. 34. Also see Don E. Fehrenbacher, "The Dred Scott Case : Its Significance in American Law and practic" (New York : Oxford University Press, 1978.

(١٨) فكرة توحد المسيحية باليهودية، تستحق استعادة تعريف الدولة والأمة فى علاقتهما بالمستوطنين البيض. وهذا قد أثار نوعين مختلفين من الحركات، أحدهما يقتضى تعريفًا فضفاضًا لمفهوم البيض، حتى يمكن أن يكون اليهود، والآسيويين وهكذا، بيضًا. والآخر يقتضى نهاية لميزة البيض، مهما كان تعريفها.

(19) "New York Tines,"December 3, 2002.

(20) Amira Hass, "The Misleading Tem "Fence,"Ha'aretz, July 16, 2003.

(21) David keen, "Blair'a Good Guys in Sierra Leone,"The Guardian (London), November 7, 2001.

(22) Sée "Afghanistan" in Landmine Monitor Report, 2001, available at http://www.icbl.org/lm/2001/afghanistan/.

(23) Quoted in Gore Vidal,"Perpetual War for perpetual peace:How We Got to Be So Hated" (New York: Nation Books, 2002) pp. ix,18,84-84.

(24) Hired Guns'policy," The Guardian, December 10., 2003

المؤلف فى سطور :

محمود ممدانى

* ينتمى إلى الجيل الثالث لعائلة من أصل هندى فى شرق أفريقيا، نما فى كامبالا - أوغندا، وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة هارفارد عام ١٩٧٤.

* قام بالتدريس فى جامعة دار السلام بتنزانيا، وكذلك جامعة كيب تاون بجنوب أفريقيا، ويعمل حاليًا أستاذًا للعلوم السياسية فى جامة كولومبيا بنيويورك ومديرًا لمعهد الدراسات الأفريقية بها، كما رأس المجلس الأفريقى للبحوث الاجتماعية (كوريسريا) بين ١٩٩٩ - ٢٠٠٢ .

* حصل كتابه «المواطن والرعية» على جائزة هيرسكوفتز كواحد من أحسن مائة كتاب فى القرن العشرين، وكأحسن كتاب نشر بالإنجليزية عن أفريقيا عام ١٩٩٦ .

المترجم فى سطور :

فخرى لبيب

ولد فى ١٩٢٨/٢/٧ .

حصل على بكالوريوس علوم كيمياء وجيولوجيا عام ١٩٥١.

وحصل على دكتوراه فى الجيولوجيا عام ١٩٨٧ - كلية العلوم - جامعة القاهرة .

عمل جيولوجيًا فى الهيئة العامة للمساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية، ووفر خامات لصناعات الألمونيوم والحديد والصلب والكيماويات والأسمنت والفيروسيليكون والطوب الطفلى والزجاج .

يعمل حاليًا: مسئول الإعلام بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية .

من أهم أعماله :

(١) أعمال ترجمة منذ عام ١٩٥٨: والكتب المترجمة سياسية واقتصادية وعلمية وأدبية نشرتها: دار المعارف، دار الثقافة الجديدة، دار المستقبل العربى، دار الفارابى اللبنانية، دار سعاد الصباح، مركز البحوث العربية والأفريقية، المجلس الأعلى للثقافة.

(٢) قصص قصيرة منذ عام ١٩٥٨، وقد تم نشرها فى جريدة المساء (١٩٥٨) وإبداع وأدب، وأخبار الأدب، والجماهير الأردنية، والثقافة الجماهيرية.

(٣) روايتان صدرتا عن دار العربى والهيئة العامة للكتاب.

(٤) كتابان سياسيان صدرا عن دار الديموقراطية (١٩٥٧) ودار الأمل.

(٥) تحرير كتب وإعدادها منذ ١٩٨١ بجامعة الدول العربية، ومنظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية.

(٦) مقالات سياسية وغيرها فى مجلات، الطليعة، الأهالى، أدب ونقد، أسيا وأفريقيا اليوم المنار، المختار من الصحفى الديمقراطى (مجلة اتحاد الصحفيين العالمى) قضايا فكرية، الثقافة الجديدة، العالم اليوم، التنمية والتقدم الاجتماعى والاقتصادى، القاهرة .

(٧) ترجمة مقالات وعرض كتب أجنبية، فى مجلات، الثقافة العالمية، النداء اللبنانية، مركز دراسات الشرق الأوسط، جريدة أخبار الخليج، مجلة العربى الكويتية.

المقدم فى سطور :

حلمى شعراوى

* مدير مركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة منذ ١٩٨٧ .

* تخرج فى كلية الآداب – قسم اجتماع – جامعة القاهرة.

* باحث بمكتب الشئون الأفريقية برئاسة الجمهورية فى الستينيات، ثم أمين عام مساعد الجمعية الأفريقية بالقاهرة.

* عمل خبيراً للعلاقات الثقافية العربية الأفريقية فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٢ – ١٩٨٦ ، كما قام بتدريس الفكر الأفريقى فى جامعة جوبا بجنوب السودان ١٩٨٢/٨١ .

* له عدد من الكتب فى الدراسات الأفريقية أحدثها حقوق الإنسان فى الوطن العربى وأفريقيا (١٩٩٣) وأفارقة وعرب فى مهب الريح (٢٠٠٢) وتراث اللغات الأفريقية بالحرف العربى (٢٠٠٥).

التصحيح اللغوى : صفاء فتحى
الإشـراف الفنـى : حسن كامل